
M. I. Quandour
رواية
NOVEL
محي الدين قندور
ثلاثية بيبرس I
مكتبة ١٧١٢
بيبرس
أول السلاطين الشراكسة
في مصر
رواية تاريخية


بيبرس
أول السلاطين الشراكسة في مصر



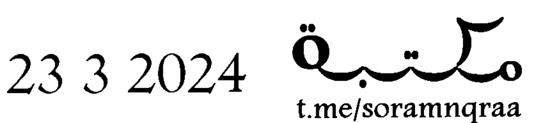
ببيرس أول السلاطين الشراكسة في مصر / رواية تاريخية
محي الدين قندور / مؤلف من الاردن
الطبعة الأولى، 2016



المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي:
المصيطبة - شارع ميشال أبي شهلا - متفرع من جسر سليم سلام
مفرق الجامعة اللبنانية الدولية LIU - بناية النجوم - مقابل أبراج بيروت
ص.ب.: 11/5460 الرمز البريدي 1107-2190
تلفاكس: 00961 1 707892 - 00961 1 707891
بيروت - لبنان
E-mail: mkpublishing@terra.net.lb
موقع الدار الألكترونيّ: www.airpbooks.com

التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
ص. ب.9157، عمّان، 11191 الأردنّ،
هاتف: 00962 6 5605432، هاتفاكس: 00962 6 5685501
E-mail : info@airpbooks.com

ترجمة: محمد آزوقة
تصميم الغلاف : محمود وزني/ الاردن
الصفّ الضوئيّ: المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر/ بيروت، لبنان
التنفيذ الطباعيّ : ديمو برس / بيروت، لبنان



ISBN: 978-614-419-639-7



مكتبة | 1712

محي الدين قندور

بيبرس

أول السلاطين الشراكسة في مصر

رواية تاريخية



ملاحظة المؤلف

لقد كان الخلاف حول أصول بيبرس هو الذي حفزني على القيام بالبحث عن هذا السلطان العظيم من عصر المماليك . يعيد معظم المؤرخين العرب والغرب أصوله إلى الكيبشاك ، وهي أمة من العرق التركي تقيم حالياً في قازاخستان بشكل رئيس .لقد انتجوا عنه شريطاً سينمائياً متخيلاً وأقاموا تمثالاً تكريماً له كرجل من الكيبشاك . لكن قلة من الدارسين لذلك العصر كتبوا عنه باعتباره شركسياً ، بمن فيهم البروفيسور دافيد أيالون ، وهو مرجع موثوق عن الحقبة المملوكية . وهذا بالطبع هو ما أثار فضولي واهتمامي بالمباشرة في رحلة استكشاف لخلفيته وقصته .

ليس هناك سوى مؤرخين معاصرين اثنين كتبا عن بيبرس واعتمدت كل الأبحاث والدراسات وتركزت عليهما . هذان هما محيي الدين ابن عبد الظاهر (كاتبه الشخصي وكاتب سيرته الذاتية) ومؤرخ معاصر آخر هو عز الدين ابن شداد ، الذي دوّن مخطوطاته في مجلدين . لكن ما يدعو إلى المفاجأة هو أن أياً من هذين العملين القيمين باللغة العربية لم يتناول طفولة بيبرس المبكرة . . . . أو هكذا بدا الأمر . تعززت لاحقاً شكوكي في أن شخصاً أو جهة ما قد أزالت المعلومات حول طفولته من العملين بشكل متعمد . اكتشفت أن الصفحات الست الأولى من مخطوطة الظاهر مفقودة . حدث الشيء نفسه مع المجلد الأول الكامل لابن شداد ، الذي كان سيفصل الكثير عن فترة طفولته وتدريبه في حلب ليصبح مقاتلاً بحرياً .

يمكن بدرجة كاملة فهم الطريقة التي حصل فيها التقديم الخاطئ فيما

يتعلق بأصوله ، أولاً بسبب اسمه وثانياً لأنه صعد إلى السلطة أثناء الحقبة المملوكية البحرية والتي تشكل معظم شخصياتها من أصول كيبشاكية . وقد أضاف اسمه بيبرس إلى الالتباس لأنه اسم كيبشاكي ولكنه شائع أيضاً بين الشراكسة الغربيين .

زاد ذلك من قوة النظرية القائلة بأنه من الكيبشاك . لذلك فإنه من المنطقي الشك في أن شخصاً ما ربما كان مسؤولاً عن إزالة المعلومات المتعلقة بأصوله في العملين التاريخيين ، لأنه كان يريد أن يقدم مثل هذا البطل المسلم العظيم على أنه كيبشاك من الأصول التركية . ففي نهاية المطاف ، فإن الفضل في إنقاذ الإسلام من المغول ينسب إلى بيبرس .

المجلد الثاني لمخطوطة ابن شداد موجود حالياً في المكتبة السليمانية في مدينة أدرنه بتركيا . يمكن العثور على نسخ مصورة منه في مؤسسة الأبحاث التاريخية للنصوص . في باريس ، فرنسا . لقد تمت طباعة السيرة الذاتية التي كتبها الظاهر ونشرت في القاهرة «سيرة الملك الظاهر» . وهي موجودة في المكتبات على مدى العالم العربي . كذلك تمت ترجمتها إلى الإنجليزية من قبل السيدة فاطمة صادق تحت عنوان «الملك العبد : بيبرس الأول ملك مصر» . (داكا ، لندن ١٩٥٦) .

لقد اعتقدت على الدوام بأن الحقيقة لابد وأن تطفو إلى السطح ، بغض النطر عن عمق دفنها . لكنني من الناحية الأخرى لا أكتب وثيقة تاريخية أو أطروحة أكاديمية حول بيبرس . إن ما يلي هو رواية تاريخية مبنية على أحداث ووثائق تالية لاستنتاجاتي المنطقية بأنه كان شركسياً فعلاً . وأنا أوسس لهذا الاستنتاج على الملاحظات الحميمة لكاتبه ومؤرخه الشخصي ، الذي وصف بعض الأحداث والخصائص عن بيبرس ، والتي تؤكد سلوك مقاتل شركسي حقيقي : مواقف وسلوكيات تقليدية معينة لا توجد في التقاليد والثقافات التركية أو الكيبشاك ، ولكنها مسيطرة على «**الخابزه**» الشركسية ، مدونة السلوك الشركسي المتجذرة .

لقد كان ، في رأيي المتواضع أول سلطان شركسي بحري . لقد اتفق المرحوم البروفيسور أيالون مع استنتاجاتي أثناء مقابلة شخصية ووافق على أنه يمكن أن ينحدر من قبيلة الشابسوغ ، التي سكنت على طول الشواطئ الغربية للبحر الأسود ، حيث من المعروف أن تجار العبيد الروس والتتار كانوا يعملون .

ينبغي عليَّ أن أبدي ملاحظة أخرى عن التسمية الخاطئة لاسم «المملوك» . إنها كلمة عربية وتعني العبد . لم يشر المؤرخان الموثوقان ابن عبد الظاهر وابن شداد أبداً إليهما بكلمة مماليك(عبيد) .

صحيح أن المقاتلين البحريين وبعضاً من البرجيين كانوا عبيداً في الأصل ، تم شراؤهم من قبل السلطات ليخدموا في السلك العسكري . لكن بمجرد انضمامهم إلى التنظيمات العسكرية فهم لم يعودوا عبيداً أو مماليك بل أصبحوا مقاتلين محترمين ، أعضاء في قوة عسكرية نخبوية . لقد قام السلاطين الشراكسة ، أثناء حكمهم الذي دام ١٣٥ سنة (١٣٨٢ - ١٥١٧) ، بدعوة متطوعين مقاتلين شراكسة من القفقاس واستمر أبناؤهم في الخدمة كمقاتلين مدفوعي الأجر ، وليس كعبيد أو مماليك : وقد أصبح بعضهم ملاكو أراضٍ أثرياء وتسلم بعضهم الآخر مراكز في غاية الأهمية لدى السلطة الحاكمة . ومع ذلك فقد أسس المؤرخون العرب المتأخرون التقليد الذي سموهم بموجبه «**المماليك**» ، خاصة بعد الغزو النابوليوني لمصر في القرن التاسع عشر ، وهكذا تأسست التسمية المغلوطة لدى جميع الكتاب الغربيين . ولسوء الحظ فإنه حتى ترجمة كتاب الظاهر من قبل مؤلفة عربية هي السيدة فاطمة صادق المصرية ، إلى الإنجليزية ترجمت بشكل خاطئ إلى «**الملك العبد : بيبرس الأول ملك مصر**» . كان ينبغي أن تكون الترجمة الصحيحة «قصة الملك الفاتح» .

يصر الأكاديميون العرب على الاستمرار في التسمية الخاطئة ويتبعهم المؤرخون الغربيون في الخطأ . ربما تحدر هؤلاء المقاتلون والسلاطين النخبة من

العبيد ، لكنهم لم يكونوا أنفسهم عبيداً . سيبدو الأمر مثل تسمية كل الناس السود في أمريكا «عبيداً» اليوم لكونهم متحدرين من عبيد أيضاً . أقترح أن إطلاق عبارة «حقبة السلطنة» سيكون اسماً أكثر لياقة بدلاً من «الحقبة المملوكية» . إن كلمة مملوك هي خطأ تاريخي يصف مرحلة من التاريخ والملوك الذين خدموا الإسلام بصدق وإخلاص ، بحيث وسعوا ثقافته وسيطرته لعقود عديدة . أعتقد أن التحيز الكامن في التسمية الخاطئة ينبع من حقيقة أنهم كانوا في أغلبهم أجانب ، ولم يكونوا عرباً .

لقد قرأنا كلنا كيف أقدم محمد علي الذي نادى بنفسه حاكماً على مصر ، على ذبح النخب الشركسية في قلعة القاهرة يوم الأول من آذار سنة ١٨١١ ليضع بذلك نهاية لسلطتهم ووجودهم في مصر .

مقدمة

عندما أتذكره ، أذكره واقفاً فوق الجبل ، يدحر موجات الأعداء إلى الخلف أثناء تقدمها .

أعتقد أنه كان وقتها في قرابة الأربعين ، لم يكن رجلاً بادي الطول ، لكنه ذو صدر عريض عميق ، وذراعين قويتين ، مع كتفين عريضتين . لم تكن هناك أرض معركة مثل عين جالوت - ينابيع جولياث- أكثر لياقة بالتسمية من بطلها .

بالنسبة لنا ، ذلك هو ما صار عليه في ذلك الوقت ، جولياث الذي قصم ظهر جحفل كان كل واحد منا يفترض أنه لا يقهر .

أراه في الصباح الباكر ، يحطم سيفه الأول على خوذة مغولي ، ثم يستدير ليضرب بصولجانه وينهي حياة العدو . . . .

لقد كانت الأرقام مرتفعة في أكثر المعارك الشهيرة والجديرة بالاهتمام ، إلى درجة أنني خشيت على نفسي أكثر من قلقي على مصير الآخرين . حاولت لكنني لم أستطع أن أتابع أعداد الناس الذين قضى عليهم سلطاننا المستقبلي ، لكن المؤكد أن أعدادهم وصلت إلى المئات ، إن لم يكن الآلاف .

يبدو الأمر غريباً الآن ، عند النظر إلى الماضي . لكنني لا أذكره على صهوة جواده أثناء القتال مطلقاً ، ومع ذلك فإنني أراه بمنتهى الحيوية والوضوح خارجاً من خيمته في ذلك الصباح .

يبدو الأمر وكأن نظري قد اكتسب حدَّة أعمق مما كان عليه حتى في حينها . استطيع أن أرى الريح تعبث بلحيته ، ندوبات الجروح المتقاطعة

على يده وهو يزيح الشعر عن عينيه . كان الجلد في صدارته مغضناً ومهترئاً حيث يرتديه فوق قميصه المصنوع من الزرد .

ابتسم أثناء مغادرته لخيمته محيياً مساعديه ، ممسكاً بكل واحد منهم من ذراعه الأيمن قرب المرفق ، ثم يضرب على كتف كل منهم بيسراه تحبباً . تبخر التعب الذي كنت بالعادة أحسُّه في الساعات الباكره لمجرد رؤيته ، ومثل كل الآخرين ، تشبعت روحي من هالة القوة والهدوء التي يبثها .

وصل بيبرس إليَّ ، ونظرت في عينيه . كانت اليمنى بحيرة من أعمق الأزرق الضارب إلى السواد ، محاطة بأكثر البياض نصاعة ، بينما كان بؤبؤ اليسرى مغطى بظفر أبيض ظل يبدو لي دائماً وكأنه صعقة من البرق . أصرَّ القادة الأكثر تقوى بأن العلامة كانت هلالاً ولذلك فهي إشارة من الله ، لكنني كنت أعرف غير ذلك .

ابتسم لي في ذلك الصباح فأشرق نهاري ، ثم قال «يا عبد! عليك أن تمتشق سيفك اليوم كما تفعل مع ريشتك! استخدم مهاراتك وكن عديم الرحمة ، هل تفهم؟ طوِّح به على العدو كما تفعل مع جملة غبية» . كان يمازحني ، فابتسمت مستجيباً ، خجلاً .

اقترب وجهه حتى دنا من وجهي ثم انقلب إلى منتهى الجدية فجأة ، همس لي «أحرقهم وابطش بهم ، هل تسمعني؟»

لم أستطع إلا أن أطأطئ رأسي مثل قروي جاهل وأقول «نعم يا سيدي» .

أطلق بيبرس نظرة ذات مغزى باتجاهي للحظة . لم يكن لدي شأن ، بكل الاعتبارات ، أن أركب معه ولديه رجاله ، وكان يدرك ذلك . على أية حال ، بمجرد أن دخل القلق في تعابير وجهه ، غادرها بالسرعة نفسها . استدار نحو الآخرين وقد استعاد مرحه ومعنوياته العالية ،

«والليلة سوف نستلُ شيئاً أكثر خطورة بكثير من أية ريشة وأي

سيف ، هل أنا محق؟ لن تكون هناك امرأة في مأمن من البحرين هذه الليلة ، هل أنا محق؟»

ضحك الجميع وهتفوا عند هذا ، بمن فيهم أنا ، ثم عاد ليواجهني وربَّت على ذراعي «لا بد من مرة أولى لكل شيء ، أليس كذلك يا عبد؟»

ضحكوا أكثر على ذلك الكلام ، ومع أن الابتسامة بقيت ملتصقة بوجهي ، إلا أنني احمررت مثل فتى أحمق . كنت صغير السن وأحمق بكل تأكيد في تلك الأيام ، والأسوأ هو حقيقة أنني كنت في عشرينات عمري وينبغي أن أكون أكثر ثقة بنفسي . هل هناك رجل في أي مكان لا يشعر بالإحراج عندما يفكر في شبابه؟

مع استمرار رنين الضحكات ، خطا القائد بيبرس نحو جواده ، امتطاه بقفزة ، وذهب ليقابل قدره ويصبح أسطورة . بقينا كلنا نتبع آثاره ، كما هو قدرنا في الحياة . فقد تلك الفرس العربية الرشيقة التي رأيته يقفز إلى صهوتها في مكان ما بين المعسكر وقمة الجبل ، لكنني لا أعرف كيف وأين . يحتمل أن اولئك الذين عرفوا قد لقوا حتفهم الآن .

هكذا كان بيبرس : رجل مكروه من أعدائه ومحبوب من رجاله . هو روح شجاعة ، ساحرة ، شهوانية ، ذكية ، قاسية ، ومتناقضة . حاكم بإمكان الناس أن يعجبوا به ، يخافوه ، يحبوه ، وحتى يحتقروه ، وكل ذلك في الوقت نفسه .

كان بالنسبة للبعض شعاعاً من الطاقة الحارة حتى البياض تهدد كل شيء حوله ، وكان بالنسبة للآخرين عالمهم وإرادة الله مجتمعة في رجل واحد . رجل لا يشبه أي شخص آخر على ظهر الأرض ، كانوا يموتون فداءً له بمئات الآلاف . هناك ليالٍ أفكر فيها بعمق ولوقت طويل بتلك العلامة على بؤبؤ عينه . أستطيع أن أرى البرق والخطر مكتوبين بشكل كبير هناك . لكن الآخرين كان بوسعهم فقط أن يشاهدوا الرمز والمخلص لديننا . يزعجني هذا الأمر الآن ، وكان يزعجني حينها . تلك كانت طبيعة الرجل .

يجب علي أن أقدم اعتذاراتي عن عدم تقديم نفسي في وقت أبكر . لقد جلست إلى طاولتي لأكتب بسرعة عن هذه الليلة ، لأنني كنت مهووساً برغبة لا تعرف الإرضاء لأكتب مرة أخرى عن الأوقات التي خبرتها مع أعظم ملك عرفته . لكنني عدت إلى الثرثرة مرة أخرى . أنت ، أيها القارئ الطيب ، لا بد أن تسمح عن هذه الهفوات لرجل مسن . أخشى أن الالتزام والنظام العائد لشبابي ، سواء في مهنتي أم في نواحي أخرى من تصرفاتي ، قد تبخرا ، وأن كثيراً من الحديد الذي اكتسبته خلال وقتي إلى جانب السلطان قد علاه الصدأ . في هذه الأيام ، أجد أنني لا أستطيع أن أقرأ أكثر من ساعة قبل أن يبدأ ذهني بالتجوال وتصبح أجفاني ثقيلة . أمسك بالريشة ولا أكتب أكثر من بضعة أسطر طيلة نهاري كله . إن هذا هو جل ما أقدر عليه ببساطة للمحافظة على المراسلات مع الأصدقاء القلة المتبقين لي ، حتى بمساعدة معاونيَّ المخلصين .

في حال ما زلتم محتارين فأنا محي الدين ابن عبد الظاهر ، رئيس الكتاب والمؤرخ للبلاط الملوكي للسلطان بيبرس الأول ، وكاتب سيرته الذاتية الرسمي . لا شك في أنكم إذا كنتم تقرأون هذا المخطوط في قسم هادئ من المكتبة الامبراطورية ، فسوف تكونون قد قرأتم عملي الرسمي حول مليكنا الأكثر تميزاً . وهو كما يقال في العديد من المراسلات ، أحد روائع عصرنا وأي عصر آخر في الحقيقة . رغم أن تركيبه كان في كثير من الأحيان خشناً وغير مريح ، وخطيراً على الدوام ، إلا أنه جلب لي الثروة والشهرة وراتباً تقاعدياً لبقية أيامي . لقد تم الإنعام علي بهذا البيت الجميل وهذه الحديقة في أحد أرقى أحياء القاهرة من قبل السلطان بيبرس أيضاً ، حتى يتسنى لي دائماً وجود مكان أقوم فيه بالتأليف وتمجيد الحق سبحانه وتعالى ودولتنا المباركة .

ومع ذلك ، فإن أعظم جائزة كسبتها من كتابة التاريخ ، جاءت بينما

أنا أقرأ له المسودات الأخيرة في الأمسيات الغابرة . كان هذا أكثر ما يحدث في الخيمة الملكية ، بينما يراقب قادته ومستشاروه ويصغون باهتمام (باحثين في العادة عن ذكر لأشخاصهم) .

كان بيبرس يرقد مضطجعاً بظهره على فراش من الوسائد ، حاملاً فنجاناً في يده ، عيناه شاخصتان في السقف ، يتناول رشفة ثم يومي برأسه حينما تعجبه عبارة أو مقطع ما . كان أحياناً ينخر أو يصدر زمجرة عالية عند مقطع متوتر أو درامي بشكل خاص . عندما كنت أنهي الصفحات لتلك الليلة ، كان بيبرس يستوي جالساً ، ويرمق دائرة جلسائه بتحديقة ثم يسأل «حسناً؟» لتجيء لحظة تردد بينما هم يقيسون مزاجه ، ثم ينفجر الجميع في تصفيق مؤدب وحماسي .

في تلك اللحظات ، كنت أشعر كما ولا بد شعر ڤيرجيل عندما أنشد لقيصر ، فكنت أحني رأسي بتواضع وامتنان . هذه هي أعظم اللحظات بالنسبة للشاعر والمؤرخ ، أو هكذا كنت أفكر في ذلك الوقت .كانت هناك أوقات أخرى لم تجرِ فيها الأمور بسلاسة ، حينما وبرغم كل جهودي ، يتم إجباري على الانسحاب من الخيمة الملكية بعد أن يلقي بقدح فضي ثقيل باتجاه رأسي .

للإنصاف ، فقد كان بيبرس رب عمل صبوراً وصاحب معرفة واسعة لدرجة مذهلة ، وكان كثيراً ما يصب لي شراباً بعد قراءتي ويبحث في النواحي المتنوعة للعمل القائم ، وكان حتى يطرح اقتراحات عمن هم أفضل الناس للتحدث معهم حول أحداث معينة في ذلك العمل . كنت دوماً اندهش من كونه يعرف أسماء الضباط ذوي الرتب المتوسطة وحتى الرقباء الذين كانوا متواجودين في لحظات حرجة من المعركة . بدا وكأنه يتمتع بذاكرة تتوسع على الدوام ، وبمجرد أن تخزن الأشياء في قاصتها ، لم تكن لتنسى أبداً .

للأفضل أو للأسوأ . شرح ذلك لي في إحدى المرات ، قائلاً إنها حيلة

تعلمها من الإغريق ، لكن ذلك سيأتي لاحقاً .كل شيء في أوانه .

بعد أن يمدني بملاحظاته ، كان يرسلني في الليل للبحث عن أولئك الرجال الذين تحدث عنهم وتدوين كل ما لديهم ليقولوه ، وكان يحرص دوماً على أن يضع في يدي كيساً يحتوي على الذهب أو بعض المجوهرات القيمة لمكافأتهم على خدماتهم الطيبة «ولإقناعهم بالتحدث إليك في المقام الأول» . هكذا كان يقول وهو يربت على كتفي بحنان أبوي . كنت أمتدح نفسي لأعتقد بأنه يقوم بدور الأخ الأكبر في تلك الأوقات ، فمن ناحية ، كان يشعر بالسخط من إصرار شقيقه الأصغر على الحماقة ، لكنه أيضاً يصمم على الدفاع عنه ودعمه برغمها .

في تلك الأحيان ، كنت أذهب باحثاً عبر المعسكر ، وأحاول أن أقتفي آثار هؤلاء المقاتلين والعريقين لأرى إن كانوا أحياءً أو يكادوا يتعلقون بالحياة ، بعد أن تلقوا الطعنات والضربات أثناء احتدام المعارك .

كانت القصص التي يروونها لي رهيبة ، مرعبة ، ومثالية لعملي . لم تفشل في إذهالي حين أعرف كيف أن رجلاً فقد عيناً أو تعرض للسلق الرهيب بالزيت أو الماء خلال حصار معين ، مازال يستمتع برواية قصته ، وكثيراً ما يفعل ذلك بأنفاسه الأخيرة . كنت أكتبها كلمة بكلمة . مستخدماً نظام الاختزال الذي اخترعته بنفسي ، ثم أعود بها إلى طاولة مكتبي وأعمل عليها طيلة الليل .

وأقوم بقراءة النص المكتمل في اليوم التالي على مسمع بيبرس في خيمته لتبدأ العملية مرة أخرى .

خطر لي بعد مدة طويلة جداً أنه مازال يحن إلى المعارك والحملات ، تماماً كما فعل عندما كان هو نفسه ضابطاً صغير السن . عبر السنين ، ومع أنه كثيراً ما قاد الهجمات بنفسه ، فقد التواصل مع العمود الفقري بجيشه : الرجال الموجودين في الرتب الدنيا ، والذين يتعرقون الدم من أجله كل يوم من أيام حياتهم حتى يحين الوقت الذي يقتلون فيه أو

يصبحون أكبر سناً من القدرة على القتال فيجري تسريحهم .

كان يعرف تاريخه جيداً ، كما سبق وقلت ، وكان يخشى من أن تتحول السلالة الشركسية التي يقوم بتأسيسها إلى حكام بدلاً من مقاتلين . نظر إلى كل سلالة ماضية منذ بداية الزمن ، من الفراعنة إلى الخلفاء ، ورأى أنهم جميعاً بدأوا مقاتلين ومحاربين ، متوحشين ، لكن كل واحد منهم انتهى زمنه لأن ورثتهم المتأخرين لتلك العروش ، قد أصبحوا بعيدين عن المصدر الحقيقي لقوتهم ، وفقدوها نتيجة لذلك .

قال لي في احدى الليالي «خذ مثلاً الرومان يا عبد . عندما كانوا في قمة قوتهم ، كيف كانوا يختارون قادتهم؟» هززت رأسي ، ليس بسبب الجهل ، بل لعدم رغبتي في مقاطعة سرده .

«لمدة قرن كامل ، لم يقم أباطرتهم بمنح السلطة إلى أبنائهم البكر ، كلا ، بل اختاروا المرشح الأقوى والأكثر كفاءة وتبنوه في بيوتهم . وزوجوه في العادة من إحدى بناتهم للإبقاء على المظاهر . وبعد ذلك ، عندما يحين الوقت ، يرث أفضل الرجال المنصب» ، طأطأت برأسي ، محاولاً أن أظهر بمظهر الحكيم .

«لقد وصل كل من هيدريان وتراجان إلى السلطة بهذه الطريقة . لقد قرأت ذلك في أحد الكتب هناك» ، أشار إلى كومة من اللفافات الموضوعة على طاولة في الطرف القصي من الخيمة . «هل تعلم متى بدأت سلطة الرومان تتهاوى؟» هززت رأسي بالنفي .

«عندما عادوا إلى التوريث حسب رابطة الدم . فقد توفي الرجل الذي كان الامبراطور ماركوس أوريليوس قد اختاره ليخلفه بطريقة غير متوقعة ، ولذلك ورث نجله كومودوس العرش . وما الذي تعتقد أنه حدث؟»

لقد كنت دوما بحاجة إلى الحذر لدى إجابتي عن هذه الأسئلة .

قلت مجازفاً «يبدو وكأنني أذكر أن كومودوس حكم لقرابة العقد ثم جرى اغتياله» .

قال «صحيح» وهو يومئ برأسه ويتناول قضمة من قطعة الحلوى القريبة منه .

«لقد أغرق في حوض استحمام من قبل حارسه الشخصي . إن عشرة أعوام في الإحتفاظ بالسلطة المطلقة وقت باعث على الإعجاب . كما تعلم . أي رجل اقترب من تذوقها سيخبرك بذلك . لكن ما الذي فعله ذلك الفتى المدلل عندما توفي أبوه؟ بدلاً من التوجه إلى الشمال وذبح القبائل القاطنة عبر نهر الراين ، أو المجيء إلى هنا في الشرق ومقاتلة العدو الحقيقي في بلاد الفرس ، أضاع أيامه سدى في ساحة المجالدة ، يقتل الحيوانات وحتى أسرى الحرب بسيوف ثلمة «تناول قضمة أخرى ثم رشفة من قدحه» أقول لك يا عبد ، عندما يقاد شعب ما من قبل رجل مثل ذلك ، فإن زمنهم قصير . أفضل خيار لك هو أن تغرقه أو تقص حلقه مثل كلب مسعور وتحاول أن تبدأ من جديد» .

انتبه إليَّ وأنا أحدق فيه فابتسم قائلاً «في نهاية المطاف ، ذلك هو ما فعلته أنا ، أليس كذلك؟»

«مولاي ، لم يعرف ديننا وشعبنا أبداً مجداً أعظم مما شهدناه تحت حكمكم . حقاً ، لقد أوصلتنا إلى قمة عظمتنا» .

نظر اليَّ للحظة أخرى ثم أطلق ضحكة مجلجلة .

«آه ، يا عبد! أنا لن أهين ذكاءك بكذبات نتداولها هنا كرجلين . كلا ، أنت تعرف وأنا أعرف أن ذلك مستحيل . إذا قمت بخيانة نفسك أو أعطيتني سبباً لأن أفقد ثقتي فيك ، فسوف تموت . ليست هناك طريقتان حول ذلك الأمر» . زم عينيه «وأنت فعلاً تعرف ذلك ، أليس كذلك؟»

أشرت بأقل إيماءة ممكنة إلى أنني أفهم . كان قلبي يخفق بحدة مفاجئة وشعرت بشيء من الخفة ، تماماً كما قبل معركة ما . لقد كان ذلك هو الإحساس بالخطر الأسمى ، حينما تصبح أعصابك كلها متوترة وتتفوق درجة وعيك على كل إحساس آخر .

استطرد بيبرس في كلامه «ولكن إليك الحقيقة . أنا لا أفكر فيك على أنك تشكل تهديداً . أنت لا تمتلك تلك المقدرة . وأنا أستمتع بما تأتي به إلى أحاديثنا الصغيرة ودورك ككاتب لحملاتنا . أنت تضمن بأن كل الذين سيأتون بعدنا سيعرفوني ، وكذلك الرجال في الخارج هناك . أنت تفعل من أجلي ما فعله هوميروس لأخيل . لذلك ، تحدث إليَّ يا عبد حديث رجل لرجل ، بدون أن تخشى التأنيب . لديَّ ألف رجل خارج هذه الخيمة مباشرة سيقولون نعم لأي شيء أتفوه به ، ولكن ليس هناك شخص واحد في هذا المعسكر قادر أن يتحدث معي ويتحدى ثقافتي كما تفعل أنت» .

«أشكرك يا مولاي» .

بدا عليه الاكتفاء بهذا ثم استطرد كلامه .

«فإذن أين وصلنا؟ آه نعم . نقل السلطة . الآن بالطبع ذلك هو قلب الصراع والفرقة بين فرعي السنة والشيعة في الإسلام . لقد راقب العرب وتعلموا من الإغريق و الرومان والفرس على مدى قرون . ذلك هو السبب في أن الانشقاق الأعظم بين أتباع محمد ، عليه السلام ، كان فيمن ينبغي أن يخلفه كقائد للأمة . ألا توافق ياعبد؟»

قلت «طبعاً يا مولاي» ثم راقبت بينما زم عينيه مرة أخرى . جمعت أشتات جرأتي بسرعة وبدأت مرة أخرى «لكن لابد لي طبعاً من تقديم بعض التعليلات . . . .»

ابتسم عند هذا القول ، وانتظر حتى استأنف الكلام .

هذه واحدة أخرى من الطرق التي أحب أن أتذكره بها . كان قلبي يقفز من الطريقة التي يعمل بها عقله وكيف استمر في البحث عن الحقيقة كسعيه إلى القوة طيلة حياته . كان يقرأ ويتحدث مثل رجل عطشان محروم من الماء البارد ردحاً أطول مما يجب . كيف وصل إلى أن يكون هكذا؟ ذلك هو ما أنوي أن أشرككم فيه هنا ، فيما يحتمل أنه آخر

تحقيق سأكتبه في حياتي . لكن عقلي قد ابتعد وتاه ولا بد لي من النوم وتجميع أفكاري قبل أن أبدأ مرة أخرى .

جاءت الراحة إليَّ بسهولة في تلك الليلة . وضعت قلمي النحيل من يدي وذهبت إلى فراشي عبر الغرفة ، وأعتقد أنني غفوت في تلك اللحظة التي لامس فيها رأسي الوسادة .

وكما في كتاباتي ، فقد حلمت مرة أخرى بمعركة عين جالوت والليالي التي قضيتها بصحبة السلطان ، أبحث فيها في التاريخ والفلسفة والحرب . إنه أحد قوانين الطبيعة والذي مؤداه أنه بينما يقترب الرجل من نهايته ، يبدأ بالنوم ساعات أقل . في الحقيقة ، فقد كان ذلك كل ما استطعت عمله في الشهور الماضية حتى أستطيع أن أختطف ساعة أو اثنتين من كل ليلة .

بعد المباشرة فيما أسميه «التاريخ السري» بشيء من المكر ، على أية حال ، أحسست وكأنني أنزلت حملاً ثقيلاً كنت أحمله لمدة طويلة جداً . لقد ظل يثقل على كتفيَّ ، وفجأة ، خفف صب الحبر الضغط . لقد أصبحت حراً مرة أخرى وتجلى ذلك في نومي الثقيل .

حدث لي أمر غريب أثناء حلمي . لقد كنت في وسط المعركة ، وكان السلطان بيبرس فوق تلك القمة المغبرة مرة أخرى ، يضرب المغول ويعيدهم إلى الوراء بجنون بينما هم يهاجمونه . كان يزأر ويطوح بسيفه ، حتى إنه خلع خوذته عن رأسه في إحدى اللحظات وألقى بها في وجه عدو مهاجم . كان قتالاً متهوراً واشتباكاً شرساً في بعض الأوقات ، مع أن التأريخ والمسرحيات لن تظهره إلا بشكل نادر . أعترف بأنني مذنب في نشر هذه الخرافة الساعية إلى المثالية .

حدث الجزء الغريب من الحلم في اللحظة التي وصل فيها الصراع إلى أوجه . جاءت تلك اللحظة حينما تستدير المعركة إلى جهة أو الأخرى لأي من الفريقين . كان بيبرس يقاتل بشدة ليضمن أن جانبنا هو الذي

سينتصر ، ولكن لسبب ما ، حلمت أنني أجري في الأرجاء مثل دجاجة مقطوعة الرأس باحثاً عن فرسه ، بدلاً من القتال إلى جانبه .

كان يصرخ «تعال يا عبد وقاتل! قاتلهم معي!» .

ولم أفعل ذلك . كنت أحاول أن أخبره بأنني بحاجة إلى العثور على فرسه قبل أن نتمكن من القتال سوية ، وكان غضبه على حماقتي يتصاعد . فجأة ، نظرت إلى يديَّ فرأيت أنهما بالحالة الحاضرة نفسها ، يدا رجل عجوز . امتلأ صدري بالذعر ورفعت بصري إلى بيبرس لأخبره ، لكن حينما وقعت نظرتي عليه ، كان قد تغير بدوره .

في مكان المقاتل الشرس ، كان هناك طفل ، ولد صغير يرتدي نموذجاً مصغراً من زيه الحالي ، لكنه ما كان ليزيد عن السابعة أو الثامنة من العمر . كان وجهه مضيئاً وبدون ندوب ، وتدلت خصلة الشعر الأسود فوق عينيه على شكل هداب .

راقبت مذعوراً بينما كان الأعداء يزحفون باتجاهه ، وقد أحسوا أنه لن يتمكن من الدفاع عن نفسه في هذه اللحظة .

مدَّ الصبي الصغير ذراعه نحوي وقال بصوت ناحل «أرجوك ، تعال وساعدني يا عبد»

كنت في تلك اللحظة أركض بأسرع ما أستطيع فوق الرمال والصخور ، وأنا أصرخ بأعلى صوتي «أنا قادم يا بيبرس! وسوف أنقذك!» .

لكن المغول كانوا أقرب بكثير وبدا وكأنني أحاول أن أركض وسط الغراء ، صرخت بهم «ابتعدوا! ابتعدوا عنه أيها الأنذال!» .

استمر في الصراخ «تعال وساعدني يا عبد أرجوك!»

وفجأة ، أحاطوا به واختفى . فقد تأخرت كثيراً .

عندما صحوت في ذلك الصباح ، داهمتني حاجة ملحة جديدة لأن أروي قصتي . من باب الاحتياط ، اضطررت إلى الانتظار حتى غادرني كل مساعديَّ ، ما يعني أن النهار سيكون أطول مما يهمني ذكره ، لكنني

أمضيته بشكل أو آخر . فكرت طيلة الساعات الطوال فيما سأكتبه هذه الليلة ، وظلت صورة الصبي الصغير تعاودني . قررت في تلك اللحظة أن أبدأ . سوف أروي قصة بيبرس منذ الوقت الذي كان فيه صبياً بذلك العمر ، القصص التي رواها لي في الأيام والليالي الطويلة التي كنت فيها رفيقه الثقافي خلال الحملات ، أو كنت قرده الفلسفي ، كما سماني قادته من باب الحقد والنكاية .

إنهم وأبناؤهم يمسكون بالسلطة اليوم ، وتمتد عيونهم حتى إلى بيتي ، لذلك يجب علي أن أكون يقظاً . لم يعد هناك ما يمكن تسميته الخلو من الهم بعد اليوم : فنحن جميعاً يجب أن نراقب ما يقولونه وكيف نتصرف . لقد كان بيبرس هو الذي علمني كيف أكون بلا هموم بصدق . أن أكون صبياً في عمره نفسه في حلمي .

إنه يركض الآن ، خفيفاً وسريعاً ، وهناك فتاة صغيرة تجري خلفه . هناك بحيرة إلى يساره والجبال الشاهقة المغطاة بالثلوج إلى يمينه ، والعشب تحت قدميه طري وبارد من فعل الأمطار . هذه الصورة ، كلما أحضرتها إلى ذهني ، لا تخفق أبداً في دفع الابتسامة عند طرفي فمي . وأنا أنوي أن أبدأ من ذلك المكان السعيد . . . .

الفصل الأول

خلافاً لمعظم الحكام الذين سمعت عنهم ، لم يقم بيبرس بأية محاولة لإخفاء الأصول المتواضعة لمولده . على العكس من ذلك ، فهو لإيمانه بأن الرجال الحقيقيين يتم تشكيلهم في الهواء الطلق عبر العمل الشاق وليس في الزوايا المذهبة للقصور الفخمة ، فقد كان يتفاخر بالإعلان عن أصوله بمجرد وصوله إلى السلطة ، لقد كنت أنا الذي حفزته على التحدث عن أصوله القفقاسية بعد حادث غريب في خيمته الملكية . حدث ذلك بعد النصر العظيم في عين جالوت ضد المغول ، حينما حضر شيخ طاعن في السن لقبيلة محلية غير مهمة ، ليقدم ولاءه لقائدنا العظيم .

كان بيبرس مضطجعاً على فراش من الوسائد عندما جيء بالشيخ إلى حضرته .

أصبنا جميعاً بالصدمة عند رؤيتنا له ينهض واقفاً على قدميه بسرعة احتراماً للشيخ المسن . فالشيخ البدوي أقل منه شأناً بكثير ، ومع ذلك فقد قام بيبرس بعمل لا يقدم عليه أي قائد مسلم آخر ، سواء كان قائداً عسكرياً أو سلطاناً . عندما سألته لاحقاً عن تلك الحادثة قال لي «أنت لن تفهم يا عبد . تلك هي «الخابزه» الخاصة بنا . نحن نبدي الاحترام للأكبر سناً بغض النظر عن موقعه في الحياة» . لم يقتنع فضولي جراء مثل ذلك الجواب البسيط . وشاهد هو ذلك في عينيَّ . لذلك بدأ يشرح «الخابزه» الشركسية ، مدونة السلوك المتجذرة في جميع الشراكسة . وسرعان ما قاد ذلك إلى إخباره عن قصة طفولته في بيته بالقفقاس .

هو الطفل الأصغر في عائلته ، وقد آمنت طيلة حياتي بأن موقع الطفل

في عائلته يشكل شخصيته بطرق لا يستطيع ظرف آخر أن يجاريه . كان والده حرفياً ماهراً : حداداً وصانع سيوف ، ووالدته سيدة فاضلة وعطوفة ولدت أربع بنات قبل أن تحمل بالسلطان المستقبلي . وكما يمكنك أن تتوقع ، فقد أصبح مولده سبباً في بعض الاحتفال في البيت وقريتهم الصغيرة فيما بعد .

وجدت فجوة قوامها سبع سنوات مابين بيبرس وأقرب أخواته إليه ، غونا ، كان والده قد استسلم ، وقبل منذ فترة طويلة بحياة خالية من وريث لائق . أصبح ذلك مصدراً للخجل الهائل منه ، وقد تحمل ذلك الإذلال بما قدر عليه من الكرامة .

فعلى سبيل المثال ، عندما كان هو ورجال آخرون من القرية يستقبلون زواراً لمنطقتهم في المناسبات الإجتماعية ، ويقيمون لهم الرقصات الشعبية الشركسية ، كان يتم تقديمه أحياناً على أنه «أشاماز ، الرجل الذي عنده أربع بنات» .

فيرسم الضيوف التعابير الأكثر تألماً ويهزون رؤوسهم حزناً عليه وتعاطفاً معه . وكثيراً ما يحضرون له أكواب شاي خاصة في محاولة للتسرية عنه . ويتحول الحديث إلى كون أبناء الإخوة ليسوا سيئين جداً .

بالنسبة لرجل يتمتع بقوة جسدية هائلة مثل أشاماز ، وبالحكم على القوة التي يمتلكها بيبرس في ذراعه التي تحمل السيف ، فلا بد وأنها كانت رهيبة ، فقد كان هذا يصل إلى حد اعتباره نوعا من المطهر ، وأصبحت المناسبات الاجتماعية أمراً يخشاه .

كانت زوجته «مزجواشه» (أميرة الغابة) تنظر إليه في الليل ، بينما هو جالس يحدق سارحاً في الفضاء البعيد ، تائهاً في أفكاره ، فتشعر ببئر من التعاطف والتقصير عميقة إلى درجة أنها كثيراً ما فكرت بأن تنصحه ليتخذ زوجة ثانية . خارجياً وبالنسبة لأصدقائه وجيرانه ، تمكن أشاماز أن يظهر بمظهر القوي والصابر على الدوام ، لكنه داخلياً تحزنه حقيقة أن اسمه

سوف لا يستمر ، وأن دماءه لن تكمل تقاليد شعبه . تلك كانت عائلة بسيقووهم من بين سكان منطقة طوابسة ذوي الكبرياء ، في تخوم الأطراف الغربية لجبال القفقاس ، وهو إقليم ذو تاريخ طويل ، حتى إنه اكتسب ذكراً في كتاب هيرودوتس «التاريخ» وترانيم هوميروس ، حسب قول بيبرس ، حينما تم تقييد بروميثيوس بالسلاسل إلى جبال القفقاس من قبل زيوس كعقاب له ، وقامت النسور بتقطيع كبده .

أخبرني بيبرس أنه ينتمي إلى قبيلة الشابسوغ ، وهي تجمع كبير من عدة آلاف على امتداد ساحل البحر الأسود ، والذي كان يتألف بشكل رئيس وليس كلياً من السكان الشراكسة . هي أمة ذات كبرياء تعيش بموجب منظومة أخلاقية تغرس فيهم منذ الولادة وتسمى «خابزه» . وكثيراً ما راقبت بيبرس وهو يتخذ قراراً مبنياً على ما تعلمه هناك في صباه ويطبقه في مصر أو سورية .

أخبرني أنها بلاد ذات طقس بارد ، رغم أنها دافئة صيفاً ، وكثيراً ما تعرضت لعواصف تهب من البحر . بعد الصيف تتغير الأشجار هناك إلى تشكيلة من الألوان وتتساقط أوراقها بعد ذلك في مجموعات كثيفة ، تغطي العشب وتزيد من خصوبة التربة وثراءها . فصول شتائها قاسية ، أقسى حتى من أي شيء يمكن لعربي مثلي أن يتخيله ، ولا ينجو بحياته في مثل هذا المناخ إلا الأقوى .

تمنح البلاد هناك الناس شخصية صلبة مقلة . بإمكانهم أن يكونوا مثل طقس بلادهم ، عرضة للتغيير ، فهم أحياناً هادئون وذوو مراس سهل كالنسيم ، وأخرى عاصفون وقساة مثل البرد . هذه حتماً هي الصفات التي راقبتها في بيبرس وحلقته من المساعدين الشراكسة .

ولد بيبرس في بداية حلول الشتاء تماماً ، قرابة العام ١٢٢٣ ، واضطر إلى النجاة من البرد والرطوبة الآتية ، من مطر الجبال وهو مازال رضيعاً .

على الرغم من الفرح الذي أحست به أمه لكونها منحت أشاماز

أخيراً أكثر ما كان يرغب فيه من كل الدنيا ، إلا أنها ظلت تقلق بدون توقف على اللفة الصغيرة من الخرق التي تحملها إلى صدرها وتتمنى أن تظل حية .

قالت القابلة وهي تسري عنها «ذلك الفتى قوي . سوف ينجو من هذا الشتاء وكثير غيره ، فلا تخافي» .

رفعت مزجواشه رأسها من الفراش الذي جلست مستندة إليه ونظرت بعينيها الواسعتين .

سألت «هل أنت متأكدة؟» بصوت ما زال ثقيلاً من التعب بعد معاناة الولادة .

قالت القابلة «إنني واثقة . انظري إلى حجمه وحقيقة أنه أخذ كل الوقت الذي يريده حتى يصل إلينا هنا» .

القابلة امرأة قصيرة القامة في منتصف العمر وقادرة على أن تكون قوية بقدر ما تكون لطيفة حسب ما يتطلبه الموقف . أدركت من خبرتها الطويلة أن هذه الولادة تتطلب مزيجاً من الاثنين . تحركت مبتعدة قليلاً لتغسل يديها في طشت الماء الدافئ ، ونادت على البنات الأربع في الخارج ليحضرن إناءً آخر .

«فكري في هذا يا مزجواشه ، إن أطفال الشتاء هم الأقوى دائماً . لماذا؟ لأن أمهاتهم قد تشربن كل دفء شمس الصيف أثناء حملهن لهم ، تماماً كما فعلت .

ثم عندما أدخلت المحاصيل عبر شهور الخريف ، تناولت طعام الولائم أكثر . لقد ظل يحتفل معك وهو جاهز للتجارب التي تنتظره» .

استدارت القابلة ورأت أن كلماتها تقدم الأثر المرغوب فيه . فقد خفت الخطوط على وجه الأم الجديدة ، وتوقفت عن احتضان الطفل بقوة .

«إن أطفال الصيف هم الذين ينبغي عليك أن تقلقي من أجلهم .

إنهم يولدون في عالم من الراحة والكثرة ، معتقدين أن الأيام المشرقة هي كل ما هنالك .

ثم عندما تتغير الفصول ، يمكن للصدمة أن تكون كبيرة جداً على أولئك الصغار . لن تكون لابنك هذا أي من تلك المصاعب . سوف يصير إلى أن ينظر للعالم على أنه مكان يجب عليه أن يكافح فيه من أجل كل شيء ، وسوف يكبر نتيجة لذلك . سيكون قوياً ويحتفظ بإيمانه في الوقت الذي يفقد فيه الآخرون ذلك ويتقاعسون . تذكري كلماتي» .

باتت مزجواشه سعيدة بهذا وطأطأت «أشكرك يا بارينا . ما كنت لأخرج من هذه المحنة بدونك» .

لوحت المرأة الأكبر سناً يدها رافضة «كلام فارغ . كل هذا وضع طبيعي وهو أسلوب «تحه» إلهنا العظيم . أنتِ أقوى مما تظنين يا مزجواشه . القضية فقط أنك تشاركين الفراش مع رجلٍ مثل أشاماز وهذا ما يشعرك بغير ذلك» .

وكأنما استجاب إلى ذكر اسمه ، انداحت الستارة التي تفصل مساحة الولادة الصغيرة عن باقي الأسرة جانباً ، وعبرت كتلة أشاماز الهائلة داخلة . بمجرد دخوله ، رفع قامته إلى طولها الكامل ونظر إلى زوجته وطفلها ، اللذين ظهرا مغرقين في الصغر إلى جانبه . تراجعت بارينا إلى الخلف وهي تمسح يديها وتلوذ بالصمت . هذا التقديم هو شيء خاص بين الأزواج أنفسهم وحدهم .

خطا أشاماز إلى الأمام وأحنى ركبته ليلقي بنظرة أقرب على الوليد . رفع يده نحو اللفة ، لكنه توقف قبل أن يلمس بشرة الطفل الحديث الولادة مخافة أن يؤذيه بأصابعه الخشنة الصلبة . حدَّق في أعضاء الوليد التناسلية وعبَّر عن امتنانه . ثم نظر بعمق في عيني مزجواشه ولمس خدها المحمرّ بخفة لدرجة أنها بالكاد أحست بها . في المقابل ، شاهدت في عينيه فرحاً وسعادة بقيت غائبة حتى تلك اللحظة ، وقفز قلبها حبوراً لتلك الرؤية .

انسحبت بارينا إلى الخارج بهدوء وأشارت إلى الفتاتين القادمتين بطشت الماء الدافئ ، وكل واحدة منهما تمسكه من مقبض للتشارك في ثقله ، بالابتعاد .

نظر أشاماز إلى الطفل مرة أخرى ورأت مزجواشه أنه يزم عينيه .

قال «عينه»

نظرت مع أنها قد رأت مسبقاً ما يقصده .

قالت «أعرف» .

«هل يمكنه أن يرى؟»

قالت «لا أدري»

دقق أشاماز النظر «عينه الأخرى هي كما ينبغي . لقد رأى «ألتحه» العظيم أنه من المناسب أن يمنحه عيناً صالحة واحدة على الأقل» .

«هل تشعر بالخيبة؟»

رفع رأسه متفاجئاً «الخيبة؟ ها! لديه عشر أصابع وعشر أصابع في قدميه ، أليس كذلك؟» نظر ثم تناول يد الطفل الصغيرة في يده «يد يسرى للإمساك بالملقط ويمنى صالحة للتطويح بالمطرقة» . ضغط على الذراع بمنتهى اللطف «هو سمين قليلاً ، لكنه سيتقوى» أعاد النظر اليها وابتسم .

بادلته مزجواشه الابتسامة بقوة حتى أحست وكأن وجهها سيتمزق . قفزت من عينيها دمعتا سعادة .

قبَّل جبينها «أنت متعبة . سوف أترككما لتستريحا . إنه قوي أليس كذلك؟»

أحنت رأسها بالموافقة .

«إذاً سأعطي المرأة بارينا مستحقاتها ، وسوف أحتفل مع الرجال . أعتقد أنني سأعاني من صداعٍ في الغد» .

ضحكت وقهقهت قليلاً .

نهض واقفاً بعد أن ألقى نظرة أخيرة على الجائزة التي طال انتظاره لها . راقبته .

قال «لقد أحسنت صنعاً . عندما تستردين قواك ، سوف نأخذه ليقابل القرية ، ما رأيك؟»

أومأت برأسها مرة أخرى . كان من النادر وجود رجل طيب في هذه الدنيا : أدركت ذلك من التحدث مع نساء القرية الأخريات . الآن ، أخيراً ، بدا وكأن كل همومها قد انتهت . فهي لديها الزوج الذي طالما أرادته ، وقد أعطته الآن الشيء الذي طالما تمناه في المقابل . حتى لو أنه لم يقدر لها الحصول على المزيد من الأطفال من اليوم فصاعداً ، فإن حياتها ستكون مكتملة . بإمكانها أن تنظر إلى الأيام القادمة بأمل وتراقب أشاماز وهو يربي ابنهما ويدربه في المهنة التي منحتهما حياة طيبة جداً ، بينما اعتنت هي بالأسرة وعثرت بدورها على أزواج مناسبين لبناتهما .

من هو الذي قد يرغب في المزيد؟

احتضن نظرتها بعينيه وكل منهما يبين للآخر أنهما على درجة قصوى من السعادة ، كل بطريقته الخاصة ، وبعدها انطلق مغادراً . بعد دقيقة عاودت بارينا الدخول ثم انطلقت صيحه مدوّية في البعد .

قالت مبتسمة «لابد وأن ذلك هم الرجال يحتفلون بأخبارك» .

قالت مزجواشه «إنه سعيد» ثم بهتت الابتسامة قليلاً ونظرت إلى تحت «حتى برغم عينه المعيبة . أليس هناك شيء يمكن عمله؟»

ركعت بارينا حيث كان أشاماز قبل لحظات قليلة . لم تكن لديها أية صعوبة في تناول رأس الطفل بين يديها وتدقيق النظر في الشكل الأبيض الغريب الممتد عبر إحدى العينين الداكنتين .

قالت متفكرة «من الصعب الحكم في هذا الوقت المبكر ومازال الوقت مبكراً جداً على محاولة عمل أي شيء» .

«هل ستشفى؟»

«هذا ليس جرحاً» تراجعت القابلة وجلست على الأرض وهي تتأملهما .

«أحياناً ، فقد رأيت رجلاً حاذقاً ينزع الجلد الميت بعيداً بسكين حادة» .

أجفلت مزجواشه

«لكن يحتمل أن هذا أعمق من أن يمكن إزالته . يبدو لي وكأن التشويه هو داخل العين ، وليس على السطح . سيحضر الرجال المعالجون في الربيع مرة أخرى ، ويمكنك سؤالهم» .

«وحتى ذلك الحين؟»

قالت بارينا وهي تنفض كتفيها «صلِّي»

تصالب ثغر مزجواشه ليصبح خطاً قلقاً .

نظرت بارينا إلى الطفل ثم رفعت رأسها نحو الأم مرة أخرى «كيف تبدو لك العلامة؟»

«ماذا تعنين؟»

«أقصد الشكل . كيف يبدو بالنسبة لك؟»

نظرت مزجواشه إليه مرة أخرى وكأنها تراه للمرة الأولى .

قالت «لست متأكدة»

تكلمت القابلة المسنة بثقة وسلطة .

قالت «إنه سيف . إن العلامة تبدو على شكل سيف . سوف يكبر ليصبح مقاتلاً عظيماً» .

نظرت مزجواشه إلى عين الطفل مرة أخرى .

«كلا ، إذا كان سيفاً فهي إشارة على أنه سيصنعه تماماً كما يفعل أبوه» .

«لقد كان أبوه مقاتلاً عظيماً في الأيام السالفة» .

تسرب الانزعاج إلى مزجواشه «لقد كان كذلك ولكنه عاد إلى هنا

ومارس حرفته . وليس هناك أي تهديد لنا في هذه الجبال» .

نظرت إليه المرأة الأكبر سناً للحظة ، وقد تجذرت في وجهها المعرفة .

«هنالك تهديد على الدوام ، سواء جاء من عصابة خيالة أو مجموعة غازية قادمة من البحر . حتى إن الجار الذي لا يدفع دينه يمكن أن يشكل تهديداً» .

«ولكن . . .»

قاطعت بارينا مقولة مزجواشه «أنت تعرفين هذا بقدر ما أعرفه . كل ما هنالك هو أنني لا أريد أن أراك تخدعين نفسك» .

«ليس الأمل خداعاً يا بارينا»..

نهضت القابلة واقفة بقوة وتوازن مدهشين لامرأة في مثل سنها المتقدمة .

«هذا صحيح يا مزجواشه وآمل من كل قلبي أن يسافر ابنك الجميل هذا في رحلة الحياة بدون أن يحمل ندبة واحدة فيما عدا تلك الجاثمة على عينه» .

رفعت مزجواشه الطفل تقربه من عينيها لنظرة أفضل «إنه جميل ، أليس كذلك؟»

ألقت بارينا إليهما بنظرة أخيرة قبل أن تستأنف مهامها . «سوف يحطم الكثير من القلوب ، ولدي كل الأمل ولا شك عندي في هذا» .

ابتسمت مزجواشه لهذا القول «كلا ، بل سيكون فتى طيباً ويظهر الاحترام لكل شخص» .

نظرت بارينا من فوق كتفها وقد سرها الكلام «أنت الآن تقومين بأكثر من خداع نفسك»

يا مزجواشه! «أحضرت كوباً من الحليب وناولته لها» .

شربت مزجواشه بعمق ثم أعادته «أشكرك يا بارينا» . رفعت رأسها وهي تمسح فمها «أعرف أنه سيضطر إلى القتال في وقت ما ، وأنه مثل كل

رجالنا ، سوف حتى يستمتع به ، ولكن بالنسبة لهذا اليوم ، اتركيني أشاهد حلماً مختلفاً ، طالما هو صغير ومكتمل إلى هذه الدرجة ، أرجوك؟»

مررت بارينا يدها على شعر مزجواشه ونزولاً على خدها ، وقد تفهم وجهها اللطيف الخصلات النحيلة التي مازالت ملتصقة ببشرتها نتيجة التعرق . «طبعاً يا عزيزتي . يجب أن تغفري لي حين أنسى كم أنا خشنة» . أبقت يدها على خد مزجواشه ، وقد اختلطت المحبة الصادقة مع الحاجة الأكثر إلحاحاً في قياس حرارتها . أجبرها صدور صوت عند المدخل على النظر بشكل مفاجئ . كانت بارينا سريعة بما يكفي لأن تلتقط منظر عينين تختفيان فجأة من حيث كانتا تختلسان النظر قبل هنيهة .

«هل أنتِ جاهزة لهذا الأمر يا مزجواشه؟» توقفت يدها على البشرة اللينة للخد دافئة وليست ساخنة . ذلك أمر جيد .

أعطى تعبير مزجواشه المتألق الجواب للقابلة .

قالت «حسناً إذاً» ثم رفعت رأسها ونادت «أيتها الفتيات! أدخلن وقابلن شقيقكن الجديد واعتنين بأمكن المسكينة» .

بعد أقل من ثانية ، اندفعت البنات الأربع اللاتي تتراوح أعمارهن بين الثانية عشرة والسابعة ، إلى داخل الغرفة وتسابقن صارخات نحو الفراش .

تدافعن على من تكون الأولى لتعانق مزجواشه وتقبلها . لم تكن بارينا واثقة من أن هذا هو الشيء الأفضل للنفساء ، لكنها تراجعت وسمحت لهن بالاستمتاع . لن تسبب بضع دقائق أي أذى . في الخارج كان شراب الباخسمه يتدفق والأصوات الرجالية تتصاعد . كان الرجال يشربون نخب أشاماز والقادم الجديد إلى القرية بكل الحماسة الاي يمكنها أن تتوقعها . حتى إنها فكرت في احتمالية أن تتناول هي قدحاً أو اثنين من خمرة الباخسمه القوية بمجرد أن تغفو مزجواشه وتنام .

في الخارج ، أشعلت نار هائلة في وسط مجموعة البيوت والأكواخ

الصغيرة وتمت تغذيتها ، وتحلق الرجال في هذه اللحظة حولها ، يمررون الأقداح واللحوم المقددة فيما بينهم .

كان لاشه ، أحد الرجال يقول «أقول لك يا أشاماز إنه ليس هنالك فرح مثله ، أن تراقب صبياً يقوم بأول تدريباته على القوس والسهم . أن تراه يركض ويلعب كما فعلت عندما كنت في ذلك السن . ليس هناك شيء أفضل» .

انهمك الرجال الآخرون في التدافع وإلقاء النكات ، لكنهم طأطأوا رؤوسهم موافقين بجدية على هذا القول . اكتفى أشاماز بالابتسام والإيماء برأسه بدوره «هذا شيء كنت أنتظره» محتفظاً بهدوئه الدائم .

قال أحدهم «هذا يبقيك شاباً» وهو يقضم قطعة لحم على العصا التي بيده .

قال لاشه وهو يرفع قدحه عالياً للتأكيد «ذلك ما هو عليه . عندما تصبح بالغاً بما يكفي لتتعلم ، فأنت تقود الطريق ، وإذا أردت أن تقود الطريق فلا بد لك من البقاء في المقدمة . فهل أنا على حق؟»

هزَّ الجميع رؤوسهم وتمتموا موافقين مرة أخرى .

قال لاشه «لكن لاداعي لأن تقلقوا على ذلك لفترة على الأقل» .

مال أشاماز برأسه إلى الجانب قليلاً ثم عاود الابتسام . تابع لاشه «على الأقل ليس قبل أن تفكر ببناتك الأربع اللاتي ينبغي عليك أن تزوجهن» .

ضحك الجميع على هذا بمن فيهم أشاماز .

قال ناريك الذي أصبح أبا لطفلته الثالثة قبل بضعة أشهر «هيا يا لاشه ، دع الرجل يستمتع بليلته بدون أن تثقله بهذه الالتزامات قبل أن يضطر إليها» .

قال أشاماز «أشكرك كثيراً يا ناريك» .

«أنت على حق طبعاً يا ناريك . هذه ليلة نحتفل فيها كلنا . سوف

تتزود قريتنا بأرقى النعال لخيولنا والسيوف والمحاريث لعقود قادمة ، طالما أن لدى حدادنا متدرب مناسب» . أشار لاشه إلى الكوخ الذي كانت فيه كل من مزجواشه وبارينا والبنات مكبات على الطفل يراقبنه . استطرد قائلاً «وإذا سمحتم لي فسوف أقدم هديتي متمنياً له دوام الصحة» .

ارتفع حاجبا أشاماز من الدهشة عند هذه النقطة : فقد ظل يتوقع أن تكون هديته قدحاً آخر من مادة مسكرة . بدلاً من ذلك مدَّ لاشه يده تحت معطفه وأخرج قطعة معدنية مغرقة في الصغر . قدمها إلى أشاماز الذي تناولها وتفحصها . كانت تلمع .

قال وقد فوجئ تماماً «هذه جميلة يا لاشه» كانت عبارة عن كرة مزوقة ، تجلس فوق ممسك وتلتمع تحت ضوء النار مثل الفضة .

قال لاشه بسرور «هزَّها» .

قام أشاماز بهزها فأخرجت الكرة صوت قرقعة الخشب على المعدن وقال «هذه خشخيشه» .

شرح لاشه «كل طفل بحاجة إلى واحدة» .

قال أشاماز «اشكرك يا صديقي . هذه أكثر مما يمكن أن يطلبه أي واحد منا» .

وافق الرجال الآخرون بمزيد من التمتمة .

قال لاشه «هذا من دواعي سروري»

حوَّل ناريك نظره من لاشه إلى اللعبة ثم عاد إليه «ولكن كيف عملتها؟»

لوَّح لاشه بيده رافضاً «إن ثمنها لاشيء مقارنة بمقدار تقييمي لأصدقائي» .

بقي ناريك يبدو عليه عدم الاقتناع ، ولكن لاشه كان قد غيَّر الموضوع قائلاً

«أعرف أيضاً أن أية لعبة صغيرة أقدمها ستبهت إلى جانب تلك التي

سيقدمها أحدث أب لدى الشابسوغ إلى نجله . هيا يا أشاماز . لقد سمعت مطرقتك في الليالي الأخيرة الماضية . ما الذي صنعته للصبي؟»

ابتسم أشاماز . ظل يحتفظ بالخشخيشة في يده

«لقد كنت أخطط للاحتفاظ بها حتى نقدمه . . .»

قال لاشه «نعم أنت خجول جداً» فحصل على ضحكة جماعية من الآخرين .

أنهى أشاماز كلامه «ولكن لا ضرر في أن أريكم جميعاً الآن» . مرر الخشخيشة إلى ناريك الذي تفحصها بعناية ومدَّ يده إلى داخل معطفه وبحث داخله للحظة ثم أخرج ما عثر عليه ببطء .

تنزل الصمت على المجموعة لحظتها ، وارتفعت كل عين لتنظر إلى ما حمله الحداد ليروه . كان ذلك خنجراً ، القامة الشركسية والتي يبلِغ طولها من طرف الإصبع الأوسط لرجل بالغ حتى آخر مرفقه . صفَر بعض الرجال ونفخوا الهواء من وجناتهم ، لكن أحداً منهم لم ينبس ببنت شفة بينما هم يتأملون الجمال الكلي لما هو معروض أمامهم .

مثل الخشخيشة ، كان الغمد مصنوعاً من الفضة ، ولكن مقارنة بالتصميم البسيط للأشكال الموجودة على اللعبة ، كان مقبض الخنجر متقاطعاً بخطوط مرسومة بدقة وأشكال متداخلة . التمع ببريق أحمر ثم أسود وبعده أبيض أثناء انعكاس ألسنة اللهب من النار ، حتى إنها أذهلت عيون الرجال عندما التمعت فيها .

قال لاشه بصوت مبهور «يا أشاماز ، لقد قلت دوماً إن مهارتك لا حدود لها ولكننا الآن نمتلك البرهان . إن نجلك هذا مبارك بصدق . أصلي لأن يكبر ليصبح قوياً ويمتشق هذه القامة الرهيبة» .

أحسَّ أشاماز بالسعادة من هذا الكلام وأنزل الخنجر .

قال ناريك «إن لاشه محق يا صديقي . ليس هناك حد للإنجازات التي يمكن لذلك الصبي أن يحققها» .

نفض أشاماز كتفيه «سيكون صغير الحجم مثل والدته وأبيها» . نظر باتجاه الكوخ . حيث أصبح بالإمكان سماع الطفل يبكي في هذه اللحظة . «لكنه سيكون قوياً» .

قال ذلك ثم عاد بنظره إليهم «ولن تعاني مدينة طوابسة من أي نقص في المناجل الحادة ونعال الخيل طالما هو يحتل الكير»

هلل الرجال ورفعوا أقداحهم . كان هناك الكثير من الاحتفال مما يجب القيام به في تلك الليلة ، لأن أشاماز يتمتع بشعبية واسعة ومهاراته معروفة ليس فقط في منطقتهم ، بل على طول المجتمعات الساحلية وحتى وراءها . كان الرجال الأغنياء ونبلاء الوَرْق ، الكونت والفرسان واللوردات يحضرون راكبين إلى قريتهم الصغيرة ويسألون عن أشاماز صانع المعجزات . فيتم إرشادهم مع حواشيهم إلى المحددة القريبة من النهر ، ويجتمع المحليون أحياناً ليراقبوا العظماء والأقوياء وهم يخاطبون جارهم وكأنه ندٌ لهم .

يخرج أشاماز من الباب إلى العتمة ثم إلى ضوء النهار وهو يرفع قامته إلى أعلى امتدادها ثم ينظر إلى القادم الأخير بنوع من التواصل البارد .

«هل أنت أشاماز؟» هو الأسلوب الذي تبدأ به المحادثة في العادة .

فيقول «أنا هو» . في الغالب ينشغل بمسح يديه بخرقة ، مع أن ذراعه وجذعه يكونان غارقين في السخام والزيت بحيث يأتي إجراؤه بلا فائدة .

يندهش النبيل الغريب من هذا التصرف في العادة . في العادة يتوقع من الرجال الذين هم في منزلة أشاماز أن يخاطبوا الأعلى مرتبة منهم بتعبير «**يا صاحب الشرف**» .

كان ذلك إهمالاً صغيراً ولكنه رغم ذلك يثير حفيظة الكثير من الغرباء . كان واضحاً أنه تحت المريول الجلدي والبنطال الذي يرتديه للعمل ، أن ساقيه ضخمتان أيضاً ، مثل ساق شجرة بلوط فتية .

لم يخف هذا التصرف أبداً ، فكان الزبون المحتمل الذي تمت مواجهته

بالوقاحة من كل ناحية ، يفاجأ ويؤخذ على حين غرة فيختل توازنه . فهو قد توقع أن يتعامل مع مجرد خادم وليس شركسياً مليئاً بالكبرياء والثقة بالنفس .

فيما يخصه هو ، لم يكن هناك شيء في تصرف أشاماز أو سلوكه ما ينم عن عدم الاحترام ، فقد كان فقط واثقاً من نفسه وقدراته .لم يكن أبداً يفكر في كسر تقاليد قبيلته التي تشدد على الشجاعة والفصاحة وكرم الضيافة فوق كل اعتبار آخر .

كان عادة يسأل «كيف يمكنني أن أخدمك يا سيدي؟»

«لقد سمعت بأنك حاذق عندما يتعلق الأمر بتصميم الأسلحة والمجوهرات ، إذا كان هذا صحيحاً فقد يكون لدي تكليف بمهمة لك» .

ينهي أشاماز تمسيح يديه ثم يقول «أنا في خدمتك» . وينادي «أميشا! أحضر الكراسي لضيوفنا» .

فيقوم الصبي ، ابن شقيق ناريك بإحضار الكراسي الصغيرة ذات الأرجل الثلاث . فيتخذ اللورد وحاشيته مقاعدهم . يقوم أشاماز بتقديم أفضل ضيافة يقدر عليها ، في مراعاة لتقاليد قومه ، قطع صغيرة من الحلوى التي حضرتها زوجته وشاي القالموق . بعد ذلك يحمل هو وأميشا طاولة سوية إلى الخارج ويضعها أمام الكراسي . يتم هذا بينما يراقب الضيوف وأتباعهم هذه المجريات بكل اهتمام .

كانت حركات الفتى سريعة ومجفلة تنم عن عصبية لكن أشاماز ، برغم تحركه السريع ، إلا أن مشيته كانت تحمل في طياتها الرشاقة والقوة ، وكان سريعاً بدرجة خادعة لرجل من حجمه .

يراقب اللورد وزوجته وهما يرشفان الشاي ، الاثنين وهما يخرجان الأكياس الجلدية الطويلة ويضعانها على الطاولة بشكل دوري . كانا يعودان إلى المحددة بدون أن ينطقا بكلمة ويعودان مرة أخرى يحملان صندوقين مطليين حد التلميع .

كان أشاماز يضع هذين على الطاولة خلف الأكياس . ثم يخطو إلى الأمام .

«لقد ذكرت الأسلحة أولاً يا سيدي . هذه هي التي أمتلكها لأجل الرجل المقاتل» .

يتقدم اللورد بجسمه إلى الأمام ويحدق متمعناً بينما يقوم أشاماز بفك الأكياس الجلدية ويكشف عن تشكيلة مختارة من السيوف . كانت تشكيلة متنوعة من التصاميم من كل النوعيات الغربية الطويلة ثم الأخرى الشرقية المعقوفة والمعروفة بالحسام .

حين يكون أشاماز محظوظاً بما يكفي ، فإن الرجل يقدِّر قيمة القطع المعروضة أمامه . فإذا أقدم على حملها بيده وجرب الوزن والتوازن ، فسوف يكتشف أنها من صناعة ندر أن صادف مثلها من قبل . سيشعر بقوة الفولاذ في يده ويعرف أنه لن ينكسر إلا في أكثر الظروف حدة . ستنقذ هذه السيوف حياته عندما تدعو الحاجة إلى ذلك .

ومع ذلك وفي أغلب المناسبات ، فقد كان اللورد وحاشيته ينظرون إلى التصاميم العملية ويهزون رؤوسهم بدون أن يقدِّروا قيمة ما هو معروض أمامهم .

يقول الرجل «نعم أنا متأكد من أن الرجال والجنود الذين يمرون عبر قريتكم هم أكثر من راضين عن عملك ، أيها الحداد» .

يهم اللورد بالنهوض معتقداً أنه قد اقترف خطأً ، لكن يداً مرفوعة من أشاماز تقوله له :

«أرجوك ياسيدي . ربما تكون هذه القطع أكثر ملاءمة لاحتياجاتك» .

فيومئ أشاماز إلى أميشا فيتقدم الصبي إلى الأمام حاملاً الصندوق الأول . في حركة تدرب عليها كلاهما مرات عديدة ، كان يركع أمام اللورد ويفتح الصندوق بحركة مسرحية . توجد في داخله سيوف زخرفية مطعمة بالجواهر يتوقع من اللورد أن يلبسها للمناسبات الدينية والاحتفالات . لقد

كان جمال هذه القطع فوق العادي بكثير . كثيراً ما كان الزوار يندهشون لدرجة أنهم يبقون صامتين لبضع لحظات بينما هم يستوعبون العمل المعدني والتزويق الذي لا يكاد يصدَّق .

تمتد أيديهم وتنزلق فوق منحنى المقبض بخفة ، وكأنما أي شيء مصنوع بهذه الدرجة من الرقة سوف ينكسر . مثل تلك الزيارة كانت تحدث في هذا الوقت .

قد يقول النبيل «ما كنت أعرف أن المعدن يمكن تصميمه بهذا الشكل . إنه سائل ، مثل الماء» .

فيقول أشاماز «أشكرك يا سيدي . هل تحب أن تشاهد النصل؟» فيجيب الرجل وكأن حلقه قد جف فجأة «نعم ، نعم ، سأحب ذلك» .

يخطو أشاماز إلى الأمام ويخرج السيف الأول من الصندوق ويرفعه إلى حيث تستطيع المجموعة كلها أن تراه . ثم يسحبه من غمده ويمسك به أمامهم . من مسافة بضع أقدام ، سيلاحظ المساعدون والرقباء أن في النصل بريقاً لا يشبه أي شيء آخر صادفوه من قبل ، وعند الاقتراب يظهر النصل مثل برق من الفضة ثم أبيض حينما يقربه أشاماز حتى ينعكس وجه اللورد فيه مثل مرآة .

يتعجب اللورد من رؤية نفسه بتلك الدرجة من الوضوح ويستند في جلسته ليتشرب التأثير الكامل . حتى الحد نفسه كان محفوراً بخطوط رفيعة إلى درجة أنها تبدو قريبة من المستحيل . فيبقى لدى المشاهدين الاقتناع والمعرفة بأنهم جالسون في حضرة أستاذ لا منافس له ، وليس أمام مجرد حرفي .

«بإمكاني أن أرى بأن سمعتك مبنية على أساس متين يا أشاماز . سوف أطلب منك أن تصنع لي واحداً من سيوفك العظيمة» .

«أشكرك يا صاحب الشرف الرفيع» .

يلوِّح اللورد بامتنان صادق على هذا الاعتراف بمكانته ويبدأ

بالنهوض . هذه هي اللحظة التي يحضر فيها أشاماز قطعته التي لا يمكن مقاومتها .

فيقول «ولكن يا سيدي . ألم تذكر أيضاً أنك بحاجة إلى الجوهرات؟» ليجد اللورد نفسه متفكهاً سعيداً بهذا الموقف .

«لقد سمعت أنك تصنع الجوهرات أيضاً ولكن يجب أن أعترف بأنني لا أكاد أصدق أن حداداً يمكنه أن يرضي ذوق النساء في بيوتهن . على أية حال فإن سيوفك مقبولة تماماً ولذلك فأنا واثق من أننا نستطيع أن نجاريك ونلقي نظرة» .

ينحني أشاماز باحترام «أنت في غاية اللطف يا سيدي . أميشا» .

بمجرد أن يتكلم يعود أميشا عند أقدامهم بالصندوق الثاني . يفتحه ليكشف عن مجموعة من القطع الرقيقة الراقية التي لم يشاهد أحد من الزوار مثلها أبداً . بينما هم يتفحصون محتويات الصندوق من الأطواق والخواتم والأساور ، يقوم أشاماز بفتح الكيس الجلدي الثاني ووضع محتوياته على الطاولة . مثل محتويات الصندوق الأول : القامة أقصر من السيف وتشكل مزيداً من النفائس المطعمة بأحجار الياقوت وأحجار كريمة أخرى لكي يمتعوا أعينهم بالفرجة عليها .

في العادة كان الضيوف يذهلون عن أنفسهم عند هذه النقطة ، فيتقدمون كلهم دفعة واحدة ليحظوا بنظرة أقرب . **أشاماز الأستاذ ، أشاماز مجترح المعجزات** . فقد كان بكل تأكيد أكثر من مجرد حداد عادي .

والآن لدي ابن وسأعلمه كل أسرار مهنتي . أميشا ولد صالح ، لكنه ليس من دمي ولحمي . الآن لدي من هو من دمي ليشغّل الكير ويملأ القوالب . عندما يصبح أكبر سناً ، سوف يجد لنفسه زوجة ، ربما إحدى بنات ناريك ووقتها سيكون كل شيء على ما يرام .

ولكن ماذا أسميه؟

في داخل منزلهم المبني من قوالب الطين ، لم تكن لدى الطفل أية

فكرة عن الخطط التي يرسمها أبوه وباقي الرجال لمستقبله ، أو عن الهدايا التي سيقدمونها له . بدلاً من ذلك ، وجد نفسه محل صراع للمرة الأولى في حياته ، من قبل أربع فتيات صغيرات . كانت كل واحدة من شقيقاته ترغب في أن يحل دورها لتحمله ، وكان ذلك كل ما تقدر عليه أمهن لإبقائهن فرحات .

على أية حال ، لم يكن ابن شاماز سعيداً بهذا ، وبدأ يتدرب على استعمال رئتيه للمرة الأولى .

قالت بارينا «هذا الصبي سيحطم طبلات الآذان مثلما يحطم القلوب» وهي مازالت تشغل نفسها بترتيب البيت بعد انتهاء عملية الولادة . نظرت باتجاه مزجواشه ، لكن مرحها بهت حينما رأت مقدار الوهن الذي يعكسه نور الشمعة .

صفقت بارينا بيديها لتغطي على الضجيج وقالت «حسناً يا بنات ، لقد تأخر الوقت وكل من أمكن وشقيقكن قد أصابهما الإرهاق . اتركنهما يستريحان» .

لم تستطع مزجواشه أن تفعل أكثر من أن تنظر إليها بامتنان .

سألت إحدى البنات «هل يمكننا أن نلعب معه في الغد؟»

أجابت بارينا «يمكنكن أن ترينه ، لكنه ما زال أصغر بكثير من أن يلعب معكن بعد» .

اقترحت مزجواشه «ربما تستطعن أن ترينه خطوات رقصكن؟»

بدا على الفتيات السرور من هذا الاقتراح ، خاصة وأنه سيكون هناك حشد من الأقارب والضيوف في كل أرجاء البيت خلال الأيام المقبلة . خرجن وتركن الاثنين وحدهما مرة أخرى .

سألت بارينا «هل تعتقدين أن أشاماز سيعود هذه الليلة؟ أنا أعرف أن بعض الرجال تغيبوا لعدة أيام عندما رزقوا بأبنائهم البكر» .

قالت مزجواشه «سوف يعود في الوقت المناسب . سوف يرغب في

العمل صباحاً ورؤية الصغير قبل أن يغادر» .

«إذا كنت متأكدة» جاء صوت بارينا ليقول أي شيء سوى أنها واثقة من كون الوضع هو هذا . «سأبقى قريبة وأمضي الليلة هنا معك . يجب أن تنامي يا مزجواشه . نامي واستريحي . سوف تضطرين إلى إرضاعه بعد سويعات قليلة» .

هزَّت مزجواشه رأسها وقد بان عليها الإرهاق .

«هل فكرت باسم ما؟» قالت بارينا هذا وهي ترص البطانيات فوق الأم والطفل .

«لم يرغب أشاماز في تحدي القدر باختيار اسم للصبي هذه المرة ، لذلك لم يقرر . أنا أحب لو أنه يتخذ اسم جده ولكن سوف نرى» .

«سوف نرى يا مزجواشه . لأنه في نهاية المطاف ، فإن الاسم هو الذي يصنع الرجل» .

وهكذا جاءت ولادة بيبرس في تلك القرية الشابسوغ عند سفوح الجبال وعلى مقربة من البحر ، أو هكذا قال لي . في إحدى الليالي وبعد مرور عقود ، كنا نبحث في الذاكرة ، وكيف أنها تخدعنا في بعض الأحيان . حصل هذا الحديث لأنه طلب مني أن أسطر خطاباً إلى رئيس مجموعة الحشاشين ، وأراد فيه أن يشير إلى اتفاقية ما كان قد أبرمها مع فرسان الهوسبيتال قبل سنوات عديدة . ادعى أنه قال شيئاً معيناً ، ولكنني وبطريقتي المتواضعة ككاتب ، أصررت على أنه قال شيئاً آخر ، وهكذا بدون أية إجراءات أخرى ، تم إرسالي للعثور على نسخته من المعاهدة .

من حسن حظي أنني كنت محقاً وأن السلطان بيبرس قد اقترف الخطأ ، لكنه انزعج في تلك الأمسية من حقيقة أنه كان مقتنعاً بحدة بالعكس . حتى إنه قال بأنه تذكرها كما لو أنه عاد إلى هناك مرة أخرى . أجبته بأنني كثيراً ما أقترف مثل تلك الهفوات في الذاكرة ، وأنها لا تكاد

تساوي شيئاً يستحق القلق منه ، لكن بيبرس أصيب بصدمة مما سماه هو الذاكرة المزيفة .

«كم تبلغ كمية ما نتذكره كحقيقة هو فعلاً كذلك؟»

لاحظ النظرة المتسائلة التي علت وجهي وحاول أن يشرح :

«أقصد أنني كنت واثقاً ، أقول لك واثقاً من أنني أمهلت أولئك الهوسبيتاليين أربعين يوماً لإخلاء ذلك الحصن ، لكنني عندما رأيت الرقعة في يدي وعليها كلمة ستين ، ثبت أنني مخطئ بشكل واضح . فماذا أيضاً أتذكر بشكل خاطئ؟»

«إنني متأكد من كون ذاكرتك متفوقة على ذاكرة معظم الحكام يا مولاي» .

شخر ساخراً من كلامي .

«إن ذلك لا يمثل شيئاً مهماً يا عبد . لقد كان لدى صلاح الدين عدو هو ريتشارد قلب الأسد . فمن هو الذي حصلت عليه أنا كعدو؟ ابن شقيقه المبقع إدوارد . صاحب **السيقان الطويلة** . . . . لا يكاد يشكل عدواً مجيداً» .

«لقد أحرز بعض النجاحات منذ صليبيته الأخيرة يا مولاي» .

«هممم . . . ما كنت لأضع كثيراً من الثقة في انتصارات على المتوحشين في آخر الدنيا يا عبد . كاختبار لشخصية الرجل ، فإنها تثبت فقط أنه لن يتبرز في ثيابه عند أول إشارة على الدماء .ماذا يسمونهم مرة أخرى؟»

«الأسكتلنديون يا مولاي» .

«نعم ، الأسكتلنديون . ما الذي يعرفونه عن منظومات التموين والتكتيك؟ الاستيلاء على حصون مثل كراك دي شيفالييه؟ هل شاهد الأسكتلنديون أبداً مدينة مثل أنطاكية ، أو حتى هل فعلها الإنجليز مثلاً؟»

«ما كنت لأبدي رأياً يا مولاي» .

«كلا، طبعاً لا . ولكن إليك الأمر يا عبد، كيف تعرف أن الصور والأصوات والروائح والضجيج الذي في رأسك ليست كلها أكثر من حصيلة خيالك؟ كيف تعرف أن الأشياء التي تتذكرها هي حقيقية؟»

«اعتقد أنني لا أعرف يا مولاي» .

«ولا أنا عدت أعرف . وليس للأمر علاقة بالسن . فقد مر وقت طويل جداً . . .»

وتوقف .

«مولاي ما الذي مرَّ عليه وقت طويل جداً؟»

رفع نظره باتجاهي «همممم . . . آه، لا شيء» .

حصلت مناسبات قليلة جداً خلال السنوات الطويلة التي قضيناها معاً ورأيته فيها على هذه الشاكلة . هنالك عدد لا بأس به من الناس المتعلمين وربما جمهرة كبيرة من الناس غير المتعلمين الذين سيضحكون وبصوت عال في هذه الأيام، لو أنني أخبرهم أن السلطان الشرس بيبرس كان قادراً على أن يكون عاطفياً، وحتى لديه الحنين إلى الماضي، ولكنني أقسم أن الأمر كان حقيقة كذلك في تلك الليلة .

بعد انقضاء هنيهة، رفع رأسه مرة أخرى وسأل «ماهي أول ذكرى لديك يا عبد؟»

فوجئت واضطررت إلى التفكير للحظة ثم قلت أخيراً «لا أدري يا مولاي ولكنني أظن أنها كانت في المرة الأولى التي تجولت فيها مبتعداً عن بيتي» .

«حقيقة؟ وكم كان عمرك؟»

«من الصعب الجزم، ربما في سن الثالثة أو الرابعة» .

«وتمشيت مبتعداً؟»

«نعم يا مولاي . إلى آخر شارع بيتنا في القاهرة ثم ألقيت بنظرة من الزاوية . ما زلت أذكر تلك المغامرة والجرأة التي أحسست بها أثناء قيامي

بذلك . لقد كان إحساسي كمن يكتشف عالماً آخر بكامله» .

«ها! يمكنني أن أتخيل ذلك . لا ، لقد كان مسموحاً لنا أن نتجول بحرية كالدجاج في قريتنا . كل شخص كان يعرف الآخر ، ولذلك لم يكن هناك أي ضرر محتمل من التجوال» .

«وهل تلك أول ذكرى لك يا مولاي؟»

«ماذا؟ كلا» نظر إلى يده لوهلة ثم شكل منها قبضة «كلا ، إن أول ذكرى لي هي الخنجر ، **القامة**»

شعرت بالذعر من هذا القول «الخنجر يا مولاي؟»

«نعم . إنها عادة شركسية قديمة . إنها الطريقة التي يكتشف فيها الآباء نوعية الطفل الذي تباركوا بقدومه» .

«القصة هي أن الطفل بحاجة إلى إجراء اختيار لنفسه عن المسار الذي يرغب بسلوكه في الحياة ، رغم أنه في العادة فإن اهتمامه الرئيس سيكون اتباع مسيرة مهنة والده . ربما كنت في السن نفسها التي ذهبت أنت فيها للاستكشاف للمرة الأولى . حضر إليَّ والدي ووالدتي بينما كنت العب على أرضية بيتنا مع شقيقتي جونا . كانت تستمتع باللعب معي في ذلك الوقت وكأنني دمية حيَّة ، تمشط لي شعري وتحملني في أرجاء البيت ، وحتى تأخذني لنقطف الأزهار في الصيف . كان ذلك يجعل والدي أكثر حزماً من العادة وأحياناً يرفع صوته ليجبرها على التوقف . أنت تعتقد أنني قائد عالي الصوت ومرعب حينما يتعلق الأمر بمعركة ما يا عبد ، ولكنك يجب أن تعرف بأن والدي كان أكثر شراسة مما آمل أن أكونه على الإطلاق ، طبعاً عندما كان يريد ذلك» .

«حضر إليَّ كلاهما في ذلك اليوم وفردا أمامي تشكيلة من الهدايا . ما زلت أرى كيف أمسكت أمي بمعصم جونا ورفعتها إلى قدميها حتى لا تؤثر على قراري . كان هناك سيف خشبي وبعض الأدوات الموسيقية والعاب أخرى نسيتها الآن . أظن حتى أنه ربما كان هناك قوس وسهم ،

لكن ذلك سيكون من مخيلتي . أذكر أنني نهضت واقفاً أحدق في هذه الوليمة من العطايا ، وأن يدي امتدت بشكل مباشر إلى السيف . طوحته بضع مرات ثم نظرت إلى الأعلى . رأيت أبي واقفاً . «أخبرتك أنه سيكون مقاتلاً ، نعم» . وهو مبتسم في وجهي . لقد ظل يأمل في أن ابنه سيصبح مقاتلاً ولا يخذله ، وقد تحققت أمنيته وأمله . لقد كان لدي مسبقاً مطرقة صغيرة قد صممها هو لأجلي بالحجم المناسب تماماً لصبي في سني وبرأس معدني أيضاً» .

«منذ ذلك اليوم فصاعداً ، لم تفارق يديَّ المطرقة ولا السيف الخشبي ، كلٌّ في يد . كنت أتدحرج في أرجاء المحددة ، معتقداً أنني أقدم المساعدة بينما كل ما أفعله هو تشكيل عثرة في الطريق . لا بد وأن أبي كان رجلاً متساهلاً ليسمح لي بالاقتراب إلى تلك الدرجة من أعمال على تلك الدرجة من الخطورة ، لكن هكذا كان الوضع . لكن مساعده الصبي أميشا . . . لم يكن لديه ذلك القدر من الصبر . صبي نيِّق صعب الإرضاء . . . ماذا؟ الخنجر؟ نعم نعم . . . تذكرت الآن» .

«كما قلت ، كنت في مجرد الرابعة أو الخامسة من عمري وإذا بي أتلقى ناياً وأطواقاً وسيفاً . بالطبع لم تكن لدي فكرة عما يدور حولي ولكنني انتقيت السيف الخشبي بكل الأحوال حتى يلائم مطرقتي ، وكان والدي سعيداً فيما بعد إلى درجة أنه عانقني . ثم أخرج من تحت أثوابه الراقية والتي ارتداها خصيصاً للمناسبة . أخرج قامة كادت أن تصل إلى خصري . إن الخنجر الشركسي سلاح رهيب ، أتعرف ذلك يا عبد؟ فشعرت بإثارة لدى رؤيته لا تشبه أي شعور آخر أحسست به من قبل . لقد كان الأمر تقريباً مثل المرة الأولى التي ترى فيها جسد امرأة عارية ، إحساس بالقوة والخفة في الوقت نفسه ، وكأنما انفتح أمامك عالم جديد .

كان ذلك السلاح عظيماً يا عبد . كان يومض مثل الجمرات الحارة الخارجة من اللهيب قبل أن تشوي قطعة اللحم مباشرة . حتى في وضح

النهار ، كان حرياً بأن يضيء غرفة بحالها» .

«لم يسمح لي بالاحتفاظ به وقتها . لأنني ببساطة ما كنت أتورع عن بتر يدي الصغيرة بذلك الخنجر . كلا ، لقد سمح لي والدي برؤيته وأخبرني بلهجة كبرياء أنه سيكون لي إذا أنهيت تدريبي لدى الأتالق مثل رجل ، ثم عدت إليه لأتعلم عمل المحددة . هاها! هل تعلم أنه كانت لدي الجرأة لأتصالب بظهري وأبرز فكي وأقول لأبي إنني أعرف عمل المحددة سلفاً ، ولذلك فلا داعي لأن أذهب إلى أي مكان! أقول لك يا عبد ، ما زلت أستطيع أن أرى الظل الذي عبر محياه ، لقد قلت لك ، إنه قادر حتى هذا اليوم أن يبث الرعب في قلب أي رجل في هذا الجيش ، بمن فيهم أنا شخصياً ، وبالسرعة نفسها ، انحسر الظل عن وجهه فحملني بين ذراعيه» .

قال لي أن **الأتالق** . . . ماذا؟» الأتالق هم المدرسون الشراكسة الذين يربون الأولاد المتحدرين من عائلات نبيلة على استخدام الأسلحة والقتال ، ولكنهم فوق ذلك مكلفون بتفتيح عقولهم على الاستراتيجية والتفكير العميق» . «عندما يتخرج الفتى ويعود إلى عائلته رجلاً بعد بضع سنوات ، يكون لائقاً لأن يقود ويحكم بعدل . . . أتساءل أحياناً عن مقدار ما تعرفه يا عبد . . .» .

أخبرني أبي بهذا بينما كنت بين ذراعيه . قال لي إنه رغم أننا نشعر أحياناً وكأنه لم يبق سوى القليل لنتعلمه ، إلا أننا كثيراً ما نفاجأ بقلة ما نعرفه . هممم؟

«آه ، لا شيء . . . لقد كنت أحاول أن أتذكر شيئاً آخر للحظة ، لكنه غاب .

دعنا نتكلم قليلاً في الغد يا عبد ، هممم؟ احصل على قليل من النوم : فإن لدينا ركوب صعب أمامنا» .

أتعجب وأنا أعيد صياغة هذه المحادثة داخل رأسي ، كم منها أتذكر شخصياً الآن فعلاً ، وكم منها هو مجرد تخيلات رجل عجوز . هل يمكن

أن يكون أكثر قادة زمننا إثارة للرعب والإعجاب ومنقذ دينا ، قد سمح لنفسه بأن يتكلم مع شخص مثلي بهذه الطريقة؟

الجواب هو نعم ، لأنه وبغض النظر عن مدى صعوبة التصديق حينما أعدد المذابح والفظائع التي ارتكبها بيبرس ، ينبغي علي أيضاً أن أتذكر أنه كان مرة صبياً صغيراً أحبه أبوه وأمه بقوة ، ولم يريا فيه سوى الإعجاب والنور والشجاعة . لقد كان الصبي الصغير صاحب المستقبل الذي خططه له والده بعناية ، واختطف منه مستقبله فتغيرت حياتهم وحياتنا إلى الأبد .

أخبرني بيبرس أنه كان طفلاً سعيداً . في الحقيقة ، كان هناك القليل جداً من الأطفال الذين يمكن أن يكونوا أكثر سعادة . فهو الطفل الذي طالما تمناه أبوه ، ولديه أم محبة وقامت شقيقاته الأربع بتدليله وحمايته . عندما كان صغيراً جداً ، كان لابد من منعه من ملاحقة والده الذاهب إلى المحددة قبيل الفجر في كل يوم ، وعندما أعطي الإذن بايصال المرطبات إلى العاملين أخيراً ، كان يحمل الكيس المربط ويركض بأسرع ما تحمله ساقاه عبر الوحل والعشب ليصل سعيداً ، مبهور الأنفاس .

أصبح قوياً بطريقته الخاصة . أخبرني بأن طعامه المفضل في ذلك الوقت هو «ناترو خشوه غاقا» و«ناترو خشوه غاجا» وهما كيزان الذرة الصفراء المسلوقة والمشوية التي تناوله إياها والدته ، والتي شكلت وجبات إفطاره وغدائه وعشائه .

«لدى بلوغي الحادية عشرة من عمري يا عبد ، كانت لدي قوة معظم الرجال في قريتي . . . أحد عشر!»

لم يكن لدي سبب لأشكك في أقواله ؛ لأنني في الواقع راقبته في بعض المناسبات وهو يولم لزوار عظام ونبلاء فيقدم لهم طبقاً من أكواز الذرة الصفراء . كان ذلك اختباراً صغيراً منه . الذين منهم يبدون السرور بهذا الطبق غير المتوقع ، كانوا يحظون باستماع منصف وصداقة لا تنتهي من بيبرس . أما الآخرون الذين يرفعون أنوفهم عن مثل ذلك الطبق الفلاحي ،

فقد كانوا يجدون أنفسهم وقد مرغت أنوفهم بسرعة من قبل الملك الغاضب والشاعر بالإهانة في هذه اللحظات .

هناك عادة أخرى لديه تبدو وكأنها غريبة على غير الشراكسة هي حبه للحليب . كان يشرب منه كميات تملأ الدلاء بعد قيلولته بعيد الظهر ، ولم يكن هناك شيء آخر ينعشه بطريقة أفضل . يضطر الحراس والخدم أن يبتعدوا إلى الوراء بينما هو يحمل قدحاً كبيراً من الحليب المفرط في برودته والرغوة تفور عليه بيسراه ، ويلوّح بالسيف بيمناه . بغض النظر عما يحتويه الشراب من مغذيات فقد ظل يمنحه الحدة والحيوية والمتعة . كان كذلك يحب العسل من النحل : طعام اعتاد عليه في وطنه الأصلي ، حيث يقول إنه كان متوفراً بكثرة . كان ينسب قوته إلى هذا الخليط العجيب من الغذاء ، وظل يشرح لي بالتفصيل عن المنافع التي يمكن للتغذية الجيدة أن تجلبها .

«الذرة والحليب والعسل يا عبد! أطعم أطفالك من هذه ولن تكون لديك أية هموم فيما يتعلق ببنيتهم . لطالما شعرت بعقدة نقص تجاه عائلة والدتي لكونهم صغار البنية ، ولكن ليست هناك أية مشكلة فيما يتعلق بقوتي ، أم أنك ترى غير ذلك؟»

«لا مشكلة يا مولاي»

«لا مشكلة حقاً . لقد ورثت القوة من جهة والدي . لقد تشكل ذلك الرجل من الكتفين . كان يصرّ على أن أجلس وأتناول طعامي معه كل يوم وتعلمت من مراقبته . كان يعيش على الحليب والذرة والخبز والعسل وظل أقوى رجل شاهدته على الإطلاق . لقد سبق وأخبرتك عنه . أليس كذلك؟»

لقد أخبرتني يا مولاي .

«نعم ولكن هل أخبرتك كيف تعاملت مع ذلك الصبي الحداد العامل لديه؟»

لقد أخبرني عنه سابقاً أيضاً ولكنني استمتعت بسماع القصة مرة أخرى . على ما يبدو فإن الصبي المدعو أميشا المتدرب لدى أشاماز ، قد أحسّ بالتغير في الجو منذ ولادة ابن سيده ، وأدرك أنه بحسب التطور الطبيعي للأمور سيضطر إلى التحرك قدماً في وقت ما ، والعثور على قرية أخرى تبحث عن خدمات حداد . لكونه عاملاً مجداً وإن لم يكن ذكياً بدرجة خاصة ، يعبِّر أميشا عن شعوره بالإحباط تجاه هذا الموقف بالتفكير الحريص والتخطيط لمستقبله ، ولا حتى بمفاتحة صريحة مع مستخدمه ، بل لجأ بدلاً من ذلك إلى الاقتصاص من الصبي الصغير ، والذي بالطبع لم تكن لديه فكرة عن أسباب هذه المعاملة السيئة .

من ناحيته ، كان بيبرس الذي الذي بلغ الرابعة أو الخامسة من عمره في هذا الوقت ، يغذي النيران بإطلاق التصريحات عن «محددة البابا» ويقلد والده في اصدار التعليمات لأميشا . أغضب هذا الوضع أميشا العصبي الغيور فبدأ يشعر بسرور خاص في التحدث إلى بيبرس بخشونه وصفع الولد الصغير ، كلما اقترب أكثر مما يجب وأعتقد أن سيده لا ينظر باتجاهه . أعجبته حقيقة أن بيبرس لم يكن طفلاً كثير البكاء يركض إلى أبيه كلما تلقى صفعة .

طبيعي أن أشاماز قد توقع هذا المسار من الأحداث ، لكنه وبالهدوء الذي يعالج فيه الأمور ، ترك الولدين ليعثرا على حلهما الخاص بهما . كان بيبرس هو الخاسر حتماً من كل هذه الاحتكاكات . لكن حدساً داخلياً أخبر أشاماز بأن لا يعنف المتدرب عنده ، ليس بعد .

لدى بلوغه سن الخامسة أصبح بيبرس طفلاً قوي البنية في هيكله ورأسه ، إن لم يكن في أعضائه ، واتخذ سبيله لأن يطوِّر صفة العناد التي سوف تنفعه بدرجة كبيرة لاحقاً . ربما كان أميشا أكبر منه سناً بسبع أو ثماني سنوات ، لكن بيبرس توفرت لديه البصيرة لأن يراه على حقيقته : صبي متنمر .

تأزمت الأمور في وقت باكر من يوم شتائي كابي . أخبرني بيبرس أن السماء كانت بلون رمادي قاتم ، والغيوم منخفضة ومعتمة إلى درجة أن أمه أرسلته إلى المحددة جرياً خشية هبوط المطر . ركض إلى هناك حاملاً حزمة الطعام وبدأ على الفور يجري في أرجاء المكان مثل يعسوب مفرط الحيوية .

هناك مثل شركسي قديم يا عبد ، مؤداه أن الفرس لا تدوس على فلوها أبداً ، وكان ذلك هو ما يؤمن به والدي . يسمح لي بالدخول والتجول في المحددة برغم الخطر لأنه أدرك أنها لا يمكن أن تؤذيني ، وحتى لو أنني أحرقت إصبعاً أو شخطت كتفاً ، فأين الضرر في ذلك؟ تلك هي الطريقة التي نتعلم بموجبها . هناك مثل شركسي آخر يقول «الرجل الذي لم يخطئ أبداً لم يفعل شيئاً أبداً» .

على ما يبدو فإن أميشا قد تلقى تقريعاً في هذا الصباح بالذات على غلطة ما في قالب معين أو أنه أضاع أداة . أصبح هذا الغبي غاضباً من التوبيخ ومهاناً من إخفاقه ، وجاهزاً للتنفيس عن غضبه على أقرب هدف ، وبدا أن بيبرس قد قدم له مثل هذه السانحة . بدا على الصبي الانزعاج بمجرد ظهور الطفل وصفعه باستعراضية مبالغ فيها كما يفعل دوماً لدى وصول الطفل إلى مدى ذراعه .

طالما انزعج بيبرس واحتار من هذه التصرفات في الماضي ، لكنه ظل يتحرك مبتعداً عن منطقة أميشا ولم يفكر في الموضوع كثيراً . ولكن في هذا النهار بالذات ، فقد تمادى معذبه أكثر بكثير مما يمكن تحمله . كان بيبرس قد توقف ليتفحص أداة مصنوعة حديثاً ، منجل من نوع ما كما قال لي حين روى لي القصة ، وكان منشغلاً بنفسه كلياً حينما جاءه أميشا من خلفه .

تناول الأداة من بين يدي بيبرس وعندما استدار الطفل ليواجهه ، صفعه على خده بقوة بكفه الحرة . صدر عن الصفعة دوي قوي وأصيب بيبرس بدوار مؤقت منعه من أي ردة فعل .

لم يكن أحد قد ضربني بهذا الشكل مسبقاً أبداً يا عبد . طبعاً كنت أتصارع مع أولاد القرية الآخرين طيلة النهار ، وكنت أتدافع وأسحب مع شقيقاتي وتضربني والدتي على مؤخرتي . كذلك كان والدي يلكمني على ذراعي أو كتفي بين الفينة والأخرى حينما أسيء التصرف أمام الضيوف ، لكن لا أحد يا عبد ، لا أحد كان قد صفعني على وجهي من قبل أبداً .

ماذا فعلت يا مولاي؟

حسناً ، وقفت مثل شخص غبي للحظة . أدركت أن أميشا أكبر مني حجماً وحتى إنه يبلغ ضعفي حجمي ، ولكنني عرفت مقدار قوتي . ثم بدأ صوت ما هو صوتي ، يتكلم داخل رأسي . جاء الصوت شبيهاً بصوتي ، لكن وقعه جاء منخفضاً . وأكثر هدوءاً وروية . كان صوتاً مشحوناً بالحكمة . قال «اسمح لهذا الأمر أن يحدث الآن وسوف يحدث مرة أخرى» . وقتها اتخذت قراري .

بقي أميشا واقفاً يحمل المنجل بين يديه ، ويبتسم للصبي بسخرية ، لكن الابتسامة المتعالية سرعان ما اختفت حين رأى تعبيراً مختلفاً يحتل وجه ضحيته . أعتقد أن أميشا قد نال شرف أن يكون الأول الذي يشهد ما رآه الكثير منا بعد سنوات في الخيام وساحات القتال على مدى الأرض المقدسة : غضب بيبرس .

ربما كان غضبه هو الأكثر ترويعاً مما شاهدته على الإطلاق ، وقد رأيت بعض المشاهد المحزنة في حياتي . كيف يمكنني أن أصف شيئاً هو أبيض لشدة حرارته وبارد كالجليد في الوقت نفسه؟ كان وجهه يفقد كل تعبير حيوي وتتحول عيناه إلى سواد الفحم على اتساعهما ، وقد تدلى حاجباه الكثيفان ، ثم تومض العلامة البيضاء على حدقته وتنبض . كان الشخص الذي توجه إليه النظرة يرتجف ، وأنا أستطيع أن أشهد على ذلك حتى عندما كان بيبرس ضابطاً عادياً . كنت تعرف أن الرجل الماثل أمامك قادر

على أي شيء على الإطلاق ويبعث ذلك على تجمد نخاعك .

هذا هو ما رآه الأحمق أميشا في ذلك الصباح ، ولم يتوفر لديه حتى المنطق لمحاولة إصلاح الموقف .

قال «ما الذي تنظر اليه أيها «الأعور»؟ لكن صوته خانه بالتعثر . بإمكاني أن أتخيل التأثير الذي أحدثه غضب بيبرس بالضرورة ، صادراً عن طفل ، لكنني أعرف أسلوبه في القتال عندما يتشاجر . ركض إلى الأمام ، متجاهلاً كلياً حقيقة أن خصمه الأكبر حجماً منه بكثير يحمل سلاحاً ، ونطحه مباشرة برأسه في خصيتيه . تداعى جسم أميشا منحنياً وهو يلهث لانقطاع نفسه .

طوَّحت بكلتا قبضتي إلى وجهه وصدره مباشرة ، وأذكر أنني أصبت النقطة الحساسة فوق قلبه مباشرة بقبضتي اليسرى . لم يعد قادراً على التنفس ، هاهاها!

لابد وأن أميشا وجد أن الهواء قد انقطع جراء اللكمة على صدره ، خاصة وأن الضربة على مشعره قد عطلت قدراته . ركع على ركبتيه وسقط المنجل من قبضته ورفع يديه بوهن حتى يحجب الضربات المتلاحقة كالمطر .

لم أتوقف يا عبد : بانغ بانغ بانغ على كتفيه ورأسه . أمسكت قميصه بيدي اليمنى ولكمته المرة تلو الأخرى بين لوحي كتفيه . عندما سحبني أبي بعيداً عنه ، ركلته بكلتا قدمي .

شاهد أشاماز الحادثة بأكملها ، وانتظر حتى شعر أنَّ ابنه قد قد أثبت موقفه قبل أن يتدخل . بقي أميشا مطروحاً متكوراً على الأرضية الترابية ممسكاً بركبته والدموع تتساقط من عينيه .

قال الأب «يكفي هذا القدر الآن» .

انتظرت حتى استعدت السيطرة على أحاسيسي ثم وقفت لأنظر إلى ما فعلته . لم يكن هناك شعور يساويه يا عبد . أدركت أنني قادر

على شيء لم أكن اعرف أنه موجود قبل ذلك ، لقد كان اكتشافاً مذهلاً .

لا أعرف ما إذا كان أميشا قد أحس بأنه مذهل إلى تلك الدرجة . لم يعد إلى مضايقة بيبرس أبداً حينما يأتي إلى المحددة ، ورغم أن بيبرس أصبح يعامله كشخص بمرتبة أدنى ، إلا أنه لم يكن لديه من القسوة والشر في شخصيته ما يسمح له بإذلال أميشا كما يمكن أن يحدث لو أن الأدوار انقلبت . على أية حال ، أصبح على وشك أن يحظى باكتشافين آخرين يحدثان لكل الصبية في مرحلة ما : الخيل والبنات . تحقق حبه للخيل بسبب محادثة أجراها أشاماز مع صديقيه ناريك ولاشه بعد العراك في المحددة .

سأل ناريك غير مصدق «وتقول إنه جعل يبكي وينطوي مثل طفل صغير؟»

هزَّ أشاماز رأسه «لقد كنت أعرف أن ذلك الفتى فاشل ، لكن ذلك أمر معيب» .

رفع ناريك يده «مع كل الاحترام لابنك يا أشاماز» .

قال أشاماز «بالطبع . أميشا صبي طيب في الحقيقة ويعمل بإخلاص» .

«أنت لست مضطراً إلى الدفاع عن ابن أخي يا أشاماز . أنا أعرف ما هو عليه ، فقد راقبته أثناء لعبه منذ أن كان طفلاً . لقد كنت آمل أن الوقت الذي يقضيه معك في المحددة سوف يسوِّي بعضاً من الخصال الملتوية التي لديه ، ولكن يبدو أن بيبرس قد سبق كلينا إلى عمل ذلك!» .

قال لاشه «يبدو الأمر هكذا فعلاً» .

قال ناريك وهو يفكر بجدية «لقد حان الوقت لإحضار جواد إلى الصبي» .

سأل أشاماز «أليس الوقت مبكراً على هذا؟»

«لديه سنة أو اثنتان قبل أن يصل إلى السابعة ، ولكن قد يستغرقك الأمر تلك المدة قبل أن تعثر على جواد قوي بما يكفي ليتحمل ابنك بكل الأحوال» .

فكر أشاماز بهذا الكلام ثم هزَّ رأسه «ذلك صحيح . أريد أن أجد له الركوبة المناسبة . سنقوم بزيارة المعارض» .

قال لاشه «بدون استعجال ، فأنت قادر على أن تكون انتقائياً» .

قال ناريك «دعونا نزور المعرض التالي مع الصبي ونرى ما هو المعروض» .

في تلك اللحظة بالذات ، مرَّت بهم غشاوه سريعة واتجهت مبتعدة نحو الحقل والتلال في المدى .

بيبرس

قال ناريك «إن ذلك الصبي يعدو بسرعة حصان منذ الآن . هل تتخيَّل ما سيكون عليه مع سيقان أربع؟»

قال لاشه «بيبرس . . . ما زلت أحاول التعود على الاسم يا أشاماز . لماذا لم تطلق عليه اسماً شركسياً؟»

نفض زشاماز كتفيه «بدا وكأن الاسم يليق به» لم يشأ أن يعترف للاشه بالحقيقة حول تسمية ابنه ، بأنه ينظر إلى ابنه كل يوم ويزداد اقتناعاً بأن بيبرس لن يمضي حياته في القرية مثل بقيتهم . جاءه إيحاء ما وأقنعه بصحة هذا . عادت إليه قصة سمعها عن الاسكندر المقدوني في هذه اللحظة وهو يتحدث مع أصدقائه عن شراء جواد لابنه .

كان قد جلس مع الآخرين وأصغى بينما انطلق كاهن قاص جوال يروي كيف قام الاسكندر بترويض حصان بري أمام والده الملك فيليب . كان الجميع ، بمن فيهم الملك ، قد قالوا إن الحصان غير قابل للترويض ، لكن الاسكندر تمكن من الصعود إلى ظهر الحصان وركوبه في أرجاء الزريبة بدون أية صعوبات ظاهرة . وقتها قال له الملك إنه ينبغي عليه أن

يفتتح مملكة أخرى عندما يصل إلى سن البلوغ ، لأن مقدونيا برغم عظمتها وقوتها لم تكن كبيرة بما يكفيه .

هكذا هو بيبرس . لم يزل أكبر قليلاً من طفل وها هو يطرح صبياً أكبر منه أرضاً ويتعلم مهارات الحداد . ما الذي سيصبح عليه عندما يبلغ الخامسة عشرة وتتدفق في عروقه قوة رجل بالغ؟ من الذي سيقدر وقتها على الوقوف في وجهه؟

عاد ذهن أشاماز إلى اليوم الذي قرر فيه اسم ابنه . بالنسبة للبنات فقد اختارت مزجواشه الاسم الذي ستعرف به كل واحدة منهن ، لكنها رفضت هذا الواجب عندما سألها عنه أشاماز بعد ولادة بيبرس .

قالت «إن الأمر متعلق بك لإقراره» .

كانت النتيجة أن بيبرس بقي بلا اسم لبضعة أيام . بحلول هذا الوقت ، حل الشتاء فعليا ، وغرقت القرية ومحيطها المغطى بالثلوج في صمت وهدوء أشبه بالموت . بقيت الوحول المتجمدة وأوراق الشجر حول المساكن غير مداسة معظم الوقت ، وأبقى الناس أنفسهم في الداخل اتقاء الصقيع .

ظل أشاماز ينظر خلفه إلى تجمع الأبنية من محددته طيله النهار ولا يرى سوى الدخان المتصاعد من المداخن . لم تكن هناك أي حركة أخرى . بسبب عدم إصراره على إنتظام أوقات عمله ، فقد انتظر حتى أنهى آخر حذوات الخيل التي وضعها جانباً لذلك النهار ثم تخلى عن مطرقته . رفع أميشا رأسه من حيث كان يعمل في الجهة المقابلة من الغرفة ، فهز أشاماز رأسه بما يشير إلى فترة استراحة . نزع الفتى المريلة الجلدية التي يرتديها فوراً ، وذهب لينشغل بفك كيس طعامهما . خرج أشاماز نحو برميل المطر ليغسل يديه قبل وجبتهما . ألقى بنظرة سريعة جدا نحو القرية أثناء خروجه واتجه إلى الماء مباشرة . غطس يديه في السائل الجليدي ثم رفع رأسه لدى سماع صوت من بعيد .

حوافر . أعاد النظر إلى البيوت الغارقة في السديم فشاهد فارساً يقترب . هذا أمر غريب ، لأنه لم يكن يتوقع أحدا في ذلك اليوم ، وحتماً ليس شخصاً على ركوبة ضخمة بحجم التي يراها الآن .

ذلك حصان حربي

اقترب الفارس الآن وأصبح بالإمكان تمييز الملامح الفعلية لمظهره ، وأصبح جلياً أن الرجل ليس محليا . لملابسه مظهر أجنبي غريب ولحيته السوداء وشعره المسترسل الذي يؤطر وجهاً أكثر قتامة من البشرة العادية لأي قفقاسي .

تناول أشاماز خرقة وبدأ يمسح يديه . إن مرور الفرسان الأجانب عبر أراضيهم أمر غير عادي في هذا الوقت من السنة ، هذا صحيح ، لكنه لم يكن شيئاً لم يسمع به من قبل ، أحسّ بالفضول أكثر من القلق .

عندما اقترب الرجل بما يكفي لأن يتمكن أشاماز من التعرف على تفاصيل لباسه ، استطاع أن يدرك بأنه يرتدي ملابس رجل قادم من هضاب القازاخ .

إنه سكيثي . . . أو ربما هو من الكيبشاك . . . .

لم يكن أشاماز متأكداً من وجود فارق . الرجل يرتدي سراويل حمراء وسترة قصيرة مع حذاء فروسية طويل مسحوب إلى القرب من خصره ، وصدارة ذات شبك معدني . يتسلح بخنجر تحت رداء خارجي من الفرو ، وأمكن لأشاماز أن يرى قوساً مربوطا إلى سرجه في مدى سهل الوصول إليه .

اتخذ الحداد وقفة محايدة وراقبه أثناء اقترابه ، تماماً كما يفعل مع كل الزوار .

أوقف الفارس حصانه الأسود الرائع على مسافة تقارب الأذرع العشر من المحددة ونظر حواليه . تحركت عيناه عبر الرجل الواقف أمامه ثم اتجهت إلى البناء الخفيض خلفه ، وبعد ذلك إلى النهر خلف كل ذلك قبل أن

تعودا إلى أشاماز وتستقرا عليه .

سأل بلهجة ليست ودية ولا جلفة «هل أنت حداد هذه القرية؟»

قال أشاماز «أنا هو وأنت على الرحب والسعة»

«إنني بحاجة إلى سيف»

«لدي سيوف للبيع . هل تتناول بعض المرطبات؟»

هزَّ الرجل رأسه بالإيجاب وقال وهو يترجل «سأفعل» . ثم نظر حواليه مرة أخرى «هل لديك علف؟»

لوَّح أشاماز بيده «سوف يعتني فتاي بحصانك . تعال وتناول بعض الطعام معي»

«أشكرك كثيراً أيها الحداد . لكن كانت رحلتي طويلة . والشكر الجزيل لابنك أيضاً»

«إنه ليس ابني.ولكنه سيكون مسروراً من امتنانك» . استدار أشاماز «أميشا! تعال واعتنِ بحصان ضيفنا»

واضح أن أميشا قد سمع وقع الحوافر القادمة والأصوات ، لكنه لم يبذل أي جهد للقدوم . على أيه حال ، خرج لدى سماعه نداء أشاماز وهو ما زال يمضغ الطعام ويشعر بالحرد .

لم يكن ينظر إلى الغريب بل اكتفى بتناول الرسن بدون أن ينطق بكلمة . نظر الغريب إلى الصبي ، ولكن التعبير على وجهه بقي محايداً ولم يتفوه بأي تعليق .

قال أشاماز «تعال اجلس قرب النار ودفىء نفسك» وهو يشير إلى الرجل ليقترب من الكير «أنا أشاماز وهذا هو أميشا»

انحنى المسافر «أنا بيبرس وهذا» أشار إلى حصانه «هذا بوسيفيلاس»

استدار رأس أشاماز جانبا عند هذا القول . فقد سمع ذلك الاسم من قبل .

«من أين أنت قادم يا بيبرس؟»

أخرج الضيف كيسا ثقيلا من خرج سرجه .
قال «من القسطنطينية»
«وكيف هو الوضع هناك؟»
«سيء . إن اللاتينيين حيوانات .»
«هل أديت الخدمة مع **الباسيليوس**؟»
نفض بيبرس كتفيه «مع أحدهم ,جون دوكاس حاكم نيقيه . إنه يقاتل مع واحد من المطالبين الآخرين بالعرش ويحاول أن يفاوض التالي ، بينما يفعلون الشيء نفسه معه بدورهم . إن الرومان بحكم المقضي عليهم» .
وصلا إلى داخل المحددة حيث أشار أشاماز باتجاه الموقدة المفتوحة ، حيث وجد كرسيين صغيرين .
«اجلس أرجوك»
فعل الضيف بيبرس ما أشير عليه واتخذ كرسياً «أشكرك كثيراً» .
أجرى أشاماز تقييماً شاملاً للزائر أثناء دخوله ووجد فيه صفات كثيرة أخبرته بأن بيبرس رجل ينبغي التعامل معه بجدية . كان أقصر قامة من مضيفه برأس كامل ، ونحيلاً لكنه يشع بقوة طبيعية من الطريقة التي يتحرك فيها بلا أي مجهود . راقبه أشاماز وهو ينزع الطاقية العريضة ويمسد على فروة رأسه وقد استند مرفقاه إلى ركبتيه . أصابع طويلة على يدين رفيعتين .
إنه سريع . . .
أراح بيبرس يديه خلف رأسه وشبك أصابعه للحظة . استقام بظهره وتفحص مضيفه بدوره . شاهد أشاماز عضلات الساعدين وهي تنقبض تحت أكمام سترته الرقيقة .
وهو قوي . مقاتل إذاً . مأجور لدى أحد أباطرة الرومان
لكن أشاماز أدرك ، كما يعرف كل شخص في القرى والجبال التي

خلفها ، بأن روما لم تعد موجودة اليوم . قبل حوالي عشرين سنة ، سقطت القسطنطينية بأيدي قوة من الصليبيين يقودها أهل البندقية ، ونهبت أعظم مدينة مسيحية في العالم ، تمت سرقتها وتدميرها من قبل القوات نفسها التي أرسلها البابا لحماية المدينة نفسها . هذا الرجل بيبرس قد أدى الخدمة لدى واحد من المتبقين الثلاثة الذين ظهروا بعد سقوط المدينة ، وسعى نحو ثروته كما فعل آلاف كثيرون قبله .

استولى الفضول على أشاماز فسأله «وهل أنت عائد أدراجك لأنه لم تعد توجد فرصة للامبراطورية؟»

استند بيبرس أكثر إلى الخلف وتمطى بكتفيه ثم سحب نفساً عميقاً .

«كلا ، إن اللاتين أقل عدداً بكثير من أن يستطيعوا الاحتفاظ بالمدينة إلى الأبد . ليس لديهم أي دعم من الناس في الأرياف والبلدات . سوف يتم طردهم عاجلاً أم آجلاً . ولكن سواء سيتم ذلك على أيدي الرومان أم الأتراك ، فأنا لا أستطيع أن أجزم» .

«لماذا إذاً تعود راكباً إلى الهضاب رغم وجود جوائز يمكن اكتسابها؟»

«لقد ظهر تهديد أعظم من المحمديين واللاتين» .

كان أميشا قد عاد حاملاً إبريق الشاي مع قدحين ويحاول بعباطة أن يقدم واحداً ويصب في الوقت نفسه ، بينما لا يزال يمسك بالقدح الثاني . مدَّ أشاماز يده بنفاد صبر وخطفه منه ، محرراً يده ليمكنه من خدمتهما بحرية .

حين أنهى الفتى سكب الشاي لهما ، أشار له أشاماز بالابتعاد ومال إلى الأمام مرة أخرى وقد تعاظم اهتمامه .

«من هم الذين تتكلم عنهم؟»

انهمك بيبرس في النفخ على كوب الشاي وتدويره .

قال «المغول» وتناول رشفة .

بدا على أشاماز عدم الاقتناع «إلى هذا البعد باتجاه الغرب؟»

بعد لحظة تعوَّد على لسعة الشاي الحارة، بدأ بيبرس يتلذذ بالطعم وتناول رشفة أخرى قبل أن يرد.

قال «لم يصلوا بعد ولكن ربما في نهاية المطاف...» رفع رأسه ليقابل عين أشاماز «إذا لم يتم إيقافهم أولاً».

«ولكن لماذا؟ هل يريدون الأرض؟»

«إنهم كفرة بحسب القصص التي يرويها عنهم العرب. حسب خبرتي فإن كل الرجال في الجنوب هم من أهل الكتاب. مسلمون ومسيحيون ويهود. لكن الشرقيين لا يعرفون شيئاً عن إله حقيقي واحد. أبعد من ذلك، فهم لا يهتمون لأمر الرب أيضاً. يقول العرب الذين ذهبوا إلى الهند بأن المغول يؤمنون بأن مهمتهم هي أن يحكموا العالم».

«اللاتين يقولون ذلك كما يفعل العرب أنفسهم».

«لكنهم تم إيقافهم. لم يوقف أحد المغول حتى الآن».

«وهكذا أنت تنوي أن تحاول؟»

«لقد قيل لشعبي إن الخان العظيم سوف يأتي إليهم. وأنا ذاهب لأقف معهم».

«هل أنت من الكيبشاك؟»

«الكيبشاك هم إخوتنا. إنني من الكومان. هنالك العديد ممن خدموا أباطرة القسطنطينية لعقود وحتى أجيال، وهم سيفعلون الشيء نفسه».

أفرغ أشاماز كوبه «ولكن أين هم الآن؟»

ابتسم بيبرس «إنهم قادمون خلفي».

«لابد وأن حصانك سريع».

«إن بوسيفيلاس أسرع حصان رأيته على الإطلاق، والأشجع بضعفين».

«إذاً سوف يعيدك إلى قبيلتك».

أنهى بيبرس الكوماني كوب الشاي بشهقة اقتناع ورضى، ثم مده

طالباً المزيد عندما عرض عليه أشاماز ذلك . «سوف يعيدني . فقد قام بهذه الرحلة من قبل» .

«سيحتاج إلى حذو جديد لمثل هذه الرحلة» .

«ذلك صحيح» .حرَّك بيبرس الكوماني ذراعه اليسرى نحو الكيس الذي أنزله عن السرج ووضعه عند قدميه .

رفع أشاماز يده معترضاً «أستطيع من تصرفاتك أن أجزم بأنك رجل يمتلك القطع النقدية . لست بحاجة إلى أن تريني إياها قبل أن أنهي العمل» .

نفض بيبرس الكوماني رأسه نفياً «أنا لا أرغب في أن تشاهد لون نقودي» رفع بطانية ملفوفة وأخرجها من الخرج «إنها ذراعي اليمنى» .

دفع أشاماز بجسمه إلى الأمام وقد ثار فضوله .

قال بيبرس وهو يفتح الرزمة «هناك القليل مما يستطيع المرء فعله بدونه في النهاية» .

هزَّ أشاماز رأسه «هكذا أيضاً أصف أفضل السيوف بدوري . يجب أن يتم صنعها وكأنها امتداد لذراع الرجل الذي يشهرها» .

«لقد كان سيفي بمثابة ذراعي وزوجتي متحدين» . أفرد بيبرس البطانية ووضعها على الأرض بينهما . تفحصها أشاماز .

لقد كان سلاحاً جميلاً . المقبض مزوَّق بأفاع ملتفة ، والرمانة المدورة عبارة عن شكل أسد جبلي مهترئة . فم الوحش مفتوح أثناء زئيره ، رغم أن الخطوط لينة قليلاً ، إلا أن لبدته بقيت مسترسلة . ظهر السيف لعيني أشاماز الخبيرتين على أصله الفولاذي - فولاذ مصقول . ولكن النصل نفسه كان مكسوراً إلى خمس قطع غير منتظمة الأشكال . تناول أشاماز القطعة التي كان يتشكل منها الطرف المدبب وتفحصها بتمعن .

فولاذ . . . على شكل طبقات ومسوَّاة . . . ومطوي فوق بعضه مرة أخرى لجعله أقوى . . . هذا عمل أستاذ خبير . . . التفاصيل . . .

«أستطيع أن أرى السبب في أنك ترغب بتصليحه . لقد كان رائعاً» .

«كان؟»

التقط أشاماز القطعة التالية وطبقها على الطرف مثل أحجية . «بإمكاني أن أعيد تركيبه إلى بعضه مرة أخرى» . نظر إلى الضيف «لكنه لن يعود إلى أصله مطلقاً . يمكنني أن أقول لك بأن الوصلات واللحامات ستجعله أقوى من ذي قبل . لكن ذلك سيكون كذباً» . حدَّق في عيني الضيف بدون أن ترف أجفانه «وستعرف ذلك أنت أيضاً» . أعاد القطع إلى الأرض بلطف «ولكن من أجل سيف كهذا ، يحتمل أن تقنع نفسك بالعكس» .

«لقد سمعت بأنك ساحر . ذلك هو ما أخبروني به لمسافة أميال من هنا» .

ابتسم أشاماز بدون دفء وظلت عيناه خاليتين من التجاعيد «إذاً ، ففي مقدمة دماغك أنت سوف تخبر نفسك بأن رقياتي قد أنقذت هذا السيف الذي يعني لك الكثير : ربما آخذ نقودك وأسلم عليك مودعاً . وسأكون سالماً أيضاً ، لأن الاحتمال هو أن السيف سينكسر في اللحظة نفسها التي تحاول فيها أن تتفوق على عدو في ميدان المعركة . إن الرجال الأموات لا يجيئون باحثين عن رديات لنقودهم» .

«هل ستصلح سيفي؟»

«لا أريد أن أحمل ضميري مسألة موتك . ما قيمة النقود بالنسبة لرجل يشاهد شبحاً في كل مرة يغمض فيها عينيه؟»

ابتسم بيبرس الكوماني «لقد سمعت بأن الشراكسة شعب يؤمن بالخرافات» .

«ما سمعته صحيح . آمل أن لا أكون قد خيبت آمالك» .

«كلا . لقد أثبت لي بنزاهتك وكرم ضيافتك ما كنت أخشاه سلفاً» .

«أنا آسف على خسارتك للسلاح . هل حدث ذلك في معركة؟»

هزَّ بيبرس الكوماني رأسه موافقاً «لاتيني برأس سميك . لقد كسرت سيفي فوق حجاب رأسه وتسبب لي بهذا» رفع قميصه عند الخصر وكشف عن ندبة مثلَّمة بشعة على طول بطنه «لكنه ميت وأنا هنا» . صفق بيديه مرة ، مصدراً صوتاً عالياً ثم نهض واقفاً . «يقولون إن سيفاً مكسوراً قبل رحلة عظيمة هو نذير بالموت» .

نفض أشاماز رأسه من جانب إلى الآخر وكأنه يوازن الاحتمالات «يقولون أشياء كثيرة» .

«ربما سأتمكن من إنجاب ابن قبل أن تصل حجافل البرابرة . أمر طيب أن يعرف الرجل أن اسمه سوف يكمل الحياة» .

هزَّ أشاماز رأسه موافقاً «هذا صحيح . لقد حظيت بهذه النعمة شخصياً مؤخراً»

نظر الضيف إلى الأعلى «تقصد ابناً؟»

هزَّ أشاماز رأسه «تعال وسأريك ما لديَّ لأسلِّحك به في طريق عودتك» .

نهض واقفاً وأشار إلى الضيف ليتبعه . عند الجدار الخلفي للمحددة ، سحب أشاماز غطاءً ثقيلاً معلقاً مثل سجادة مطرزة وكشف عن رف من الأسلحة . استدار وراقب بيبرس الكوماني وهو يلقي بنظرة خبيرة مدربة عليها .

«هذه استثنائية أيها الحداد» .

أطلق أشاماز في هذه اللحظة ابتسامة اعتزاز على ردة فعل الزائر .

«إنها أسلحة جيدة وقوية . ثقيلة بما يكفي لضرب العدو حتى إخضاعه ، وخفيفة بما يكفي للتفوق عليه في مجال السرعة» .

أنزل بيبرس سيفاً قصيراً ووازنه بين يديه ثم دوَّر معصمه ولف النصل في حركة دائرية وهو يطأطئ . «صحيح أنها ستكون فعالة في الاشتباك» .

نجح هذا المرتزق حتى اللحظة في اختبار أشاماز . هزَّ رأسه وترك

الشادر ينزل قائلاً «ربما ترغب في شيء أقل شيوعاً» .

أعاد بيبرس الكوماني السيف إلى مكانه ومشى بإصبعه نزولاً على نصل سيف آخر «ربما» . هو الآخر يعرف هذه اللعبة أيضاً . انحنى أشاماز وفتح صندوقاً كبيراً وأخرج منه الأكياس الجلدية التي تحوي أفخر القطع عنده . حمل الكيسين نحو الطاولة ووضعهما عليها .

راقب بيبرس الكوماني بينما هو يكشف عن السيوف المزوّقة أولاً برقت عيناه إعجاباً بروعة التزيين على القطع ، لكن أشاماز لمح بسرعة كيف انصرف الرجل عنها بالسرعة نفسها . إن رجلاً ذاهباً إلى حيث هو ذاهب ليس بحاجة إلى قطع مبهرجة .

بعد ذلك دوَّر الكيس الذي يضم سيوف القتال الأكثر استثنائية لديه . أبقى عينيه منخفضتين ولكن أذنيه التقطتا سحبة النفس الحادة من قبل الضيف . هزَّ بيبرس الكوماني رأسه علامة الرضى والاقتناع .

قال «لقد أتيت حقاً إلى المكان الصحيح» .

تحدثا مطوَّلاً عبر العصر حتى بدأت الشمس تغرب وتنزلت الوحشة على الحقول التي تقف عليها المحددة . حدَّد بيبرس شكل النصل الذي يرغب فيه بدقة ، واستخدم بعضاً من قطع أشاماز الموجودة ليعرض ما يدور في ذهنه . إن السلاح الرئيس لدى المغول هو القوس ، ولكن إذا وصل الوضع إلى مواجهة مباشرة يداً بيد ، فقد أراد الكوماني أن يوازي تصميم الحسام المعقوف لدى الجحافل بسلاح فعال لديه قادر على التسبب بالتقطيع .

«يجب أن يكون خفيفاً بما يكفي لأطوح به ولكن قوياً بما يكفي لأن لا ينكسر على دروعهم» .

قال هذا بينما انشغل أشاماز في إعادة حذو الحصان بوسيفيلاس خارج المحددة .

قال أشاماز «في هذه الحالة يجب أن ينثني»

«ينثني؟»

«نعم . ستأتي القوة من قدرته على الانحناء أكثر من وزنه» .

وافقه بيبرس «لقد رأيت ذلك في رحلاتي . هل يمكنك أن تصنع سيوفاً على تلك الشاكلة؟»

«لقد سمعت أوصافاً من مسافرين مثلك عن أسلحة المغول ، لكنني أؤكد لك بأن السلاح الذي أصنعه سيحزز أياً منهم حتى يفتحه ويظل سليماً لوقت طويل جداً . سيكون سلاحك مكافئاً ويبزُّ أي سلاح يواجهك في ميدان المعركة» .

«كم هي المدة؟»

أفلت أشاماز ساق الحصان وانتصب واقفاً . «لا أستطيع الجزم بذلك . كل شيء يهترئ في نهاية الأمر ، وحتى أحدُّ النصال يصبح ثلماً بمرور الزمن . دعني أعدك بأن هذا السيف سوف يدوم حتى تنجب الابن الذي سوف يستمر في حمل اسمك»

«أنا ممتن لك من أجل ذلك يا أشاماز ، ولكن كم من الوقت سوف يستغرقك حتى تصنع لي هذا السيف؟»

فكر أشاماز للحظة واضعاً يديه على خاصرتيه والمطرقة التي كان يستخدمها معلقة برخاوة . نظر إلى الغريب الكثير الألوان وتخيل للحظة عابرة حياة مختلفة تماماً عن تلك التي يحياها الآن .

قال بعدها «بضعة أيام . سوف تشرفني إذا قبلت بأن تحل ضيفاً عليَّ في ذلك الوقت» .

تأثر بيبرس بهذا القول : وبان عليه التأثر فقال بسرعة «لا أريد أن أثقل عليكم» .

ليس هناك ما يعرف بأن تثقل علينا في قريتي . أنت ضيفنا» .

«في هذه الحالة فأنا أتشرف . ولكن ألا يخشى قومك من وجود رجل من ديني بينكم؟»

نظر إليه أشاماز بتمعن لوهلة . في الحقيقة لم يخطر موضوع الدين على باله منذ حديثهما عن المغول وكفرهم . بدلاً من ذلك ، كان مهتماً بقصص البلاد البعيدة ، حيث قاتل بيبرس الكوماني وخصائص الأسلحة التي ينبغي عليه أن يأخذها معه .

انطلق بيبرس يقول «لقد كنت مسيحياً وأنتمي إلى الكنيسة الشرقية ، لكنني رأيت الكثير من الأشياء وتعلمت حتى أشياء أكثر من كتب الرجال الحكماء أثناء رحلاتي . الآن ، ورغم أنني لم أتنكر لمعتقدي أبداً ، أعتقد أنني من أتباع محمد بقدر ما أتبع المسيح ، عليهما سلام الله . فهل سيحترمني جيرانك لو علموا أنني مرتد في عيون الكثيرين؟»

مرت بذهن أشاماز صورة عابرة سريعة للاشه ، لكنه طردها بالسرعة . هزَّ رأسه نفياً .

«ليست لدينا نحن الشراكسة أية مشكلة مع الدين . بعضنا هم من أتباع المسيح ، وآخرون يتبعون محمداً ، عليهما سلام الله . بالنسبة لنا فإن الخابزه ، التقاليد القديمة التي مارسناها منذ الأزمنة القديمة هي أكثر أهمية» . قال أشاماز «أحد أكثر هذه العادات اعتزازاً لدينا هي قداسة وضرورة الضيافة التي أقدمها لك الآن . سوف أخبر عائلتي وجيراني أنك رجل شجاع خدم باسيليوس القسطنطينية ، وأنك ذاهب إلى وطنك الآن لتأسيس عائلة ومساعدة شعبك في وقت محنتهم . سوف يتفهمون ذلك وسوف يرحبون بك وكأنك أخوهم الشقيق» .

«إنني مدين لك أيها الحداد أشاماز» .

«سأخبرهم أيضاً بأنك خطير» .

ضحك كلاهما على هذا ، ثم نهض بيبرس الكوماني «لست على تلك الدرجة من الخطورة بدون سيفي» . لطمه أشاماز على ذراعه تحبباً «وذلك هو سبب وجودك هنا . هيا بنا ودعنا نبدأ في معالجة الموقف هذه الليلة قبل أن نعود لتناول الطعام في بيتي» .

اتفقا على الحجم والعمق خلال ساعة ، وقام أشاماز وأميشا بتشكيل القوالب التي سوف يستخدمانها في اليوم التالي .

حاول بيبرس الكوماني أقصى جهده لكي يصف السلاح الذي بذهنه ، وعمل أشاماز الرسومات بمهنية ، مستخدماً الفحم النباتي فوق سندانه . في النهاية اكتمل الشكل المقترح وبات المرتزق سعيداً في أن يسلم أمره إلى الحرفي كاملاً .

كذلك كان الاستقبال الذي حظي به الغريب في القرية شيئاً من غير المحتمل أن ينساه أبداً . لقد كان رجال قرية أشاماز معتادين على الرحالة والغرباء ، فقد كان يمر منهم ما يكفي خلال الطرق الصغيرة في طريقهم إلى المحددة ، بحيث لم يعودوا يستحقون نظرة . ولكن قلما توقعوا أن يجعلوا الأغراب يترجلون ثم يقودون خيلهم بواسطة لجامها إلى بيت ذلك الحداد نفسه . ولم يظهر الغرباء الأخلاق والآداب التي أظهرها هذا الكوماني الآن .

بقي هناك شيء مثير للتساؤل لدى أشاماز ، لكنه لم يستطع أن يضع إصبعه عليه . قال أثناء تمريرهما آنية الطعام في وقت لاحق في كوخه «أنت لم تخبرني عن الصفة التي خدمت بها **الباسيليوس** يا بيبرس» . التزمت بنات أشاماز الصمت فاغرات أفواههن دهشة من رؤيتهن مثل هذا الرجل المثير ، والذي اعتبرنه في اذهانهن مخلوقا نبيلاً يجلس بينهن . لم يغب صمتهن عن ذهن أبيهن أو أمهن ، وأصبح هذا عشاءً مكبوتاً بالنسبة لعائلة أشاماز .

قال بيبرس وقد تعلقت عيناه بالطفل الذي لم يُسمَّ بعد وهو يهزه في حضنه «لقد خدمت في جيشه» .

تناول أشاماز ملعقة مترعة بالحساء السميك وهزَّ رأسه ، ثم مد يده ليكسر قطعة خبز ويغمسها في اليخنة «نعم ، لقد قررت أنك رجل مقاتل منذ اللحظة التي رأيتك فيها» . قال هذا بينما قطعة خبزه تصعد وتغطس

في الطعام ذي اللون البرتقالي . نظر إلى الأعلى ثم ابتلع «ولكن أين قاتلت؟ أكان ذلك مع المشاة؟ الفرسان؟

أقول هذا لأنني لا أرى أي درع لذلك الحصان الرائع بوسيفالوس ، ولا أرى مساعداً أو خادماً» .

فهم لحظتها ما كان يثير تساؤله . يمتلك بيبرس الكوماني هذا أفضل الخيول والملابس ، وكيساً من النقود المعدنية وبقايا سلاح رائع ، لكنه ليس لديه أي من الأمتعة التي يحملها رجل ثري في العادة . نزلت حواجب أشاماز لحظتها وأعاد النظر إلى ضيفه . لقد بقيت كل انطباعاته الأصلية في مكانها ، لكنه رأى الصلابة الآن ، وهل هذا ممكن؟ نعم ، القسوة الكامنة هناك . نزلت عينا أشاماز إلى نجله الجالس بسعادة على ركبة الغريب ، يمضغ يده بلثتيه الخاليتين من الأسنان . لم يكن الصبي يرتدي شيئاً غير قطعة القماش الخشنة الملتفة على أعضائه ، لكنه استمد الدفء من الرجل الذي يحمله ، إضافة إلى النار المتقدة خلفهم والتي غذتها مزجواشه لدى عودتهما .

شاهد بيبرس الغشاوة وهي تمر على عيني مضيفه ، وكان بإمكان أشاماز أن يقسم أنه رأى اليدين الداكنتين تتصلبان بدرجة خفيفة جداً ، فوق القفص الصدري للطفل ، الأشبه بعظام العصافير .

في تلك اللحظة ، تنزل شريط دهني من الخوف عبر صدر أشاماز حتى أحشائه .

تحركت يده بدون قصد منه وبدون أن ترمش عيناه ، واقتربت من السكين الحادة الراقدة إلى يمين قصعة حسائه .

شاهد بيبرس الكوماني كل شيء : أكدت له سنوات القتال ذلك ، فرفع كتفيه وتساند ثم جلس إلى الخلف وبسلوك مفتوح .

قال «لابد وأنني أبدو لك كمسافر غريب» .

قال أشاماز «ذلك صحيح» .

أحسَّت مزجواشه بالتغير الطارئ على الجو ورفعت رأسها .

«لو لم أكشف عن هويتي الحقيقيَّة مع مضيفي ، لكان ذلك أدنى من مستوى أخلاقي» .

بقي أشاماز متوتراً على توتره .

«يا أشاماز ، إن كل ما أخبرتك إياه صحيح . أنا بيبرس من قبائل الكومان شرق نهر الڤولغا ، وقد خدمت الإمبراطور جون دوكاس في نيقيه فعلاً . ما أهملت ذكره هو رتبتي» .

«ألم تقل إنك كنت جندياً؟»

«هذا صحيح ، لقد خدمت كفرد من الحرس الإمبراطوري للإمبراطور جون» .

سقطت ملعقة مزجواشه على الطاولة وهي تحدق فيه .

«هل كنت واحداً من الحراس الشخصيين للإمبراطور؟»

«هذا صحيح» .

نظرت إلى زوجها . احتفظ بعينيه مسلطتين على بيبرس الكوماني .

«لكني كنت أعتقد أن الحرس الفارانجي قد تم حله وأنه لم يعد قائماً ، أليس كذلك؟»

نفض بيبرس الكوماني كتفيه وهزَّ الطفل الجالس على ركبته بضع مرات ، فتلقى نظرة متسائلة وغرغرة من الطفل بالمقابل .

قال بيبرس «لقد أعيد تشكيلهم من قبل الإمبراطور العجوز ثيودور ، من أجل إعطائه موقفاً أقوى في مطالبته بالقسطنطينية . حاول وكذلك يحاول جون الآن التقرب من تقاليد الشعب ودينهم من أجل تحشيدهم لطرد اللاتين كما ولا بد أنك تعرف» . خفض الرجل رأسه وابتسم للصبي الطفل «لكن مسعاه لن ينجح . لقد حدث الكثير جداً والآن يتم تحويل أعظم مدينة في الدنيا إلى زريبة خنازير» .

دفع أشاماز بقطعة خبز أخرى إلى داخل فمه غارقاً في التفكير وقال بصوت خفيض :

«هل احتفظت بأي تذكار من الفرانجيين فيما عدا حصانك وسيف محطم؟»

ناول الكوماني الطفل بمنتهى اللطف إلى مزجواشه وفتح قبة قميصه. أخرج قلادة ورفعها نحو ضوء الشمعة. تجمع الكل بمن فيهم البنات واقتربوا ليروا ما هي.

التمعت بانعكاس أصفر تحت ضوء الشمعة، وعرف الجميع ما يبدو عليه الذهب، وكان هناك وجه ملتح مرسوماً عليها.

«ذلك هو جون الباسيلي. لقد أهدى إليّ هذه لدى مغادرتي نيقيه».

هتفت إحدى الفتيات «ماذا تعني الأحرف؟»

ابتسم لها بيبرس الكوماني «إنها رمز فيلقي. إنها الرموز والمثل التي ينبغي علينا أن نتبعها».

«ماذا تقول الأحرف؟»

«إنها تقول صليب المسيح، إحمِ أرض الرومان» لاحق إصبع بيبرس الطويل خط الصليب الذي يفصل الحروف الأربعة. «بإمكانك أن ترى الصليب المخبأ بينها. القصد من ذلك هو الحفاظ على سلامة حامله وحمايته في جميع الأوقات».

«هل سيحافظ على سلامتك حيث أنت ذاهب؟»

نظر الكوماني في هذه اللحظة إلى الفتاة الصغيرة بعينين حزينتين «لا أعتقد أنه سيفعل أيتها الفتاة الحلوة. لقد مضى زمن طويل منذ أن سار الرومان فوق أراضي بلادي، هذا إذا ساروا عليها أصلاً، حتى بصفة موفدين».

جاء صوتها ضعيفاً لشدة قلقها «إذاً ما الذي ستفعله لتحمي نفسك؟»

ابتسم الضيف الكوماني وأشار برأسه نحو أشاماز «غداً سيصنع لي والدك سيفاً جديداً من القطع المكسورة للسيف الذي استعملته لحماية

الإمبراطور. ليس لدي شك بأنه سيبقيني سالماً».

ذهبت يد مزجواشه إلى ذراع أشاماز.

أحاط أشاماز كتفي ابنته الصغيرة بذراعه «نعم يا صغيرتي. سيكون لدى ضيفنا أفضل السيوف ليريه لقبيلته عند عودته».

بدت عليها جدية مفرطة للحظة «هل كنت تعلم يا بيبرس أن بابا يصنع سيوفاً جيدة جداً؟»

«لقد علمت ذلك وهذا هو سبب قدومي»

أخذت مزجواشه تربت على ظهورهن «لكن ذلك موضوع مخصص للغد».

الليلة مخصصة للنوم يا بنات، هيا اذهبن».

نهض بيبرس الكوماني واقفاً.

قال أشاماز وقد نهض بدوره. «سوف أعيدك إلى المحددة .النار هناك لا تنطفئ أبداً ويبقى المكان دافئاً».

«لا أريد أن أتسبب لك بأي متاعب. بإمكاني أن أجعل فراشي تحت النجوم كما فعلت طيلة الأسابيع الماضية».

قالت مزجواشه «لن تتمكن من ذلك في هذه الليلة الباردة». كان أشاماز قد تدثر بالفراء وباشر في ارتداء حذائه. قال «بكل الأحوال، أليس الفارانجيون حراس قصور؟ الأرجح أنك لا تحصل على حياة خارج البيوت هناك».

ضحك بيبرس الكوماني «لقد وصلت حياة الباسيليوس هذه الأيام إلى وضع يندر فيه أن لا يجد نفسه يقود حملة على سفح جبل أو على سهل تذروه الرياح. إنه يشاهد القصور في أوقات أقل بكثير مما تعتقده».

نهض أشاماز وضرب الأرض بقدميه ثم وقف إلى جانب مزجواشه بحيث بان الفرق في الطول بينهما قريباً من السخرية. قال «ورغم ذلك، فهل تقبل بالقليل الذي أستطيع أن أمنحك إياه من ضيافة؟»

قال بيبرس الكوماني «أقبله بأعظم درجات الامتنان وأشكر كليكما» .

تناول أشاماز عصا المسير الصلبة ، وهي عبارة عن غصن طويل مستقيم متصل بكرة معدنية في نهايته ، ثم نخز كلبه العجوز بلطف حتى ينهض مبتعداً عن الموقدة .

سأل بيبرس الكوماني وقد ارتسمت على وجهه نظرة حيرى «ولكن ألست قلقاً من أن أهرب وآخذ معي كل القطع النفيسة التي عرضتها عليَّ بعد ظهر اليوم؟»

نفض أشاماز كتفيه «أنت تحمل الكثير من القطع النقدية وسيفاً قيماً رغم كونه مكسوراً . كما أنك ترتدي قلادة الباسيليوس ، وهذه أشياء لا يستطيع أي لص أن يصل إليها بسهولة . إذا كنت من نوع الرجال الذي يستطيع أن يسرق ذهب الفارانجيين ، فليس هناك الكثير مما يمكنني عمله لمنعك من الفرار بقطعي القليلة» .

عند هذا الكلام ، ألقى بيبرس الكوماني برأسه إلى الخلف وأطلق ضحكة عالية ، ثم أوقف نفسه وتلفت حواليه حين تذكر أن الفتيات يستعدن للنوم . أعاد النظر إليهن مبتسماً .

«إذاً على الأقل اسمح لي أن أترك هذا التذكار الرمزي تقديراً للثقة وحسن الضيافة التي أغدقت علي في هذه الأرض الشركسية» . رفع يده وأخرج الميدالية الذهبية عن رقبته . ركع ووضعها حول رقبة الصبي الطفل ، الذي تناولها بيده أولاً ثم مباشرة إلى فمه حيث مضغها باستمتاع .

أطلق بيبرس الكوماني ابتسامة عريضة ، مبيناً أسنانه البيضاء مرة أخرى .

«ربما تحميه كما حمتني» قال ذلك وهو يعبث بشعر رأس الطفل ثم «ولكن ينبغي أن تختاروا له اسماً يلائم مثل هذه الهدية» .

أصيب أشاماز بصدمة من هذا السخاء ، لكنه تمكن من أن يتلعثم

قائلاً «أؤكد لك أننا سنفعل ذلك أيها الصديق الطيب» .

«وهكذا يا عبد ، هكذا حصلت على اسم بيبرس ، وهذا هو السبب في أن الكثير من الناس مازالوا يعتبرونني من الكومان أو الكيبشاك بسبب الاسم ، بينما أنا شركسي وهكذا كنت دوماً» .

«وهل احتفظت بالميدالية منذ ذلك الوقت يامولاي؟»

تحول وجهه بسرعة من الاستذكار السعيد إلى أشد قسمات الغضب .

قال بلهجة مسمومة «لا ، لقد أخذت مني مع كل شيء آخر كنت أعتز به» .

تفتح فجر اليوم التالي عن الغيوم والبرد ، تماماً كالذي قبله ، وتشارك أشاماز وبيبرس الكوماني في شرب قدحين من الشاي الساخن يتصاعد منه البخار ، وقد شعرا بالراحة في صحبة أحدهما للآخر ، وفي الأثناء بحثا العمل المرتقب لذلك اليوم . بعد محادثة قصيرة ، هزَّا رأسيهما متفقين وأنهيا محتويات القدحين .

«أميشا! أحضر القطعة!»

كان الصبي أميشا منشغلاً بواجباته في تحضير الأدوات وإعادة تعبئة الوقود ثم إشعال النار بملقط ثقيل والكير . لم تكن المحددة قد بلغت درجة من الدفء لتتسبب في تشكل حبات العرق على رأس بيبرس الكوماني .

قال «سأترككما لتؤديا عملكما»

حضر أميشا حاملاً السيف المكسور الذي بقي ملفوفاً في قماشته .

سيقوم أشاماز وهو بتذويب القطع المكسورة وإعادة تشكيل السيف من جديد ، آملين أن يكون حتى أشد مضاءً وقوة من ذي قبل .

هزّ أشاماز رأسه ونظر إلى صديقه الجديد قائلاً «لا داعي لذهابك فأنت مرحب ببقائك لو أردت» .

أحنى بيبرس الكوماني رأسه : «أرحب بالدعوة وليس هناك ما يمنحني

متعة أكبر . لكن الشمس لم تشرق بعد ويجب عليَّ أن أتنحى . ولكن هل لي أن أثقل عليكما بوعاء من الماء النظيف رجاءً؟»

أشار أشاماز برأسه إلى متدربه فانطلق لإحضار المطلوب . أدرك أشاماز أن معرفته بالدنيا محدودة ، لكنه فهم ما يريده زبونه . لقد رغب في أداء صلاة الفجر ، أولى صلوات المسلم في نهاره . عاد أميشا وتقبل بيبرس الإناء شاكراً ثم خرج إلى صقيع الليل المتهالك .

أشغل أشاماز نفسه بتفحص قطع السيف المكسور للمرة الأخيرة .

«إرفع حرارة تلك النار وأذكها جيداً يا أميشا فأنت تعرف مقدار الحرارة التي نحتاجها» .

أومأ أميشا برأسه وشغَّل الكير بجهد أكبر . تناول أميشا مقبض السيف متردداً ، وهو مازال معلقاً بأكبر جزء من النصل ، وبدأ يفك الخيوط الرقيقة التي تزينه وتؤدي مهمة تحسين المقبض . أدارها وأدارها وهو يلف المادة وبعدها الجلد حول أصابعه ، ثم وضع اللفائف على طاولة عمله حتى يعيد لفها لاحقاً . عندما أنهى ذلك الجزء ، لم يبق لديه سوى مقبض معدني رفيع الملمس بعد سماكة اللفائف ، وواقي اليد المصمم على شكل صليب باتجاه متعامد فوق المقبض .

تفحص هذا التصميم للحظة مفكراً ما إذا كان سيبقي على المقبض كما هو أم يذيب القطعة كاملة . كان هذا شيئاً لم يبحثه مع زبونه . وضع القطع على الطاولة إلى جانب الوعاء الثقيل الذي يستخدمه لإذابة المعادن الخام ومشى باتجاه الباب .

خارج المحددة مباشرة ، كان بيبرس الكوماني ساجداً فوق حصيرة ، مستعيناً بالنور المتسرب من الداخل ، وأنفه يلامس الأرض . نهض واضعاً يديه مفتوحتين إلى جانب رأسه للحظة ثم عاود الركوع . راقبه أشاماز وانتظر حتى ينهي صلاته . بعد هنيهة أنهى بيبرس الكوماني عبادته ثم نهض . بدأ يلف البساط الصغير .

قال أشاماز من خلفه «لدي سؤال»
رغم أن ظهر بيبرس كان باتجاه الحداد طيلة الوقت الذي قضاه واقفاً هناك ، إلا أنه لم يصدر عنه أي ردة فعل يشير إلى سماع الصوت خلفه .

إنه فارانجي بالتأكيد

قال بيبرس الكوماني بدون أن يستدير «ألم يعد سيفي موجوداً؟»

قال أشاماز «إنه كما تركته . لكن ناري تزداد حرارة وسرعان ما سيحين الوقت» .

«وما هو سؤالك؟»

«سؤالي متعلق بقطع حماية اليد . كيف تريدها أن تتشكل؟»

استدار بيبرس في هذه اللحظة ونقل بصره من أشاماز إلى البساط في يده .

«هل تعتقد أن قطع الحماية الحالية غير ملائمة؟»

«ليس لدي رأي وبإمكان سؤالي أن ينتظر . أنا آسف إن كنت قد أزعجتك» .

قال بيبرس الكوماني «لا حاجة للاعتذار وسؤالك مهم . أنت تسأل عما إذا كنت لا أزال أرغب في حمل الصليب معي» .

«هو العنصر الوحيد الذي لم نبحثه فيما يتعلق بسيفك . لقد علمت الليلة الماضية أن هناك شيئاً ناقصاً» .

«ما هي أفكارك؟»

«لقد أخبرتك بأن خدمتي تنحصر في عمل السيف الذي يلائم الرجل . واجبك يحتم عليك أن تخبرني بما ترغب في أخذه معك إلى المعركة» .

مشى بيبرس عائداً إلى المحددة وعيناه لا تفارقان أشاماز «ولكن لو كنت أنت أنا؟ لقد قسمنا الخبز سوية وتقاسمنا الحكايات . ما هو نوع السيف الذي تصنعه لو كنت في مكاني؟ القديم نفسه أم شيء مختلف؟»

«هل أنت الرجل نفسه الذي ذهب إلى الجنوب راكباً ليقاتل مع الباسيليوس؟»

«أنا هو ولكنني لست هو» .

«إذاً هكذا سيكون سيفك . مثلك ، سوف يعكس السيف الذي جاء قبلاً في عدة نواح ، لكنه سيكون شيئاً مختلفاً أيضاً . في نهاية المطاف ، نحن لا يمكننا أن نعيد صياغة الأشياء كما كانت سابقاً» .

وافقه بيبرس «ذلك صحيح» .

مشيا سوية عائدين إلى المحددة ، وأخذه أشاماز إلى حيث السندان الذي الذي توجد عليه رسمة بدائية للسيف الجديد منذ الليلة الفائتة .

أمسك أشاماز بعود من الفحم النباتي «كيف تريد لقطع حماية اليد أن تبدو؟»

أمعن بيبرس الكوماني النظر لفترة طويلة في جزء حماية اليد على سيفه المكسور الملقى عبر الغرفة ، ثم أحنى رأسه فوق السندان . رسم خطاً في البداية عبر رسم المقبض ، شبيهاً بالصليب الموجود على التصميم الأصلي ، ثم لف الزاويتين على شكل حرف (L) معكوس ، بحيث يصل طرف باتجاه إبهامه والآخر بعيداً عن باقي أصابعه .

«هذا هو» . قال باقتناع «أحد الأطراف يشير إلى الماضي والآخر إلى المستقبل وبهذه الطريقة . . . .»

أكمل أشاماز عبارته «يصبح كل شيء متوازناً باتجاه الحاضر» .

وقف كلاهما للحظة ثم توجهت أنظارهما إلى ألسنة اللهب المتعالية بسرعة .

عمل أشاماز لبقية الصباح بينما لاحقه أميشا مثل ظله . مال بيبرس الكوماني إلى الأمام في كرسيه وهو يراقبهما بصمت ، مستغرباً كيف تبدو العملية شبيهة برقصة . في البداية وضع أشاماز المقبض مسطحاً على السندان ثم وخزه مرتين ليفصل المقبض عن كتف النصل . بعد ذلك

وضعت جميع القطع في وعاء حجري فوق النار وتركت لتذوب ، بحيث لم يبق سوى سائل فضي أشبه بالحساء ، وقد بدأ الوعاء الحجري يومض مثل قضيب أحمر كاو . أحسَّ بيبرس بعينيه ترمشان بلا إرادة لشدة حرارة النار . لكنه استمر في المراقبة مسحوراً .

بعد ذلك دفع أشاماز وأميشا بقضيب عبر ثقبين في أعلى الوعاء مستخدمين قفازات سميكة ، ثم رفعاه إلى فوق القالب الموضوع سلفاً على قاعدة حجرية خلفهما .

أنزلا الوعاء بتؤدة إلى داخل طوق معدني مثبت بقاعدة خشبية صلبة ثم ابتعدا وهما يمسحان العرق عن جبينيهما بالقفازات الخشنة . ظل بيبرس الكوماني يتعجب على الدوام من قدرة الرجال على الاقتراب من نيران بهذه القوة ، لكنه أدرك الآن وهو يتلفت حواليه في الفجر المسرع إلى النور ، أن المحددة جيدة التهوية إلى درجة قصوى . هناك فتحة بين الجدران الأربعة والسقف تسمح للحرارة والأدخنة السامة بالهروب إلى الفضاء المفتوح .

«ربما يكون ذلك هو ما يمنعهما من السقوط مغمى عليهما في كل يوم عندما تتأجج النار» .

سكب أشاماز الفولاذ المصهور بقدر مدهش من الدقة لعمل بدا عند بدايته مثل مهنة غير دقيقة ، داخل القالب ، وراقب ثلاثتهم بينما تدفق متمهلاً وملأ المجال المحدد له لصنع السلاح الجديد . أدرك بيبرس الكوماني عند هذه المرحلة بأن السيف ما زال بعيداً عن الاكتمال ، وأن المرحلة التي تتطلب أعظم درجات المهارة والعناية ما زالت قادمة ، لكنه أحسَّ رغم ذلك بالتوتر .

راقب أشاماز وأميشا المعدن الشبيه بالحمم البركانية يصل إلى نهاية القالب ، ويشكل رأسه المدبب قبل أن تفرغ كل محتويات الوعاء الحجري وتعثر الكمية كلها على مستواها . تعجب بيبرس من قدرتهما على جعل العملية تبدو في منتهى السهولة .

هكذا هو الوضع مع الأسياد .

انتظرهما ليقوما بالحركة التالية ، لكنهما وقفا يراقبان الجسم الساكن يتخذ شكله .

سأل بيبرس الكوماني «ماذا يحدث الآن؟»

أجابه أميشا بدون أن يرفع عينيه «الآن ننتظر» .

استدار أشاماز «يجب أن نمنحه بعض الوقت ليستقر قبل أن نبدأ بإغرائه على اتخاذ الشكل . إن التهور في أية مرحلة من هذه العملية هو دعوة للكارثة» .

هزّ بيبرس الكوماني رأسه «وهكذا في كل الأمور» .

«كما تقول» .

قام بيبرس الكوماني بجولة أخرى على العشب خارج المحددة ، بينما أشغل الحدادان نفسيهما في التحضير وأداء أعمالهما المعتادة . راقب الشمس أثناء صعودها فوق الجبال على البعد وتساءل في نفسه ما إذا كان ينبغي عليه التوجه راكباً نحوها وتوفير بعض الوقت . ففي الوضع الحالي وحتى بسلوك الطريق المعتاد ، فهو سيصل إلى الأراضي العالية قبل أن تلامس حوافر حصانه الهضاب .

عاد لدى سماعه صوت المطرقة (الذي لا يمكن الخطأ بشأنه) على الفولاذ .

يقوم أشاماز بتشكيل سيفه .

هل تعلم أنني كنت أراقب والدي أثناء عمله ياعبد؟ كان يخرج السيف من القالب ويضعه فوق السندان هكذا . تلك هي أولى ذكرياتي . لم يكن السيف يبدو جميلاً أو مهماً في تلك المرحلة . . . بل كان منظره أشبه بمذكي النار الطويل أو أداة زراعية أكثر منه سلاحاً . كان عريضاً وسميكاً ، ويمسكه والدي هناك ويكتفي بالنظر إليه مدة طويلة . كثيراً ما كنت أتساءل إذا لم يكن قلقاً من أن يبرد ويتفتت مع

الضربة الأولى للمطرقة . ولكن يبدو أن ذلك لم يخطر بذهنه مطلقاً . كلا ، بل ظل يقف مكانه غير متعجل ، ثم فجأة تستقر المطرقة في يده ويفتل السيف إلى زاوية ويطرقه . تتطاير الشرارات في كل ناحية . يتوقف ، ثم يضرب مرة أخرى . تتزايد سرعته تدريجياً وقبل أن تنتبه إلى ما يجري ، يكون قد دخل في نغم خاص من ثلاث ضربات ووقفة . ثلاث دائماً .

تاپ تاپ تاپ .

لا ، إن تاپ كلمة خاطئة يا عبد ، فقد كان الصوت هو خبطة للحديد على الفولاذ . حسناً ، أنت تعرف كيف يصنع السيف أليس كذلك؟

يحتمل أنهم يصنعون مئة منها هناك في المعسكر في هذه اللحظة ، ولكن واحداً منها لا يمكن أن يقارن بذلك .

كنت أجلس تحت طاولة العمل وأراقب الجدار الخلفي للمحددة ، حيث ينتشر الضوء لثانية كلما ضرب السيف وتطايرت ألسنة اللهب الصغيرة . لم يكن في قريتنا الكثير من الأنوار ، وكان البحر والجبال مظلمين في الليل ، لكن الضوء لم ينقطع في داخل المحددة أبداً .

بانغ بانغ بانغ توقف بانغ بانغ بانغ .

كانت ذراعاه تعملان بشكل منفصل : أحداهما تدير السيف هذه الناحية ثم الأخرى ، يقدم زوايا ونقاط جديدة للمطرقة حتى تسويها . كيف يمكن لمثل هذه العملية أن تتوقف عن إذهالي : تلك القطعة المعدنية السوداء التي لا شكل محدداً لها ، تؤخذ من القالب وتتحول إلى شيء جميل ، شيء يذهل الرجال . سلاح يصبح جزءاً من الرجل الذي يحمله ، امتداد للذراع اليمنى كما يقولون . يستمر الحداد في الطرق ، وهذا هو ما ينتج .

ألم تعمل في صناعة المعادن مطلقاً يا عبد؟ لا ، لا أعتقد ذلك .

الخشب؟ الحطب؟ فإذن أنت تفوت على نفسك جزءاً حيوياً من حياة أي رجل . أعرف أن الكتابة لها مكافآتها ، إنجاب ابن شيء آخر . أما قتل رجل بيدك أنت فهذا إحساس لا يمكن وصفه . هل لاحظت أبداً كيف أن النقباء لا يدخلون أبداً في تفاصيل عن الرجال الذين يقتلونهم ، كما يفعلون مع النساء اللاتي ضاجعوهن؟ نعم ، ذلك لأن هذا هو العمل الأكثر خصوصية . لكن صنع شيء بيديك ، هناك قناعة وفخر في ذلك العمل . رؤية بيتك أو طاولتك أو سيفك يتخذ شكلاً

مع حلول الوقت الذي تم اختطافي فيه ، كنت ملماً بكل خطوة من عملية صناعة السيف يا عبد . فقد راقبت كل حركة أتى بها أبي على مدى سنوات . كيف يضرب ويقلب ، يغمز وحتى يطبق حين يضطر إلى ذلك . بعد أن كبرت قليلاً صرت أشعل الكير . كنت أراقبه جالساً وهو يتحرك ويدور حول السندان ويتقافز كما تفعل العصافير وهي تتزاوج في الخارج . أصبح بإمكاني أن أعمل مثله ، فسرعان ما يحين دوري . فقد سبق وأن صنعت حذواتي وأصلحت الأدوات الزراعية . لكن ذلك لم يكن مقدراً» .

صنع أشاماز سيفاً لا مثيل لجماله لبيبرس الكوماني . نظر إليه الرجل مطولاً وشكر الحداد بكل الامتنان لرجل رأى أعز ممتلكاته وقد انقذت . ثم عاد إلى الصلاة بطريقته الخاصة أمام المحددة ، منحنياً باتجاه الجبال التي هو على وشك الركوب باتجاهها ، ثم استدار وتناول يد أشاماز وأومأ لمساعده . أخبره بأنه يتمنى أن يلتقيا مرة أخرى . ربما سيركب عائداً في يوم ما ، عندما تكون عائلته قد كبرت وتمت هزيمة المغول ، حسب قوله .

هزَّ أشاماز رأسه وقال إن ذلك سيكون أمراً طيباً وإن بيبرس الكوماني محل ترحيب على الدوام ، وإنه سيكون له مكان على مائدته في أي وقت يحضر فيه .

أومأ بيبرس الكوماني برأسه للمرة الأخيرة ثم امتطى حصانه وارتحل .

لم يره أحد من القرية مرة أخرى ، أو على الأقل هذا ما اعتقده الفتى الذي أعطي اسمه . لا شيء مؤكد في هذه الدنيا . هكذا وهناك حصل سلطاننا العظيم على اسمه التركي الكيبشاكي الغريب ، بيبرس .

الفصل الثاني

اقترب في هذه الآونة بيبرس من عامه الحادي عشر ، وأصبح يركض عبر الحقل مثل خفاش هارب من الجحيم . فقد صمم على اصطياد السمك في هذه الأمسية ، ولم تكن هناك لحظة يمكن إضاعتها . عرف من خبرته أن هذا هو أفضل وقت للإمساك بواحدة كبيرة ، حينما تخرج هذه التي تسكن النهر من تحت صخورها لتتزاوج .

استمر في الجري ، أسرع وأسرع ، مجبراً نفسه ليرى أقصى مدى لسرعته . قفز من فوق الحفرة بدون أن تتغير خطاه حتى وصل إلى حيث يمكنه رؤية الأشجار والشجيرات التي تنمو بمحاذاة شاطئ النهر .

«وكانت هناك ياعبد»

«من كانت هي؟»

«همممم؟» كان متكئاً على الوسائد داخل الخيمة وأظن حتى إنه كان يغفو» .

«لقد أخبرتني أنك كنت تعدو أسرع فأسرع ، لترى مدى سرعتك . قفزت من فوق حفرة وعندما رأيت الأشجار والشجيرات على شاطئ النهر ، كانت هي هناك»

«هل فعلت هذا حقاً؟»

«نعم يامولاي»

سحب نفساً عميقاً من خلال خياشيمه الواسعة ، كبت تثاؤبه وحك مؤخرة رأسه . استدار رأسه إلى اليسار وبقيت عيناه نصف مغمضتين ، كان يبحث عن شيء ما ثم إلى اليمين . بعد أن أزال

الحكة ، أنزل يده ونظر إليَّ مع ابتسامة سخيفة .

«لقد قلت إنها كانت هناك أليس كذلك؟»

«بمحاذاة النهر» .

«نعم وكان النهر قريباً من المحددة . ذلك هو سبب تطرقنا إلى سيرة الكيبشاك» .

«الكوماني! صحيح ، أنت على حق يا عبد . هاك املأ لي قدحي مرة أخرى ودعنا نتكلم قليلاً عنها . ها! من المضحك التفكير فيها حالياً ، وما حدث لها . كانت واقفة هناك وشعرها منفلت على سجيته . غير مسرَّح ، سيقول رجل مثلك . دوِّن ذلك في كتاباتك» .

مدَّ قدحه نحوي فصببت له ، وأدركت فجأة أنه يمسك خنجراً شركسياً هو القامة بيده اليسرى ، وهي من النوع الذي قلنا مسبقاً إن والده اهداه إياه .

«لا يجوز للسلطان أن يترك نفسه بلا حماية أبداً . ألا تتفق معي يا عبد ؟»

دوَّره في يده مثل ومضة على إصبعه ثم أبرزه إليَّ من جهة المقبض ، والنصل موجه إلى الخلف نحو صدره .

«هاك ، ألقِ عليه نظرة» .

تناولته وحملته على كفي المفتوحة قريباً من وجهي . لابد وأن عيني كانتا ضعيفتين حتى في ذلك الوقت .

«المقبض في غاية الجمال» .

وكان كذلك فعلاً . من طرف النصل ، تدوَّر سميكاً نزولاً حتى شكَّل قبضة .

تناول السلطان جرعة ثم استوى جالساً ، رافعاً يديه ومحركاً الخنجر ببطء ولطف داخل يدي .

«والآن انظر إليه من هذه الناحية» .

سحب النصل وأشار إلى النحت الجميل عليه .

«ما الذي تعنيه هذه يا مولاي؟»

نفض كتفيه «ليست لدي أي فكرة ولا تهمني . أنا فقط أحب أن أتأكد أن النصل موجَّه إلى الخارج عندما يندفع القاتل إلى جناحي في ليلة ما» .

«أنت تكثر من الحديث عن القتلة والمؤامرات يا مولاي . ذلك ليس مفيداً لصحتك» .

«صحيح؟» قال بطريقة قاطعة كان يحب أن يستعملها للسخرية «وهل أصبحت طبيباً الآن يا عبد؟»

«لم أقصد أن أتجرأ يا مولاي» .

لوَّح بيده «لا طبعاً . المتآمرون جزء من منصبي يا عبد . الجميع يرغبون في وظيفتي ما عداك أنت ، أليس ذلك صحيحاً؟»

وقفت بغباء . انتظر متهكماً ثم شخر «لا عليك» . أومأ برأسه إلى النصل «أمسك بهذه ، إذا جاؤوا هذه الليلة ، فإنهم سيبقرون بطنك أنت أيضاً . تأكدت من أنك ستقاوم» .

جلست وقلت «يمكنك أن تعتمد عليَّ يا مولاي» .

انقلب نحو طرف الوسائد ومد يده أسفلها .

«انتبه لنفسك يا عبد ، أنا سوف أعتمد على هذا . سحب قوساً منحوتاً ومزيناً على الطراز الإفرنجي .»

«هل هذا مجهز للإطلاق يا مولاي؟»

«إنه حتماً مجهز يا عبد . وهو متوازن بدرجة جيدة . هل لاحظت ذلك؟» وجهه نحوي ، فسقطت عن الكرسي إلى الأرض على يدي وركبتيَّ لأحتمي .

«لا تقلق أيها الفتى . لن ينطلق السهم حتى أريد أنا ذلك . هذا امتياز ملكي وأنت تعرف كيف هو الوضع . وجهه نحو السقف ، وزحفت بدوري عائداً ثم جلست على الكرسي» .

«ولكن ألم تتعرَّف عليه؟»
جازفت بنظرة ولكنني لم أستطع أن أتذكره .
«اعتذاراتي يا مولاي ، كلا» .
«لا تقلق من ذلك يا عبد» . أجلسه في حضنه ومرر يده فوقه كما يداعب الشخص كلباً أليفاً .
«هذا بالطبع هو القوس والنشاب الشخصي للويس الرابع عشر ملك فرنسا ، والذي أهداه إليَّ عندما كان في ضيافتي» .
«طبعاً يا مولاي ، تذكرت» .
رفعه مرة أخرى وأعاد توجيهه مع امتناني نحو الحائط .
«نعم ، حسناً ، عندما أقول هدية ، فما أقصده في الحقيقة هو أنني صادرت كل متاعه عندما هزمنا جيشه هناك في مصر» . سحب نفساً عميقاً وكأنه يعيد استنشاق عطر النصر «لقد كان ذلك يوماً طيباً» .
«لقد كان كذلك بكل تأكيد يا مولاي» . حاولت أن أستعيد تركيزه «كنت تخبرني عن الفتاة؟» .
«الفتاة؟ آه نعم ، لقد كنت أخبرك ، أليس كذلك؟» ألقى بالقوس والنشاب على الوسائد وكدت أنفر هارباً من جلدي مخافة أن ينطلق .
«لقد كانت تقذف الحجارة على سطح النهر . لقد فعلت ذلك أنت يا عبد؟ أقصد قذفت حجارة مع فتاة ما؟»
«نعم يا مولاي» .
«حسناً . إنني قلق من أنك تنحرم من بعض الأشياء الرائعة في الحياة . سوف نضطر إلى معالجة ذلك . لكنني كنت أركض كالمجنون بعد أن كسبت السباق ضد نفسي ، توقفت لكي أعيد التقاط أنفاسي وهي واقفة عند حافة الماء . طبيعي أنني اقتربت منها وقدمت نفسي» .
«أستطيع أن أرمي أفضل من ذلك» .
استدارت لتواجهه . انكمش أنفها في هيئة امتعاض لمرأى الفتى

الصغير ذي الثياب المتسخة ، والمغطى بالطين جراء ركضه والسخام من محددة والده .

قالت «أنا لا أصدقك» .

اتخذ موقفاً متعالياً ومتفوقاً «إنني صبي والأولاد أفضل من الفتيات ، لذلك أستطيع أن أرمي أفضل من ذلك» .

«أراهن أنك لن تتمكن» .

تقدم إلى الأمام وتناول حجراً «أراهنك أنني أقدر» .

«حسناً ماذا لديك لتراهن به؟»

«ماذا؟»

«ما الذي تقصده بماذا؟»

قال مرتبكاً «لدي هذا الحجر» .

رفعت عينيها نحو السماء «أقصد ماذا لديك لتراهن به؟ أنت سترمي الحجر يا سخيف» .

«لست سخيفاً» .

نظرت إليه بأقرب ما يعرفه ابن الحادية عشرة عن التعاطف .

قالت بعد توقف قصير «لا طبعاً . لم لا تقذف حجرك وسوف نحصي عدد المرات التي يقفز فيها فوق الماء ، ثم ألقي بحجري» .

أعجبه هذا الاقتراح وأومأ برأسه «موافق» . خطا نحو حافة النهر وسحب كتفه إلى الوراء ثم قذف الحجر .

قالت «المهارة متعلقة دوماً بالمعصم» .

اصطدم الحجر بالماء ، قفز مرة واحدة ، وكأنه يرد عليها ، ارتفع وبدأ يدور قبل أن يغطس حزيناً .

قال «لقد ألهيتني!» .

«لا لم أفعل . لقد كانت رمية رديئة» وضعت يديها على ردفيها ودفعت بذقنها إلى الأمام .

«هي أسوأ رمية شاهدتها على الإطلاق» . قالت ذلك بدون أن ترف أجفانها ولو مرة ، وهي تحدق مباشرة في عينيه .

انفتح فمه على اتساعه لشدة إحساسه بالصدمة من هذه الإهانة ، وجاء رد فعله مشابهاً لما يفعله الأولاد عادة حين يشعرون أنهم تعرضوا لإهانة . دفعها في كتفها . حان دورها في الشعور بالصدمة فردت له الدفعة . رد على ذلك بدفعة من كلتا يديه ، وقبل أن ينتبه أي منهما لما يجري ، كانا يتصارعان فوق العشب ، يتدحرجان إلى الأمام والخلف ، بينما يحاول بيبرس أن يحتفظ بما تبقى له من كبرياء الذكر فلا يلجأ إلى شد شعرها .

استمرا في التدحرج وكل منهما يحاول أن يسيطر ولا أحد منهما قادر على ذلك ، وسرعان ما انتهى الأمر بهما وقد تدحرجا إلى الشاطئ ثم إلى داخل النهر .

جاءت صدمة الماء البارد كافية لأن تفصلهما ، فعثرا على موطئ لقدميهما بينما بدأت أسنانهما تصطك جراء البرودة .

قال وهو يفرك وجهه «حسناً ، على الأقل هذا هو سبب وجودي هنا»

راقبته لوهلة وهي مذهولة ثم صاحت به «ما الذي تفعله الآن؟»

قال بلهجة إقرار «إنني على وشك أن أنزع ثيابي» . وهو يرفع قميصه من فوق رأسه ويتركه ليعوم قبل أن يمد يديه تحت الماء والمرجح أنه يحل بنطاله . تحولت نظراتها نزولاً من وجهه إلى يديه المتحركتين بسرعة تحت الماء وقالت مذعورة «توقف عن ذلك! فوراً» .

توقف وحدق فيها لثانية ثم استأنف معالجة أزرار بنطاله .

«إنني أغتسل عارياً دائماً . وإلا فكيف يغتسل المرء بغير هذه الطريقة؟»

«يا لك من فتى وسخ مقرف برائحة نتنة!» .

كرر النظر إليها بتعبير فارغ .

«أعرف وهذا سبب قدومي إلى هنا لأغتسل . هل أنت هنا منذ وقت طويل؟»

طوَّحت بذراعها ورشقته بالماء ، ظناً منها أنه يسخر منها ، بحيث أصابته في وجهه مباشرة ، رد عليها برشقها فتراجعت وسط الماء بصعوبة بسبب التصاق الوحل من قاع النهر برجليها ، ثم تسلقت الحافة . نفضت نفسها مثل كلب ثم طوَّحت بذراعيها وأطلقت صرخة إحباط . انصرفت بعدها . استمر بيبرس في مراقبتها طيلة الوقت ، وعندما اختفت عن ناظريه ، أكمل خلع بقية ثيابه وسبح بمنتهى الراحة حتى نظف جسمه كلياً .

هاهاها! لقد اعتقدت أنني أكثر الثيران غباءً ممن ساروا على الأرض يا عبد! ولكن لم تكن لدي فكرة عن النساء في ذلك الوقت : فقد كنت في مجرد العاشرة أو ربما الحادية عشرة . إن الفتيات يصبحن أكثر وعياً لهذه الأمور قبل الأولاد . وأنا أتوقع انهنَّ مضطرات إلى ذلك ، ويعلم الله أن النساء الأكبر سناً لا يتحدثن عن أي شيء آخر .

إنهن المسؤولات عن غرس مخافة الله في قلوب الفتيات الصغيرات ثم يضطر الأولاد الصغار إلى الاستغراب من درجة جنون رفيقاتهم في اللعب .

نعم يا عبد ، كثيراً ما أقولها . النساء مجنونات . ذلك على الأقل هو ما اكتشفته خلال الزمن الذي عشته على هذه الأرض . صحيح أن بعضهن ذكيات بدرجة عالية . لقد ظل سيدنا محمد عليه صلوات الله يحترم زوجاته ، ولقد سعيت دوماً إلى احترام زوجاتي . لعلمك فقد تعلمت أشياء كثيرة من النساء» .

استمر لفترة طويلة يتكلم على هذا المنوال ، ورغم أنني كنت متشوقاً إلى الإلحاح عليه أكثر حول آرائه في النساء ، إلا أنني أدركت أن كلمة واحدة تصدر مني في هذا الوقت المتأخر من الليل ستكون بمثابة جنون .

بدلاً من ذلك استمررت في الإيماء والتمتمة بينما هو يخاطبني ثم أعدته بلطف إلى موضوع حياته المبكرة وتجاربه في بيوت الدعارة .

«نعم ، لقد كانت تتمتع بأكثر العقول حدة مما صادفته على الإطلاق . المشكلة هي أنني سكرت إلى درجة فظيعة في ليلة لقائي بها ، بحيث نسيت في أي ماخور كانت ولم أرها بعد ذلك أبداً . . .»

«يبدو أن دانا ، هذه البنت الصغيرة ، قد كانت تتمتع بذهن حاد بدورها يا مولاي . أقصد لفتاة من عمرها» .

«آه نعم دانا ، نعم هذا صحيح يا عبد . رغم أنها كانت تعتبر الأولاد الصغار مجرد تهديد ، فلا بد وأنها فكرت فيَّ على أنني غير مؤذٍ إلى حدٍ ما ، هكذا أصبحنا أصدقاء» .

اعترف بيبرس أنه كان بطيء التعلم في صغره ، وأنه وجد صعوبة في تعلم دروسه ، لكنني كنت أستغرب . فهل مرد ذلك إلى مجرد رغبة منه في التواضع ، تماماً كما تعلم أن يتصرف أثناء تدريبه العسكري؟ أنا شخصياً لم أره يؤدي دور المغفل مطلقاً ، صحيح أنه كان مرحاً وعفوياً ، لكنه لم يكن مغفلاً . عندما يتعرض فتى ما إلى المحن والعذابات التي عانى منها ، فإنني أفترض أنه يتعلم أن يفعل ما يقدر عليه لينجو بحياته ، وربما منحت قدرة بيبرس وعادته في التقليل من قدراته ميزة حينما جاء الوقت الذي يتعرض فيه إلى تحدٍ ما . لكنني أعتقد الآن أن كونه متواضعاً في كل الأوقات هو جزء من شخصيته الشركسية . لقد كانت الحقيقة التي عرفتها من التحدث إلى الشراكسة الآخرين في حاشيته ووحدة الحرس الخاص ، أن بيبرس كان قادراً على أن يبدأ تدريبه القتالي والعسكري مبكراً . ذلك اليوم الذي ركض فيه إلى داخل النهر ليتبرد ، لم يكن لمجرد غسل حرارة النهار أو دخان المحددة . لقد كان ذلك من أجل إراحة عضلاته بعد يوم من التدريب الشاق . أنا أعرف هذا لأن عادته كرجل بالغ بالقفز في أقرب نهر كلما شارك في التدريب شاق أو ركوب طويل مستمرة .

إنه يستلقي على ظهره محدقاً في السماء ، ثم يحرك يديه ورجليه إلى الأمام والخلف . قال إن ذلك يمنع عضلاته من إيلامه في المساء ، وإنه ينهض في الصباح التالي وهو يشعر بقوة مضاعفة .

لقد باشر الصبية الشراكسة تدريبهم مبكرين ، وكان بيبرس سيشهر ذلك السيف الخشبي الذي اختاره منذ اللحظة التي يتمكن فيها من رفعه إلى فوق . كان سيمارس لعبة القتال مع الفتية الآخرين في القرية ، وبعد فترة ستتخذ ألعابهم صفة الجدية .

في العادة يتخذ هذا الأمر شكل مبارزة خفيفة ، ولكن كما يحدث مع العديد من الأولاد ، لا بد وأن يكون هناك ترتيب . «من هو الصبي الأفضل في المبارزة بالسيف؟»

أو «من هو الأسرع في الجري؟» الذي يستطيع أن يقذف حجراً إلى أبعد مسافة ، الأفضل في إصابة الهدف بالقوس والنشاب . اطرح هذه الأسئلة على أية مجموعة من الأولاد ، وسوف يسمون لك الأبطال في كل نشاط على الفور .

توصلت في فترة ما إلى قناعة بأن بيبرس ، بيبرس الذي أعرفه على الأقل ، ما كان ليقبل بالمرتبة الثانية في أي شيء على الإطلاق . كان سيدخل في عراكات كثيرة .

وأنا على ثقة من ذلك . لابد وأن عراكه مع أميشا في محددة والده كان بداية سعيه لتأكيد موقعه هناك . سيكون هناك سبب لعراكهم يتغلب على الطبيعة التنافسية والعدوانية لدى الأولاد الصغار .

كانت السواحل المنبسطة التي يقطنها شعبه معرضة بشكل خاص إلى الهجمات من الجهات كافة . فأصبح الدفاع مسؤولية قصوى . بوسع الأعداء أن ينزلوا من الجبال أو يخرجوا من الهضاب أو بمحاذاة الأنهار أو حتى بمجرد إرساء السفن على ساحل البحر والإغارة من أجل الحصول على الغنائم والعبيد .

قال لي مرة «لا أستطيع يا عبد أن أتذكر وقتاً لم أعرف فيه عن الغزاة. منذ بدايات ذاكرتي ظلت والدتي تحذرني وشقيقاتي بأن لا نجازف مبتعدين إما باتجاه التلال أو نحو الماء. كانت امرأة تحيا في خوف وقلق دائمين. إنني أشعر تجاهها حالياً بقدر عظيم من التعاطف. ليتني أستطيع أن أحضرها إلى مصر وأقدم لها ما تختاره من القصور مع وجود شراكسة من دمها ولحمها لرعايتها ورجالي المقربين لحمايتها». لمحته يرمش لدى نطقه بهذه الكلمات.

«يمكنك أن تتخيل ما أحسَّ به والدي إذ لديه أربع بنات. لابد وأنه ظل يراقب الأفق باستمرار تحسباً للتهديد التالي».

لابد وأن بيبرس وأصدقاءه الصغار قد انتبهوا إلى هذه المخاوف واستخدموها. تدربوا بقوة حتماً وبتشجيع من كبار السن، وأدى ذلك إلى اكتسابهم الصلابة. استخدموا ذكاءهم وسرعتهم ضد خصوم أكبر، وقد كان بيبرس مغرماً بهذه الناحية بدرجة خاصة، أو كيف تدمي منافساً خجولاً وتهزمه بتمريغه في الغبار. كلاب تفترس بعضها. أضف هذا إلى العمل البدني الذي كان بيبرس يؤديه في محددة والده، فلا بد وأن مع بلوغه سن الثانية عشرة، قد أصبح قريباً من البلوغ بقدر ما يحققه الكثيرون طيلة حياتهم.

ومع ذلك، فقد كان يفترق عن الزمرة ويذهب باحثاً عن دانا كلما استطاع الإفلات.

«لم تكن ترغب في الاختلاط بي مطلقاً في البداية. فأصابني الإحباط والحيرة. كيف يستطيع المرء أن يجعل فتاة تحبه يا عبد؟»

«لطالما تساءلت يا مولاي».

«تصبح سلطاناً!». أطلق ضحكة مدوية. «ولكن بجدية، كنت أركض إليها فتدير لي ظهرها».

هزَّ رأسه وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة طريفة. هذا هو الحاكم

الأقوى في الدنيا ، والذي يمكنه الحصول على أي عدد من النساء ، ومازال مرتبكاً لأن أكثرهن أهمية بالنسبة له لم تكن تطيق رؤيته .

«في نهاية المطاف كوَّنت خطة ، لم تكن سيئة لفتى في تلك السن ، حتى لو كان هذا رأيي . أكثر مرة كلمتني فيها هي ذلك اللقاء عند النهر ، لذلك قررت أن أنتظر حتى نلتقي هناك مرة أخرى ونتحدى بعضنا بعضاً في مباراة قذف حجارة أخرى» . توقف للحظة «في الحقيقة كان ذلك كل ما استطعت التفكير فيه» .

مرت الأيام ولم تسنح لي أية فرصة . حتى عندما انضم الأولاد إلى البنات لممارسة الألعاب ، لم تقبل بأية علاقة معي . كانت تتجنبني بكل الوسائل . إن المرء ليحسب أنني اقترفت بحقها خطأ لا يغتفر ، بدلاً من مجرد خلع بنطالي أمامها! في لعبة الإمساك ، لم تطاردني أبداً حينما يحين دورها لتلاحق الآخرين . آه ، طبعاً كانت تطارد الفتية الآخرين حتماً . لا مجال للقلق هناك . كثيراً ما كانت تستدير وتبتسم شامتة إذ تراني واقفاً أتميز غضباً ، بينما هي تلاحق أحد الأغبياء من إحدى العائلات الأخرى» .

«فيما بعد ، أوسعت ذلك الصبي ضرباً حتى إنه هرع إلى أمه باكياً ، ها ها! طبعاً لم تكن لديه فكرة ولكنني شعرت بالراحة على الأقل . ثم في أحد الأيام ، وبينما أنا ذاهب ركضاً من محددة أبي باتجاه النهر . كنا قد تصارعنا في الحقل العلوي ، أنا وبعض الرفاق ، في غفلة عن الأهل ، وتوسخت ثيابي مرة أخرى ، عادت بقية أترابي إلى بيوتهم لتلقي التقريع ، لكنني كنت أحذق منهم . لابد وأن الصيف قارب على نهايته وقتها ، لأنني أذكر أنه برغم طول الأمسيات ، إلا أنها كانت تنطوي على لسعة من البرد ، وأنا أعتقد دوماً بأن أمسيات أواخر الصيف هي الأشد حزناً طيلة السنة ، حتى أكثر من ليالي الشتاء» .

على أيه حال ، انطلقت مسرعاً ماراً بالمحددة ، ملوحاً أثناء مروري

لوالدي ولأميشا . كانا يوضبان أشياء في الخارج ، على الأغلب أدوات زراعية مثل المحاريث وما إليها ، وينهيان عملهما لذلك المساء .

لم أتوقف لأنني لم أرغب في أن يلاحظ أبي أنني متسخ مرة أخرى ، وما كان ليراني في ذلك القدر من الضياء . لذلك استمررت في الجري .

وصلت إلى النهر وكنت على وشك أن أغطس مباشرة بدون التوقف في بقعتي المألوفة ، حين رأيتها مرة أخرى . كانت واقفة وتراقبني . تحمل في يدها حجراً مسطحاً مستديراً ، وأذكر بطريقة ما أن جيبها ممتلئ بالحجارة نفسها . فقد قضت النهار وهي تجمعها . نعم! ذلك هو اليوم الذي تعاركنا فيه لاحقاً .

توقفت ونظرت إليَّ لثانية قائلة «إذا كنت ستبقى فأنا مغادرة» .

سألتها «ولماذا تذهبين» وأنا أقترب منها مبقياً على مسافة معقولة .

قالت وقتها «ولماذا أرغب في البقاء قريبة من شيء مقرف مثلك؟»

«لماذا تظنين أنني مقرف؟»

سحبت نفساً وألقت برأسها في اتجاهي «لماذا؟ فقط انظر إلى نفسك» .

يجب أن أعترف بأن لساني انعقد مرة أخرى ، فاكتفيت بالقول : «ولذلك أنا قادم للاغتسال» .

«حسناً إذاً ، أنا مغادرة لأنني لا أريد أن أراقبك» .

حانت اللحظة الحاسمة ياعبد . أذكرها بجلاء ، والتي اكتشفت فيها أمراً دعمني

ابتسمت .

سألت «لماذا إذا أنت هنا في المقام الأول؟ أنت تعرفين أن هذا هو المكان الذي أقصده للسباحة» .

قالت منزعجة «بإمكاني أن أذهب حيث أريد . مجرد وجود صبي

غبي مثلك يا بيبرس ، لا يعني أنني مجبرة على التصرف حياله» .

انتابني إحساس لا أستطيع أن أصفه لدي سماعي اسمي وهي تنطق به . خاصة حين قالته بدرجة الغضب التي سمعتها .

«لماذا لا تنزلي لتسبحي معي؟»

«إن الماء يكاد يتجمد! وبكل الأحوال ، هل تعتقد أنني سأذهب معك إلى أي مكان؟»

أعترف بأنه لم تكن لدي أيه فكرة .

قلت «لا أدري . إنني فقط أحاول أن أكون ودوداً . اسمعي ، لم لا تسمحين لي بأن أريك كيف تجعلي حجراً يقفز فوق الماء مرة أخرى؟» مددت يدي نحوها ولابد أنني بدوت وقحاً جداً .

قالت «لاتقدر أن تريني أي شيء» .

قلت «هناك طريقة واحدة فقط لمعرفة ذلك» .

قالت «باه! هيَّا إذاً» ثم ألقت إليَّ بالحجر الذي بيدها . أدخلت يدها إلى جيبها وسحبت حجراً مشابهاً آخر . تأكدت وقتها أننا عدنا أصدقاء .

لقد كان ذلك القادم صيفاً رائعاً بحق يا عبد ، وكذلك الصيف الذي تلاه . كلما فكرت في تلك الأيام ، أفكر بالأيام المشمسة ، حيث بدت الصخور نفسها وكأنها على وشك أن تنفجر من شدة الحرارة ، فنتسابق نازلين باتجاه النهر ونتفيأ تحت برودته . هنالك عنصر سحري في الحياة عندما تكون بذلك العمر .

كنت أتمرن وأتعارك مع الأولاد ثم أركض إليها . ظل والدي يتطلع إليَّ لأساعده في العمل بالمحددة ، وكنت أقوم بذلك . أعمل بجد حتى أتصبب عرقاً . كثيراً ما أمسك به وهو يراقبني أثناء لعبي مهاجماً ومدافعاً بالسيف الخشبي ، وهو مختبئ ينظر إلي من شق الباب .

كان يبتسم في معظم الأحوال على ألعابي الحمقاء وخيالي الفتي ، ولكن في أحيان أخرى ، كان يغلب عليه الجد ويصلح لي بعضاً من

حركاتي في الهجوم والدفاع . أعرف أن والدي كان قادراً على القتال ، رغم أنني لم أره يقاتل .

ثم يقص عليَّ فيٍ الليل حكايات مثل مرور أتيلا عبر قريتهم .

دخل أتيلا راكباً مع جحفله عبر قريتنا الصغيرة في طريقه لتدمير الغرب ، وكان جدنا الأكبر قد وضع الحذو الجديد لحصانه مسبقاً بكل حفاوة . أخبره والده ، وهو جدي ، بأنه قال لأشاماز إن الحصان قد أطلق النار من منخريه ، وإن ذيله بدا مثل مئة سوط جلدي .

عندما انحنى سلفي لتركيب الحذوة في إحدى قائمتي الحصان الأماميتين ، تنفس الحصان ملاءة من اللهيب فوق رأسه وأحرق كل الشعر عن رأسه . هذا هو السبب في أن رجال عائلتي كلهم يمتلكون جبهات عالية منذ ذلك الزمن : لقد كانت تلك علامة أتيلا . تعلمت الكثير عن الخيل في ذلك الوقت . تعلمت كيف أحذيها وأعتني بها بنفسي ، ثم جاء أخيراً الوقت الذي اشترى لي فيه أبي حصاني . مهر لطيف صغير السن أسميته أتيلا ، شكَّل لي تسلية لا حد لها ، كما أقول لك . لم يكن المسكين أتيلا يهتم بشيء غير قطع التفاح وحبات الزبيب التي أقدمها له على كفي .

في هذه الآونة ، وعندما تحضر دانا للعب ، كنا نركب مبتعدين سوية ، إلى حدود الجبال ثم نعود في المساء . كان الأطفال الآخرون يسخرون منها بشكل خاص ، لكنها كانت قوية بما يكفي لأن لا تهتم . ولم أهتم أنا . فقد ميَّزت الغيرة وصغر النفس حتى في حينها . ماذا تعني تشنيعات صبي قزم صغير عندما تكون لديك سيدة محترمة ، وهكذا كنت أراها ، وحصان؟ ماذا غير ذلك يحتاج الرجل؟

بكل الأحوال ، كنت أمتلك قبضتيَّ ، وفي أحد الأيام قام صبي لئيمٍ صغير أشقر الشعر ، نسيت اسمه الآن ، بالسخرية من دانا ، فطرحته أرضاً على قفاه ووقفت فوقه . لم يبذل أي محاولة لمعاودة النهوض ، لذلك تلفتُّ

حولي إلى الآخرين ، فتية وفتيات ، وتحديت أيّاً منهم أن ينطق بشيء . فلم يتكلم أحد .

أتذكر هذا ، لقد كانت الفتى من دماء مختلطة معظمها من القوزاق الذين استقروا في قريتنا قبل مولدي ، وكان والده سكيراً لئيماً . كان الجميع يعرف ذلك حتى من أيام طفولتنا . أنت دوماً تميز الصبي الذي لديه والد منحل لأنه سيبدو منحلاً بدوره ، تماماً كما ينتهي الأمر بالكلب وسيده متشابهين . كانت لدى هذا الرجل سمعة مفادها أنه يعاقب كل شخص تشعر عيناه المدورتان بالعداء تجاهه ، وأنا أذكر أنه حضر إلى المحددة مع بعض أصدقائه لاحقاً .

تجمهروا على مسافة قريبة في الخارج ، يصيحون ويشتمون مطالبين بالتعويض . حسناً ، ما زلت أذكر أن والدي خرج اليهم عاقداً ذراعيه . حمل مطرقة الحدادة على إحدى كتفيه ، وعلى الأخرى قضيباً حديدياً أخرجه من النار . وقف أميشا إلى جانبه ممسكاً بمطرقته وملقطه . صحيح أننا لم نكن على وفاق ، لكنه وقف مدافعاً عني في ذلك النهار . وسوف أتذكر ذلك دائماً .

لم يقولا شيئاً ولم يطلقا أية تهديدات . ففي نهاية المطاف ، فإن لديهما ما يكفي من الأسلحة في الداخل لتقطيع هؤلاء الكلاب إلى نصفين . اكتفيا بالوقوف ، وبعد هنيهة وصل صديقا أبي : ناريك ولاشه على حصانيهما ووقفا على مبعدة .

أومأ برأسيهما وتقدم أبي خطوة إلى الأمام .

تراجعت الكلاب خطوة إلى الخلف ، ثم الأخرى ، وخلال لحظات أصبحوا في حالة تراجع تام حتى انتهى بهم الأمر إلى الزحف داخل الثقوب الكابوسية التي خرجوا منها .

راقبت كل هذا حاملاً سيفي الخشبي الصغير ، وشعرت بأن قامتي طالت ولفتني الحماية بحيث أصبحت لا أقهر . لم يعد أحد إلى

السخرية مني ومن دانا بعدها ، وأصبحنا أحراراً في متابعة صداقتنا الطفولية الصغيرة بدون أي قلق .

لقد كانت أياماً عظيمة وحافلة يا عبد . ومثل كل شيء آخر ما كان لها أن تدوم . ربما كنت ممتلئاً بالثقة . بعد أن طرد والدي ذلك الجمع من الرعاع بحيث أغفلت عيني وتملكني الغرور ، ولكن من هو الذي يمكنه أن يقدم الأسباب لأي شيء على ذلك القدر من القِدَم؟ لقد جلبنا التعاسة على أنفسنا بأنفسنا . هل اكتشفت بأن أية تعاسة عانيت منها على الإطلاق حدثت بسبب شيء ما فعلته أنت بنفسك؟ نعم ، وأنا أيضاً . إن المنطق السليم نادر وقليل الوصول في كل أنحاء الدنيا .

لم ألح على بيبرس أبداً في مسألة ظروف اختطافه ، لكنني كنت أشعر دائماً بأكثر من الفضول . كيف لي أن لا أشعر بذلك؟ لقد كان الرجل الجالس أمامي صبياً فلاحاً ، ثم عبداً ثم جندياً وهو الآن إمبراطور ، سلطان وحتى فرعون . كيف حدث هذا؟ كنت على وشك أن أكتشف .

ألعاب طفولية يا عبد . هكذا حصلت . الأطفال مقتنعون جداً بأنهم يعرفون كل شيء ، لكن الحقيقة هي أنهم لا يعرفون أي شيء ، والقواعد يضعها أناس أكثر حكمة لسبب ما . ولكن ، أفترض أنه ينبغي على كل شخص أن يتعلم هذا الأمر بنفسه وبطريقته الخاصة .

الفصل الثالث

يحزنني الآن أن كتابة كمية قليلة بهذا القدر كل يوم تتعبني إلى هذه الدرجة . ما زلت أذكر كيف كان الوضع حين كنت شاباً وأملأ الصفحات بالحبر وبكميات تملأ الدلاء على ما يبدو ، ثم أذهب إلى فراشي وقد أصيب دماغي بالخدر .

كنت أجدد قواي بالراحة ثم أستيقظ لأكرر العمل نفسه في اليوم التالي . لم يكن مكان عملي مزدحماً مثل بقية الفلاسفة أبداً ، لكنه كان منظماً في الفوضى التي تعمه .

تعلمت مبكراً أن أنظم كتبي في صفوف مرتبة وأحمل أطباق الإفطار والغداء والعشاء معي بعد انتهاء عملي حتى يتم جليها .

لم يكن رأيي أبداً أن مكان العمل غير المرتب يشير إلى عقل فوضوي ، لكن بقي لدي شعور كامن مؤداه أنه كلما سمح الكاتب لمجال عمله أن يتكدس ويتلخبط ، كلما أثقل ذلك الوضع عليه وأبطأ تدفق أفكاره .

لم تعد هناك مجلدات قريبة مني حتى أحملها وأنخلها بحثاً عن معلومات : الناس القلة الباقون ممن يراسلونني هم في مثل كبر سني وبطئي ، أو أنهم قد ماتوا . أشرب القليل وآكل أقل مما أشرب ، وفي كل يوم لا أجد ما ينتظرني على الطاولة غير الريشة والصحيفة الواحدة .

هذا اختبار ، وأنا لم أخفق في أي اختبار طيلة حياتي : على الأقل كل اختبار صممت عليه . لقد ظلت ظروف اختطاف بيبرس ضبابية على الدوام ، وقد أكدت في كتابي الأول ، وفي الصفحات الأولى من كتاب

التاريخ، أنه لم يتم شرحها بالتفصيل أبداً، بل ظل التركيز دوماً على جعل حاكمنا البطل العظيم يبدو أكثر عظمة وشجاعة. في ذلك النص، أقام دفاعاً شرساً عن شخصه وشخص صديقته الصغيرة دانا الرقيقة.

لقد انقضى وقت طويل منذ اطلاعي على ذلك الكتاب اللعين، ولكن كما أذكر، فقد كتبت أنهما كانا قد ذهبا لقطف الزهور من جانب النهر لوالدتيهما حينما هوجما.

حسناً، فقد كان بعضه صحيحاً، على الأقل حسبما أخبرني بيبرس في الليلة التي سمح فيها لتحفظه أن ينزلق قليلاً.

كان الوقت متأخراً جداً. المعسكر من حولنا يعمه هدوء الموت، بلا أصوات كلياً. ذلك هو الوقت من الليل الذي تدرك فيه أن الصباح قد أطل، لكن الفجر ما زال بعيداً.

قال «يا عبد، أنا ألوم نفسي».

في البداية فوجئت من هذا القول تماماً، لأن بيبرس لم يكن يقبل الخطأ إلا في أندر الظروف وفقط عندما نتكلم سوية لوحدنا.

سألت «صحيح؟»

قال «نعم، لقد كنت أعرف الوضع. ولكن كم من مرة قمنا بعمل ما لأنه تم إقناعنا من قبل الآخرين؟ خاصة عندما يتعلق الأمر بالفتيات الحلوات. نعم دانا كانت حلوة جداً. لم تكن جميلة، لا. ما كنت لأصفها بالاستثنائية أبداً، ولكن يا عبد، كان يجب أن تراها بعد أن تصارعنا سوية وتقطعت أنفاسها واتسخت وتساقط شعرها في خصلات حول وجهها. كان هناك عنصر مذهل في منظرها: أعرف أن ذلك يبدو ضرباً من الحماقة، ولكن هكذا كان الواقع. أرى الآن أنني كنت لحظتها مستعداً لأن أفعل أي شيء من أجلها».

«ما الذي فعلته يا مولاي؟»

«نسيت تحذيرات والدي وتوبيخ والدتي. كانا قد أخبرانا بعدم

الذهاب إلى الحرش بدونهما مراراً وتكراراً ، حتى في ساعات النهار ، لكن بالطبع سمحت لنفسي بأن تقتنع أن كل شيء سيكون على مايرام . وكنت مخطئاً بالطبع» .

«هل قلت بأنها تحدتك يا مولاي؟»

«وأنا أسألك : ما هي نوعية الفتى الذي يسمح لفتاة أن تجعل منه جباناً؟»

«حقاً» .

«حسناً ، لقد بدأ الأمر بقدر كاف من البراءة . . .» .

لا أريد أن أفعلها . . . كان بيبرس قد بلغ الثالثة عشرة في هذه الآونة ، ويعرف أنه كان يفترض فيه أن يكون أكثر شجاعة ، لكن الحقيقة هي أن دانا كانت قادرة على أن تجعله يبدو جباناً بمنتهى السهولة ، أو يركب حصانه بسرعة أكثر حتى من معظم الرجال البالغين ، لكن دانا كانت تعثر على نقطة ضعفه دائماً ، الشيء الوحيد الذي يرعبه ويجعله يرتعد ويعقد لسانه .

لم تكن جميلة حسب المقاييس التقليدية بكل تأكيد .فقد كانت طويلة جداً ونحيلة بالنسبة لسنها . شعرها منسدل وفاحم السواد وأنفها كبير ، لكنه متوازن إلى حد ما مع وجهها البيضوي الطويل وعينيها الخضراوين الواسعتين . بمجرد اختفاء الدهون الطفولية وقيامها بقص شعرها الطويل لتسمح لعينيها الخضراوين بالبروز والتمعن في الدنيا ، فسوف تصبح ساحرة .

في هذا اليوم ، تحدت بيبرس بأنه سيخاف تماماً من تسلق الشجرة العالية المطلة على النهر ، في مكان عميق من الغابة ، ثم القفز إلى المياه تحته . ظل النهر يصبح أكثر دفئاً طيلة الأشهر الحارة ، وظلا يسبحان في المناطق الأقل عمقاً بانتظام ، لكن تلك كانت تقع في الأمكنة المفتوحة القريبة من الجبال والتي هي على مرأى من محددة أشاماز .

«مشيت كل المسافة إلى بيت دانا، وأنا أستعرض كل الأسباب التي تمنعني من القفز عن الشجرة، لكنني لم أستطع أن أفكر في سبب واحد. يجف النهر عادة في الأشهر الدافئة، ولكن بالطبع فقد هطلت أمطار غزيرة خلال عاصفة صيفية قبل أيام قليلة. كادت الشطآن أن تفيض ولكنها أخذت تعود إلى العادي تدريجياً، أعلى من العادي قليلاً. أحياناً يجعل هطول المطر ماء النهر بارداً، ولكن حتى عقلي الفتي وجد أن هذا العذر ضعيف».

اكمل بيبرس سيره. قاد مهره الصغير ممسكاً بعنانه، واستمر في التفكير طويلاً وبعمق. لقد أكمل عمله لدى أبيه ذلك الصباح ونظر خلفه ليرى أميشا وأشاماز وقد باشرا في تناول وجبة غدائهما تحت أشعة الشمس خارج المحددة.

قال لي بعد سنوات عديدة «شاع في ذلك النهار جو من الدعة والاطمئنان. عندما أفكر فيه يعود إليَّ الشعور بالهدوء والأمان. كانت القرية تعج بالنشاط، النساء يحملن الثياب عائدات إلى بيوتهن بعد أن غسلنها ثم نشرنها لتجف على الحبال. الأطفال الصغار يمارسون ألعاب المطاردة، والصبية الأكبر سناً انصرفوا ليعثروا على مغامراتهم أو يمارسوا لعبة المقاتلين. نظرت إلى الخلف ومازلت أرى كل شيء. أرى أميشا يرفع يده بما يشبه الموجة. تحسنت علاقتنا بعد العراك مع أننا ما كنا لنصبح أصدقاء أبداً، فقد كنا جيراناً وأدركت أنه مخلص لوالدي، وإن لم يكن إخلاصه للمهنة. وصلت قامتي لتعادل طول أميشا بحلول هذا الوقت. خرج والدي يحمل طبقاً أو قصعة ونظر باتجاهي. لم يكلف نفسه بمجرد رفع يده. فقد عرف إلى أين أنا ذاهب ولذلك لم يطل التفكير في المسألة. اتجه إلى الكرسيين اللذين أحضرهما أميشا خارج مقبض الباب وناوله الطبق».

راقبهما بيبرس لبضع خطوات ثم استدار ليعيد تركيز أفكاره على مشكلته.

لا بد من وجود طريقة للخروج من هذا

قالت له دانا قبلاً إنه إذا لم يقفز، فهي ستقفز قبله ثم تهرول عائدة إلى القرية وتخبر الجميع. ما كان بيبرس ليسمح بحصول ذلك. لكنه ببساطة لم يكن قادراً أن يفهم كيف سيخرج من هذه المعضلة بدون أن يفقد ماء وجهه.

صعد المنحنى البسيط مفكراً. لم يعثر على فكرة ما. كل ما أمكنه التفكير فيه هو النظرة التي سترتسم على وجهها لو هو حاول التنصل.

«أخيراً! ما الذي كنت تفعله، أكنت تصنع سيفك الأول أخيراً؟»

نظر إلى الأعلى ووجدها واقفة وقد عقدت ذراعيها، على مسافة قصيرة منه.

انتظر حتى اقترب منها قليلاً قبل أن يبدأ الكلام.

تنحنح ثم قال بأكثر لهجة آمرة وبالغة يقدر عليها «يا دانا، أنا لا أعتقد فعلاً أن تسلق الشجرة هذا اليوم هو فكرة جيدة».

كانت قد زمت عينيها اتقاء الوهج الساطع، لكنها حين سمعته، انفتحت عيناها على اتساعهما واتخذ وجهها تعبيراً مفتوحاً وارتفع حاجباها في جدية ساخرة «أوه؟»

قال «نعم، لن يعجب الأمر والدينا، وبكل الأحوال ربما نستطيع أن نذهب في جولة على ظهر أتيلا».

احتفظ وجهها بصورة التوهج والفضول، رائعاً في صدقه واستقامته، اتخذت خطوة إلى حيث وقف أتيلا واسبلت يدها فوق خطمه الطويل. أحنى رأسه للمستها وبدا وكأنه يومئ اعترافاً بملاطفتها.

قالت «سوف أحب كثيراً أن أذهب في رحلة ركوب على أتيلا لاحقاً».

تنهد بيبرس وقد ارتاحت قسماته وفقد كتفاه توترهما.

«رائع! لقد كنت أفكر...»

قاطعته بحدة «إنه لأمر محزن أن حصاناً في مثل شجاعة أتيلا ليس

لديه سيد يأخذه فوق المكبات الكبيرة حول الحفر. لابد وأنه يقول لنفسه في الليل «آه، فقط لو أن سيدي يعرف كيف يكون رجلاً حقيقياً، وقتها سأكون حصاناً سعيداً . . .!»

ألقت إليه بنظرة ملؤها السخرية والتحدي.

سحب نفساً عميقاً، كما توقعت أن يفعل «الآن، اسمعيني هنا . .!» تحشرج صوته بشدة عند كلمة هنا وتوقف قبل أن يكمل جملته. غرقت دانا في الضحك وقد انحنت كلياً، واضعة يديها على ركبتيها وكتفاها يهتزان.

«آه يا بيبرس، كم أنت رائع! فعلاً أنت رائع» مسحت الدموع عن عينيها ومررت يدها تحت أنفها.

«أنا . . .» لم يعرف في الحقيقة ما ينبغي عليه قوله. فمن ناحية، أسعدته حقيقة أنها وجهت له مديحاً، لكن بقي لديه إحساس سلبي غامض في معدته مفاده أنه يجب عليه أن يرد على الاستفزاز قبل لحظات. لقد تمكنت من جعله يسقط في الارتباك الرهيب خلال ثوان، كما هي عادتها.

«هيَّا يا سخيف. سوف أركب أتيلا العظيم حتى يصبح لديك شيء تقوله لي مع وصولنا إلى الشجرة».

قفزت بخفة إلى ظهر المهر وقفز خلفها. بعد أن ألقى نظرة حواليه للتأكد من عدم وجود أحد آخر يراه.

قال وهو ينظر إلى كوخ والديها الجميل «أين ذهب الجميع؟»

«والدي موجود في البقعة التي يصطاد فيها السمك، ووالدتي في القرية مع النساء الأخريات. مارال انطلقت لتلعب لعبة المطاردة التي يبدو أنك تحبها كثيراً».

طقطقت بلسانها عند سقف فمها وضغطت بكعبيها بلطف على خاصرتي المهر فانطلق إلى الأمام.

والد دانا هو الرجل الآخر في القرية الذي ليس لديه سوى بنات. اثنتان منهما. لكنهم مازالوا يأملون في صبي. كان أبوها رجلاً صغير البنية أصلع، تقوم زوجته وابنتاه بالإدارة الكاملة للبيت.

كنَّ ينفقن كل موارده حتى الإفقار، لكنهن أحببنه بشدة وأخشى أنه أحبهن بلا حدود في المقابل، ولم يقدر على حرمانهن من أي شيء».

هو من الأصناف المحظوظة في الحياة، قانع كلياً بنصيبه من القدر ولا يبدو عليه أنه يشتهي أي شيء. كان يفلح حاكورته الصغيرة حين تحتاج إلى الرعاية ويعتني ببيته عندما تأمره زوجته بذلك. في تلك الأشهر، كان ينتحي بنفسه في بقعة صيد ويجلس هناك بصنارته، طيلة النهار. يسحب الطاقية العريضة التي يعتمرها فوق رأسه ليقي نفسه من لهيب الشمس ثم يستند إلى الخلف ويغفو. أنا على ثقة من أنه ظل دوماً يحتفظ بقارورة باخسمة صغيرة، لكنه كان يحسن إخفاءها، ولم يكن أحد يكتشف سكره حين يترنح عائداً في الأمسيات محملاً بصيده.

طرد الطفلان المهر ببطء نزولاً عن المنحنى واتجها صوب خط الأشجار، بينما استمر عالمهما في الحركة حولهما كما يفعل في كل يوم آخر من أيام الصيف.

سرعان ما اختفت القرية عن ناظريها وأصبحا داخل الوادي الصغير الذي يفصل الحرش عن التلة. اقتربا من الأشجار وسرعان ما أحسَّ بيبرس ببداية برودة الظلال تتنزل على ظهره. تنامت الظلال أثناء مسير الحصان الصغير تحت خط الأشجار حتى أصبح كلاهما تحت الظلال كلياً. لم يتكلم أي منهما. أحياناً لم تعد هناك حاجة لكلمات تملأ الهواء بينهما مع تزايد ترافقهما وصحبتهما. كانا يكتفيان بالنظر إلى العالم حولهما أو يستمتعان باللعبة التي يؤديانها في ذلك الوقت، فقط لمجرد أداء اللعبة.

هكذا أدرك بيبرس أنه قد عثر على نصفه الآخر ، على الرغم من أنه ما كان ليخبر أي شخص آخر ، وعلى الأخص دانا نفسها ، عن ذلك الإحساس .

أدار رأسه إلى الجانب قليلاً حتى يشاهد أية حركة أو نأمة تدل على الحياة ، ولكن لم يكن هناك شيء فيما عدا الهدير الدائب الذي يأتي دوماً حينما يدخل الإنسان حرشاً .

أبقت دانا عينيها مثبتتين أمامها ، بينما احتفظت بيديها ممسكتين رقبة اتيلا برخاوة وهي تدندن لنفسها بلحن راقص . انطلقت عيون صغيرة من الماء مقرقرة مسترسلة من كل ناحية حولهما ، وغرَّد طيرٌ بين الفينة والأخرى أو غنى لنفسه .

كان بيبرس في العادة يحب هدوء الغابة حينما يأخذ والده العائلة إلى هناك مشياً ويسمح له بالمسير أمامهم أو خلفهم لوحده . كانت شقيقاته يتسلين بقطف الأزهار لأمهم وإحضارها إليها ، وكان هناك مرح سائد في الأجواء . ليس اليوم .

أحسَّ في هذا اليوم وكأنه سائر إلى مشنقته ، الأمر الذي كان صحيحاً من عدة نواح . كان يتعلق فوق الماء متدلياً من الغصن ويأمر نفسه بترك الغصن ، لكنه كان واثقاً من أنه لن يقدر على ذلك ، بدلاً من ذلك ، كان يسحب نفسه بحماقة إلى فوق ثم يراقب دانا وهي تقوم بذلك بدون أن يرف جفنها . كانت الأشجار بحفيفها والطيور بتغريدها وحتى الينابيع بقرقرتها تسبب له الإحساس بالضيق في هذه اللحظات . فقد بدت جميعها وكأنها مناكفة .

سمع فجأة فرقعة عالية من مكان لم يحدده وأدار رأسه باتجاه الصوت . سمعته دانا بدورها وتلفتت مثله .

قال «ماذا كان ذلك؟»

أدارت عنقها ونظرت حولها قائلة «لا أدري» ثم بحثت عند

الشجيرات ، لكن لم يكن هناك شيء يمكن رؤيته . لم يستطع بيبرس بدوره أن يرى غير الأشجار وأوراقها .

قال «لنعد أدراجنا ، هذه فكرة سيئة» .

قالت دانا بصوت رافض «لا ، ليست سيئة . هل أنت خائف من تكسر الأغصان الصغيرة الآن؟»

أدرك كم بدا صوته ينم عن الضعف ، وبذل قصارى جهده للتعويض «لا ، لكننا لا نعرف الشيء الذي كسر الغصن» .

استدارت لتنظر إليه وقد اقتربت من الغصن «إذا كنت تريد الذهاب ، فاذهب» .

«وأتخلى عنك؟»

«أنت لن تنفعني بشيء» .

بدا النهر أمامهما وكأنه يرد على حديثهما .

قالت «هيا تعال . لقد كدنا أن نصل» .

ترجل وبدأ يسير إلى جانب أتيلا ممسكاً باللجام الذي ترفض دانا استعماله قائلة إنه يؤلم الحصان . أبقى عينيه مسلطتين على الاتجاه الذي جاء منه الصوت ، لكن لم يكن هناك شيء في تلك الناحية .

عاد صوتها الساخر يناكفه «هل أنت تقوم بحراستي الآن؟»

«أستطيع أن أحميك إذا خرج شيء ما من بين هذه الأشجار» .

«هل تستطيع ذلك؟ ها ها!»

تجاهل بيبرس كلامهما واستمر في السير . بدأ يفكر أنه تصرف بحماقة إذ لم يحضر خنجره القامة معه .

تلفت حواليه فعثر على ما كان يفتش عنه . ترك اللجام وانطلق مسرعاً نحو حافة الممر . أصبح صوت النهر قريباً الآن . أصبح بامكانه سماع ارتطام مياهه بالشواطئ وأصوات انحداره في الشلالات الصغيرة إلى جهة الشرق .

تناول الغصن الكبير الذي لقيه في الحفرة ووازنه في يديه .

ثقيل بما يكفي

أزاح عنه الفروع الصغيرة وأوراق الشجر وركض بضع خطوات ليلحق بدانا وأتيلا .

«إنك تبدو وكأنك ذاهب إلى الحج يا بيبرس . لن تساعدك هذه العصا في القفز بالنهر . إلا إذا كنت تظن أنك ستقدر على أن تثب من فوقه» .

قال «ربما سأفعل» وقد أحسَّ بالاطمئنان لوجود شيء في يده . الغصن طويل بما يكفي للوصول إلى ذراعه وسوف يؤدي دور عصا قتالية إذا دعت الحاجة . وصلا إلى حافة الممر الصغير في الحرش ومرا عبر خط الشجيرات الذي يحدد حافة النهر .

قالت دانا «وها نحن هنا . فهل أنت جاهز لتثبت نفسك؟»

نفض كتفيه غير قادر على التفكير بأي شيء بما يكفي من السرعة حتى يرد عليها . ترجلت عن ظهر أتيلا ، ومشى الحصان إلى حافة النهر ليعب من الماء البارد .

مازال النهار حاراً وبات سعيداً بأي تبريد طيب يمر في طريقه .

قالت دانا «سيكون الماء لطيفاً وبارداً بالنسبة إليك أيضاً» . وقد ارتسمت على محياها تلك الابتسامة المثيرة للحنق والتحدي له مرة أخرى .

قال «هيا بنا ، ولننته من هذا الأمر» .

سارا نزولاً على الحافة مسافة قصيرة نحو الشجرة العالية بدون أي كلام . أرفق بيبرس عصاه على جذعها وأمسك بالغصن المتدلي ، وأخذ يبحث عن موطئ قدم ومقبض لإصبع رجله الكبير .

تساءلت «ألا تأخذ العصا معك؟ ولكن ماذا عن قميصك؟»

أدرك أنه على وشك أن يقفز في النهر بثيابه . ترك الغصن ونزع نعليه

ثم سحب القميص الخشن من فوق رأسه . راقبته بدون أن يرف جفنها معجبة بجسمه المليء بالعضلات . وضع ثيابه بعناية إلى ساق الشجرة ووقف عارياً إلا من بنطاله القصير .

أشارت دانا إلى الميدالية المعلقة على صدره «وما هذه؟»

نظر إلى تحت باتجاه التذكار من الرجل المقاتل . الرجل الذي حصل على اسمه منه .

قال «ليس هذا من شأنك» ثم أدرك أنه تكلم مثل فلاح بسيط .

قالت «تبدو بحالة جيدة» لم تعطه أي انطباع بأنها شعرت بالإساءة من رده . جاء رده عليها بنخرة ثم بدأ يدفع نفسه ويتسلق الشجرة .

صعد بمهارة وثبات وقوة ولم يشكل له الوصول إلى الغصن العلوي أية صعوبات تذكر . نظر إلى الأسفل وفكر في أنه لن تكون لديه مشكلة لو عاد متسلقاً نازلاً السبيل نفسه الذي صعد منه . لكن ذلك لم يكن سبب وجوده هناك . رأى رأس دانا مدفوعاً إلى الخلف وقد غطت عينيها بإحدى يديها ، تحدق فيه .

استدار عن ناحيتها ونظر إلى النهر تحته . الشجرة ضخمة ، لكنها تميل من الحافة إلى ما فوق النهر . وقف في الزاوية وتهيأ . سحب نفساً عميقاً ثم وجد نفسه جالساً فوق الغصن السميك الذي يمتد إلى أبعد نقطة . رفع نفسه على يديه وقد تدلت ساقاه عن الجهتين وأخذ يدفع بنفسه على مؤخرته إلى الأمام .

«هل أنت خائف لدرجة أنك لا تستطيع الوقوف؟»

نظر إليها خلفه ثم استدار وأكمل بالطريقة نفسها بدون أن يرد عليها بكلمة . نادت عليه «يا مسكين يا بيبرس! إنه يتسلق الشجرة مثل كلب لديه حكة في مؤخرته!» أصبح يشعر بأن الغصن قد بدأ يهتز بعد زحفتين إضافيتين ، لذلك توقف وأخذ ينظر تحته . من الصعب التكهن ، لكنه حتماً كان على ارتفاع يقارب العشرة أذرع فوق الماء . انفتل بجسمه إلى

اليسار ثم رفع ساقه اليمنى ببطء فوق الغصن وأنزلها إلى الجهة الأخرى .

الطريقة الأمثل هي التمهل والتمهل والحيطة . . . .

أصبح جالساً وقد تدلى ساقاه فوق الماء في هذه اللحظة ، ويداه ممسكتان مزروعتان بقوة وثبات على جانبي ردفيه .

لم تكن دانا على وشك أن تسمح له بالتراجع في هذه المرحلة «حسناً؟ هيًا انطلق إذاً!» .

هزَّ رأسه متسائلاً كيف أوصل نفسه إلى هذا الموقف . ليس الأمر أنه سيتأذى من القفز إلى مياه النهر المتدفقة بكسل تحته . هو يعرف أن الآخرين قد قفزوا من هذا الغصن نفسه قبلاً ولم يصب أي منهم بأذى . حتى في عز حرارة الصيف مثل هذا الوقت ، ظل الماء عميقاً بما يكفي لحمايته عند هذه النقطة . بكل الأحوال ، فكل ما عليه هو أن يلقي بنفسه من ناحية ساقيه أولاً ، ولذلك فلا يبدو الأمر وكأنه سيصدم رأسه بصخرة أو بقاع النهر .

أخبره المنطق أنه سيكون بخير ، لكنه لم يتمكن من القيام بالقفزة الأخيرة . جلس مكانه عابساً ، مكتفياً بالنظر إلى الماء .

«ما الذي تنتظره؟»

لم يحوِّل عينيه عن النهر «لاشيء»

«اقفز إذاً! فقط انطلق . أنت وصلت إلى الأعلى هناك» .

قال «سأقفز عندما أكون مستعداً» .

«ماذا؟ هل تريد أن تتلو بعض الصلوات إلى **أوشحه ماكوه** أولاً؟»

«لا تجدفي يا دانا»

تقطع صوتها لشدة الضحك عند هذا القول «هل تظن أن ذلك هو ما تحتاج إلى التفكير فيه في هذه اللحظة؟ فقط اقفز يا بيبرس! ارخِ الغصن واقفز! سوف تشعر بتحسن كبير عندما تقفز» .

جاء صوت تكسير غصن خلفها . استطاع أن يسمعه حتى وهو فوق الشجرة .

«ماذا كان ذلك؟»

نظرت إلى الشجيرات والنباتات خلفها «ماذا؟ لا شيء . هيَّا أيها الصبي المذعور ، فقط اقفز!»

حدَّق في الشجيرات الكثيفة عند حافة الحرش . لم يكن هناك شيء . لا حركة يمكنه أن يحددها .

«كف عن المراوغة!»

«اهدأي يا دانا ، توقفي عن الصراخ!»

اصاخ السمع بأقصى قدراته ، ولكن لم تعد هناك أية أصوات . مجرد الطنين المعتاد للحرش والنهر : أصوات فصل الصيف .

«ها ، هل أنت بحاجة إلى الهدوء قبل أن تسعى إلى حتفك؟ أهذا هو الأمر؟» مدت كلتا يديها إلى الأمام ، كفاها إلى تحت وكأنها تستجدي الهدوء «ششش! صمتاً رجاءً من الجميع! إن بيبرس العظيم على وشك أن يبرهن مرة أخرى وللجميع بأنه القط الأكثر هلعاً في كل قبيلة الشابسوغ» .

«يا دانا ، أنا أحذرك . . .»

«تحذرني؟ تحذرني من ماذا؟ ماذا؟»

تصاعد الخنق في داخله إلى حد الغليان واشتعل غضبه «آه ، إلى الجحيم بكل هذا . . .» انزلق عن الغصن وترك نفسه تنزل باستقامة إلى داخل الماء ، وقد ضم ذراعيه إلى جسده مثل جذع خشبي . أدار رأسه نحو دانا أثناء سقوطه ، فلمح بلحظة شكل إنسان يخرج من الشجيرات خلفها ، ماداً ذراعيه ليمسك بها .

كان الماء بارداً حقاً وغطس فيه نزولاً مباشراً حتى لامست قدماه الطين الرملي الناعم في القاع . بدأ على الفور يرفس ويحرك يديه ليعود صاعداً إلى وجه الماء ، يطوِّح بذراعيه بكل قوته ليضرب الماء متناسياً البرودة كلياً .

عندما خرج رأسه من تحت الماء ، أمكنه أن يرى وجود أربعة منهم ،

جميعهم رجال بالغون من مختلف الأعمار، ثلاثة منهم بلحى والرابع بالكاد أنهى سنوات مراهقته. شعرهم بني فيراني يصل إلى أكتافهم، وثيابهم من الجلود الخشنة بمختلف السماكات. الأصغر منهم سناً هو الأحسن هيئة وأكثر بياضاً من الآخرين، يكاد يكون روسياً.

كان ظهر دانا باتجاهه وهي تحدق فيهم أثناء دورانهم حولها. تحركوا نحوها إلى الأمام فاتخذت خطوة إلى الخلف. بدا قوامها ناحلاً وصغيراً كما لم يبدُ من قبل أبداً؛ لأنها لم تقف محاطة من قبل بمثل هؤلاء الأجلاف.

صاح بها «دانا!»

التفتت نحوه وفي تلك اللحظة أفرد أكبر الرجال سناً ذراعيه وتناولوها.

صرخت وحاولت أن تقاوم، لكن بلا فائدة.

صاح «دانا» مرة أخرى وبدأ يسبح بعنف نحو الشاطئ. وضع الرجل المسن يده فوق فمها وأمسك الأصغر سناً بكاحلها حين ركلته. كانت حركة بيبرس بطيئة بالنسبة لما يجري: أدرك ذلك وبدأ يصرِّك أسنانه غيظاً وبذل أقصى جهوده للسباحة نحو الحافة. إنها لا تبعد سوى أذرع قليلة، لكنها بدت له مثل الطرف القصي من العالم.

صاح بهم «اتركوها وشأنها!»

تجاهلوه، بينما قام أحد الرجال الآخرين برفع ساق دانا الأخرى عن الأرض وحملوها متجهين بها عودة إلى داخل الحرش. أخيراً لامس بيبرس حافة النهر ورفع نفسه إلى خارج الماء. أصبح بإمكانه رؤية ظهر آخر الرجال قبل أن يختفي داخل الأشجار. إنهم أغراب، عرف ذلك. حكم عليهم من ثيابهم وقصة لحاهم بأنهم ليسوا من الشراكسة. طالبه أول إحساس غريزي لديه بمطاردتهم، لكن عقله أشار عليه بحشر حذائه على قدميه المبتلتين وخطف قميصه وبنطاله وعصاه من حيث تركها مسنودة

إلى الشجرة . أحكم قبضته عليها بقوة ثم جرى خلف المجموعة .

امتلك بيبرس خبرة مسبقة في الصيد ، ولذلك فهو يعرف كيفية تقصي آثار الحيوانات والطرائد ، لكنه لم ينتبه إلى مثل هذه النقاط المتطورة في هذه الآونة ، بل ركض مندفعاً داخل الحرش بشكل أعمى وتوجه إلى الناحية العامة التي حملته إليها رجلاه . سمع صرخة أمامه ، ثم ميَّز صوت دانا

«بيبرس!»

لاحق الصوت حتى وصل إليهم في إحدى الفسحات . دفع برجليه إلى أقصى سرعتهما ثم هوى بالغصن على رأس أقرب الرجال إليه من الخلف . صدر عن الضربة صوت طرقة عالية وانهار الرجل إلى الأرض جراء الصدمة . سنحت للغزاة الآخرين مهلة للاستدارة قبل أن يرفع السلاح مرة أخرى ويوجه لكمة إلى وجه الرجل الآخر ، وقد زاد الغصن من قوة الضربة حتى جاءت مثل هراوة فولاذية .

ألقى كبير السن بدانا إلى ذراعي الرجل الأصغر سناً ، حيث وجد الآخر صعوبة في السيطرة عليها لأنها ظلت ترفس وتعض مثل قطة متوحشة .

قال الرجل «خذ العاهرة» وذهبت يده إلى حزامه وسحب سيفاً صدئاً لكنه يبدو خطيراً . واجه بيبرس فبدأ يدوران أحدهما حول الآخر مثل كلبين غاضبين . في هذه الأثناء ، استفاق الآخران من الصدمة واستعادا السيطرة على نفسيهما . أدرك بيبرس أنه ليس لديه الكثير من الوقت . حاول أن يهاجم لكن الرجل المسن تجنبه ورفع السيف ليوجهه إلى عيني بيبرس مباشرة . استدار بيبرس مبتعداً ثم هاجم مباشرة باتجاه وجه الرجل بدوره .

صاحت دانا «بيبرس!» نظر باتجاهها وندم من فوره . استغل خصمه السانحة ودفعه في كتفيه بقوة . ركع الرجل الأول الذي ضربه بيبرس

خلفه فسقط بيبرس على رأسه منكساً حين تعثر به ، محتفظاً بالكاد بالغصن . سقط على ظهره وحاول أن ينهض لكن الرجل المسن ظهر فوقه ، ممسكاً بالسيف الصدئ من طرفه غير الحاد . أطاح بالمقبض الثقيل في وسط رأس بيبرس تماماً ، فاصطبغ كل شيء فجأة باللون الأسود .

أفاق مجفلاً وبدأ على الفور يركل ويتحرك بعنف . كان الظلام الدامس يلفه واستطاع أن يتلمس ألواحاً خشبية صلبة تحت قدميه . رأسه مغطى بشيء ما .

فكر للحظة عابرة أنه قد مات وأنه استفاق في داخل كفنه . أجبره صوت خشن على التوقف عن الحركة والإصغاء .

«أنت هناك ، اهدأ! إن أصدقائي هنا يبحثون عن عذر لتمزيق أحشائك وعرض خصيتيك عليك قبل أن يجبروك على أكلها . فما نوع الدفاع الذي ستقدر عليه في حينها؟»

يداه مقيدتان أمامه بقوة لدرجة أنه لم يكن هناك أية فسحة بين معصميه .

رفس بساقه اليمنى إلى الأمام فأصاب ساقاً أو قصبة . سمع نخرة وشتيمة ثم طرقع رأسه جراء ضربة جعلته يرى النجوم فعلاً . هدأ للحظة بينما غام رأسه بقوة الضربة . بدأ صدغه ينبض .

«ليكن ذلك درساً لك!»

بمجرد أن استعاد وعيه وقدرته ، ركل مرة أخرى وأصاب الساق نفسها للمرة الثانية بحيث وضع كعبه مباشرة على عظمة قبضة الساق .

«أيها الوغد الصغير!»

ضربوه على أنفه مباشرة ، فارتد رأسه واصطدم بأرضية المركب الذي ألقوه عليه . امتلأت خياشيمه بالدماء ، ما أجبره على التنفس من خلال فمه . أدى هذا إلى امتلاء كيس الخيش بالهواء الساخن ، وخشي فجأة من أن يتقيأ ويموت مختنقاً وهو مقيد إلى الأرض مثل خنزير أو عجل لدى

قصاب ما . الرائحة فاسدة ، وكأن الكيس استخدم لتخزين اللحم والخضار التي تعفنت منذ فترة طويلة .

أحسَّ وهو في شبه غيبوبة وغير واع تماماً ، أنهم يربطون قدميه ثم انتبه إلى مثبت أو مقعد طويل . لم يعدْ يقاوم ، ثم تناهى إلى سمعه تلاطم المياه وأحسَّ بالتمايل .

إنهم موجودون على قارب .

«أين هي . . . دانا؟» جاء صوته مفخماً وغريباً ، ثم أوقف نفسه ليحاول أن يحرر أنفه من الدم والمخاط الذي يملأه . انزلقت مثل وخم الحلزون على مؤخرة حلقه ، وجعلته ملوحتها وسماكتها يشعر بالغثيان . ذلك كل ما استطاع عمله للإبقاء على بقية محتويات معدته من إفطار ذلك الصباح . لم تكن هناك استجابة من فتاته .

ردَّ عليه الصوت مرة أخرى «ليس موضوع أين مما يهمك أيها الصبي . لقد انتهت أيامك في الانتقاء ، واختيار المكان الذي تذهب إليه وتطرح الأسئلة» . كانوا يتكلمون بلغة التتار ، والتي يفهمها بدوره . لقد كانت اللغة المشتركة الشائعة في القفقاس ، حيث تواجدت مئات اللغات وأصبحت اللغة التتارية وسيط التواصل العام المشترك لهم كلهم عند ابتعادهم عن قبائلهم .

تكلم صوت آخر ، عائد إلى الفتى الذي يشبه الروس ، «دعونا نكتفي بقتل هذا الحقير الصغير ونلقي به في البحر» .

صفعه .

وجَّه بيبرس وجهه المغطى باتجاه صوت الصفعة . حتى تلك الحركة البسيطة جعلته يجفل .

«لأنه يساوي شيئاً ما هو الآخر يا سيرجي! هل تعتقد أنني أردت أن تمسك بهذا الخراء من أجل المتعة فقط؟» تباطأ الصوت وانخفض «نحن نتمسك به لأنه عندما يكون خالياً من الأمراض في هذه السن ، فإنه

يساوي شيئاً ما في الجنوب» .

عاد الصوت إلى الارتفاع «هل تفهم؟»

جاء صوت غمغمة بمعنى الإيجاب وأحس بيبرس بنخزة إلى يساره . إذ جلس شخص ما إلى جانبه حتماً .

اقتنع الآن أن المتحدث هو الشخص الأكبر سناً ، ذلك الذي قد ضربه بمقبض السيف ، والواضح أنه يتولى القيادة . لم يكن لدى سيرجي ، إذ كان ذلك هو اسمه ، ما يضيفه . أحسَّ بيبرس بركلة خشنة من حذاء بين أضلاعه .

«هل سمعت ذلك أيها الجرذ الصغير! سوف تجلب علينا مبلغاً محترماً ، وسوف نستمتع به أنا والشباب . ربما نصطحب صديقتك الصغيرة معنا . أنا على ثقة من قدرتنا على أن نريها بعض الأمور التي قد تعجبها» .

أحسَّ بيبرس بالأنفاس ورائحة اللحم المتعفن تدخل الكيس الذي يغطي رأسه ، ثم همس الصوت في أذنه خفيضاً «هل هذا صحيح أيها الجرذ الصغير؟ هل فتاتك الصغيرة بحاجة إلى بعض الرجال الحقيقيين ليروها كيف يتم أداء الأمور؟»

«أيها النذل!» حاول بيبرس أن يدير يديه المقيدتين إلى حيث جاء الصوت مشكلاً قبضة مغلقة ، لكنهم توقعوا ذلك منه سلفاً . تنزلت اللكمات والركلات على رأسه وجسمه بحرية كالمطر ، وكل ما استطاع عمله هو أن يكور جسمه على شكل كرة . لم يكن هناك أي مهرب .

تعبوا في آخر الأمر من تعذيبه وجلسوا على جوانب ما أدرك بيبرس الآن أنه قارب صغير أو حتى قارب تجديف . ثبت أن محاولته في وضع الألم جانباً ومحاولة التعرف على موضعه أمر صعب لأن عقله ظل يعود إلى دانا وما فعلوه معها .

الأمر الأسوأ ، ماذا إذا لم يكن هؤلاء الحيوانات هم الغزاة الوحيدون؟

ماذا إذا حدثت هناك غارة مشتركة بين الروس وحتى المغول القادمين من الجنوب؟

ماذا لو أن والده ووالدته وشقيقاته يقاتلون الآن دفاعاً عن حياتهم، وهو موجود هنا، مقيد مثل ديك رومي وغير قادر على مساعدتهم؟

اقتنع أن التفكير بهذا الشكل كثير عليه. لذلك قرر بدلاً من ذلك أن يختبر حدود قيوده ويحاول أن يستكشف وجود إمكانية لهروبه. على أقل القليل، ربما يبدأ هؤلاء الرجال الذين أسروه وضربوه في التحدث فيما بينهم والإفصاح عن شيء ما. ولكن بكل الأحوال، ظل عقله يعود إلى الفكرة نفسها.

أين هي دانا؟ لماذا لم تصرخ حين ناديت عليها؟

تحسس من خلال صراعه، أبعاد القارب الذي هو موجود بداخله وأدرك من اهتزازه العنيف، أنه من المستحيل وجود رهينة أخرى مقبوض عليها هنا كما هو حاله.

أين هي؟

بدأ وهو ما زال ملتفاً على نفسه حتى وصلت ركبتاه إلى ذقنه، يلف رسغيه بكل هدوء ونعومة جيئة وذهاباً: محاولاً أن يعرف مقدار الفراغ الموجود بينهما. لم يكن هناك أي فراغ. أحسَّ وكأن يديه قد ألصقتا ببعضهما وأنه لا سبيل إلى فصلهما. لقد مارسوا ألعاباً في القرية سابقاً حيث ينبغي إنقاذ شخص ما ويكون مقيداً لأجل اللعبة، لكنه لم يشعر بأي شيء مثل هذا أبداً. حاول تحريك ساقيه مجدداً، بكل هدوء أيضاً. يمكن تحريك ركبتيه، لكن كاحليه في الحال نفسه. لا شيء.

«هيه، أنت أيها الجرذ القروي الصغير! توقف عن حركاتك واهدأ. وإلا فهل ترغب في المزيد مما نالك قبل هنيهة؟»

هذا صوت جديد: أحد الرجال الآخرين، لكن معرفته بهذا الأمر غير مفيدة له.

وعلى أية حال، حتى لو استطعت بطريقة ما أن أتحرر من هذه السيور، وتمكنت من التغلب على هؤلاء الخنازير . . . إلى أين سأذهب؟ هل أقفز في الماء وأسبح؟ ليست لدي فكرة عن مكان وجودي . هل سأتمكن من دفع هؤلاء الأربعة عن القارب ثم أجذف عائداً؟ مستحيل . إذاً ما الذي سأفعله؟

رقد في مكانه وفكر محاولاً التوصل إلى خطة ما

أين هي دانا؟ لماذا هي ليست هنا؟

عذبته الفكرة . فهو مضروب ويشعر بالبرد، ومازال غير مرتاح بسبب الغطاء أو الكيس الذي يغطي رأسه مكافأة على محاولاته .

اقترب الصوت من أذنه «أقول لك بأن تبقى ساكناً! هل تعلم؟ ما زال هناك سوق موجود للمخصيين في أسواق القسطنطينية، وحتى في البلدات الصغيرة الأخرى؟»

اختلفت رائحة النفس هذه المرة **البصل** «نعم» استطرد الصوت «صبي مثلك يمتلك قليلاً من القدرة على القتال؟ بدون خصيتيه بالطبع . ستكونان قد فقدتا منذ وقت طويل .» سحب نفساً وتشمم ثم بصق «نعم، لن تكون بتلك القوة وقتها، لكنك ستكون جميلاً في نظر أحد الرجال الأغنياء هناك . سيحلقون شعر رأسك ويلبسونك ثياب فتاة صغيرة» .

أحسَّ بالدموع تتدفق إلى عينيه رغماً عن إرادته، فألصق وجهه بخشب أرضية القارب .

«نعم، سيقومون بدهنك بالزيوت ويقيمون عليك حفلة صغيرة . فهل ستحب ذلك أيها الفتى القوي؟ يمكنك أن تزين عينيك بالفحم النباتي لتبدو جميلاً» .

حبس بيبرس نوبة بكاء انتابته .

صدرت عن الصوت شخرة رضا «حافظ فقط على موقفك أيها الجرذ الصغير وسوف نتركك في ذلك الموقع» .

يقولون إن الآلهة لا تبكي، لكنني أقسم أن عيني بيبرس امتلأتا بالدموع في الليلة التي أخبرني فيها كيف أسروه. هو في العادة يستوي جالساً ويشرح بإسهاب بينما هو يعب من قدحه ويضحك ملء قلبه على نكاته وقصصه الطويلة، لكن لم يكن هناك أي تمثيل واصطناع من هذا القبيل في تلك الليلة. حتى حملة الأقداح أووا إلى فراشهم، ومع ذلك لم ينظر في عينيَّ. ظل يحدق في الجدار القائم في الوسط ويقص حكايته بشيء من السخرية والازدراء، وقد امتلأت عيناه بالدموع وصوته يتقطع عند كل كلمة.

لم أعرف أبداً من الذي كان مقصوداً بالازدراء، هو نفسه أم الرجال الذين ألقوا القبض عليه وعلى صديقته دانا من نزهتهما الرومنسية.

«هل تعلم يا عبد أنهم يقولون بأن القيصر قد تم اختطافه في صغره؟ يوليوس قيصر نفسه. أعظم الرومان وفاتح بلاد الغال وبريطانيا وحتى مصر حيث نجلس».

أعدت ملء الأقداح من الإبريق الذي تركوه لنا.

«لقد تم أسره أثناء عودته من اليونان إلى بلده، وطالب القراصنة بفدية مقابل رأسه». توقف ليشرب من القدح. «هل تعرف القصة؟ نعم؟ يا لك من مثقف وأستاذ».

حدجني بنظرة حادة وهززت رأسي «نعم لقد طالبوا بجائزة مقابل رأسه وطلب منهم أن يضاعفوها لأنه يساوي أكثر بكثير. هل تعرف كم كنت أساوي أنا يا عبد؟»

نفضت رأسي بالنفي.

التقى إبهام يده اليسرى مع باقي أصابعه لتشكل أمام عينيه مباشرة ثم حرَّك رأسه إلى الخلف ونظر إلى يده بمرارة. «ذلك هو ما كانت قيمتي بالنسبة لهم يا عبد. لا شيء... صفر، زيرو كما يقول الإغريق. لم أكد أساوي شيئاً حتى لو ألقوا بي إلى الماء، كما قال ذلك المتوحش الفتي».

أبعد أصابعه عن وجهه ، وكأنه يحاول أن يطرد الأحاسيس والأرواح الشريرة التي عادت إليه حينما تذكر ذلك الوقت .

لكنك تعرف ما الذي فعله قيصر بالقراصنة الذين اختطفوه ، أليس كذلك ياعبد؟

لقد قام بصلب كل واحد منهم يا مولاي . . . حتى آخر رجل فيهم .

هزَّ رأسه «هذا صحيح . حسبما تقول كتب التاريخ ، فقد كان الوقت الذي قضاه بينهم أشبه بالإجازة ، فقد ظل يقف على قمة القارب ويلقي بالخطابات . ولكن دعني أخبرك أن الحقيقة ليست كذلك» .

طوَّح الحذاء ليصيبه في مشعره أولاً ثم في وجهه ، فظل يقاوم الاختناق عاجزاً عن الحركة .

«والآن أيها الفتى ، هنالك عدة طرق للقيام بالأمور على هذا القارب ، وهناك طرق نتعامل بها مع من لا يطيعنا ، هل تسمعني؟» سحب الغطاء التعيس بعد أن علق في أنفه وشد على عينيه .

شله الألم عن الحركة وتجمد وجهه المحطم في تكشيرة بينما أخذت أسنانه تصطك . قبضت يد قوية معروقة على ناصيته وشدتها ، بحيث أوصلت عينيه إلى مستوى عيني سجَّانه .

«لقت قلت هل تسمعني؟»

رغم حقيقة أن القبضة على رأسه كانت أشبه بملزمة ، إلا أنه تمكن من أن يرمش ويهز رأسه موافقاً . تركه الرجل فعاد إلى الهبوط على سطح هذه السفينة الجديدة .

«جيد . بهذه العقلية فأنت سوف تكون في وضع جيد هنا . أيها الشاب! خذوا ضيفنا إلى الأسفل حتى يتعرف ويتآلف مع مقره» .

توفر له الوقت ليتلفت حواليه بينما هم يحملونه إلى العنبر . الوقت

ليل ولا أثر لدانا . حمله الشاب الأشقر الذي شارك الآخرين في القبض عليه من تحت إبطيه مع شاب آخر من طاقم السفينة قريب من سنه ، من رجليه وأخذوه في عملية نصفها حمل والنصف الآخر جرجرة . استطاع أن يميز الثلاثة الآخرين وهم منهمكون في حديث مع رجل ملتح ضخم الجثة يرتدي معطفاً ، الأرجح أنه القبطان .

شاهد بضعة بحارة يتمشون جيئة وذهاباً ، ولمح في لحظة رفع فيها رأسه ما بدا وكأنهم جنود منتشرون ناحية الأشرعة .

أدار رأسه مرة أخرى ليقابل التحديق البارد من الصبي الأشقر ثم هوى . سقط مثل كيس وارتطم رأسه بالأرضية الصلبة للسفينة مرة أخرى . تكوَّر على نفسه وانتظر زوال الألم .

«من أنت؟»

فتح عينيه وحدَّق في العتمة . بدا الصوت وكأنه أكبر وأطول قامة منه ويحمل اللكنة التتارية نفسها حين كرر السؤال «من أنت؟»

عبس وتمطى بحيث أصبح يرقد على ظهره . بقيت يداه وقدماه مقيدتين وصارت أمكنة الضربات التي تلقاها تنبض . سحب نفساً عميقاً ليرد الدم الذي ما زال يملأ أنفه - وقد بدأ يجف الآن .

«أنا بيبرس ، ابن أشاماز من الشابسوغ» ، حاول أن يدخل بعض القوة التي لم يشعر بها في كلماته .

«هل أنت شركسي؟»

بذل جهداً كبيراً حتى تمكن من اتخاذ وضعية الجلوس ثم نظر حواليه وقال «نعم» .

قال الصوت «إذاً ستكون في بيتك هنا ، فنحن كلنا من الشعب نفسه» .

تمخط بيبرس من أنفه بعنف ثم بصق النتيجة بين قدميه على الأرضية .

نظر إلى الأعلى حيث الثقب الذي أسقطوه منه لتوهم .

«ليس هذا منزلاً يناسبني» تلفت حواليه وبدأ يميز أشكال الرؤوس المتحلقة عند جدران العنبر الضيق متمهلاً . كان هناك فتية آخرون ، بعضهم أصغر سناً منه بكثير وقلة أكبر ، جالسين مستندين إلى الجدران الخفيضة . بالكاد أتيحت لهم مسافة ليجلسوا مستندين .

«كم من الوقت قضيتم في هذا المكان؟»

أجابه الصبي نفسه مرة أخرى ، وبقي وجهه مخفياً في الظلال «لقد تم اختطاف بعضنا قبل أسابيع ، وآخرين في الأيام القليلة الماضية . إنهم يلقون إلينا بالطعام مرة واحدة في اليوم ، وهناك دلو يتم إنزاله ورفعه للماء ، من بين أشياء أخرى» .

«أشياء أخرى؟»

«ألا يمكنك أن تخمن؟»

«نعم ، أظن أنني أستطيع ذلك» . بدأ بيبرس يتفحص السيور الجلدية التي تقيِّد يديه باحثاً عن العقدة التي تبقيها مربوطة في مكانها . أحسَّ بالبرودة تسري في يديه نتيجة نقص تدفق الدماء ، وفكر أنه كلما أسرع في تحريرهما ، فسوف يتمكن من التفكير بوسيلة ما للفرار .

زحف الصبي إلى الأمام «اسمح لي أن أساعدك» فاندفع بيبرس إلى الوراء بردة فعل غريزية ، رافعاً يديه في محاولة للدفاع عن نفسه . واضح أن أحداث ذلك النهار قد أدت فعلها فيه .

«أرجوك ، ليس هناك من أذى أستطيع أن ألحقه بك هنا . دعني أحررك» قلَّب الفتى يدي بيبرس ثم تفحص العقدة للحظة قبل أن يبدأ بتفكيكها .

«أحررك»

سأل بيبرس «من أنت؟»

لم يرفع الفتى رأسه عن عمله . قال «أنا بيطا ، إن شعبي يقطنون في

مكان ما إلى الجنوب الغربي من دياركم . أو هكذا قيل لي عن الشابسوغ . لقد كنت من بين أوائل الناس الذين خطفوهم وأحضروهم إلى هنا . أنا من قبيلة الوبيخ» .

«من هم هؤلاء الذين فوقنا؟» ازدحم رأس بيبرس بالأسئلة . لكن أكثر ما أشغله هو ما حدث له مؤخراً . لم ينطق أي من الصبية الآخرين بكلمة منذ لحظة إسقاطه بينهم .

قال بيطا «إنهم لومبارديون بشكل رئيس ، أبناء البندقية . يبحرون صاعدين من القسطنطينية ويشنون الغارات . لقد هاجموا قريتي في ساعة متأخرة من إحدى الليالي وخطفوني مع بعض الآخرين وأتوا بي إلى هذه السفينة وأسقطوني هنا . هل هاجموا قريتك أيضاً؟»

«لا . .» حرَّك رأسه مشكلاً زاوية وكأنما الفكرة تؤلمه . «لقد كنا . . . نسبح ، حسناً ، يفترض أننا كنا سنسبح . أقصد . . . لا أدري . يحتمل أنهم أغاروا على قريتي . لقد كنت بعيداً عنها . . . في النهر . . . كان هناك أربعة منهم . . ضربت اثنين ، ولكنني وقعت بعد ذلك أرضاً . ضربوني بمقبض سيف . . .»

مدَّ بيطا يده نحو كتف بيبرس وشدَّ عليه بقوة . قائلاً «ششش . . .»

كان بيبرس يرتعش وأسنانه تصطك ، رغم أنه لم يكن يشعر بالبرد .

سأل بيطا «هل قلت نحن؟»

انتفض رأس بيبرس حين رفعه مندهشاً «ماذا؟»

«لقد قلت كنا نسبح . من الذي كان معك؟ وأين هو الآن؟»

«ليس هو ، بل هي . دانا»

«أهي شقيقتك؟»

«كلا هي صديقتي» .

بدت له الرحلة نحو النهر والقفز عن الغصن نكتة طفولية سمجة مضحكة في هذه اللحظة . وكأنها تنتمي إلى حياة أخرى .

«هل تعرف ما فعلوه بها؟ ربما تمكنت من الفرار؟»

حاول بيبرس أن يفكر فيما حدث، لكنه لم يستطع أن يتذكر أي شيء بعد أن قال الرجل الأكبر سناً «**خذوا العاهرة**»، ثم حين قاتله.

حرر بيطا يدي بيبرس وأزال السير الجلدي عنهما قبل أن ينتقل إلى قدميه

«قريتي . . . والدتي . . . ماذا لو أنهم؟»

توقف بيطا واضعاً يديه على ركبتي بيبرس ونظر إلى وجهه. للحظة، شاهد بيبرس ما رآه الفتى الجالس أمامه حين احترقت قريته من حوله.

قال بيطا بصوت هادئ متوازن «لا تفكر بمثل هذه الأمور. لا ينتج عنها أي خير».

أنهى فك القيود عن ساقي بيبرس وأزال الجلد بسرعة. لاحظ بيبرس أن السيور الجلدية اختفت بمثل السرعة التي انحلت فيها «هل أنت مصاب في مكان ما؟ هل لديك نزيف؟ قلت إنهم ضربوك بسيف؟»

نفض بيبرس رأسه نفياً «كلا» مرر يديه على ذراعيه وكتفيه متحسساً.

«مجرد رضوض. لقد أصبت بمثلها من قبل. ما الذي ينوون عمله فينا؟»

مال بيطا إلى الهدوء للحظة، مستغرقاً في التفكير «من المحتمل أنهم سيبحرون باتجاه الجنوب الآن ويبيعوننا كعبيد في أسواق القسطنطينية».

«عبيد؟»

«ذلك صحيح. يحتمل أن ينتهي بنا الأمر لنخدم سيداً لاتينياً ما، أو روسياً. من الناحية الأخرى، ربما يسلكون طريقاً آخر ويبيعوننا للأتراك أو حتى العرب على مسافة أبعد قليلاً إلى الجنوب. سوف يجعلون من لم يعتنق الإسلام منا بعد مسلمين ويدربون الأقوى بيننا للقتال في جيوشهم، فالشراكسة مقاتلون في نهاية المطاف».

سأل بيبرس «وكيف تعرف أنت كل هذا؟»

«لقد تم اختطاف شخص أكبر سناً من قريتنا كما تم اختطافنا ولكنه تمكن من العودة بعد عدة سنوات وقص علينا حكايته» .

هزَّ بيبرس رأسه عند هذه النقطة . فقد كان كل هذا أكثر مما يمكنه استيعابه «ماذا عن **الباسيليوس**؟ ربما تتمكن سفن الامبراطور من إنقاذنا» .

نظر إليه بيطا مشفقاً «أي باسيليوس؟ إن أقواهم موجود في نيقيا وهناك آخر في طرابزون . أعتقد أن الامبراطور الموجود في ابيروس أبعد قليلاً من أن يقدر على مساعدتنا في هذا الوقت» .

«ما الذي تقصده؟»

«أقصد أن الأباطرة ، أياً كان الذي يهمك أن تذكره ، لم تعد لديهم أية سفن . السفن القليلة المتبقية لديهم مشغولة في مقاتلة اللاتين والأتراك أو التقاتل فيما بينها في الجنوب . يحتمل أن ننضم إليهم عما قريب . في جانب أو الآخر» .

أثناء حديث بيطا ، كان بيبرس قد تمدد أكثر قليلاً وأخذ يتفقد نفسه ، لكنه عاد للنظر إلى هذا الفتى عند هذه الكلمات .

«كيف يحدث أنك تعرف كل هذا القدر؟»

«لقد كان والدي رجلاً متعلماً خدم في البلاط بالقسطنطينية حتى قدوم الصليبيين اللاتين السفلة . تمكن من الفرار عندما دمروا المدينة ، ثم أمضى بقية حياته بين أبناء أمته إلى الشمال . لقد نشأت وأنا أقرأ كتبه والاحتكاك بأي رجال متعلمين مارين بقريتنا أو قادمين لتقديم احترامهم ، بحثاً عن الأخبار . لقد كان هدفي هو السفر إلى بلاط أحد الحكام وتأسيس سمعة لنفسي هناك» .

«بصفتك مقاتلاً؟»

«ربما ، لكن أعظم أسلحة أبي كان ذكاؤه ، وقد عزمت على عمل الشيء نفسه بدوري» .

«أنا حداد وسأصبح مقاتلاً في يوم ما . لقد كان هناك مقاتل في أحد القصور ، وقد عبر خلال موطني قرابة وقت ولادتي . كان فارانجياً وقد صنع له أبي سيفاً . وقد ترك لي هذه من باب الامتنان» .

أدخل بيبرس يده بحثاً عن الميدالية التي تحوي شبيه **الباسيليوس** ، لكنها لم تكن هناك . رفع ياقة قميصه ولم تكن هناك . أوشك على أن يبدأ البحث داخل سراويله حين أوقفته يد بيطا .

قال له بصوت عطوف «لقد فقدت»

«ولكن . .» أدرك لحظتها ما حدث بصدمة .

الصبي الأشقر . . . سيرجي . . . هذا هو الاسم الذي خاطبوه به لسبب ما ، عرف بيبرس أنه هو السارق .

بدا على بيطا السرحان «عندما تصبح عبداً ، فإنك تتخلى عن كل شيء» .

قبض بيبرس على ياقة الفتى الأكبر سناً منه وفحَّ في وجهه «أنا لست عبداً! لقد أعطيت القلادة لي من قبل حارس فارانجي عند مولدي اعترافاً بنبوغ والدي في حرفته . **سوف تعاد اليَّ وسوف أقتل ذلك الوغد**» .

أول انطباع لدى بيطا كان الضحك بسخرية على الحماسة التي يمتلكها هذا الصبي الشابسوغ وكلماته الغرَّة ، لكنه بحلق بعد هنيهة في عيني بيبرس فتغيرت تعابير وجهه .

قال محدقاً عن قرب في البقعة البيضاء «لديك عينان مختلفتان» .

جدَّد بيبرس من تشديد قبضته وقرَّب وجه الفتى إليه «وماذا في ذلك؟»

«لديك علامة النسر على إحداهما والسواد على الأخرى ، الرجل لم يكتب مستقبله بعد . إذا استطعت أن تتحكم بعواطفك ، فلربما تعيش حتى تكمل هذه الرحلة» .

اشتعلت عينا بيبرس غضباً مرة أخرى وبدا كأن البياض على العين اليسرى ينبض ويتوهج «لن يكون هناك أي كلام عن النجاة . سوف أسترد ما هو ملكي ثم أعود إلى قومي . أعدك بذلك يا بيطا» .

لم يزد بيطا عن مجرد هزة رأس ثم قال «أصدقك» .



الفصل الرابع

«كانت الرائحة في ذلك العنبر مثل الخراء» جلس السلطان مضطجعاً داخل وسائده حتى بدا وكأنه راقد وقد أسند رأسه . كاد الإرهاق يصيبني بالحول من شدته عند هذه النقطة . خشيت من المشي نحو مدخل خيمته لئلا تواجهني الشمس بحرارتها . شربت بقية محتويات قدحي وفعل هو مثلي .

«يا غلام!» أدار رأسه بأقل حركة ممكنة حين زأر . أدرك أن الخادم موجود ، فما الفائدة من بذل مجهود أكثر مما هو مطلوب؟

جاء الخادم مسرعاً يحمل الإبريق ممدوداً أمامه ، وقد احمرت عيناه من قلة النوم .

«صب لي ولكاتبي!» نفذ الصبي ما أمر به . استدارت عينا بيبرس لتنظرا اليه . راقبت تعابير وجهه وهي تتحول إلى الرقة .

«من أين أنت أيها الصبي؟» ارتفعت عينا العبد دهشة ثم عادتا إلى الانخفاض بالسرعة نفسها . هو فتى ناحل العود ، ربما يكون طويلاً بالنسبة لسنه ، لم أكن أعرف الكثير عن الأطفال وربما أعرف الآن أقل ، لكنه كان نحيلاً مثل قصبة . أعرف أنه كان خائفاً من الرجل الذي أمامه إلى درجة تطير صوابه . والكل خائف . حتى أشد المقاتلين لدى وحدات المقاتلين الشراكسة كانوا يرتعدون فرقاً تحت ذلك التحديق .

«هيَّا وأجبني بسرعة» بذل بيبرس مجهوداً واضحاً في جعل صوته يبدو أقل خشونة ، لكنه ظل برغم ذلك يشي بالأمر المطلق .

«إنني أصلاً من . . . .» وتهاوى صوت الصبي .

«من أين؟»

«دمشق يا مولاي» .

هزَّ بيبرس رأسه «مدينة عظيمة . سيخبرك رفيقي المبجل هنا» لوَّح بيده باتجاهي .

«هو قادر على أن يخبرك كل شيء يتعلق بحقيقة أن دمشق لم تسقط بيد الصليبيين أبداً ، خلافاً لكثير من المدن الإسلامية العظيمة . ألا تخبره يا عبد؟»

نفضت كتفيَّ ، فقد أفقدتني كثرة الأقداح والساعات الطويلة الكثير من جبني وخجلي المعتادين . نظرت إليه قائلاً «إذا كان ذلك ما ترغب فيه يا مولاي ، ولكنني لا أظن ذلك» .

أعاد النظر إلى الدمشقي الصغير .

«ما هو اسمك أيها الصبي؟»

«اسمي ناصر يا مولاي» .

«آه ، ذلك كان اسم الخليفة في سنة مولدي . هل أنا على صواب يا عبد؟»

«أنت مصيب فعلاً يا مولاي . السنة نفسها أو قريباً منها . هو قائد عظيم للمؤمنين من بغداد المجيدة» .

«أليس هو الذي يقال عنه إنه دعا جنكيزخان ليتدخل في صراعات بلاطه الداخلية ، وبذلك مهَّد لبداية غزوات المغول؟»

«هي نقطة مدار نقاش يا مولاي . بالنظر إلى طبيعة المغول ، فالاحتمال الأكبر هو أنهم كانوا سيجيئون غازين سواء تمت دعوتهم أم لا» .

رفض كلماتي بحركة مفاجئة من رسغه .

«وكيف أصبحت أنت خادمي وحاجبي في هذا البلاط المتجول؟»

قفزت عيناه إليَّ ثم عادتا إلى الصبي لحظة تكلمه .

«والدي يا مولاي» .

«هل قلت والدك؟ هل قاوم والدك جيوشي؟»

«كلا لم يفعل . لقد نجا من القتال ثم أرسلني لأخدم في البلاط وأتدرب للانضمام إلى صفوف الشراكسة المقاتلين في الوقت المناسب . إنه يريدني أن أتبع خطواتك يا مولاي» .

ارتفع صوت بيبرس «وهكذا فأنت تسعى وتأمل في أن تصبح سلطاناً بدلاً مني؟»

قفزت عينا ناصر عن قدميه إلى فوق «لا يامولاي . . . . أنا ، ما قصدته هو . . . .» علقت كلماته في حلقه .

ألقى بيبرس برأسه إلى الخلف وأطلق ضحكة «لا تخش شيئاً يا ناصر ، يا ابن محمد بن سلمان الدمشقي . إنما أنا كنت أداعبك» .

بدا على ناصر ارتياح تعجز الكلمات عن وصفه لدى سماعه هذه الكلمات .

أكمل بيبرس كلامه «ولكن ، هل قدمت إلى هنا بمحض اختيارك؟»

ظهر على ناصر الارتباك .

«الخيار . هل قدمت إلى هنا لأنك أردت ذلك؟ أم هي إرادة أبيك على الأقل . إذا لم تستطع أن تهزمهم . إنضم إليهم . ها؟ هل كان ذلك هو ما قاله؟» دفع بيبرس بفكه إلى الأمام أثناء انتظاره للجواب .

«لقد كان ذلك خياري الشخصي يا مولاي . لقد قال لي والدي إن قصتك هي مثال يحتذى لجميع المسلمين الطيبين الصادقين في كل مكان ، حتى إن الله سبحانه وتعالى سيسمح لأقل العبيد شأناً أن يصبحوا سلاطين إذا كان إيمانهم صادقاً وقلوبهم نقية» .

«إذا كان قلبهم نقياً . . . .» كان بيبرس ينظر إلى قدميه هو نفسه في هذه الآونة . هل كان يفكر في الطريقة التي أنهى فيها حياة السلطان المحتضر عند جانب ذلك النهر القذر؟ عندما كان الملك - الصبي

يتوسل طالباً الرحمة بينما تسيل الدماء من جروحه إلى الوحل ويتدفق المخاط من وجهه؟

فكرت فجأة : لا يجوز للحاجب أن يشاهد السلطان على هذه الحالة . فقلت «اترك الإبريق الجديد يا ناصر . هذا كل ما يلزم الآن» .

«نعم» خرج بيبرس من سهومه «اذهب إلى فراشك أيها الصبي الشاطر . سوف نراك في الغد» .

انحنى ناصر وخرج إلى الوراء ، وقد أحس بالانفراج والارتباك ربما بالمقدار نفسه . انتظرت حتى غادر ثم استدرت إلى بيبرس :

«هل رأيتها مرة أخرى على الإطلاق بعد ذلك اليوم؟»

«أبداً» تنهد ورفع نفسه مرة أخرى ليشرب «كلا ، ولم تكن لدي أية فكرة عما حل بها . لقد تم إلقائي في العنبر مع العبيد الآخرين وانتهى الأمر» .

«هل حاولت أن تهرب؟»

نظر إليَّ من فوق قدحه وتكوَّر فمه على شكل ابتسامة «طبعاً يا عبد . كيف كنت سأطيق حالة الملل من جلوسي في ذلك الثقب لأسابيع متصلة ، وأنا أتشمم براز الآخرين وأتساءل إلى أين وماذا ينوون أن يفعلوا بي» .

عرف بيبرس أنه بحاجة إلى الراحة في تلك الليلة قبل أن يقوم بمحاولته ، لكنه اكتشف أن الخوف والأدرينالين وكمية الغضب الكبيرة أبقته صاحياً . لذلك ، أبقى على المحادثة قائمة مع الصبي بيطا وحاول أن يعرف أكثر ما يمكنه عن السفينة التي هم في جوفها بدلاً من النوم . ولكن لم يكن هناك الكثير مما يقال .

قال بيطا «نحن موجودون في هذا الصندوق منذ أيام عديدة . إن الصراخ لا يفيد . في كل مرة حاولنا فيها أن نصرخ ، كانوا ينخزوننا بالعصي حتى نتوقف . رفض أحد الصبية أن يكف فقفز أحد البحارة إلى الأسفل

وضربه» . أشار إلى صبي صغير متكوم في زاوية وقد تحول وجهه إلى قناع مخيف من الرضوض والأورام . «ليس هناك ما يمكن عمله . أنا لا أفهم لغتهم ، ولا يبدو أنهم يفهمون لغتنا . أعرف قليلاً من اللغة اللاتينية ولكن ليس بقدر كاف ، ولست واثقاً من أن هؤلاء الخنازير الناطقين الجهلة سيفهمونها لو أنا كلمتهم . لقد حاولت اليونانية والتي يفهمونها على ما يبدو ، ولكن حتى لو صح ذلك ، فهم لا يبدو عليهم الفهم» .

لم يستطع بيبرس إلا أن يعجب ويتأثر بهذا الكلام «إلى متى تظن أنهم سيبقوننا هنا في الأسفل؟»

نظر بيطا إلى النجوم في الأعلى «ربما بضعة أيام للإبحار عبر البحر . يحتمل أنهم مازالوا مصممين على المزيد من الغارات . لقد سمعت عن سفن عبيد اكتظت عنابرها بأعداد أكبر من هذه بكثير» .

«نعم لقد بدأت أشعر بأن هذا الوضع فيه رفاهية أكثر مما يجب» .

ارتسمت على وجه بيطا ابتسامة واهنة .

قال بيبرس «سوف يضطرون إلى إخراجنا في إحدى المراحل» .

«كلا لن يفعلوا»

كان بيطا محقاً . بقوا في العنبر ثلاثة أيام بلياليها ، جالسين القرفصاء تحت السقف المنخفض للسطح فوقهم . كانت أية محاولة يقوم بها بها بيبرس ليقترب من الفتحة وينظر خارجاً تقابل بلسعات سوط البحار الخافر ، أو بطعنات مؤلمة من القضبان الطويلة التي يبدو أن آسريهم يحتفظون بها لهذه الغاية فقط .

كان السجن الصغير يتحول إلى أتون في النهار ، ثم يتجمدون في الليل ، حيث يتكومون مرتعشين لقلة الدفء المتوفر . في الليلة الثانية بعد أسر بيبرس ، ظهر رجلان مخموران فوق الفتحة وأخذا يصفران ويناديان .

«هيه! أيها الصبية!» أبقوا أصواتهم خفيضة على نحو تآمري «تعالوا إلى هنا . لدينا شيء من أجلكم» .

لم يتحرك بيبرس بل أبقى ظهره مستنداً إلى الحائط ، وجلس بيطا إلى جانبه بالطريقة نفسها .

نادى أحد الرجلين «أيها الصبية! هل تريدون طعاماً؟ سوف نصعّدكم إلى فوق» . اتضح أن المخمورين لديهما بضع كلمات تتارية قليلة في لغتهم لكنها كافية لإفهام قصدهما .

عقد بيبرس ذراعيه فوق ركبتيه وأنزل رأسه بينهما . مازالت الندوب والرضوض والتورمات الناتجة عن أسره جديدة ، ورغم كلمات بيطا بعدم وجود شيء ، إلا أنه ظل يشعر بأن لديه بعجة في منتصف جبينه حيث ضربه الرجل .

إذا جلست على هذه الشاكلة لفترة كافية ، فإن النوم سيأتي . إنني بحاجة فقط إلى إغلاق عيني حتى يختفي العالم .

شعر بتحرك بيطا إلى جانبه وجلوسه إلى الأمام قليلاً فهمس «لا!» رفع بيبرس رأسه ورأى الصبي الصغير ذا الندوب يتحرك إلى الأمام على يديه وركبتيه باتجاه الفتحة .

«هكذا هو! تعال إليَّ أيها الصبي . هل أنت عطشان؟»

لم يكن بيبرس يعرف الصبي ، لكنه راقب المشهد وقد تملكه إحساس بالهبوط في معدته الخاوية . توقف الصبي عند حافة الفتحة ونظر إلى الأعلى وكأنه يتشمم محتوى الهواء .

إنه يبدو أشبه بفأر في زريبة يزحف خارجاً من ثقبه .

ظهرت الندوب الرهيبة في وجه الصبي واضحة لدى خروجه من الظلال إلى نور القمر .

«تعال إلى هنا يا صبي . . . اقترب أكثر قليلاً . هذا هو ، ولد طيب . هل أنت عطشان؟»

«عد أدراجك أيها الأحمق!»

نزل تيار من سائل أصفر يتصاعد منه البخار مباشرة نحو وجه

الصبي ، لحقه تيار آخر بعد ثانية . تلاه صوت ضحك أشبه بنهيق الحمير آتياً من السطح . لم يتحرك الصبي لثانية طويلة لما بدا عامل المفاجأة ، بل اكتفى بالركوع هناك بينما يتم التبوُّل عليه . تحرك بعدها ببطء وبما يقارب الاستسلام مبتعداً عن الفتحة وبدأ يزحف عائداً إلى زاويته . راقبه الأولاد الآخرون بقرف ، رغم أن أحداً لم يقل له أي شيء . عندما وصل إلى زاويته ، بذلوا جهوداً للابتعاد عنه قدر الإمكان ، سيجلس هناك طيلة الليل ، مبتلاً وبارداً ومنتناً .

وصلت الرائحة إلى خياشيمهم ، وأدركوا أنها ستصبح أسوأ عندما تشرق الشمس وتبدأ في تسخين الزنزانة مرة أخرى .

جاء صوت مرح نازلاً من فوق «هل هناك شخص آخر يحتاج إلى شراب قبل وقت النوم؟ أي شخص؟ مازال لدينا الكثير من حيث جاءت الكمية الأولى! لا؟ حسناً ، انعموا إذاً بليلة هانئة أيها السادة!» سمعوا المزيد من الضحك من فوق ثم الصمت فيما عدا رنين الأجراس التي قال بيطا إنها تعلن عن الساعة وتبديلات الخفارة .

سحب بيبرس كعبيه إلى أقرب ما يمكن من مؤخرته ثم وضع رأسه المصدوع على ركبتيه . بدأ تمايل السفينة مع ريح الليل يهدهده حتى استسلم للنوم .

فكر وهو يسترخي نحو عالم الأحلام أنا في الجحيم .

مع إشراقة فجر اليوم التالي ، ساءت رائحة البول بدرجة مؤكدة في العنبر مع تقدم الصباح . مع حلول ما قدره بيبرس على أنه الظهر ، اختلطت الرائحة مع روائح عشرين صبياً بغير استحمام وأصبحت قريبة من استحالة الاحتمال . جلس الصبي المضروب لوحده متكوماً في الزاوية ، يبكي حيناً ويكتفي بالتحديق في قدميه حيناً آخر .

سأل بيبرس بيطا «ماذا تظن السبب الذي دفعه إلى فعلته تلك؟»

نظر بيطا باتجاهه «البراءة . يحتمل أنه عاش منفصلاً عن الآخرين في

مكان ما وأنه ليست لديه أية معرفة بالقسوة التي يقدر عليها الرجال . ربما هو الضغط النفسي الناتج عن الاعتداء عليه وأسره . يصعب فهم هذا الوضع على بعض العقول ، ونتيجة لذلك فإنهم يفقدون كل إحساس بالمنطق» .

«لكنك لم تفقد المنطق لديك . ولم أفعل أنا ، على الرغم من أنني لا أعرف أين هي دانا» .

نفض بيطا كتفيه «كل شخص وكل عقل يختلف عن سواه . نحن لا نستطيع أن نفهم هذا ، بالقدر الذي لا يمكننا فيه أن نفهم لماذا تختار لنا الآلهة المصائر التي تحددها . ذلك هو ما ظل والدي يقوله» .

«الآلهة؟ ألا تؤمن أنت بإله واحد هو الحق : تحه؟»

«لقد درس والدي الشعوب القديمة واستخدم الكثير من تعابيرهم ومنطقهم في كلماته» .

رفع بيطا رأسه لينظر إليه «افترض أنني أتبع المثال الذي حدده» .

عاد إلى التحديق في يديه الممدودتين فوق ركبتيه «كذلك أفترض أنني كل ما بقي منه الآن . لقد أحرق هؤلاء الخنازير الذين هم فوقنا ، أحرقوا بيتنا وكل كتبه حينما أغاروا . أنا الشخص الوحيد المتبقي حالياً لأحمل اسم والدي» .

جلسا صامتين لبعض الوقت . لم يكن هناك الكثير من الحديث في عنبر الأسرى ، مجرد صوت البكاء المتقطع من صبي أو آخر مع إدراك حجم فظاعة ما حل بهم . بكى آخرون لمجرد حاجتهم إلى أمهاتهم . على السطح ، انتشر المرح والمزاح العاديان لأية سفينة ، مع تبادل الأوامر وإلقاء الشتائم . بدأ بيبرس يحصي عدد المرات التي يقرع فيها الجرس ، مع أنه لم يجد لذلك الإحصاء أيه فائدة لأنه لم تكن لديه فكرة لماذا يقرع أصلاً .

لم تعنِ له لغة البحارة الفظة أي شيء ، لذلك لم يتمكن من الحصول على معلومات منها . بعد مرور الأيام الثلاثة ، لم يكن قد اقترب من

اكتشاف برنامج عمل السفينة ، ما عدا أن أصبحت لديه فكرة عامة عن الوقت الذي يقرع فيه الجرس مستعيناً بمواقع الظلال داخل العنبر . لقد كانت محاولة الصعود إلى الأعلى ضرباً من الانتحار في أي وقت : كان يدرك ذلك ولكنه رغم ذلك كان مضطراً للبحث عن طريقه للخروج . في اليوم الرابع ، لاحت فرصته .

كانوا مبحرين في طقس مثالي والسماء خالية من الغيوم منذ لحظة أسره ، ربما أن الآلهة التي تحدث عنها بيطا تبتسم سعيدة بأفعال هؤلاء السفلة ، ولكن مع انبلاج فجر ذلك اليوم ، تبدلت فجأة التعليمات والأوامر المحملة بالنعاس على السطح ، إلى صرخات وسمع صوت فرقعة هائلة مع نشر الأشرعة .

ثبّت الأولاد أنظارهم إلى الأسفل غير مدركين لما يجري سوى إحساسهم بأن السفينة قد زادت من سرعتها تحتهم .

سأل بيبرس «ما الذي يجري؟»

قال بيطا «لا أدري ، يمكن أن تكون عاصفة قد لاحت في الأفق ، أو أنه تم اكتشاف سفينة أخرى . يبدو هذا أكثر احتمالاً بالنظر إلى صراخهم بهذا القدر وركضهم في الأرجاء» .

«هل تعتقد أنهم سوف يستولون على هذه السفينة الأخرى؟»

نظر إليه بيطا بوجه امتزجت فيه السخرية مع الترقب «ما الذي يجعلك تفكر أننا نقوم بمطاردتهم؟»

ازدرد بيبرس ريقه ثم نظر إلى خشبات السطح وهي تهتز فوقه وقال «سوف نكتشف ذلك عما قريب ، أليس كذلك؟»

استمرت الصرخات والتراكض لمدة عشر دقائق كاملة ، مصحوبة طيلة الوقت بدقات الطبل المستمرة . بعد ذلك ، استقر عليهم هدوء غريب ، مع افتراضهم بأن السفينة قد اتخذت مسارها ورفعت أشرعتها ، بغض النظر عن المصير .

سأل بيبرس «كيف هو شكل المعركة البحرية؟» كان بيطا أكبر منه بدرجة شبه مؤكدة، فألفى نفسه يتساهل أكثر فأكثر مع الصبي خلال امتداد فترة أسرهما. أجابه بيطا «لم أشترك بواحدة منها مطلقاً». أبقيا على صوتيهما منخفضين برغم الصخب الصادر عن الأمواج وبعدهما عن السطح.

«ولكن كيف تقوم سفينة ما بمهاجمة الأخرى؟»

«أعتقد أنهما يتناوران حتى تصبح إحداهما في موقع تفضيلي، وتكون الريح خلفها بلا شك، ثم تصطدم بالسفينة الأخرى. بعد ذلك يصعد بحارة السفينة المهاجمة إلى الأخرى وتنشب معركة. أثناء الحروب البونية . . .»

«الحروب الماذا؟»

أطلق بيطا تنهيدة صغيرة. «الحروب البونية، حينما تقاتلت روما وقرطاجة في صراع حتى الموت من أجل السيطرة على البحر الأبيض المتوسط وبذلك على كل الدنيا».

حاول بيبرس أن يظهر بمظهر العارف وهو يهز رأسه «وهل حدث هذا في زمن بعيد جداً؟».

«نعم، بعيد جداً. لقد شكل القرطاجيون القوة البحرية بينما كانت روما القوة البرية. قامت روما بتعديل إمكانياتها حينما استنسخت تصاميم السفن القرطاجية ثم أضافت ممشى مزود بالكلابات للإمساك بسفن العدو ثم الصعود اليها. لقد حوَّل الرومان المعركة البحرية إلى أخرى برية، وبذلك كسبوا الحرب».

تعجب بيبرس كيف أن صبياً مثله يستطيع أن يعرف كل هذه الأشياء، لكن الحقيقة هي أن كابوس الأسر هذا بات يعلمه أشياء جديدة في كل يوم. «هل تعتقد أن المعركة ستنشب قريباً؟»

قال بيطا ببساطة «لا أدري. فقد لا تحدث على الإطلاق».

لم يحدث أي شيء على مدى ساعات . غفوا وناموا ثم استيقظوا وأصغوا إلى إشارات توحي بأن المعركة ستبدأ ، لكن لم يحدث شيء . وبدأ النور يتضاءل وينحسر .

قال بيطا «من غير المحتمل أن يتمكنوا من مطاردة سفينة أخرى في الظلام ، حتى لو كانت الليلة صافية . إذا لم يحدث أي شيء قريباً ، فعلى الأقل يمكننا أن ننام مسترخين هذه الليلة» .

عادت الصرخات وعاد الجري على السطح وكأنه يرد عليهما . وجاءت الأصوات أعلى من قبل هذه المرة وعاد الطبل إلى القرع . زادت السفينة من سرعتها بطريقة ما ، وقفز بيبرس عندما تقيأ الصبي الجالس بجانبه بين قدميه . بدأت السفينة تلتقي بأمواج عالية فأحسوا وكأنهم يقذفون إلى الأعلى والأسفل وسط عاصفة مستمرة من الريح والمطر .

نظر بيبرس باتجاه القذارة المحاذية لأصابع قدميه وحبس أنفاسه بحيث يحاول أن يمنع معدته من التخلي عنه .

قال بيطا «إن سفينتنا تستخدم المجاذيف» .

حاول بيبرس أن يتخيل كيف هو الوضع في صفوف المجاذيف تحته ، صف بعد الآخر يعملون في تناغم كامل لدفع السفينة عبر الأمواج باتجاه عدوهم . تنامت إلى سمعه طرقعة الصوت للحظة خاطفة ولكنه أنكرها بالسرعة نفسها .

ما نوع القوة والتحمل اللذين سيحتاج إليهما الرجل حتى يعمل بتلك الدرجة من القوة لكل ذلك الوقت؟

كان يعرف معنى العمل الصعب من خلال تجربته بالعمل في المحددة ، الألم في العضلات والعظام ، والشعور الغريب بالخفة عند نهاية النهار . على أية حال ، كان ذلك أثناء عمله لدى والده ولأجل عائلته ، ولكن ما هو الرضى الذي يمكن وجوده في العمل لصالح تاجر عبيد وسفينته؟

إنه الرضى بأن يكون على قيد الحياة . . . . ولكن ما هي الحياة إذا كانت خاضعة لسيطرة الآخرين كلياً؟

جلس يفكر بهذه الأمور بينما تابعت السفينة اندفاعها وحركتها العنيفة ، وقام المزيد من الأولاد بالتخلي قسراً عن وجباتهم القليلة بالتقيؤ فوق الطبالي الخشبية . تعالت صرخات البحارة مرة أخرى ، صاعدة وكأنها ترد على بعضها مع وصول كل موجة .

قال بيطا «يبدون واثقين . فلا بد من أن سفينتنا هي التي تطارد . ذلك أمر طيب . لدينا فرصة أفضل للبقاء على قيد الحياة» .

قال بيبرس «إنني أسمعهم وكأنهم خائفون» .

أجابه بيطا «ربما ، لكنهم يشجعون بعضهم بعضاً . وقد يأتي ذلك إما من الخوف أو الثقة بدرجة متساوية» .

قال بيبرس «وهل ذلك يعتمد على الوضع؟»

قال بيطا مبتسماً «بالطبع ، فهل يعقل أن ترحب أنت بالموت يا بيبرس الشابسوغ؟»

«إذا كان سيأتيني كرجل حر في المعركة أو مع وجود عائلتي حولي ، فوقتها لا يوجد شيء أخافه . أنت ستذهب إلى الحياة الأخرى وتستريح في الفردوس . لكن هل يذهب العبيد إلى الفردوس؟»

رفعتهما قفزة مفاجئة من موجة عاتية عن مكان جلوسهما وألقت بهما سوية . تدحرج أحد الصبية وسقط أمامهما ، وبدأ الصبي الذي يبدو عليه الإعياء إلى جانب بيبرس بالزعيق . تمسك كل من بيبرس وبيطا بكتفي الآخر واستندا في جلستهما . قام معظم الآخرين بالعمل نفسه ، لكن ذلك الصبي الآخر استمر بالزعيق ، وقد أدى جفاف حلقه وتشققه جراء الجوع إلى خروج زعيق جارح أشبه بنعيق غراب مصاب .

جلس بيبرس مستقيماً وحدق للحظة قبل أن يرفع كفه المفتوحة ويصفع بها وجه الصبي الزاعق بقوة . أصيب بصدمة أسكتته وجعلته ينظر

إلى بيبرس فاغراً فمه ، بادله بيبرس التحديق ببرود دون أن يرف جفنه . طأطأ برأسه في النهاية وصمت .

استدار بيبرس نحو بيطا الذي راقب المجريات مسحوراً .

قال بيبرس «مازلنا أحياء» .

«هذا صحيح» .

خيم التوتر بينهم وهم ممسكون بركبهم يشدونها إلى صدورهم مع تصاعد قوة الأمواج التي تضرب السفينة وازدياد حدة الصرخات على السطح فوقهم .

فجأة ، تناهى إلى أسماعهم قرع متناغم للفولاذ بالفولاذ مصحوباً بالغناء .

سأل بيطا «ما الذي يحدث؟»

قال بيبرس ، سعيداً بأنه قادر ولو لمرة ، أن يخبر بيطا شيئاً ما «ذلك هو صليل السيوف تقارع بعضها بعضاً» .

ساد صوت هادر عميق على كل الأصوات الأخرى ، وللحظة هي الأقصر ، خيَّم الصمت . ثم جاء صوت تحطيم مقزز وطار الجميع داخل العنبر مرة أخرى وانقذفوا باتجاه مقدمة السفينة . ألفى بيبرس نفسه وسط جبل من الأذرع والسيقان المتشابكة ، وهو راقد بطريقة عبثية خلف حوالي عشرة أولاد وربما بالعدد نفسه خلفه مرة أخرى . جاء ظهره مضغوطاً بشدة إلى سقف العنبر وبيطا راقد تحته مباشرة .أدرك وجود صرخات واشتباك سيوف فوقه . فقد بدأت المعركة .

أخذ يدفع الأولاد بعيداً عنه بأسرع ما أمكنه واتجه نحو الفتحة . لم يكن يدور في ذهنه شيء سوى الوصول إلى مدخل سجنه وتحين السانحة للخروج بأي طريقة ممكنة . بدأ الآخرون يتحركون بدورهم ، فدفع أحدهم ثم الآخر بعيداً عن طريقه . احتدمت المعركة إلى حد جنوني فوقه وتعالت الصرخات بينما اتخذ الزعيق نمطاً منتظماً .

الفتحة . . . . يتحتم عليَّ أن أبلغ الفتحة . . . .

صارت يداه ورجلاه تتحرك غائصة في قاذورات وقيء الأولاد الآخرين ، لكنه لم يعبأ بذلك . فقد تركزت كل ذرة في كيانه على الوصول إلى ذلك الثقب قبل انتهاء المعركة .

لابد من وجود قارب أو شيء ما يمكنني أن أستخدمه للهروب . سوف أسبح إذا اضطررت إلى ذلك .

وصل إلى نقطة تحت الفتحة مباشرة وأخذ ينظر إلى الأعلى للمرة الأولى منذ أن تم إلقاؤه بداخلها . بدأت أصوات المعركة خافتة إلى درجة شجعته على المغامرة بإلقاء نظرة .

ماذا يمكنني أن أفعل غير ذلك؟

رفع رأسه متمهلاً فوق الحاجز ونظر ملياً . أمكنه أن يرى السطح على شكله نفسه الذي كان عليه حين أتوا به إلى حد بعيد ، لكنه أقل ازدحاماً بالناس تحت بقية ضوء النهار . وقف بعض البحارة على مسافة إلى يمينه ، متكئين على حاجز السفينة ويلوحون بالرماح والسيوف في وجه عدو غير مرئي . عادت عيناه إلى مقدمة السفينة وهناك خفق قلبه بعنف . تواجد أمامه مباشرة صبي تجاوز سني مراهقته للتو ، على رأسه كومة من الشعر الأشقر اللماع وقد أدار ظهره لبيبرس .

سيرجي

لم يكن يبعد عنه أكثر من ست أذرع إلى الأمام . كان ما احتاج إليه بيبرس هو أن يرفع نفسه وينقض عليه راكضاً . بات واثقاً من قدرته على هزيمة الفتى في العراك ، وبعدها سوف يسترد ما أخذ منه . وضع يديه ببطء وحذر على جانبي الفتحة وبدأ يرفع نفسه . اختفى كل شيء آخر ، العنبر تحته والمعركة على السفينة الأخرى ، بينما أبقى انتباهه مركزاً على عدوه في هذه اللحظة . استمر في الصعود حتى تمكن من وضع ركبته على الحافة وبعدها أصبح على السطح . دفع نفسه واقفاً ووضع قدمه اليمنى في

مكانها المناسب ، متخذاً وضعية الإقعاء نفسها التي كان يتخذها عندما ظل يتسابق في القرية مع الصبية الآخرين .

استمتع بلحظة الحرية ، وعندما همّ بالانقضاض إلى الأمام ، استدار سيرجي وقابل التحديق في عينيه . رأى بيبرس وميض النصل في يده اليمنى ، لكنه ابتسم بالرغم منه . هذا هو الفتى الذي خطف دانا وسرق الميدالية التي أعطاها إليه والده وهو على وشك أن يحقق انتقامه . تحفز واستعد للهجوم .

«انزل إلى الأسفل أيها الأحمق!» تم سحبه إلى الخلف داخل الفتحة بشكل مفاجئ ووجد نفسه يسقط مرة أخرى ، وقد تلقى بيطا سقوطه ، وأطلق نخرة مسموعة إذ تلقى ثقل بيبرس الكامل فوق بنيته الأصغر بكثير . غضب بيبرس بعنف وأخذ يركل ويضرب بيديه في محاولة للوقوف والعودة إلى السطح ، وهو يصرخ «اتركوني أذهب ، اتركوني أذهب!»

«ستموت حتماً أيها الغبي! إلى أين تحسب نفسك ذاهباً؟» كان بيطا يصارع لكي يبقي ذراعيه حول نجل الحداد ، لكن لم يعد بوسعه فعل الكثير حين ضربه بيبرس بمرفقه بين أضلاعه وعاد إلى الصعود . سحب نفسه من خلال الفتحة ، إلا أنه ألفى نفسه في هذه المرة يحدق في زوج من الأحذية الجلدية الصلبة . تحركت عيناه صعوداً على ساقي صاحب الحذاء ثم إلى وجهه . . . سيرجي . . .

ابتسم سيرجي ، تراجع خطوة إلى الوراء ثم رفسة بقوة في وجهه .

قال السلطان وهو يطلق ابتسامة كئيبة «معركتي الأولى ، وانتهى بي الأمر فيها على ظهري وغائباً عن الوعي كلياً . فكر بيبرس لوهلة» هل تعلم أنني مدين بحياتي إلى بيطا بأكثر من طريقة بسبب ما فعله في تلك الليلة . حتى لو أنني تمكنت من التغلب على سيرجي ، ولم يكن ذلك محتملاً لأنه يحمل سيفاً ويتمتع بقوة نتيجة وجود تغذية جيدة في معدته للأيام الأربعة ، والاحتمال الآخر هو أن قرصاناً آخر

كان سيقطعني إلى نصفين ويطعمني للسمك . لقد أنقذني من نفسي . لابد وأنني كنت مجنوناً يا عبد» .

حاولت دوماً أن لا أبدي أي رد فعل عندما ما كان سلطاننا ، الذي هو أقرب ما يكون إلى العصمة عن الخطأ من أي إنسان آخر . يعترف لي بإخفاقاته . لقد كان ذلك أمراً لا يمكنه الإتيان به مع قواده ومساعديه . ليس هناك قائد مقاتل يمكنه أن يتوقع الاستمرار كحاكم ، لكنه كان يثق بي وبقدرتي على أن أصوِّره في أفضل الحالات بكتاباتي . فتح لي ذلك جانباً من شخصيته لم يره سوى قلة قليلة ، منهم زوجته .

«طبعاً ، لم أشكره على ذلك أبداً . فكرت في ذلك الوقت أنه سرق مني فرصتي الوحيدة لأنتقم من سيرجي والآخرين . إن الشباب والمراهقة هما حتماً أوقات عواطف جياشة . هل تعلم أن الرومان كانوا يعتقدون أن الرجل لا يتخلى عن مراهقته قبل سن الثلاثين؟ وقتها فقط كان يمكنه أن يباشر في سيرة حياتية سياسية ويتسلم مراكز قيادية عليا» .

«ماكنت أعرف ذلك يا مولاي» .

قال بابتسامة ساخرة «أخبرني بيطا بذلك» .

«بيبرس . . . بيبرس!»

«توقف عن هزِّي لقد صحوت» . قال وهو يضرب بيديه الأيدي التي تدفع بجسده المسجي .

«لست صاحياً . أنت غائب عن الوعي منذ ساعات . لقد صدمت رأسك بمؤخرة الفتحة بعد أن تم ركلك» .

«هل رفسني أحد؟»

«نعم» .

تذكر بيبرس في هذه اللحظة ، وبدأ يخرج تدريجياً من الحلم الذي كان مستغرقاً فيه . لا بد وأنه كان حلماً دافئاً ورائعاً -ربما وجدت دانا فيه- بحيث لم يشأ أن يغادره . استوى جالساً وأحس على الفور بالألم في وجهه . تشققت شفتاه وأصبح أنفه وخده حساسين تجاه اللمس .

«كم مرة ضربوني على رأسي؟»

«كيف يبدو أثر الضربة؟»

حرَّك بيطا رأسه من جانب إلى آخر وهو يوازن أفضل طريقة لوصف الوضع . قال أخيراً «ليس سيئاً جداً . إنه يجعلك تبدو مثل مقاتل» .

في الحقيقة ، فقد بدا مثل مهرج أكثر منه مقاتلاً ، بسبب شفتيه المتورمتين وأنفه المحمر . لكن بيطا فضَّل أن لا يذكر ذلك .

«لماذا أيقظتني؟»

إنهم على وشك إخراجنا إلى السطح . لقد انتهت المعركة . «أشار بيطا إلى الفتحة حيث بدأ فعلاً رفع أحد الفتية الآخرين نحو السطح» . اعتقد أنهم أحرقوا السفينة الأخرى ، فقد شاهدنا الكثير من الدخان ووهج برتقالي طيلة الليل ، وقد صدرت عن جميع البحارة أصوات تدل على أنهم كانوا يحتفلون» .

«هل تعرف من هم الذين قاتلوهم؟»

«كلا ، لا شيء» .

تحركا إلى الأمام وراء الآخرين وتم رفعهم نحو الضياء للمرة الأولى خلال أيام . وقد كانت تلك هي المرة الأولى خلال أسابيع بالنسبة لبيطا . أخيراً ، استطاع بيبرس أن يحظى بنظرة على شكل السفينة ، فأصيب ببعض الخيبة . فهذه سفينة شراعية ذات مجاذيف : تأكد له ذلك في هذه الآونة ، وهي الأكبر مما شاهده على الإطلاق ، لكنها لم تكن سفينة عظيمة بأي مقياس . بل هي آلة قتالية شريرة ، أجزاؤها مجمعة إلى بعضها بالحبال والقطران وخالية من الأثاث حد العري من مقدمتها إلى المؤخرة .

بدأ الرجال الذين رفعوهم يدفعونهم ليشكلوا صفاً في هذه اللحظات ، وشكل الأولاد الطابور على أقل من مهلهم ، مثل حشد من مشردي الأزقة المهلهلين يلعبون دور الجنود . وقف أمامهم في الجهة المقابلة رجال تحت الحراسة . لا شك في أنهم سجناء من الليلة السابقة ، وظهر خلفهم مباشرة حطام سفينة شراعية أخرى محترقة .

استدار بيبرس نحو بيطا قائلاً «المزيد من القراصنة» .

التفت أحد الحراس الذين يحملون السياط وصاح بأمر ما ، ثم صفعه على وجهه .

همس إليه بيطا «الكلام ممنوع» .

عاد البحار الدميم والذي كانت إحدى اذنيه ناقصة ، وبدا وكأن وجهه قد سفعته حرائق الأمس ، عاد إلى الصياح مرة أخرى وصفع بيطا . تقدم بيبرس خطوة إلى الأمام وحدَّق في الرجل . صرخ الرجل في وجهه ، ففاحت أنفاسه الشنيعة ورائحة أسنانه المتعفنة ، وعندما رفض بيبرس أن يتراجع ، دفعه الرجل إلى الخلف بقوة لم يكن الصبي الأصغر سناً يعتقد أبداً أن شخصاً تافهاً مثل ذلك يمتلكها . رفع بيبرس رأسه فرأى البحار واقفاً فوقه وقد رفع سوطه وتهيأ ليضربه .

صك على أسنانه وحاول أن لا يرمش بينما هو يتهيأ لتلقي الضربة . لكنها لم تأتِ ، فقد صدرت صرخة خلف البحار الذي التفت وراءه فوراً وأنزل سلاحه .

بعد أمر آخر اتخذ خطوة إلى الخلف ثم ابتعد . تقدم الرجل الذي كان قد تعرف عليه على أنه القبطان حينما أحضروه ، ونظر اليه . الرجل في حوالي الأربعين بوجه وسيم ، ويتميز عن التافهين الذين تحت إمرته كثيراً ، خاصة بملابسه الراقية وصدارته وقميصه الكتاني .

بدا على القبطان السرور. كاد بيبرس أن يبادله الابتسام، لكنه اكتفى بأن هزَّ رأسه شاكراً. مد القبطان يده رافعاً كفه إلى الأعلى، وأشار عليه بالنهوض. نهض بيبرس، وهو يحس بكل مِفصل وعضلة من جسمه تصرخ من إجهاد الأيام القليلة الماضية. قام بجهد يائس لنفض ثيابه المتسخة المبقعة ثم انتصب واقفاً، ليتلقى صدمة أخرى.

كان سيرجي واقفاً عند مرفق القبطان، مرتدياً ثياباً زاهية جديدة وقد عقص شعره اللامع إلى الخلف. كاد بيبرس أن يندفع نحوه لكنه أوقف نفسه في الثانية الأخيرة.

لاحظ القبطان ذلك بكل الأحوال، ورغم أنه أبقى يديه خلف ظهره، إلا أنه لم يحول بصره عن بيبرس بينما هو يحني رأسه ليستمع إلى همس سيرجي في أذنه. انفتح فمه من الدهشة ثم أغلق، ثم هزَّ رأسه وعاد إلى مواجهة بيبرس.

قال القبطان بمنتهى البراعة «يخبرني صديقي سيرجي هنا أنك حاولت الهروب في الليلة الماضية».

اتسعت عينا بيبرس من الدهشة «**من هو الذي سمع عن لومباردي يتكلم اللغة التترية؟**» «إنه يخبرني أيضاً أنه اضطر إلى إخضاعك لوحده عندما حاولت أن تقتله أثناء احتدام المعركة ليلة أمس، وأنك هاجمته وهاجمت رجاله حتى قبل أن تصل إلى سفينتي. يقول إنه يجدر بي أن أقتلك وألقي بك إلى أسماك القرش. ما هو اسمك؟»

«أنا بيبرس من الشابسوغ»

«حسناً يا بيبرس من الشابسوغ، في العادة فإنني سأقوم بقتلك ببساطة لمجرد أن أريح نفسي من مشكلة وجود مشاغب مثلك على متن سفينتي، لكنك تجد نفسك في موقف مفيد بدرجة استثنائية هذا اليوم؛ لأنه لدي نقص في الرجال بعد مواجهتنا الصغيرة في الليلة الماضية.

لذلك دعني أطرح عليك هذا السؤال ، هل تستطيع أن تجذف؟»

أمسك بيبرس لسانه وعينيه . فهو لن يقدم لهذا الرجل الشعور المطمئن بأنه رهن إشارته .

قال سيرجي «ربما أتمكن من تخليصه من خجله ، أيها القبطان» قال سيرجي «فقد زعق من أجلي في الليلة الماضية حتماً» . راقب الروسي ليرى ما إذا كان بيبرس سيرد على هذا الاستفزاز ، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة ماكرة شريرة ، لكن عندما هم بيبرس بالهجوم ، قرر أن يحاول مرة أخرى . «ولكن أيضاً ، لقد جعلت صديقتك الصغيرة تزعق بصوت أعلى بكثير عندما اعتديت عليها . آه ، لقد كان صوتها عالياً جداً» . توقف واستدار نحو الرجال الآخرين . «وهي شبقة وتعض بشدة ، أليس كذلك أيها الشباب؟» انفجر بقية البحارة ضاحكين على هذا ، واندفع الدم نحو رأس بيبرس . اندفع نحو سيرجي بدون أدنى تفكير . جاء هجومه هذه المرة سريعاً لدرجة أن لا أحد ، ولا حتى القبطان استطاع أن يوقفه في الوقت المناسب .

طوَّح بلكمة علوية عنيفة باتجاه رأس معذبه الضخم ، وأحسَّ بامتنان جميل للحظة التقاء لكمته بالنسيج الطري لعين الروسي اليسرى . بعدها ، هاجمه الجميع . أمسكوا به وأشبعوه باللكمات من قبضات عديدة فلم يستطع سوى أن يتكور للدفاع عن نفسه .

زأر القبطان «يكفي هذا! أقول لكم يكفي! أي رجل يلقي بلكمة بعد الآن ، سوف يتلقى عينة من غضبي ، وهذا وعد مني لكل واحد منكم» . توقفت الضربات بمجرد أن أطلق القبطان وعيده . حتى سيرجي انسحب وسمح لاثنين من البحارة الأقوياء كبار السن أن يرفعوه ليقف على قدميه .

شعر بيبرس بدوار خفيف ، لكنه شعر بشيء من الشماتة لأن عين سيرجي قد بدأت تتورم .

«الأفضل لك أن تتعود على الاستفزاز إذا أردت أن تتقدم في هذا

العالم ، يا بيبرس القادم من الشابسوغ . والمؤكد تماماً أنك لن تهاجم أياً من رجالي إذا كنت تنوي أن تنجو بحياتك وتعيش على هذه السفينة» .

بذل بيبرس جهداً ليركز عينيه على اللومباردي وتبادلا النظرات الفاحصة لوهلة . حدَّق اللومباردي بحدة ثم أدى حركة خفيفة بذقنه ليشير إلى أنه جاد فيما يقوله . **إن رجاله يحترمونه ويخافونه . إنهم يتحركون بمجرد ما يتكلم** .

تجاهل بيبرس صوت المنطق هذا . مسح أنفه المحطم ونظر إلى لطخة الدماء والمخاط التي غطت يده . سحب نفساً قوياً من الهواء من خياشيمه المكسورة ثم جمع كل ما نزل في فمه على طرف لسانه . بصق بصوت عالٍ كل القذارة على ألواح أرضية السفينة المتأرجحة بدون أن ينزع عينيه عن القبطان .

رأى عيني القبطان تتسعان من الصدمة لوهلة قصيرة جداً ، لكن اللومباردي كان يمتلك موهبة لاعب القمار لإخفاء ردود فعله ، وأدى ذلك بشكل جيد .

استدار بيبرس إلى سيرجي «هناك المزيد من حيث جاءتك هذه أيها الكلب . إذا سنحت لي الفرصة فسوف أدفنك ومعك أي رجل يحاول أن يوقفني ، هنا في هذا البحر» . حتى سيرجي المتفاخر لم يحر جواباً على هذا . فقد كانت نظرة بيبرس وصوته مشحونين بقدر من السموم والشر لدرجة أن بعض السجناء الذين بقوا واقفين قربه تراجعوا مبتعدين خطوة بشكل غريزي . بدا أنه يرتعش من شدة الغضب . بدا وكأن القبطان على وشك الانفجار . تساءل بيبرس بذهول أولئك الذين يشعرون بالخطر ، عن صحة ما يقال من أنهم يجبرون الآخرين على الانتحار .

فجأة ، انفرج وجه القبطان وأطلق صيحة مرحة ضاحكة .

«آه ، إنه يعجبني» قال باعتزاز لواحد من المستخدمين الأكبر سناً الذي حمل بيبرس قبيل لحظات . إيه يا لويجي؟» لوَّح بإصبعه في وجه

بيبرس وكأنه يوبخ ولداً شقياً .

«لديك بعض من البهار الإيطالي في مكان ما من عروقك ، أليس كذلك يا بيبرس؟» رفع صوته مخاطباً الجمع بكامله . «ما رأيكم في هذا الأمر أيها الرجال؟ لقد منحت هذا المنحرف الفرصة لينقذ حياته فلم يكتف بطرح واحد من أفضل رجالي» هزَّ رأسه باتجاه سيرجي وتسبب بحركته هذه في المزيد من الضحكات «لكنه أيضاً يبصق على سفينتي ويقول لي إنه سيقبرنا كلنا!» .

عند هذا القول ، جاءت حركة انزعاج من بين البحارة .

رفع اللومباردي يديه بالطريقة المبالغ فيها لدى اللومبارديين «ما الذي يفترض فيَّ أن أفعله في رجل مثل هذا؟»

سمعت عدة تمتمات ، وربما كانت عبارة «علقه من خصيتيه» هي الاقتراح الألطف من بينها .

بدأ القبطان في أداء دور تمثيلي في هذه الآونة ، واستجاب للاقتراحات بالمزيد من الحركات المسرحية .

«هل أشنقه؟ هل أشنق هذا الغبي الذي من الواضح أنه لا يعرف الخوف؟»

«آه!» جاء الرد من الرجال .

استدار القبطان باتجاه الرجل الأكبر سناً مرة أخرى «ماذا تقول يا لويجي؟»

ابتسم الرجل الأكبر سناً ، مستمتعاً بحالة المرح ، لكن بيبرس لمح خلف العينين المطفأتين من الكحول ، عقلاً حاداً ذكياً : فأجاب لويجي «أنا موجود لخدمتك أيها القبطان» .

أدى القبطان حركة انحناء تمثيلية باتجاه مستخدمه وخطا نحو بيبرس ، محدقاً فيه وجهاً لوجه ، وقريباً إلى درجة أن بيبرس استطاع أن يشم رائحة إفطاره الصباحي من البيض إلى جانب أدخنة الكحول .

قال القبطان «أنت في خدمتي يا لويجي ، هذا صحيح» . حدَّق في بيبرس مرة أخرى ، وكأنه يحاول أن يقرأ مكنون روحه . «لديك علامة الصليب في عينك ، هل تعرف ذلك؟»

لم يحاول بيبرس أن يتجنب الضربة التي عرف أنها قادمة . أزاح القبطان رأسه إلى جانب وهو يتفحصه محدقاً . «وستقوم بقتلنا كلنا ، أليس كذلك يا بيبرس؟ لم يكن هذا تهديداً خاملاً قبل لحظات» . بات يتكلم بهدوء الآن ، يكاد يهمس . دفع رأسه إلى الخلف فجأة ، وكأنه يرى شيئاً لم يعجبه ، شيئاً ربما يكون قد سبب له الخوف .

رفع صوته وذراعيه عالياً «كلا ، أيها الرجال! هذا هو نوع الرجال الذين نرغب في وجودهم على سفينتنا بالضبط ، أليس هو هذا؟ إنه يمتلك الشجاعة في خصيتيه كما في كلماته ، وهذا هو نوع الرجال الذين لن يتراجعوا في أي قتال» . استدار وأشار «لويجي ، بما أنك تعمل في خدمتي ، ستأخذ هذا الفتى تحت رعايتك . اجعله يعمل وانزع بعضاً من ذلك الغضب منه . اجعله يفهم كيف تجري الأمور هنا» .

تحدث إليه سيرجي «أيها القبطان إذا سمحت له بأن يفلت من العقاب ، فلن أكون سعيداً» .

نطق بالكلمة الأخيرة وكأنه يحذر الرجل الأكبر سناً منه .

استدار القبطان ومشى باتجاه الروسي الشاب ، وما زالت ذراعاه مرفوعتين .

قال بصوت عالٍ ودود «سيرجي ، سيرجي» . بدا وكأنه يمد ذراعيه تمهيداً لعناق . أومأ برأسه إلى يده اليمنى المرفوعة «تذكر يا سيرجي أنني أمسك بحياة بيبرس بين هذه الأصابع» . نظر سيرجي إلى اليد ، وفي اللحظة نفسها ، طوَّح القبطان باليد الأخرى على خد سيرجي بصفعة هائلة . دوَّت الصفعة وسمعها كل من تواجد على السطح ، ورفع سيرجي يده من شدة الألم . «وتذكر يا سيرجي أنني أمسك بحياتك في الأخرى» . انحنى

القبطان فوق الرجل الأصغر سناً «لا تشكك في قراراتي مرة أخرى مطلقاً . لتكن هاتان العلامتان تذكرة لك للأيام القليلة القادمة» .

رفع الروسي رأسه وقد أوشك على البكاء من الألم والإذلال معاً ، وأومأ قائلاً «نعم أيها القبطان» . حدَّق القبطان في عينيه لوهلة ثم طأطأ . رفع قامته «اتفقنا إذاً! إبدأ على الفور ، لقد حصل بيبرس على فترة نوم طويلة ولدينا الكثير من أعمال التنظيف الواجب أداؤها» .

صدق القبطان في وعيده حول مباشرة بيبرس الفورية . فقد كانت السفينة بحاجة إلى إصلاحات جذرية بعد الاشتباكات في الليلة الفائتة ، وكانت تحتاج إلى جهود كل رجل أو فتى لائق للعمل البدني . لم يكن لويجي ، المساعد الأول عدوانياً ، لكنه عامل مجد ، وأوضح لبيبرس ما هو متوقع منه أن يفعله من خلال سلسلة من الإشارات اليدوية والنخرات .

على ما يبدو ، فقد نجت السفينة المعادية الثانية من عمليات سلب القبطان اللومباردي ، لأنه لم تكن هناك أية إشارة على وجود سفينة أخرى في أي مكان من البحر المفتوح ، ولا حطام أو بقايا لأي شيء يشبه سفينة يمكن للفتى المضروب أن يميزها . بدلاً من ذلك ، كان السطح ومنطقة القيادة قد امتلأ بقطع الخشب ، الشظايا وما أدركه بيبرس بقدر من الرعب ، بقايا بشرية . فقد ألهاه عراكه مع سيرجي عن إدراك محتويات محيطه بدرجة كاملة .

الآن ، لم يكد يتوفر لديه الوقت للإيماء لبيطا قبل أن يتم سحب الفتى الأكبر سناً بعيداً عنه ليعمل في تكنيس الألواح الخشبية للأرضية من القمامة مع بقية الأسرى . سحبه لويجي نزولاً إلى عنبر آخر ، حيث عرته دهشة هائلة حين رأى حفرة ضخمة في الغرفة بمجرد أن لامست قدماه الأرضية الغارقة في الماء . كان الثقب المحاط بعوارض خشبية ناتئة ، يبلغ مقداره طول قامة بيبرس ، واستطاع من خلاله أن يشاهد من نور النهار أكثر مما رآه طيلة الأيام الماضية .

دفعه لويجي في ظهره وجعله يتحرك ليلتقط قطع الخشب المحطمة العائمة حول قدميه .

في الأثناء ، أشغل الإيطالي نفسه بقياس الثقب بواسطة خيط يحمله ، ثم جمع تشكيلة من الأدوات عن أرفف لم يكن بيبرس قد انتبه إلى وجودها مطلقاً . لقد بدا كل شيء غير حقيقي بالنسبة له . هذه السفينة وهذه الغرفة وحتى هذا الرجل الذي يعمل لديه حالياً . رأسه ما زال يطن من الضرب الذي تلقاه قبل هنيهة ، واضطر إلى خضه حتى يحاول أن يصفي ذهنه . استدار لويجي نحوه وأشار اليه أن يضع القطع التي جمعها في حزمة بين ذراعيه ، عند جدار الهيكل ثم يعود لتجميع البقية .

لم يطل به الوقت حتى تبلل كلياً جراء تجميع قطع الخشب من الماء ، لكنه أحسَّ بما يقترب من التحسن . فقد أبقته برودة الماء صاحياً ومنعته من فقدان أحاسيسه وموطئ قدميه .

احتك شيء خفيف وطري ببطة رجله اليسرى المكشوفة ، فنظر ليرى جرذاً كبيراً ميتاً ، يلامسه . انحنى بكل برودة وغياب ذهن ، حمل الجرذ على قطعة خشب وقذف به إلى الخارج من خلال الفتحة .

بدأ يدرك أنه يعاني من حالة صدمة . ورغم ذلك ، استمر بجمع الخشب بطريقة آلية . ويجعله في صفوف حيث أمره لويجي ، رغم أنه لم يكن واثقاً من أي فائدة له سوى أن يستخدم للحرق .

أخرج لويجي منشاراً صغيراً ، وبدأ يعمل بحرص وانتباه ، يقلم بعضاً من النقاط الأكثر حدة ويقيس ما إذا كانت أي من القطع الخشبية القديمة قابلة للاستعمال .

لاحظ بيبرس أن الإيطالي يلقي إليه بنظرة جانبية كلما وضع حزمة من الخشب فوق الكومة ، لكن الرجل الأكبر سناً لم يقل أي شيء . في النهاية ، أصدر إلى بيبرس ما سمعه مثل النباح وأشار إلى أنه يفترض فيه

أن يساعده في إخراج القطع المكسورة العالقة حول الثقب الذي أحدثته المدفعية .

تمكنا بواسطة المسامير وبعض المجهود إما من سحب القطع أو دقها ، وسرعان ما اتخذ الثقب مظهراً أكثر انتظاماً وقرباً من المستطيل . لم يكن بيبرس جاهلاً في العمل على الخشب ، لكن المعدن ظل يشكل مهاراته الأولى . نفض رأسه بينما أخذت ذكريات البيت تكافح لتعود إلى أفكاره . أصبح على ثقة الآن بأن المساعد الأول يقيِّمه في طريقة عمله وتعامله مع الأوامر ، لأن لويجي لم يسمح له بالابتعاد ، وتأكد من أن جميع الأدوات بقيت بعيدة عن متناول يدي بيبرس .

بالنسبة لبيبرس فهو لم يكن واثقاً في هذه الآونة من قدرته على عمل أي شيء للتغلب على المشرف عليه ، لشدة إرهاقه . اتبع التعليمات بطريقة عفوية وبدون أن يرفع عينيه ليقابل بهما عيني الرجل الآخر . مع انتهائهما من إخراج آخر القطع المكسورة ، حضر اثنان من العمال الأصغر سناً حاملين ألواحاً جديدة من الخشب لملء الفتحة وإغلاقها .

فكر بيبرس بعقله المكدود «هذه آخر فرصة لي لأقفز هارباً ، فهل ينبغي عليَّ؟»

اتضح أن السطح الذي يقفون عليه مرتفع بمسافة جيدة عن خط الماء ، ولكن حتى لو صح ذلك ، فمن غير المحتمل أن يكون عالياً جداً . قفزة واحدة الآن وإما أنه سيكون حراً أو تنتهي متاعبه ، بطريقة أو بأخرى . . .

ولكن ماذا عن دانا؟ ماذا لو أنها موجودة في مكان ما من هذه السفينة؟

لم يخطر بذهنه هذا الأمر من قبل ، لكن الخاطرة جعلته يستفيق من سهومه .

إذا كانت على قيد الحياة ، فيجب أن أعيش من أجلها . أنا مضطر إلى إنقاذها ، وليس فقط النجاة بنفسي .

أجبرت منظومة تقاليد ثقافة بيبرس أن يشعر بالخجل من ضعفه وأنانيته . نفض رأسه مرة أخرى ليبعد الأفكار غير المرحب بها .

تلهى لويجي للحظة وانشغل مع المساعدين الجديدين ، لكن لم يخفَ عليه تحديق بيبرس في الفتحة أو صراعه الداخلي الواضح . استدعى انتباه الشركسي بضربة قوية على كتفه وأشار إليه بدون كلمات نحو كومة الخشب الجديدة . هزَّ بيبرس رأسه وذهب ليحضر القطعة الأولى . ثبتها في مكانها بينما قام لويجي بدق المسامير فيها وفي الأخريات بواسطة الشاكوش الذي يحتفظ به على حزامه .

استمر هذا الوضع حتى نهاية النهار ، حينما قاد لويجي بيبرس المنهك كلياً عائداً به إلى السطح وأشار إلى العنبر الذي كان محبوساً فيه مع الآخرين حتى ذلك الصباح . توقف بيبرس للحظة حينما أدرك ما يأمره لويجي بفعله ، لكنه فكر في دانا مرة أخرى واضطر إلى الانصياع .

لم يقتلوني بعد ، وهناك احتمال طيب في أن لا يفعلوا إذا نفذت ما يقولونه

اتخذ قراراً بأفضل ما يمكنه ، أن يبقي عينيه مفتوحتين ويبحث عن صديقته . وبعدها سيفكر في خطة لإعادتها إلى الوطن .

راقبه لويجي بينما هو ينزل عن جانب الغطاء ويقفز إلى أرضية العنبر - السجن . نزل برفق واتخذ طريقه عائداً إلى البقعة التي تشارك فيها مع بيطا . استمر لويجي في المراقبة من فوق حتى اختفى بيبرس في الظلال ، ثم هزَّ رأسه للبحارة الخافرين وانطلق مبتعداً .

اكتشف بيبرس أن جميع الأولاد الآخرين قد غطوا في النوم : لا شك بأنهم أحسوا بالإرهاق نفسه الذي ينبض في عظامه وأعصابه . استقر في وضعية القرفصاء وأغمض عينيه .

جاءته همسة «ما الذي أجبروك على عمله؟»

الواضح أن بيطا كان ينتظر عودته .

قال بيبرس «لاشيء بغيضاً ، مجرد بعض التصليحات» .

ظهر في صوت بيطا قدر من الاطمئنان «أوه» .

شعر بيبرس بأن عليه أن يضيف شيئاً آخر فسأل «ماذا عنك؟»

قال بيطا «تنظيف الأسطح ، الرفع والحمل» .

«هل قمت بمثل هذا العمل من قبل؟ أقصد مع والدك مثلاً؟»

اعترف بيطا «ليس الكثير ، ولكنني سأتعود عليه» .

«لا تتكلم وكأنك قد أصبحت عبداً» .

لم يرد بيطا ، بل اكتفى بتشديد لفة ذراعيه حول ركبتيه .

أحسَّ بيبرس بالندم على كونه أكثر حدة مما كان يقصده فوراً .

«لابد وأنك قوي بالطبع يا بيطا ، ولكن لا تسمح لنفسك بالتفكير بأن هذا الوضع سوف يستمر إلى الأبد» .

نظر إليه بيطا في العتمة «وكيف سينتهي هذا الوضع يا بيبرس؟»

نفض بيبرس رأسه قائلاً «لا أدري» .

استسلم كلاهما للنوم .

في اللحظة التي بدا فيها لبيبرس أنه استسلم للنوم ، أيقظه جرس يرن تماماً عند أذنه مرة أخرى . انتفض جالساً وتلفت حواليه ليرى بيطا يقوم بالشيء نفسه . فوق الفتحة ، شاهد أحد البحارة ينحني إلى الأسفل ويطرق على إناء طبيخ كبير بمغرفة معدنية . من خلفه ، تسرب ضياء رمادي خافت باهت إلى داخل العنبر السجني الرهيب حيث احتفظ بالأولاد .

كان البحار يصرخ فيهم بلغة لم يستطع بيبرس أن يفهمها ، لكن معناها كان واضحاً بما يكفي . أشار البحار بمعرفته إلى أربعة أو خمسة من أكبر الأولاد وبالدور طالباً منهم أن يصعدوا إلى فوق . شاهد بيبرس في الظلمة النسبية أن بعض الأولاد يحملون جروحاً أصيبوا بها في المعركة ، وأن بعضهم الآخر بدا واهناً إلى درجة أنهم يتحركون بصعوبة بالغة .

لاحق بيطا المغرفة حين استقرت باتجاهه ثم رفع قامته ليصعد خارجاً بعدهم .

همس بيبرس «حظاً سعيداً» فاستدار صديقه وطأطأ برأسه .

خرج واحد آخر من الأولاد الأقوياء بعد بيطا ثم انتهى الأمر ببيبرس جالساً مع الصغار والجرحى . صمم على أن لا يفكر بجدية في أي شيء لهذا اليوم بالذات .

إذ لا يفيد مطلقاً التفكير بوالدته وشقيقاته ، كذلك انتابه إحساس بالمرض والإعياء كلما حضرت صورة وجه دانا إلى مخيلته . أعاد وضع رأسه مستنداً إلى جدار العنبر وحاول أن يعود إلى النوم لكنه لم يفلح . فقد استيقظ بكامل وعيه وهبت ريح الصباح شديدة البرودة .

وزع نظراته على الأطفال البائسين وهم يرتجفون حوله . خطر بباله أنها المرة الأولى التي يتمكن فيها من رؤيتهم بشكل مناسب . بادله بعضهم النظرات بدون عواطف أو حتى إظهار التمييز ، لكن أغلبيتهم جلسوا يحدقون في المسافة المتوسطة ، وقد اعتلت وجوههم نظرات الرعب .

جلس بعضهم مسندين رؤوسهم وأيديهم إلى ركبهم المرفوعة حينما ينامون ، لكنهم بقوا على ذلك الوضع رغم يقظتهم . وكأنهم يعتقدون أنهم إذا لم ينظروا إلى عالم الرعب من حولهم فإنه سوف يزول عنهم بطريقة ما ، وأنهم ربما ينتقلون بفضل أعجوبة ما عائدين إلى بيوتهم والناس الذين يحبونهم .

عاود بيبرس الارتعاش من شدة البرد . تذكر للحظة كيف كان شعوره وهو يمشي مع والده باتجاه المحددة ، بينما تمسك يده بأصابع الحداد الضخمة ، قبل أن يصلا إلى الدفء ويدخلاه . كان أميشا يحرص دوماً على إشعال النار وإبقائها متوهجة .

تلك هي المرة الأولى التي فكر فيها بالحقير، وقد فوجئ عندما اكتشف أنه يكاد يحن إلى المتنمر الذي حاول أن يعذبه. فقد أصبح أميشا منذ الآن يبدو جزءاً من ذكرى طفولة، عالم قد اختفى كلياً.

«إنني لأتساءل عما يفعله الآن؟ أو ما تفعله شقيقاتي؟»

نفض نفسه. جاءته الأفكار بمنتهى السهولة، ورغم ذلك أدرك أن التفكير فيها لا يفيد، إلا إذا كان يريد أن ينتهي به الأمر مثل هؤلاء الأولاد أمامه، الذاهلين لدرجة أنه لن يعرض وجهه على العالم.

أجبره صوت قرع على الالتفات فرأى لويجي عند الفتحة يحدق فيه. لم يكن وجه الإيطالي ودوداً ولا عدوانياً، بل أشار ببساطة وهزَّ رأسه لبيبرس لينهض.

سرعان ما تعلم بيبرس أي نوع من الرجال هو لويجي الذي يعمل لديه. هو لم يكن على عجلة من أمره، ومع ذلك فهو موجود في كل مكان في الوقت نفسه، المثال الأوفى للمساعد الأول والذي تعتمد عليه كل سفينة تخاطر بمخر عباب المياه الخطرة. أرسل بيبرس ليعمل مع الأولاد الآخرين، يفركون السطح مستخدمين قطع إسفنج خشنة لتنظيف الخشب من أية عوالق غفلوا عنها في الليلة السابقة. عندما صعد بيبرس إلى السطح، أشار لويجي ببساطة إلى الأولاد الراكعين ثم إلى دلو ففهم بيبرس الرسالة.

تمكن من العثور على مكان إلى جانب بيطا ثم أبقى رأسه منخفضاً. لم يكن هناك أي أثر لسيرجي أو القبطان أو الأهم من كل ذلك، لدانا، لذلك لم تكن هناك فائدة ترجى من المخاطرة بالتفرد والظهور بمظهر الفضولي.

ولكن على أية حال، أبقى عينيه على لويجي قدر الإمكان، فهو الرجل الذي قال القبطان إنه سيكون مسؤولاً عنه. لم تكن لدى بيببرس أية فكرة عما يمكن أن يتوقعه على هذه السفينة، لكن حتى أولى غرائزه

قالت له إنه ينبغي عليه أن يتحصن ضد المفاجآت .

رفع رأسه بكل ما تجرأ عليه ليراقب الإيطالي وهو يتشارك مع رجل ما في الاستمتاع بنكتة ، ثم يخوض في نقاش جدي مع آخر وهو يؤشر على طريقة نشر الأشرعة ، ثم يضرب صبياً على أذنه لأنه يقوم بلف الحبل بمنتهى التباطؤ ويمضي في طريقه . ما كاد يختفي عن مدى رؤية بيبرس له من أمامه حتى كانت قدماه قد ظهرتا عند كتفي بيبرس .

وقف الإيطالي فوقه وراقبه بصمت بينما هو يفرك الاسفنجة الخشنة على الخشب ، ثم عندما ظهر عليه الاقتناع ، تابع مسيره . قرر بيبرس أن لا يتراخى مطلقاً حينما تكون هناك احتمالية لأن يقترب منه لويجي وهو غير منتبه .

على هذه السفينة ، يمكن لذلك أن يكون في كل مكان .

اضطر إلى الاعتراف بأنه قد بدأ يسترخي قليلاً هذا الصباح ، وكأنه قد بدأ يستقر بطريقة ما في حياة العبد وإيقاعات البحر ، وأن السفينة قد بدأت تصبح مريحة تحته . بل حتى أصبحت عادية . سوف يضطر إلى مقاومة تلك الضرورة وتذكر دانا ، تذكر الصديقة والحياة التي انتزعت منه قسراً .

أخرج سيرجي رأسه الأشقر فجأة صاعداً من ثقب في السطح كأنه يذكره بواقعه ، وبدأ يرفع نفسه بسهولة إلى الخارج ، ابتداءً بكتفيه ثم بساقيه الطويلتين الناحلتين وسط بنطاله وبدون جوارب . شاهده الروسي وبادله بيبرس التحديق العدائي بدون أن ترف عينه . أدرك أن تصرفه ينم عن تهور وأنه قد يعني المزيد من المتاعب لكن لم يكن هناك مفر . تصور الغضب في معدته واشتدت قبضته على الاسفنجة القديمة حتى عصرها حد الجفاف بين يديه .

وقف سيرجي على امتداد قامته ونظر إليه بالابتسامة الساخرة نفسها التي أطلقها قبل أن يهاجمه بيبرس في المرة الأخيرة . كانت رؤية

الكدمات على جانبي وجه سيرجي مرضية لبيبرس إلى حد ما ، سوداء وغاضبة ، لكن لا شيء على الأرض ولا في البحر كان سيسعده بحضور الروسي ، ليس قبل أن يعثر على دانا .

قال سيرجي «أنت على ركبتيك إذاً أيها الصبي؟ يبدو أن هذا هو أفضل مكان لك . تأكد من استخدام ظهرك حين تفرك» .

لم يقل بيبرس أي شيء ليرد عليه ، رغم أن صمته تطلب منه جهداً هائلاً ، لكنه لم يخفض وجهه ، وبعد وهلة بدأت ابتسامة الروسي تخبو ثم انتبه إلى أن جميع الأولاد كانوا ينظرون إليه أيضاً .

يدفعهم وجهه الأرجواني إلى فقدان الخوف . . . يحتاج الرجال فقط إلى أن يتأذى العدو وبعدها سيفقدون معظم خوفهم منه .

لم تكن لدى بيبرس أية فكرة عن مصدر هذه القناعة ، لكن ظهر أن سيرجي شعر بوجود تصميم جديد في ملامح الصبي الأصغر سناً ، ففقد وجهه في هذه اللحظة الكثير من اعتزازه .

«عبد جبلي» قالها على شكل إطلاقة فراق ثم مضى في سبيله .

استدار بيبرس وراقبه وهو ينصرف ثم استأنف عمله بعد لحظة مع الآخرين . فرك بشدة ورأسه إلى الأسفل . مشى سيرجي نحو المظلة عند مؤخرة السفينة وتناول تفاحة من كومة صغيرة ثم جلس متنكداً . رفع قدمه على الحاجز أمامه وأخرج سكيناً من بنطاله وبدأ يقشر التفاحة ويأكلها عن نصل السكين مباشرة ، وهو لا يتوقف عن مراقبة فريق عمل بيبرس طيلة الوقت .

أدرك بيبرس من جهة سبب جلوس سيرجي تحت المظلة الخلفية . مع تقدم ساعات النهار وتحركهم البطيء إلى الأمام على السطح ، ارتفعت الشمس وبدأت تحرق مؤخرة رقباتهم وأذرعهم . لم يكن هناك أي ظل ما عدا الذي يصل إلى الأولاد العاملين على الأطراف ، الذين يمكنهم أن يزحفوا تحت صفوف المجاذيف والمقاعد وبذلك يحصلون على بعض

الراحة . أحسَّ بيبرس بجلده يحمرُّ ويحرقه ، ثم نظر إلى يمينه ليرى أن بيطا في محنته نفسها . لم يكن أي منهما غير معتاد على حرارة الشمس ، لكن لم يكن أي منهما معتاداً على البقاء خارج الظلال لكل هذا الوقت .

نادى سيرجي من المؤخرة «داوموا على الفرك يا أولاد! ربما تحصلون على قطرة ماء إذا اشتغلتم بجد!» .

لم يكن بوسع بيبرس أن يتأكد ، لكنه بات واثقاً من أنه رأى نظرة استياء تتشكل على وجوه بعض البحارة النظاميين حينما قال سيرجي ما قاله . كان ذلك جديراً بالتذكر .

لكنهم لم يقولوا أي شيء . . . لم لا؟ إنه مجرد صبي . . . لم يكن القبطان خائفاً منه ، لكن لماذا لا يشتغل مثل كل الآخرين؟

جاءته الفكرة فجأة لماذا يتحرك لويجي في الأرجاء بكل هذه الهمة ، مع أنه يبدو الرجل الثاني بعد القبطان ، ولكن هذا المغفل جالس وقد رفع قدميه؟ لابد وأن بيطا يعرف ، وهكذا شارك بيطا في قصة صديقته المفقودة . . . . وخطته للهروب .

***

قال بيطا «تلك ليست خطة» .

هبط الظلام وقد أعيدا إلى عنبرهما الصندوقي تحت السطح مباشرة . مرَّت بقية النهار بدون أحداث تذكر ، رغم أن بيبرس أدرك بحلول الظهيرة أن لويجي لم يسمح له أبداً بالغياب عن ناظريه طيلة الوقت . لقد كان المساعد الأول يطبق أوامر القبطان بدقة ويتلفت حواليه كلما تحرك بيبرس . كان البحارة الذين تولوا مراقبة الأولاد مجموعة بشعة وذات شخصيات حقيرة ، يسارعون إلى صفع وضرب أي من الأولاد الذين يشعرون أنهم يتباطأون أو يعملون بأقل من المعدل الذي يريدونه .

والآن ، اضطجعوا كلهم في أنحاء العنبر يحاولون أن يبقوا دافئين رغم الليلة الخالية من الغيوم في الخارج . ندم بيبرس مرات عديدة لأنه لم

يجلب معه ملابس أكثر سماكة عندما غادر البيت ، ولكن كيف كان له أن يعرف أين سينتهي به المطاف في ذلك الصباح الهادئ والعادي إلى درجة مرعبة؟ ارتعش مرة أخرى وأحسَّ بالانزعاج الذي تسببه الحركة حينما يتحرك جلده الذي أحرقته الشمس ويحتك بملابسه الرقيقة . كان الأولاد الآخرون في حالته نفسها إن لم يكونوا أسوأ .

كرر بيطا «تلك ليست خطة»

«ما هو الخطأ فيها؟»

«أنت تنوي أن تنتظر حتى تحين لحظتك باقترابنا من اليابسة ، ثم تقفز عن السفينة ومعك صديقتك دانا ، التي يحتمل أن تكون على السفينة ، ثم تسبحان إلى بر السلامة؟»

تطاول بيبرس في جلسته قليلاً ونظر إلى الصبي الآخر «نعم ، وما وجه الخطأ فيها؟»

أطلق بيطا ابتسامة واهنة مع أن الجهد سبب له بعض الألم بسبب احمرار وجهه وإرهاق عمل ذلك اليوم . آلمته يداه جراء التعامل مع الحبال والإسفنج والكحول طيلة النهار في عمليات الربط والغسيل . فركهما ببعضهما بلطف ونظر إلى صديقه .

قال «حسناً ، هناك بضعة أمور ، أولاً ، ليست لدينا أية فكرة عما إذا كانت الفتاة على السفينة ، أو حتى . . .» توقف «ما إذا كانت حية أم ميتة» . توتر بيبرس ، لكن بيطا رفع يده لتهدئته . «حتى وقتها ، كيف تتوقع أن تصل إلى اليابسة؟ لن تقترب هذه السفينة من اليابسة مخافة أن تجنح أو يهاجمها أحد ما . فهي سفينة قراصنة في نهاية المطاف . حتى في حينها ، فإن لديهم قارب الإنزال يا بيبرس . سوف يجذفون خلفك ويمسكون بك ويقتلونك» . لاحظ أن تعبير وجه بيبرس لم يتبدل فاستمر .

«لقد كنت محظوظاً في المرة الأخيرة . فقد تشاجرت وبصقت أمام القبطان ، وأبقاك حياً لسبب ما . ربما إنه يؤمن بالخرافات فيما يتعلق

بالعلامة على عينك ، ولكنك لن تنجو بحياتك إذا حاولت الهروب . سوف يسلخون جلدك» . أبقى بيبرس عينيه مسلطتين على قدميه . «وربما يقتلون دانا أيضاً» . هذه المرة نظر بيبرس إليه . خفف بيطا من حدة لهجته . «أنا أقول هذا فقط لأنني أريدك أن تحيا . نحن» تلفت حواليه على بقية الأولاد «يجب علينا جميعاً أن نتضامن حتى تكتب لنا النجاة بأرواحنا» .

في تلك اللحظة ظهر وجه شرير مدوَّر عبر الفتحة وتفحص الأولاد واحداً إثر الآخر .

هزَّ البحار رأسه واستدار إلى الخلف «مرر لي ضوء شعلة ، لا أستطيع أن أرى في هذه العتمة» . بانت الشعلة في طرف ذراعه على شكل نور براق فأضاءت المجال كله . أحسَّ بيبرس بحرارة ألسنة اللهب وهي تنعكس بانزعاج على بشرته المحترقة أصلاً . وجه الجزء المشتعل إلى بيطا .

«أنت أيها الصبي هناك ، اصعد إلى هنا» .

نظر بيطا إلى بيبرس ثم عاد للنظر إلى الرجل .

«لن أطلب منك مرتين ، أيها الحلو ، ولن يعجبك الأمر لو اضطررت إلى النزول إليك . احضر مؤخرتك الصغيرة إلى فوق هنا» .

تحرك بيطا إلى الأمام وبدأ يزحف باتجاه الفتحة ، عندما وصل إلى متناول اليد ، أمسك البحار بقميصه الخفيف من الخلف ورفعه إلى خارج الفتحة . راقب بيبرس مضطرباً ما الذي فعله بيطا الهادئ؟

«لقد كنا نراقبك وأنت تعمل على الاسفنجة سابقاً» . سمع البحار يقول في الأعلى «أنت تجذب العين إليك حينما تكون على ركبتيك بذلك الوضع ، أليس كذلك؟»

لم يسمع بيبرس أن بيطا قد أجاب ، لكنه استند إلى الأمام وحاول أن يرى ما يحدث من خلال الفتحة . نظر إليه بقية الأولاد وهم يظنون أنه سيعرف لماذا تم اختيار بيطا . سمع بعض التمتمات ثم ضحكات قليلة ، ولكن لا أكثر من ذلك .

مرت دقيقة أو اثنتان وبعدها بدأ الزعيق . عرف بيبرس من الذي يزعق وهمَّ بأن يتسلق خارجاً من الفتحة . ولكن ، بمجرد أن وضع يديه على الحافة ، داست قدم على أصابع يده اليمنى المعطوبة أصلاً ثم اندفعت شعلة قريباً من وجهه بدرجة خطيرة .

جاء الصوت «إبقَ هناك في الأسفل أيها المشاغب . أنت لا تريد أن تكون لك علاقة بهذا» .

جلس بيبرس ينتفض وينتظر . لم يكن لديه أي خيار . استمر الزعيق لما بدا أنه ساعات ، مع توقفات قصيرة .

في النهاية عاد بيطا وأنزل نفسه إلى العنبر ، بحركات محاذرة والدموع ما زالت رطبة على خديه . بات هادئاً الآن ، أخرس ، ورفض جميع محاولات بيبرس لجعله يتكلم ويخبره بما فعلوه به .

أخيراً ، كوَّر نفسه في الزاوية على شكل كرة ، مثل طفل وأدار ظهره لهم . أغفى بيبرس على صوت نحيب صديقه .

الفصل الخامس

تلك كانت الليلة التي اكتشفت فيها الشر الحقيقي يا عبد . لقد عرفت القسوة والوحشية قبلاً ، لكنني لم أكن قد اكتشفت أبداً أنه عندما يتحدث الرجال المسيحيون والمسلمون على حد سواء عن الشيطان ، أن أتباعه يمشون على الأرض بحق وحقيق .

كان السلطان مستعداً لأن يستطرد في سرده ، وجهزت صحائفي لكتابة الملاحظات . أصبح بمقدوري أن أرى الذكريات وهي تزدحم في رأسه ، بحيث أنه وجد الفرح والراحة في تركها تتدفق ، ربما للمرة الأولى . شعرت بأنني صاحب حظوة لأنني الشخص الذي اختار أن يستودعه قصته الحزينة .

في السفينة ، اتخذ اليوم التالي نمطاً عادياً ، بينما ألحق الأولاد بالعمل وأُعطوا المزيد والمزيد من الواجبات لتنفيذها . أخرج بيبرس مرات عديدة من فريق العمل ليؤدي مهام خاصة مع لويجي ، ولكنه عومل بشكل جيد إجمالاً من قبل المساعد الأول ، وسرعان ما وجد نفسه ينسجم مع روتين السفينة . لم يكن العمل شاقاً جداً بالنسبة له ، إذا قورن بالعمل في المحددة ، في الواقع ، ولكونه معتاداً على حمل القوالب الثقيلة والتعامل مع المعادن المذابة ، فقد كان العمل بالخشب والتنظيف على السفينة سهلاً نسبياً .

عاد القبطان إلى الظهور بعد غيابه في اليوم الأول ، يفتش على السفينة بينما يشرح له لويجي العمل الذي تم إنجازه ، ثم اتخذ طريقه صاعداً الجسر حيث أمضى فترة ما بعد الظهر يتفحص الخرائط مع ملاحه

ويراقب الأفق . اتضح لبيبرس أنه يبحث عن شيء ما ، بدلاً من كونه يهرب من ذلك الشيء . وأخبرت غرائز الصبي التي كانت على حق حتى الساعة ، بأنه سرعان ما ستقع معركة .

لم تكن هناك أية إشارة على وجود دانا ، لكن سيرجي استمر في تحيته بتكشيرة ولم يخف عدائيته في كل مرة يمر فيها أحدهما عن الآخر على السطح . وقد مرا ببعضهما مرات كثيرة على سطح السفينة الشراعية السريعة . ظل بيبرس يواسي نفسه بالتفكير في ما سيفعله بمجرد أن تسنح له الفرصة لينتقم لنفسه من الروسي .

لم يشعر بأي ود تجاه أولئك الناس ، رغم أن الشراكسة ظلوا ينظرون إليهم بالشك في أفضل الأحوال ، لكن كراهية قديمة صارت تغلي في صدره ، وشعر حقيقة أنه سيقوم بتقطيع معذبه إلى أشلاء بمجرد أن تسنح له الفرصة .

كان يفكر بأمه أحياناً في الليل ، وكيف أنها كانت سوف تنصحه بالاعتدال .

حسناً ، هي ليست هنا ، وأنا لم أعد معها . لقد ساعد سيرجي هذا ، بحركاته المصطنعة على إبعادي عن جميع الناس والعادات التي كانت ستبعدني عن تدميره ، لكنني سوف أستمتع بتعذيبه ، تماماً كما هو يستمتع بعذابي الآن .

منحت الأفكار والأخيلة القاتمة الصبي مقداراً من السيطرة على ما كان وضعاً خارجاً عن السيطرة . بقي على إيمانه وهو يعلم أن انتظاره سوف يجلب الفرص التي يتمناها للانتقام والفرار .

أصبح قادراً على النوم لأنه أرضى عقله بهذه الطريقة ، لكن مصيبة بيطا منحته سبباً آخر للتخطيط .

على ما يبدو فإن البحارة اختاروا بيطا من بين جميع الآخرين ، فكر بيبرس أن الأمر ربما يعود إلى هيئته النحيلة الغارقة في التفكير . راقب الأثر

الرهيب الذي تخلفه ، لأن بيطا كان يقذف به كل ليلة إلى أسفل العنبر ليزحف إلى بقعته . كان يبتعد بعصبية عن كل شخص يقترب منه في تلك اللحظات ، ويرفض التكلم عن الأحداث عندما يحين الصباح . أول ما خطر ببال بيبرس هو أن يتركه لشأنه ويدعه لوحده ، لكنه أدرك أنها ليست الطريقة الصحيحة للتعامل مع الأمور .

في الوطن ، عندما كان أي من أصدقائه يتعرض لمشكلة ، كان بيبرس هو الفتى الذي يساعد على قتال المعتدي . كان لديه التأكيد في مؤخرة دماغه أن والده سيبعد عنه أي خطر يرفع رأسه باتجاهه . ليس هناك أحد يعرفه ويمكن له أن يغضب أشاماز الحداد وينجو بسهولة .

لكن أشاماز لم يكن معه الآن . لقد فقد كلًّاً من التوجيه الأخلاقي الذي كانت توفره أمه ، بالإضافة إلى الحماية الحقيقة التي منحها له والده . هو وحده الآن . وعليه أن يعتمد على نفسه وحدها . كلما سنحت له الفرصة أو جرى تهديده ، فسوف يدافع عن نفسه كما فعل ، وأي شخص يحاول التغلب عليه سينتهي به الأمر بأنف دام وعين سوداء .

قال الشيء نفسه إلى بيطا في اليوم التالي بينما هما يقومان بتنظيف السطح مرة أخرى .

قال وهو ينظر إلى الصبي «يجب أن تقاتل» .

نفض بيطا رأسه واستمر يدفع الاسفنجة القاسية صعوداً ونزولاً على ألواح الخشب .

«انظر إليَّ ، اللعنة!»

ومع ذلك أبقى بيطا رأسه مدلى . نظر بيبرس إلى كتفيه ورأى أنه يرتجف .

«أرجوك يا بيطا . استمع إليَّ . يجب أن تقاتل!»

«وماذا سيكون نفع ذلك؟» تلك كانت الكلمات الأولى التي سمعه بيبرس يتكلمها طيلة ذلك الصباح .

«سوف يفكرون مرتين قبل أن يعودوا إلى أخذك» .

«وماذا إذا قتلوني؟ يلقون بي من فوق الحاجز وكأنني قطعة من القمامة؟ أو يضربونني حتى أصبح مقعداً ولا أصلح لشيء غير الإلقاء بي عن الحاجز بكل الأحوال؟»

تنهد بيبرس ، لكنه استمر في التحريض «يجب عليك يا بيطا ، ماذا لديك غير ذلك؟ يجب أن تجعل الوضع صعباً لدرجة أنهم لا يعودون يتعبون أنفسهم في أخذك» .

مرة أخرى ، نفض بيطا رأسه ، قال «سيكون من الأفضل لي أن ألقي بنفسي في البحر» .

رمى بيبرس الإسفنجة وأمسك به بقوة من كم قميصه الممزق ، وقد رفع نفسه عن ركبتيه في الأثناء «لا تقل ذلك! أبداً! لا يمكنك أن تسمح لهم بهزيمتك» .

«ليس هناك عيب في إنهاء الأمور بطريقتك الخاصة» .

كاد بيبرس أن يقفز على أسفل قدميه ، وهو متحمس للوقوف

«تلك خطيئة ، خيانة للخطة الإلهية التي أعدت لنا» .

كانت هذه أول كلمات خرجت من فم بيبرس حينما سمع بيطا يتحدث عن مصادرة حياته ، لكنه فاجأ نفسه بدرجة الحدة التي جاءته بها الكلمات .

بينما كان بيبرس ممسكاً بذراعه ، مرَّ البحار الذي أخذ بيطا ، حاملاً قطعة من الحبل بين ذراعيه .

«هل وجدت لنفسك صديقاً صغيراً مقرباً؟» قالها وهو ينظر إلى بيبرس شزراً .

نهض بيبرس من وضعية القرفصاء بحركة واحدة وطوَّح بقبضته اليسرى بدون تفكير ، لتصيب الوحش البشع تحت ذقنه . اتبعها بمستقيمة من اليمنى إلى حلق الرجل ، ثم راقب بقناعة فيما تراجع الرجل وهو

يسعل ويتلعثم ، ليرتطم بظهره في شراع السفينة الرئيس . خطف بيبرس الحبل من السطح حيث سقط وبدأ يجلد رأس الحقير وكتفيه بالحبل بكل ما أوتي من قوة . لم يستطع الرجل الأكبر سناً أن يفعل أكثر من رفع يديه ليحمي نفسه ثم هبط إلى ركبتيه ببطء .

مرة أخرى استفاد بيبرس من عنصر المفاجأة - فوجئ معظم رفاق الرجل من طبيعة الهجوم المباغت وغير المتوقع ، حتى لا يقال المدمر ، بحيث إنهم لم يتحركوا في البداية .

كان بيبرس مستمراً في جلد الجسم المطروح المثير للشفقة ، حينما جاءت صيحات من جهة الجسر والتفت الأذرع القوية حوله من الجهتين لتمنعه من الحركة .

نظر إلى البحار تحته ، بساقيه القصيرتين وكرشه السمين ، ثيابه الممزقة وأحذيته المثيرة للشفقة وكاد أن يشفق عليه .

فقد كان الرجل ينتحب بتنهيدات مثيرة للشفقة ، تكاد تشابه تنهيدات بيطا حينما يعود إلى العنبر .

قاوم بيبرس الأذرع التي تقيده وزأر على صديقه «أهذا هو ما تخافه؟»

مدَّ برجله إلى الأمام في محاولة لرفس خصمه الذي ما زال ينتحب .

بعدها ظهر القبطان واقفاً أمامه ، وقد ارتسمت على وجهه نظرة غضبى . صفع بيبرس بقوة على وجهه ثم نظر إلى تحت باتجاه الرجل العامل لديه بقرف .

زأر قائلاً «هل أنت تهاجم بحارتي مرة أخرى؟ سوف آمر بجلدك أيها الشركسي! هل تسمعني؟ سوف أحطمك مثل كلب!» .

هدأ بيبرس نتيجة غضب الرجل . فقد علم أن القبطان رجل قادر على أن يكون شرساً إذا استدعى الأمر ذلك . وهو على وشك أن يرى ذلك حالياً .

أشار القبطان إلى الرجلين اللذين يمسكان به «اربطاه إلى الشراع واجمعا البحارة . لويجي!»

لاحق بيبرس عيني القبطان ورأى لويجي واقفاً وراءهما مباشرة، بوجه لا يحمل أي تعبير.

قال القبطان «ستقوم أنت بجلده، لأنني تركته في رعايتك ومع ذلك هو يزعج سفينتي».

أحضر بحار صغير السن سوطاً وحشي الهيئة بأذيال مرعبة وقدمه للمساعد الأول «إليك!»

استغل بيبرس الفرصة لينظر إلى الأداة الشرسة التي مدَّها البحار. هي عبارة عن مقبض غليظ تخرج منه أشرطة جلدية، كل واحد منها بطول حوالي ذراع الرجل وعلى طرفه كرة مستديرة من الرصاص. كان بيبرس قد سمع قصصاً عن كيفية أن هذه الأدوات لا تكتفي بسفع الجلد، بل تمزقه إلى شرائط من اللحم، ارتعش واختفى كل أثر لديه للتبجح والغضب.

تقدم لويجي ببطء وتناول السوط ثم نظر إلى البحار الراقد الذي ضربه بيبرس. هزَّ رأسه ثم استدار نحو القبطان. اقترب بهدوء باتجاه أذن الرجل الأعلى مرتبة وهمس له ببضع كلمات. تغيَّر وجه القبطان واستطاع بيبرس أن يشاهد الغضب وقد تصفى منه وزال. طلب من لويجي شيئاً ما واستجاب المساعد الأول بهزة رأس باتجاه بيطا. نظر القبطان إلى الصبي ثم عاد للنظر إلى لويجي وهزَّ رأسه.

نادى على حارسي بيبرس «أحضراه إلى قمرتي، حالاً!»

قام الحارسان بنصف مشية ونصف جرجرة على الفور، يسحبان بيبرس على طول السطح. أطلق القبطان أمراً هامساً آخر ثم تبعهم.

عاد فتية العنبر الذين راقبوا كل شيء بمزيج من الانبهار والرعب، إلى تنظيف السطح مرة أخرى، بينما كان بيطا ينظر حوله إلى ظهري بيبرس والقبطان وهما يختفيان. قبل أن يبدأ بتحريك اسفنجته متمهلاً مرة أخرى.

مرَّر لويجي أشرطة السوط بين يديه متفكراً ثم صرخ بالبحار الذي ما زال جالساً لأن يلملم نفسه ويعود إلى عمله ، وإلا تعرض للإحساس بالسوط على ظهره هو بأسرع ما يمكن .

وقف بيبرس في الثقب الصغير الذي يشكل كابينة القبطان ، ينتظر .

جاء صوت القبطان من خلفه «بإمكانكما أن تتركاه . فهو لن يحاول أن يفعل أي شيء معي ، أم أنك ستحاول أيها الشركسي؟»

دخل القبطان أمامهم وجلس في مقعده . انتظر حتى انصرف الحارسان ثم استند إلى ظهر مقعده ، وقد ارتسمت على محياه نظرة حيرى متسائلة . أدرك بيبرس أن غضب اللحظات القليلة الماضية مازال موجوداً ، لكن القبطان في مزاج تفكيري في هذه الآونة .

«فإذاً ، ما الذي يفترض فيَّ أن أفعله معك يا بيبرس؟ ما الذي ترغب في أن أفعله؟ أستطيع أن أفهم رغبة صبي ما في قتل الشخص الذي جعل منه عبداً ، وأتفهم الصبي الذي يرغب في قتل الشخص الذي اغتصب صديقه ، لكن هذه ليست من الإزعاجات التي أسمح بوجودها على سفينتي . إن سيرجي الروسي شخص ثمين ، أثمن حتى من مزاجك العنيف هذا ، ولسوء الحظ ، فإن ماريو يحظى بشعبية أكثر منك ، وبهذه الطريقة فهو أكثر قيمة منك أيضاً . ولذلك ، فإنني أسألك مرة أخرى ، أيها المقاتل العظيم ، ما الذي تريد مني أن أفعله؟»

أحسَّ بيبرس بالحماقة فجأة ، حين وقف ونظر إلى أسفل نحو الرجل الهادئ والمنطقي الجالس أمامه ، فقد أصبح من الصعب أن يظل غاضباً من هذا الرجل . استجمع ما يقدر عليه من الكرامة ثم تكلم بصوت هادئ عميق :

«ينبغي عليك أن تسمح لي بالمغادرة» .

اعتقد للحظة أن القبطان سينفجر ضاحكاً في وجهه مباشرة ، لكنه لم يفعل . بدلاً من ذلك ، دفع بكرسيه إلى الخلف على قائمتين وحدق فيه بحدة .

«إذا فعلت ذلك سيحصل عندي عصيان في الغد . إذا نجوت من العصيان ، فإن والد سيرجي وأعمامه سوف ينشرون خبراً في كل ميناء على البحر الأسود خلال أيام قليلة مفاده أنني رجل مطلوب . لن أتمكن من عبور المضائق عائداً إلى البندقية حياً على الإطلاق» .

قالها بأسلوب عملي منطقي خالص بحيث لم يعرف بيبرس ما ينبغي عليه قوله كجواب .

«إنني أقوم بنقلك لحسابهم ، مع وجود صديقك سيرجي كمشرف من ناحية ورهينة من ناحية أخرى» رفع كفيه «تلك هي الأعمال التجارية يا بيبرس ، وهذا هو العمل الذي أجد نفسي فيه . وسأقولها مرة أخرى ، إذا تركتك تغادر ، فأنا حتماً في عداد الأموات ، وأنت أيضاً بالعملية نفسها . فكيف إذاً تتخيلني أتركك تغادر؟» أومأ برأسه إلى الخارج باتجاه الباب «هناك العديد من الرجال الذين لا يجدون أفضل من أن أمنحك رغبتك وأسمح لك بالدخول إلى البحر لتلقى مصيرك . سوف يلهون قليلاً بمساعدتك ، أنا واثق من ذلك . فهل هذه هي الطريقة التي تحب أن تنتهي بها حياتك؟»

حاول بيبرس أن يبقي عينيه في عيني القبطان لأطول مدة يقدر عليها ، وفي النهاية ، نفض رأسه وقد أدار وجهه باتجاه الأرضية .

«هل اعتقدت أنني سأسمح لك بالمغادرة في قاربنا الصغير؟ أو ربما ننتظر حتى نرسو في ميناء صديق ودود؟»

قال القبطان ذلك بسخرية وأدار وجهه إلى ناحية ، عاقداً يديه خلف رأسه .

سأل بيبرس بهدوء «أين هي دانا؟»

استدار القبطان نحوه «ماذا؟»

«لقد كانت معي عندما تم أسري . أحب أن أعرف ماذا فعلتم معها» .

استدار القبطان وجلس مواجهاً له ، وقد أفرد يديه فوق اللوحات والخرائط الموجودة على طاولته .

قال «لا أعرف شيئاً عن هذا الموضوع»
نظر بيبرس اليه واقتنع بأنه يرى الصدق في وجه الرجل .
سأل «أين هي إذاً؟»
هزَّ القبطان رأسه «لم أسمع شيئاً عن أية فتاة . عندما أحضروك في القارب كنت أنت وحدك . لم تكن هناك أية فتاة» . جلس مستقيماً «أنا أعطيك كلمتي على هذا الأمر» .
أراد بيبرس أن يصدقه ، لكن هذا فتح منظومة جديدة كاملة من الاحتمالات .
أين هي إذاً
تكلم القبطان في هذه اللحظة بصوت خفيض «أنت مازلت صبياً يا بيبرس ، لكنني سأمنحك شرف التحدث إليك وكأنك رجل» . رفع رأسه وكوَّر قبضته على شكل كرة مسترخية «إذا أخللت بالأمن في هذه السفينة ، فسوف أضطر إلى قتلك . ليست هناك طريقتان للتعامل مع ذلك . سوف أخسر سلطتي على رجالي إذا لم أفعل . إن صديقك سيرجي موجود هنا ليراقب ويحافظ على حمولة والده ، والتي تشكل أنت جزءاً منها ، ولكنني أكثر من واثق أنه سيحصل على متعة منفردة لو أنني أجبرتك على القفز في البحر ، أو فوهة بركان خاصة إذا استخدمنا إحدى أكثر الوسائل إيلاماً مما يتوفر لدينا لأداء المهمة» . رفع القبطان رأسه وتمتم بنعومة «رغم أن والده سوف يغضب لفقدانه شيئاً من حمولته» .
استطرد يقول «الآن ، إذا لم ترغب في السفر نزولاً في ذلك الدرب بشكل خاص ، فأنا سأعرض عليك هذا : اشتغل على هذه السفينة كما يفعل بقية الأولاد وسهِّل الأمر على نفسك . انتهز فرصتك عندما يحين وقت الرسو . نحن ذاهبون جنوباً إلى القسطنطينية بأسرع ما يمكنني أن أنشر الأشرعة ، وأنوي اللحاق بالخنزير الإغريقي الذي اعتدى علينا ليلة ضربك سيرجي . سوف تتم محاسبتهم قبل أن نصل إلى القسطنطينية ،

أنا واثق من ذلك وأنا أرغب في أن تكون إلى جانبي بهذه القبضات والذراعين القويتين لديك» .

توقف مرة أخرى ثم أضاف وهو ينتقي كلماته بعناية «عندما ينتهي الأمر ، سأقدم فيك توصية جيدة . حتى إنني سأعرض شراءك لتنضم إلى طاقم البحارة ، ولكن يجب عليك أن تطيع قواعدي وترد لي الثقة التي أبديتها تجاهك حتى ذلك الحين . هل بإمكانك أن تفعل ذلك؟»

أبقى بيبرس يديه على جانبيه «على شرط واحد» .

اندفع حاجبا القبطان إلى الأعلى وعاد إلى الاستناد بظهره «أوه؟ إنك تبالغ في التهور أيها الشركسي . تبالغ بالنسبة لصبي ليس لديه ما يساوم به ، فيما عدا قيمته في السوق» .

نقر على طاولته بطرف إصبعه الشاهد «حسناً ، أكمل إذاً ، ماذا سيكون شرطك؟»

«أريد أن يترك بيطا لشأنه» .

طأطأ القبطان برأسه موافقاً ثم نقر على الطاولة مرة أخرى «موافق» .

نهض ومشى مقترباً من بيبرس حتى أصبح وجهاهما على مبعدة شبر واحد .

«أنا لا أتفق مع كثير من الوسائل التي يعتبرها البحارة حقاً ورخصة لهم . وتلك هي واحدة منها . إنها خطيئة في حق الرب ولم أعرف بها إلا من لويجي بعد أن دافعت عن صديقك . سيتم تنفيذ ما طلبت ، وهذه كلمتي ، ولكن إذا أثرت المزيد من المتاعب فإن الاغتصاب سيكون أقل همومك ، هل تفهم؟»

ابتلع بيبرس ريقه وهزَّ رأسه .

ردَّ القبطان البادرة وهزَّ رأسه بدوره «حسناً . أنا أحترم الرجل الذي يدافع عن أصدقائه . هذه خصلة جديرة بالإعجاب يا بيبرس ، رغم أنني أحذرك الآن بأنها كثيراً ما تنطوي على متاعب أكثر مما تساوي . في كثير

من الأحيان، سوف تفقد صديقاً بالإضافة إلى خلق عدو جديد لك» .
ميَّل بيبرس رأسه إلى ناحية «لا أعرف ما تقصده» .
ابتسم القبطان وقد ارتسمت الخطوط على وجهه وتحولت تقاسيمه إلى الكآبة ثم الابتسام «أنت بالطبع لا تعرف . أنت صغير السن . إحرص على أن تكبر ولا يتم قتلك من قبل أحد هؤلاء الكلاب» .
أشار القبطان إلى الباب .
«هيا اذهب، عد إلى العمل . لدينا معركة أخرى ينبغي التحضير لها» .
برهن القبطان على أنه رجل يحترم كلمته مرة أخرى : توقف تعذيب بيطا وأحس بيبرس بأنه ملزم بكلمة شرف للحفاظ على نصيبه من الاتفاقية . اتبع أوامر لويجي، وحتى يتجنب الاستفزاز الذي سيدفعه إلى المزيد من الأعمال المتهورة، تجنب عيني سيرجي وتحرشاته وأقوال البحارة الآخرين . . كذلك تجنب ماريو المنحرف، تجنباً لمزيد من الإهانات أو ربما إثارة غضب القبطان .
استمر لويجي في معاملته كالسابق، مع أن لويجي صار يطلق نظرة طويلة باتجاه أي بحار يطلق شتيمة وراء ظهر بيبرس، أو كلما تعمد سيرجي أن يقف في وجه بيبرس . ثم يعود لويجي إلى تنفيذ مهامه .

إنه يعتقد أنني ضعيف

بات بيبرس يتمنى أن يثبت نفسه، لكنه آثر على الإبقاء على الاتفاق الذي أبرمه، وثابر على عمله .
بعد مرور قرابة أسبوع، اتخذ العمل وتيرة متوازنة حتى إن بعض الأولاد أخذوا يطلقون الابتسامات ويتمازحون مع البحارة . كان ذلك أمراً تبعث رؤيته على الاستغراب . وعد بيبرس نفسه بأنه لن يتخلى عن الأمل وينسى نفسه بتلك الطريقة . في الوقت نفسه، بات يتساءل عما إذا

كان بإخراج التفكير بعائلته في الوطن من رأسه ، فهو يسرِّع تحقيق تلك النتيجة بكل الأحوال .

كانت النجمة البراقة الوحيدة بالنسبة إليه في تلك الأيام هي عودة بيطا إلى شيء يشابه الطباع التي كان يمتلكها عند أول لقاء بهما ، ما زال الفتى ظلاً لما كان عليه حتماً قبل أن يؤخذ من العنبر ويعاد إليه ، لكن بيبرس بات سعيداً لأنه عاد إلى التكلم ، على الأقل .

أخذا يبحثان في إمكانيات الأحداث القادمة وهما جالسان على الألواح في العنبر ، بعد أن تغرب الشمس وهما يتساءلان عما إذا كانت حروق الشمس ستشفى على الإطلاق . فقد تكفل الملح الذي يحمله الهواء بتجفيفها أكثر وأصبح العثور على شكل للنوم يمكن احتماله يزداد صعوبة كلما حل وقت النوم .

تململ بيبرس للمرة العاشرة في تلك الليلة ، وحاول أن لا يحك المناطق التي بدأ جلدها يتقشر في أعلى ذراعه .

«هل ما زلنا متوجهين إلى الجنوب يا بيطا؟»

جاء صوت بيطا هادئاً خلال العتمة حين قال «نعم صحيح» .

«هذه السفينة الأخرى متجهة إلى الجنوب هي الأخرى . لقد قال القبطان إنها جنوية» .

«هذا ما قلته أنت» .

عاجله بيبرس بنظرة متفحصة ، لكن كان من المستحيل قراءة التعبير على وجه بيطا في العتمة .

«ماذا تعرف عن هؤلاء الجنويين؟ هل هم محمديون؟ محاربون أشداء؟»

«لقد قرأت أنهم إيطاليون وليسوا محمديين . كل المدن الإيطالية يقاتل بعضها الآخر . البندقية ، ميلانو ، جنوا ، وروما ، حيث يعيش البابا» .

«هل تعتقد أنه يحتمل أن يرسلونا إلى وطننا إذا ذهبنا إليهم؟»

«يحتمل أن لا يفعلوا . إن أي لاتيني يشبه الآخر . إن أية مدينة ستظل تشابه التالية ، والقرصان يظل على الدوام قرصاناً» .

«على الأقل فإن القبطان رجل شريف وصادق» .

انتصب بيطا في جلسته أكثر قليلاً «وكيف تعرف ذلك؟»

تردد بيبرس قبل أن يرد «لقد حافظ على وعده حتى الآن» .

«إنه لم يطلق سراحنا» .

«ذلك لأنه إذا أطلق سراحنا فسوف يتم قتله من قبل والد سيرجي» .

«هل هذا هو ما قاله لك؟»

«من؟ سيرجي أم القبطان؟»

«أقصد القبطان» . احتفظ صوت بيطا بهدوئه ، لكن زحفت إليه نبرة خفيفة من الضيق .

«نعم ، هذا ما قاله . قال إنه يقوم فقط بنقلنا لأجلهم ، وإنه لو أطلق سراحنا ، فإن حياته سوف تهدر حتماً» .

عاد بيطا إلى الاسترخاء وإسناد ظهره قائلاً «لا بأس» .

كان بيبرس على وشك أن يقول المزيد ، لكنه آثر الصمت واضطجع بدوره . ففي نهاية المطاف ، ستكون هناك أوقات أخرى للكلام .

للمرة الأولى في ذلك اليوم ، بدأ يحس ويدرك أن السفينة تحته أخذت تتأرجح ، وصار يسمع أصوات البحر . آخر فكرة خطرت له قبل أن يغفو هي ، رغم أنه يكره كل إنسان على السفينة فيما عدا الأولاد المشعثين الراقدين حواليه ، إلا أن يستمتع بالإحساس بكونه محمولاً على الماء .

الفصل السادس

كما تعلم يا عبد ، فقد تعرفت إلى هؤلاء الفتية . . . ليس بشكل متعمق طبعاً ، لكنهم كانوا يحترمونني وكانوا معجبين بشخصي . . . لكن لم أكن أشعر حيالهم بغير الاحتقار لتساهلهم مع البحارة الكلاب . على الرغم من قسمي للقبطان اللومباردي ، فقد بقيت على استعداد لأن أحزَّ كل عنق فيهم وأعلقهم حتى ينزفوا ، لكن لم يكن ذلك ما خبأه القدر لهم . لا ، لأن ما خططه لهم القدر والإرادة الإلهية كان شيئاً أحلى بكثير .

تمت مشاهدة السفينة الجنوية صباح اليوم التالي بعد مجرد لحظات من مشاهدة المراقبين لليابسة إلى جهة الجنوب للمرة الأولى منذ صعود بيبرس إلى السفينة . انطلقت ضجة هائلة وراقب الأولاد الموجودون في أمكنتهم المعهودة وهم يفركون السطح ، بينما تجمع كامل الطاقم عند المقدمة والجهة اليسرى من السفينة للطرق على الجوانب وإطلاق صرخات التحدي والاستفزاز .

قال بيطا وهو يراقب «لابد وأنهم حاولوا أن يجدوا ملاذاً بمحاذاة الشاطئ» .

«هل تعتقد أن هذا الوضع سيتيح لنا فرصة لننفذ خطة هروبنا؟»

بدا على بيطا أنه يأخذه على قدر أكبر من الجدية حينما يتطرق إلى ذلك الموضوع ، ولكن حتى مع رغبته الأشد لأن يبتعد عن السفينة قدر الإمكان ، إلا أن المنطق لم يتخلَّ عنه .

«وماذا نفعل يا بيبرس؟ هل نسبح باتجاه الشاطئ وسط معركة

محتدمة ثم نمشي حتى نبلغ الوطن ، ملتفين عن البحر وعابرين الجبال؟ سيتم استعبادنا قبل حتى أن نتحرك مبتعدين عن الشاطئ» .

استمر البحارة في تحدياتهم . الواضح أنهم كانوا متلهفين للقتال مرة أخرى . راقب بيبرس وهو يتساءل مستغرباً .

سأل «ألا توجد بالتأكيد أية فرصة لنا بطريقة ما؟»

قال بيطا «ربما توجد لدينا فرصة لكي نموت بأسرع مما كنا سنموت خلافاً لهذا» .

حاول بيبرس أن يبتلع الغضب والضيق اللذين جلبتهما قدرية صديقه «لا تتكلم بهذه الطريقة يا بيطا . سوف ننجو بأرواحنا ونعود إلى الوطن» .

ترك بيطا الاسفنجة ونظر ملياً إلى الفتى الأصغر سناً منه «من أين تأتي بكل إيمانك يا بيبرس القادم من الشابسوغ؟ لا شك في أنك ترى أن كل الآلهة الموجودة قد تخلت عنا» .

أحسّ بيبرس أن شيئاً ما قد انكسر قليلاً في داخله فعلاً ، لكنه رفض أن يظهره .

«سوف ننجو يا بيطا صدقني . سننجو» . وبدأ ينظف بعنف . وبعد هنيهة لحقه بيطا . عملا طيلة النهار على طول سطح السفينة ، وأثناء عملهما ، أخذا يوقتان الوتيرة مع الأمواج وتشجيع البحارة كلما اقتربت السفينة من فريستها أكثر . عندما بلغت الشمس السمت واعتقد بيبرس أنه على وشك أن يغمى عليه بسبب الحرارة واحتراق جلده ، نزل القبطان من قمرته إلى الجسر وصرخ بأوامره . ترك الرجال لعبتهم على الحافة وعادوا إلى واجباتهم . خطرت لبيبرس فكرة مفاجئة . وجه سؤاله إلى بيطا

«لماذا مازالت صفوف المجاذيف فارغة؟ . ألن يكون الوضع أفضل لو كانوا يجذفون إلى جانب الشراع؟» .

أشار برأسه إلى صفوف المجاذيف المهجورة على الجانبين .

لاحق بيطا عينيه «ربما هو يرغب في المحافظة على قوى الرجال ، أو

الأكثر احتمالاً ، فإن المجاذيف ذات فائدة قليلة مع هذه الأمواج العالية» .
نظر بيطا حوله ماسحاً السطح والرجال الذين انصرفوا إلى واجباتهم بعينيه ، بلمحة تكاد تكون غير مهتمة ، وكأنهم على وشك القيام برحلة نزهة يومية . «أراهن ، بناءً على ما قلته لي وما رأيته من تصرفات القبطان بأن أسلوبه هو جعل الريح تقوم بمهمة اللحاق بالسفينة ثم ترك الرجال يقومون بالقتال . آمل أن يقتلوا عن آخرهم» . أنهى مقولته بهمسة وهو يعود إلى الركوع للتنظيف مرة أخرى .

نظر إليه بيبرس لوهلة ثم عاد إلى العمل ، حتى لا يعاقبه أي من البحارة المراقبين .

وقف القبطان للحظة في البقعة نفسها التي كان رجاله قد اجتمعوا فيها ، وراقب السفينة المعادية وقد كوَّر قبضتيه عند ردفيه . . تساءل بيبرس عما يدور في ذهنه عند تلك اللحظة .

هل هو يحلم بأن أعداءه قد هبت فيهم النيران وأن سفينتهم تتهاوى تحتهم؟ أم أنه ببساطة يستجمع قواه للصراع القادم؟

لقد كانت سفينتهم قد اصطدمت بهذه السفينة من قبل وانتهى بها اللقاء بأنف مدماة . لقد اضطروا إلى جعل أسراهم يعملون كأجراء على السطح . فما هي إمكانية أنهم سيخرجون من هذا الصدام بشكل أفضل؟

إن البحارة بحالة مرح ، وكأنهم يرحبون بالقتال . لابد من وجود ثروة هائلة من الغنائم على تلك السفينة . ثروة أكبر من القيمة الموجودة فينا نحن الصبية العبيد . . . لا يذهب الرجال بمحض إرادتهم إلى الموت إلا إذا كان هناك نوع من الفائدة لهم . . . ما الذي سأفعله إذا أعطيت الفرصة؟

سخر بيطا من هذه الفكرة القائلة بأن بحارة السفينة الأخرى سوف يستمعون إلى قصتهم ثم يتركونهم لحال سبيلهم .

فإذاً، ماذا؟ هل أجلس بلا حراك وأنتظر القدر حتى يسلمني إلى مصيري؟

لابد من وجود شيء يفعله ليحسِّن من وضعه في العاصفة القادمة. لحظتها، ظهر سيرجي خارجاً من الفتحة السفلية، وكأنه قد اشتم الصدأ الشائع في الهواء، وتمشى ماراً بالأولاد الأسرى بمشية عدم الاهتمام المصطنعة نفسها الشبيهة بمشية الحمار التي يفعلها دائماً.

ها هي... ها هي فرصتي.. إذا لم أفعل شيئاً آخر في هذه المعركة، فسوف أقتل ذلك الفتى الروسي، ولكن ليس قبل أن أجبره على أن يخبرني بمكان وجود دانا...

قرر بيبرس هذا القسم لنفسه واشتعل بعزيمة متجددة، وقد تركز عقله على ذلك الهدف الوحيد.

انقضى النهار ولاحظ بيبرس أن أصوات الرجال تعالت ومالت إلى الضجيج. بدأ المزيد منهم يتمشون على السطح باتجاه المؤخرة، حيث جلسوا على الحاجز وأفرغوا أحشاءهم، منزلين سراويلهم عند ركبهم، حتى يحتفظوا بتوازنهم مع ضربات الموج. كانت هذه عملية ما زال بيبرس يعاني معها، حتى إنه حصلت له حادثتان سيئتا الحظ منذ بداية أسره، لكن كلاب البحر من بحارة القبطان لم تكن لديهم مثل هذه الهموم. استمروا في الضحك وإطلاق النكات حتى عندما تعلقوا بالحاجز بيد واحدة ومسحوا مؤخراتهم بالأخرى. ألقيت قطعة الحبل القنب المتسخة في البحر وعاد الرجال إلى العمل وهم يمسحون أيديهم على قمصانهم أو ستراتهم الطويلة الخالية من الأكمام.

لاحظ بيبرس أن المراقبين على مجموعة عملهم، وهما مراهقان أكبر قليلاً من الأولاد أنفسهم، كانا يراقبان الأفق وقد أدارا ظهريهما إلى المجموعة، لذلك رفع بيبرس قامته وتجرأ على إلقاء نظرة بنفسه.

كانت السفينة التي شاهدها شراعية بمجاذيف بطراز وحجم الروزا

نفسها ، والتي يبحر عليها حالياً . ظهر وكأن هذه السفينة العدوة المطلية بالسخام الأسود كلها وأن الشراع الذي تنشره أبيض متسخ ، عليه شعار عبارة عن صليب أحمر . لاحظ بيبرس للمرة الأولى أن السفينة التي تحت قدميه لا تحمل مثل تلك العلامات ، ولا حتى علماً معلقاً في الصاري . ربما كان هناك جالب للحظ في المقدمة ، محفور في الخشب ، لكنه لم يكن قد وصل إلى ذلك الارتفاع حتى يتأكد بنفسه .

فيما عدا الألوان ، لم يكن هناك ما يمكن تمييزه بين السفينتين . كانت السفينة الجنوية ، إذا كان هذا هو منشأها فعلاً ، تبحر إلى اليسار قليلاً من مجال رؤية بيبرس ، فلاحظ ما بدا له مثل طقم مجاذيف مطابق تماماً على جانبها الأيسر . فإذا كانت قد تلقت خسائر مماثلة في الاشتباك الأخير وإذا تعادلت أعداد بحارتيهما ، فإن هذا سيكون قتالاً صعباً .

خفض بيبرس قامته وعاد إلى تفحص الطاقم .

الى أي درجة هم واثقون ، حقيقة؟ لقد راقبوا بينما انفتحت أجسام نصف رفاقهم واخترقتهم السهام قبل مجرد أيام قليلة ، فإلى أي درجة هم متشوقون لوضع أنفسهم أمام خطر إطلاق النيران مرة أخرى؟

راقب بيبرس مجموعة صغيرة أخرى تسير نازلة إلى السطح الخلفي . سحرته الفكرة .

ما هو السبب الذي يجعل الرجل يقاتل؟

لحظتها ، جاءه الرد وهو ينظف بطريقة نمطية .

سيقاتل الرجال لأسباب عديدة . يقاتل البعض للدين والآخرون للذهب . يقاتل معظمهم لحماية عائلاتهم وبيوتهم . بعض الرجال ، مثل الكثير من هؤلاء الذين أمامي ، يقاتلون ببساطة لأنهم يحبون القتال . لكن الدافع الأكبر الذي يجبر الرجل على أن يحمل سيفاً أو سلاحاً في يده هو أنه لا يريد أن يتم قتله هو نفسه . هذا هو السبب في أن هؤلاء الكلاب سيقاتلون عندما يحين الوقت ، لأن خيارهم هو النصر أو

الموت ، وليست هناك أية طريقة أخرى .

أجال نظرة سريعة في السطح مرة أخرى ، وبدا له المكان أصغر بكثير وأكثر تحديداً . قال «ليس لديهم أي مكان يهربون إليه حتماً» .

سأل بيطا «ماذا؟» وهو ينظر إليه مستغرباً .

أدرك بيبرس أنه تكلم بدون أن يفكر . ألقى نظرة باتجاه بيطا ثم عاد إلى تنظيف السطح . قال «لاشيء» .

راقبه بيطا للحظة أخرى ثم عاد بدوره إلى العمل ، لكن حديثهما انكشف . مشى أحد البحارة الموكلين بمراقبتهما ، وهو فتى ضخم الجثة ، عليه مخايل الغباء وبعض الشعر على شفته وذقنه ، نحو بيبرس بخيلاء وصفع بيبرس على مؤخرة رأسه «الكلام ممنوع ، يا صاحب الرأس الخرائي!»

طارت عينا بيبرس لتراقب عينيه ، وارتبك الصبي الأكبر سناً للحظة من الغضب الذي رآه هناك . استجمع شجاعته وأطلق ابتسامة واهنة ، كشفت عن أسنان مصفرة عوجاء أثناء الابتسام .

«المثير للمشاكل . هل لديك شيء تريد قوله أيها الشركسي؟» عاد بنظره إلى أصدقائه الذين يراقبونه ثم عاد إلى بيبرس «هل هكذا تنظرون إلى الأغنام في بلدك؟ ربما ليس هناك فارق كبير بين الأغنام والنساء بكل الأحوال ، أليس كذلك؟»

ابتلع بيبرس ريقه وزمَّ شفتيه لشدة مرارة محاولة كتم غيظه ، لكنه نفض رأسه وعاد إلى التنظيف والفرك .

راقبه الفتى للحظة ، ثم رفع أسفل قدمه ودفعه .

«لا تتجاهلني أيها الوغد الصغير! أجبني!» .

صاح أحد البحارة الآخرين مشجعاً «قل له يا أدريانو! لا تسمح له بالتواقح معك» .

وضحك الجميع .

كان بيبرس قد وقع على بيطا ، فساعده الصبي الأصغر جسماً حتى

يعيد نفسه إلى وضع الركوع . أبرز أدريانو ذقنه المليئة بالوبر تجاهه . «أهذا هو صديقك المقرب يا شركسي؟ إيه؟ هل تتعانقان سوية في الليل؟ لقد سمعت أنه يحب ذلك» .

نظر بيبرس إلى بيطا ثم إلى الصبي ، لكنه لم يفعل أي شيء . أدرك أدريانو أنه لن يحصل على أي رد فعل ، وبدأ يشعر بالحماقة وهو واقف هناك وليس لديه ما يفعله . راقبه الآخرون بابتسامات هازئة . استدار لويجي من عند الحاجز ونظر إليه هو الآخر ، فانتهز أدريانو الفرصة لينسحب باتجاه المراقب الآخر ويعقد ذراعيه على صدره محنقاً . استمر بيبرس وبيطا في العمل بصمت ، راقبهما لويجي لوهلة ثم استدار ليراقب الأفق حيث أصبحت السفينة العدوة أقرب بلا شك . لن يطول الأمر الآن .

بذل بيبرس أقصى جهوده ليتجاهل كل الأنشطة القائمة على السطح لأطول مدة يقدر عليها بعد مشكلته مع أدريانو ، لكن أصبح الأمر صعباً عليه بعد أن خرج القبطان وبدأ يزأر بأوامره ويدفع بالرجال إلى مواقعهم . أخذت صناديق ضخمة موصدة بالأقفال تظهر على السطح ، وبعد إيماءة من رأس القبطان ، بدأ لويجي يفتحها واحداً بعد الآخر ، بعدها بدأ البحارة الأكبر سناً يوزعون السيوف والقطالس وهي سيوف قصيرة ثقيلة على كل الرجال .

اكفهر الجو فجأة بلا إنذار ، وأظلمت الدنيا ثم شعر بيبرس بأولى قطرات المطر تتنزل . فقد ادريانو ورفيقه كل اهتمام بالأولاد في هذه الآونة وأخذا يوازنان السلاح في أيديهما برضى ظاهر . رفع بيبرس رأسه باتجاه السماء التي يزداد ظلامها بتسارع . أنهى لويجي مهامه كأمين للإمدادات ونزل في هذه اللحظة إلى حيث كانوا ينهون عملهم على السطح ، وهو يزأر بالأوامر ويشير إلى صفوف المجاذيف .

إذاً سيبقوننا على السطح في هذه المرة

نهض بيبرس وألقى باسفنجته في الدلو الجماعي إلى جانب الآخرين ثم هرول باتجاه المقاعد . جلس إلى جانب بيطا وصبي آخر ، مصراً على أن يجلس في الطرف الخارجي . تلاشى كل أمل لديه في الإمساك بسلاح منفلت أثناء العراك ، حينما أحسَّ بسحبة على بنطاله المهترئ ونظر إلى الأسفل ليرى أدريانو وهو يربط قدمه بقيد . ألقى إليهم بابتسامة متعالية ثم تحرك نحو الأولاد في الصف التالي .

قال وهو يربت على خد بيبرس «جذفوا بقوة الآن أيها الفتيان» . كانت العصا التي حملها سابقاً داخلة في حزامه ، على ما لاحظه بيبرس ، بينما احتفظ بالسيف المعقوف على الناحية الأخرى .

سأل بيطا «كيف سنجذف؟ لم نحصل على أي تدريب» .

نفض بيبرس كتفيه «أعتقد أنهم لن يقلقوا كثيراً على قدراتنا في المناورة طالما نقدر على إيصال السفينة إلى جانب الأخرى» .

لم يقتنع بيطا واستمر يحدق في الجذاف السميك أمامه . إنه يمتد لخمس أو ست أقدام أمامهم ، حسب تقدير بيبرس ، مع وجود مقابض محفورة على الجوانب حتى يمسكوها بأيديهم .

قال بيبرس وهو يفكر بصوت عالٍ «الأمر الذي ينبغي عليك أن تفكر فيه بجدية هو هذه» . رفع قدمه اليمنى وهزَّ القيد والسلسلة . «ماذا يحدث لنا إذا غرقت السفينة؟»

نظر بيطا إلى كاحل بيبرس ثم عاد للنظر إلى الجذاف . ما زال وجهه محمراً من سفع الشمس ، لكن عينيه أصبحتا خاويتين لشدة الذعر . انفجر الرعد عالياً فوق رؤوسهم مباشرة وكأنه يتعاطف معهم ، ثم انهمر المطر بشدة . لقد أبحروا مباشرة إلى وسط العاصفة فانتهز بيبرس لحظة ليستند إلى الخلف ويستمتع بالقطرات الباردة على جلده المحترق ويديه المتقرحتين . فتح فمه وشرب أول جرعة ماء نظيف منذ غادر مطبخ والدته قبل حياة أخرى كاملة .

خفض بصره بعد أن ارتوى ثم نظر إلى الأمام مباشرة قائلاً «هيا نفعل هذا» .

فوجئ بيطا ونظر إليه . اكتسب وجه بيبرس لمحة لم يكن قد رآها هو من قبل ، وبدا كأن البياض على قزحية عينه يومض وينبض .

جاء لويجي من جهة المقدمة وهو يصرخ عليهم بالأوامر بلغته الغريبة ، لكن المغزى كان واضحاً للجميع «جذفوا!»

أمسكوا بالمجاذيف بعصبية وبدأوا يسحبون الأعمدة الخشبية الطويلة بحذر إلى الوراء . تطلب إيصال المجذاف إلى صدورهم كمية هائلة من الجهد ، حتى بوجود ثلاثة أولاد على كل مقعد . شاهد بيبرس أن المجذفين على الجانب الآخر من السفينة يعانون من المشاكل نفسها بالضبط . لم يكن هناك إيقاع منتظم لعملهم وكانوا يعانون بالطريقة نفسها في العودة إلى موضوع بدايتهم كما يتصعبون من الحركة الخلفية .

تزايد هياج لويجي تدريجياً في هذه اللحظات ، يصرخ بأصوات أعلى مما شهده بيبرس حينما أخرجوا إلى السطح في أعقاب المعركة الأولى . حصل الإيطالي على انتباه جميع الأولاد ، وهو مقرفص كأنه يزور السطح الخلفي وهازئاً بحركات التجذيف ، ويريهم كيف يجب عليهم أن يرفعوا المجاذيف وهم يدفعون إلى الأمام ثم يحفرون عميقاً لدى إرجاعهم ، ظل يصرخ عليهم بلغة اللومبارد التي لا يفهمها أي منهم ، لكن تعابيره المتجهمة الجدية ومظهره الغارق بماء المطر جاء مضحكاً لهم بشدة على حين غرة .

بدأ أحد الصبية يضحك منه ثم آخر ، إلى أن أصبح صفا المجذفين يطلقون الصيحات الضاحكة بأعلى أصواتهم ، بمن فيهم بيبرس وبيطا .

اكفهر تعبير وجه لويجي وزاد قتامة عما هو عادي ، بحيث أصبح لونه أقرب إلى الأرجواني ، فقام وبدأ يصفع الأولاد الجالسين في الأطراف على قفا رؤوسهم .

أصلحوا من أوضاعهم وبدأوا يحاولون التجذيف بانتظام كما أمرهم ، مثل طلبة أشقياء . صاح بهم «سيمول! سيمول!» وهو يلف يده بدائرة حتى يؤكد على قوله .

بدأوا مرة أخرى ، وبدا لوهلة أن الأولاد يحركون المجاذيف جيئة وذهاباً بلا فاعلية ، ولكن مع المزيد من الإشارات والصرخات المشحونة بالعواطف من قبل لويجي ، أخذوا يتفهمون كيفية توقيت حركاتهم بحيث تتوافق مع حركة الأمواج .

اقتنع بيبرس بأنهم على الأقل يساعدون في دفع السفينة إلى الأمام . ولكنه ظل ممتناً بكل الأحوال لوجود الريح التي تدفع الشراع فوق رؤوسهم .

لم تهدأ العاصفة المطرية واستمرت القطرات الباردة تنزل على وجهه وهو ينظر إلى الأمام ، لكنه أبقى عيناً واحدة على الطاقم المحيط به .

وقف القبطان على طرف مقدمة السفينة ، ممسكاً بشبكة لتحفظ توازنه ، بينما تسمرت عيناه على فريسته .

إنه يريد تلك السفينة

أدرك بيبرس لسبب مجنون آخر ، أنه يريد أن يستولي عليها هو أيضاً . لم يكن يعرف السبب ، لكن دماؤه كانت تضخ بقوة ، ولم يكن قد أحسّ بهذه الدرجة من التركيز منذ أن كان يصارع ويلعب لعبة القتال مع الأولاد في قريته . ألفى نفسه يتساءل ما إذا كان سيعطى سيفاً قبل مهاجمة السطح المعادي ، لكنه أوقف تساؤلاته مرة أخرى .

هؤلاء هم الأعداء . . . هنا . . . سيرجي ، أدريانو ، وكلب البحر ذلك المدعو لويجي . . حتى القبطان .

ثم تذكر وعده للقبطان . فقد قال الرجل إنه سيعتمد على شرفه ، وذلك شيء تعلم بيبرس أنه أكثر قيمة من الذهب .

إنه يعرف أنني شركسي . . . فتى من الشابسوغ

لن يجلب العار لأمته . انهمر المطر مثل ضربات السياط على وجهه ،

بارداً وقارصاً ، مثل دبابيس صغيرة ، ما اضطره إلى التصريك بأسنانه وإدامة الترميش لإبعاد الماء عن عينيه .

ظهر أدريانو إلى جانبهم الآن ، وهو يصرخ فيهم بأن يسرعوا أكثر «ڤيلوتشي! ڤيلوتشي!» بدأ لويجي يتمشى مسرعاً جيئة وذهاباً للتأكيد على أنهم فهموا قصده ، يطرقع بسوط طويل لابد وأنه أحضره بعد ضحكهم عليه . ابتعد الأولاد على الجهتين لدى سماع الضربات الأولى حين بدا وكأن السوط يضرب أرضية السطح بعنف ، ثم ضاعفوا جهودهم لئلا يقرر لويجي أن يستخدم الأداة على ظهورهم ، أو الأسوأ ، يناوله إلى أدريانو .

تمشى الفتى الأصغر سناً مع رفيقه على طول الصف حاملين عصيهما الغليظة ، إما يشيران بها على سجين معين أو يدقان بها على كفيهما مهددين .

لم يحمل بيبرس سوى الاحتقار لضعفهما ، لكنه بات يتفهم ويتذكر ما هو ضروري لجعل الرجال يعملون في الظروف القاسية . فهم بحاجة إلى بعض الدفع ، كما هو حال الثيران .

لم تكن لديه فكرة عن مدى قرب أو بعد السفينة المعادية من موقعه ، وظل يتساءل ما إذا كان القبطان وطاقمه يعرفون ذلك . فقد نزلت الغيوم والعاصفة المطرية واستقرت على انخفاض شديد ، بحيث داهمهم إحساس بأنهم بلغوا السفينة ويكادون يلمسونها . كان الجو معتماً ، منذراً بالخطر وخانقاً ، تماماً كما يذكر المعركة السابقة .

استدار القبطان من موقعه عند المقدمة وصاح بالأوامر . تجمع بعض الرجال على الفور خلف السطح الرئيس ، ذهبوا إلى الصاري وتناولوا أسلحتهم من مجموعة الأقواس الموجودة هناك . بدأوا يتخذون مواقع السطوح الأعلى بدون أن يتكلموا أو يتلقوا أية أوامر ، حتى إن بعضهم تسلق الشباك والصاري نفسه .

راقبهم بيبرس للحظات . تحمس لأن يرافقهم هناك ، ينتظر وصول

العدو إلى مدى الرماية حتى يتمكن من إطلاق صلية من السهام من موقعه ويصيب أي شخص يعجبه . جلس البحارة أنفسهم على ذراع تطويل الشراع وربطوا أنفسهم إلى الشباك بطريقة ما ، يثبتون على موقعهم اتقاء حركة الأمواج بيد ، واليد الأخرى ممسكة بالأقواس المجهزة بالسهام . أبقوا أعينهم على العدو أمامهم ، أسوة بالقبطان ، وقد اكتسبت وجوههم لمحة محايدة ، وقد نسوا كل الإثارة والتشنجات السابقة .

تمنى بيبرس لو أنه يعرف أين هي السفينة الأخرى ، لكنه عرف أنها لا يمكن أن تكون بعيدة .

ولكن ماذا يهمك بكل الأحوال أيها الصبي القروي؟ . . . أنت مقيد إلى السطح . . .

استمر في مراقبة السطح مع استمراره بالتجذيف وحفظ التوقيت مع الآخرين . لم تكن هناك أية صرخات الآن ، فيما عدا الصرخة العادية من قبل لويجي أو أدريانو عليهم لتسريع عملهم . كل رجل موجود في موقعه ، وبدا أن الأمر لن يطول الآن .

ثم ، وبدون سابق إنذار ، شاهد القبطان ما كان بحاجة إلى رؤيته واستدار ، وأخذ يجري على طول السطح ، ثم على الجسر المرفوع . برغم المطر والأمواج ، ران صمت تام على السفينة ، بحيث أصبح يمكن سماع طرقعة كعبي حذائه الراقي على الألواح الخشبية . انتظر بيبرس لحظة ليسمح له بالمرور ثم خاطر بإطلاق نظرة من فوق كتفه ليرى ما يفعله الرجل .

على المقدمة ، كان أحد البحارة يتولى إدارة الدفة ، لكن القبطان أخذ مكانه وأدار العجلة بدون سابق إنذار بقوة إلى اليسار بلفة شديدة . انفتح كفاه أثناء دوران العجلة واستعد لإيقافها مرة أخرى بمجرد أن تصل الدفة إلى النقطة التي يريدها . أحسَّ بيبرس بالسفينة تميل إلى اليسار تحتهم مع حدوث ارتباك في معدته . أحسَّ بالعصيدة الخفيفة التي أُطعِموها في

ذلك الصباح وكأنها تغلي . أشار لويجي إلى وجوب توقف بيبرس وكل الآخرين على الجهة اليمنى عن التجذيف بينما تستدير السفينة ، وقد تحول صراخه عليهم أمراً أشبه بالطبيعي بالنسبة إليهم .

رفع يده اليمنى بكفه إلى الأسفل نحوهم ، وراقب بيبرس تحركها البطيء صعوداً ونزولاً ، وكأنه يعدد النغمات لأغنية ما .

وقف لويجي على هذه الشاكلة مديراً ظهره لهم ، بينما يتطاول رأسه فوق الأفق حيث أدرك بيبرس أن السفينة المعادية موجودة حتماً .

هل نحن قريبون؟ لابد وأننا . . .

شاهد لويجي في هذه اللحظة ما كان يبحث عنه فطوى ركبتيه ، ولفّ يده في دائرة مرة أخرى مشيراً عليهم بالتحرك . بدأوا يجذفون مرة أخرى ، بعد أن استغرقهم العثور على الإيقاع دقيقة ، خافضين المجاذيف كلما صعدت السفينة ظهر موجة هائلة ثم مستريحين على الإيقاع الفارغ عند نزولها .

سحب لويجي سيفه من حزامه وكذلك استعد بقية الرجال .

بدأ القبطان يردد صرخاته من الخلف «أورا! أورا! أورا!» مخاطباً ومشجعاً الذين يحتلون الأشرعة والصواري .

نظر بيبرس خلفه مرة أخرى ولاحق اتجاه ذراع القبطان الممدودة إلى فوق لدى قمة الصاري ، حيث قام جميع الرجال الموجودين هناك بإطلاق سهامهم من الأقواس . تابعت عيناه مسار السهام لتستقر عليها هناك .

دفعته صدمة رهيبة مع صوت تحطم عبر المقعد نحو بيطا ثم الصبي الذي بعده . اهتزت السفينة كلها .

ظهرت السفينة العدوة من العدم بحيث إنها بدت الآن قريبة إلى درجة أن السفينتين أصبحتا جنباً إلى جنب . حتى من مكان جلوسه ، أصبح بإمكان بيبرس أن يشاهد الرجال على السطح الآخر يعيدون النظر إليه ، وتوفر لديه الوقت فقط ليرفع عينيه نحو الشراع قبل أن يعمد بحارتها

إلى إطلاق صلية مقابلة بدورهم .

هطلت السهام مثل المطر على السطح وسقط الرجال في كل مكان من حوله .

حتى الصبية الجالسين على المقاعد انبطحوا بأفضل ما يمكنهم واختبأوا تحت مقاعدهم . بقي بيبرس جالساً حيث هو . بدأ كل شيء يتحرك بمنتهى البطء . نظر إلى بيطا المختبئ تحته واضعاً يديه فوق رأسه ثم أعاد النظر إلى السفينة المعادية . تفحص تفاصيل الهيكل . لم يكن اللون الأسود الذي لاحظه سابقاً ناتجاً عن الطلاء كما فكّر ، بل هو مادة سميكة شبيهة بالسخام ، مطلية فوق كل الأخشاب . شاهد الأحرف المحفورة وسطها «مارينا» .

«انخفض! انخفض!»

نظر بيبرس إلى بيطا الذي كان يحدق فيه من تحت يديه .

صاح فيه مجدداً «انزل وإلا فسوف تقتل!» .

بدت كلماته وكأنها تخرج بيبرس من حالة سهوم سقط فيها حينما بدأت المعركة . لأنه نظر في هذه اللحظة مرة أخرى ليرى المعركة تتحرك بسرعة لدرجة أنه لم يعد يدرك تفاصيلها .

كان الرجال الموجودين على الحبال والأشرعة لكلتا السفينتين يطلقون السهام على بعضهما بعضاً بدون أي ترتيب . بات الهواء منقطاً باللمعان الأسود للسهام الطائرة .

سقط معظم السهام على السطح ، بينما طارت الأخرى عبر الهواء لتسقط في البحر خلف السفينة بدون أن تسبب أي ضرر . أدرك بيبرس أن الأمواج تجعل من التسديد عملية صعبة جداً ، خاصة بوجود الرجال جالسين على عمود الإطالة وداخل الشباك .

تحتهم ، كان الاصطدام الجانبي قد تسبب بسقوط معظم البحارة في المارينا ، لكنهم أسرعوا إلى إعادة النهوض ، وبدأوا الآن في التحشد على

الحواجز ، وهم يلقون بتشكيلة من الرماح والحجارة والسيوف ، ويمدون أنفسهم في محاولة لجرح وطعن أعدائهم عن بعد أثناء مرور السفينة واقترابها . وصل الموقف إلى الجمود للحظات لأن أياً من السفينتين لم تتمكن من المناورة مبتعدة عن الأخرى ، ولم يخاطر أي من بحارتيهما بالعبور إلى الأخرى . راقب بيبرس بحاراً يافعاً من المارينا وقد تمكن من إلقاء نفسه عن الحاجز إلى سطحهم ، لكنه تم تقطيعه إلى أشلاء قبل أن يتمكن من مجرد رفع سيفه . تركت جثته الحزينة المشوهة ملقاة حيث سقط واستمر القتال .

انزلقت أقدام الرجال الحافية فوق خليط من ماء المطر ودمائه الآخذة في الانتشار .

صدر المزيد من الصرخات والزعيق من كل ناحية ، بينما أطلق الرجال المقاتلون الشتائم والسخرية والتهديدات على الحاجز الآخر بلغاتهم المتنوعة ، وخلفهم أخذ الذين أصيبوا بالسهام أو القذائف الأخرى يئنون ويصرخون معلنين عذابهم .

ركع بيبرس ببطء على ركبة واحدة ، وقد أدار ظهره إلى بيطا ومدَّ قدمه اليسرى غير المقيدة أمامه . لم يغطِّ رأسه ، بل أبقى جسمه منخفضاً بين مقعدي التجذيف ، واحتمى كلما وصل أي تهديد قريباً منه .

أخذ دمه يسري بضغط لم يعهده من قبل ، وللغرابة ، لم يكن قد أحسَّ بمثل هذه الراحة . لم يزعجه أي شيء مما يدور حوله . لا ذبح الفتى الأحمق ولا حتى سهم الحربون الناتئ من صدر البحار الملقى على بعد خمس أقدام منه .

بات على ثقة من أنه سينجو من هذه المعركة .

كان كل من لويجي وزدريانو عند الحاجز في هذه اللحظة ، وقد نسيا أمر الأولاد المقيدين بأمان إلى المجاذيف مرة أخرى . نظر بيبرس إلى القيد الملتف بإحكام حول كاحله وإلى قدمه الكبيرة التي يزداد نمو الشعر عليها

تحت الكاحل . لن يتمكن من تحرير نفسه بدون مفتاح ، بدون المفتاح الذي يحمله لويجي الآن على حزامه . . . .

خطرت بباله فكرة فأخذ يتفحص أقدام الأولاد الآخرين عند المقاعد على الجانبين . هناك ، إلى يساره ، كمن الجواب والحل . الصبي الصغير الذي شاهده في أيامه الأولى على السفينة - صاحب الوجه المليء بالجروح والكدمات من كثرة الصراخ .

شفيت جروحه وكدماته ، لكنه ظل صبياً صغيراً نحيلاً وخائفاً . كانت أطرافه أشبه بالعصي من أي شيء آخر .

قال بيبرس «أنت يا هذا» وهو يمد نفسه ليربت على كتف الصبي «أنت هناك! حرِّك قدمك وأخرجها من القيد!»

رفع الصبي عينيه من تحت يديه وهزَّ رأسه بالرفض .

«افعلها! افعلها الآن!» ناوله بيبرس طرقة أخرى ، أقوى هذه المرة .

ابتعد الصبي خائفاً منه واختبأ تحت مقعد التجذيف . أمسك به بيبرس من بطة ساقه ، وشده إليه من دون أي جهد حقيقي . حاول الصبي أن يركله ليبعده ، لكن كعبه ارتد عن أعضاء وكتلة بيبرس الأضخم بكثير . استطاع بيبرس أن يفك القيد المصمم في الحقيقة لرجل بالغ ، خلال ثانية ، عن قدم الصبي ثم تركه ليسقط .

صاح به «الآن! أنت حر» .

ظهر على الصبي الرعب . رفع بصره إلى بيبرس بعينين جاحظتين ، وهو راقد مرتكزاً على مرفقيه ، وقد سحب ركبتيه نحو جسده . فكر بيبرس للحظة غياب خاطفة أن الصبي يبدو مثل سلطعون خارج الماء .

ومع هذا فهو نحيل جدا

مال بيبرس نحوه وكلمه بصوت خفيض «اذهب الآن إلى هناك» . أشار إلى ظهر لويجي ، «وأحضر المفاتيح!» لكن الصبي ظل ينظر إليه وكأنه مخلوق قد سقط من السماء لتوه .

«المفتاح! حررنا» . أشار بيبرس بإصبعه باتجاه لويجي بقوة .

نظر الصبي إلى ذلك الاتجاه وشكا قائلاً «لا أستطيع ، أرجوك! سوف يقتلونني» .

استمرت السهام في تمشيط السطح وعلا رنين اصطدام المعدن بالمعدن فوق رؤوسهم . صرَّك بيبرس بأسنانه مع تكشيرة غاضبة ورفع قبضته .

«سوف أقتلك إذا لم تذهب»

سقط فك الصبي من الهلع : همَّ بيبرس بلكمه فانتفض الصبي واقفاً على قدميه ليبتعد ، صاح فيه بيبرس «تحرك! الآن!»

نظر الصبي إلى لويجي ثم ألقى بنظرة أخرى على وجه بيبرس الشرس وعينيه اللتين لاترمشان ثم استعد للجري . نظر بيبرس إلى الخلف ليقابل عيني بيطا . راقب كلاهما الصبي أثناء ذهابه ، ينزلق حيناً ويبتعد عن مسار القذائف التي تتساقط حوله حيناً آخر . وقف لويجي عند مؤخرة جمع الرجال ، رافعاً سيفه للأعلى ، لكنه لم يكن يساهم كثيراً في القتال فيما عدا تعليماته إلى أعضاء الطاقم الأصغر سناً . لم يلاحظ أحد وجود الصبي النحيل خلفهم ، يتفحص لثانية طريقة ربط المفتاح بحزام لويجي ، ثم يحله ويسحبه بدون أدنى حركة أو إحساس من ضحيته .

أعجب بيبرس بالعملية . فقد نفذها الصبي بطريقة جعلتها تبدو سهلة .

ولكن عليه أن يعود إلى هنا الآن

قام الصبي بذلك ، وهو يتجنب سقوط سهم محدثاً صوت دبيب على خشبات السطح ، قريباً من قدمه الحافية . قطع المسافة الباقية بما يقارب القفزة إلى حيث جلس بيبرس وبيطا ، ناوله المفتاح ، ثم قفز عائداً إلى حيث اعتقد أنها بقعة الأمان الأصلية له تحت المجذاف .

لم يهتم به بيبرس وهو يدير المفتاح الأكبر داخل ثقب القيد الذي يمسك بقدمه مرة إلى جهة ثم إلى الأخرى . كان خبيراً بالأقفال والحديد

السكب لكونه ابن حداد ، رغم أنه لم تقم حاجة لأشاماز لكي يصنع قيوداً في قريته مطلقاً . أدرك على الفور أن هواء البحر والماء قد أديا إلى صدأ الأجزاء المتحركة . أخرج المفتاح ، استدار ورفع قدمه بأقرب ما يمكنه إلى فمه وبصق داخل ثقب المفتاح . حرَّك قدمه ليتفحص النتيجة ثم بصق عليه مرة أخرى لأجل الحظ ، أعاد وضع قدمه على السطح ، ثم حاول مع المفتاح الوحيد اللائق مرة أخرى ، وكاد أن يصرخ من سعادته حينما أحسَّ بالطقة المرضية لقطع القفل تأخذ مكانها .

سقط القيد منفتحاً عن قدمه وركله بعيداً عنه ، ثم ألقى بالمفاتيح إلى بيطا حتى يقوم بالعمل نفسه .

استمرت المعركة لتبلغ أوجها بدون تأثير ، رغم أنه شعر بالسفينتين تتلاطمان تحت ركبته المحنية . مسح بيبرس سطح السفينة ماريا بسرعة ليرى ما يمكنه تقديره بالنسبة للأعداء .

لم يكن هناك الكثير مما يمكن رؤيته سوى الشراع والصاري وجمع من الرجال يطعنون الرجال المقابلين لهم ويطلقون عليهم السهام .

تركزت عينا بيبرس على القمرة . كان سيرجي واقفاً خلف القبطان وقد أدار ظهره ، لم يخطئه بشعره الأشقر الطويل . ازدرد بيبرس ريقه واستعد . أصابت صخرة مقذوفة من شراع السفينة ماريا أحد البحارة وطرحته على السطح مثل كتلة ميتة .

صاحبت صرخة غضب من الرجال مضاعفة جهودهم للصعود إلى ماريا . رفع بيبرس نظره إلى حيث تجمع طاقم السفينة المعادية متعلقين من الحبال والشبكات ، ينتقون أهدافهم بوتيرة ثابتة .

جذب الهجوم الجديد انتباه القبطان وسيرجي ، فانغمسا في مصير الرجال الآخرين .

اهتبل بيبرس فرصته . صعد مسرعاً غير عابئ ولا مهتم ببيطا والأولاد الآخرين ، وركض نحو الرجل الميت في المقدمة . أمسك بالحربون

الناتئ من صدره وحرره بجذبة قوية . خرج السلاح مع دفقة دماء وصوت شفط مريع وكأن الرجل يجاهد لسحب أنفاسه . لكنه كان مجرد صوت خروج الهواء .

قاوم بيبرس رعشة أصابته وبقي منحنياً ، يمسك بالسلاح بكلتا يديه ، يزحف ويقترب ببطء شديد باتجاه درجات السطح العلوي . كان كل الرجال عند الحاجز البعيد : لم يبق أحد أمامه غير سيرجي .

زمَّ عينيه وصعد الدرجات بقفزة واحدة فأصبح خلفهما مباشرة . كان القبطان متكئاً على الحاجز العلوي . إحدى يديه على عجلة القيادة ، يلوِّح ويشير إلى رجاله بالتحرك إلى الأمام . وقف سيرجي إلى جانبه بملامح تكاد تكون غير مهتمة بما يجري ، يداه ممدودتان إلى جانبيه ، يحمل سيفه باليمنى بارتخاء . بات جلياً أن الفتى ليس له اهتمام في المشاركة بالقتال الدائر على بعد اقدام قليلة تحته ، ولا حتى المنطق الذي يجعله يحترس من القذائف التي مازالت تتطاير وتنهمر عبر الهواء . أو هكذا بدا الوضع .

أجرى بيبرس تلفتاً أخيراً حواليه وتقدم ، خطوة ثم الأخرى . شدد قبضته على الحربون وهو يتسلل من الخلف . باتت رقبة سيرجي على بعد أقدام قليلة واستطاع بيبرس أن يرى عظام العمود الفقري للروسي بين حبلين من العضلات - تخيل لثانية حتى إنه رأى رقة النبض تحت الجلد الزهري الخفيف .

طعنة واحدة قصيرة وستكون تلك هي النهاية - أصبح بوسعه أن يشعر كيف سيتمزق اللحم عندما يسحب الحربون ليعاود طعنه مرة أخرى . . . اقترب أكثر ما أمكنه وشدد قبضته : مستمتعاً باللحظة قبل أن يرفع السلاح .

اندفعت ومضة سوداء آتية من اللامكان إلى يمينه وكبرت بحدة أمامه مثل وطواط عملاق خارج من كهف معتم . اتسعت عينا بيبرس من

الرعب والصدمة فارتد إلى الخلف ودفع بالحربون إلى الأمام بكلتا ذراعيه ، واندفعت العضلات في كتفيه وظهره عاملة على إبقاء الضربة في مكانها . قبل أن يتاح له الوقت ليدرك ما فعله ، كان هناك رجل آخر قادماً من يساره ، مشهراً سيفاً فوق رأسه بكلتا يديه .

سجلت غريزة البقاء لدى بيبرس ما حدث بينما استمرت بقية جسده في التحرك ، فقد اندفع بحاران من الماريا ملقين بنفسيهما عن الحبال واستقرا على الجسر .

سحب بيبرس الحربون من بطن الرجل الأول واتخذ الوضعية التي تعلمها من معلم قريته ، الركبتان منحنيتان قليلاً ، الذراعان مسترخيان لكنهما جاهزان للضرب . جحظت عينا الرجل بوحشية - لابد وأنه فوجئ حيث قفز إلى السطح العلوي نحو حتفه المحقق . واضح أنه يأمل أن ينزل السيف في ضربة قوية واحدة فيخترق جسم بيبرس من الكتف إلى الحوض . انتظر الفتى وسمح له بالاقتراب ، داعياً أن لا يقوم الرجل بحركة مخادعة . زمَّ عينيه مرة أخرى وراقب بداية الضربة : عندما جاءت ، كان مستعداً . تجنب المسار الرئيس للسيف بنقل ثقله إلى قدمه اليسرى . تطوَّح السيف بدون أي أذى في الهواء وأدت حركته غير المدروسة إلى فقدان المهاجم لتوازنه .

رفع بيبرس الحربون بسهولة إلى الرقبة المكشوفة في هذه اللحظة ، وبدفعة صغيرة ، فتح وريد الرجل الوداجي . رش اندفاع الدم كلاً من القبطان وسيرجي ، اللذين بقيا واقفين إلى الخلف ، وفوجئا بموجة الدماء المنطلقة من فوقهما .

راقب بيبرس بينما استدار البحار وهم بمهاجمته مرة أخرى ، غير مدرك أنه في حكم الميت سلفاً .

لكنه تباطأ وتردد مذهولاً . نظر الرجل إلى الأسفل ورأى لباسه المخضب بالأحمر ، والبركة المتوهجة بلون النبيذ تتجمع عند قدميه . استدار

نحو زميله الذي كان قد ركع على ركبتيه ، ممسكاً بمصارينه ، وانفلتت من فمه أنَّة خشنة .

تلك هي الطريقة التي ماتا فيها يا عبد . . . وذلك هو الوقت الذي عرفت فيه . . .

نظر السلطان إليَّ ، وقد بدأت العلامة الموجودة في وسط عينه تومض

«لقد أعجبني ذلك . استمتعت بقتل ذينك المتوحشين» .

انشغل القبطان وسيرجي في النظر إلى الأسفل ، على الحطام الحاصل عند قدميهما من على جسر السفينة روزا . كان صدراهما ووجهاهما غارقة في الدماء الوريدية للرجل الذي انقض نازلاً ليقتلهما ، لكنهما لم يبديا أية حركة تدل على أنهما لاحظا أي شيء .

رفع القبطان نظره إلى وجه بيبرس الذي مازال متوحشاً من الصدمة والغضب ، ثم انتقل بصره تدريجياً نازلاً إلى الحربون بين يدي الفتى . كان سيرجي يحدق فيه بدوره ، وجاء تقييمه لنوايا بيبرس دقيقاً ، رغم أن وجهه عكس الخوف من الشكل المرعب الماثل أمامه .

خلال ثوانٍ معدودات ، نسي بيبرس تدريجياً الرجلين الراقدين أمامه واللذين أنهى حياتهما لتوه ، وقابل تحديق كل من القبطان وسيرجي . فهم مغزى وجود السلاح في يده ، لكنه أحسَّ بشيء من الخفة ، حتى الدوار . أدرك أنه برغم كون الرجلين الواقفين أمامه مسلحين أيضاً ، إلا أنه قادر على قتلهما بدون الحاجة إلى لحظة تفكير . منحته هذه الفكرة إثارة غريبة وشعوراً بالسعادة لم يكن قد اختبرهما من قبل . بدأ قلبه يخفق بحدة وتراخت عضلات كتفيه . ولأول مرة في حياته ، أحسَّ بنبض قوي في منطقة العانة .

هذه هي القوة . . . هذا هو ما أريده



❖ **شهوة الدماء**

أصبح بمقدوره أن يحسّ بطعم الفولاذ في فمه ، وشرب تعابير الرعب على وجهي الرجل والفتى الذي صادر له حياته .

ربما لم تمر سوى ثوان قليلة ، لكنها بدت أطول . عادت إلى القبطان فطنته ورأى ما يفكر فيه بيبرس . فقد أحسَّ بالمشاعر نفسها شخصياً في وقت ما . **كل رجل يحس بذلك بعد أن يقتل ضحيته الأولى** . نظر بيبرس ورأى الذراع التي تحمل سيف القبطان قد بدأت ترتعش فرفع طرف الحربون قليلاً مرة أخرى .

لكنه لم يكن لديه أي اهتمام بقتل القبطان الذي بات واثقاً من قدرة بيبرس على وضع رأس الحربون في رقبة سيرجي ، كما فعل مع المعتدي قبل أن يتمكن أي منهما من فعل أي شيء . فهو يمتلك السرعة والقدرة على الوصول .

سحب ارتجاج عنيف تحت قدميه تلك الأفكار من رأسه ونظر ليرى أن الماريا قد صدمت الروزا . كان مجذفوها يرهقون كل عضلاتهم لتركيز مجاذيفهم على الهيكل ثم ترك الأمواج تضرب السفينة مرة أخرى .

بدورهم ، اندفع بحارة الماريا من فوق الحواجز المتصلة للسفينة وأصبح طاقم الروزا مضطرين للدفاع عن أنفسهم . اندفع بحارة آخرون في إثر البحارين اللذين فشل هجومهما ، مستخدمين الحبال للتأرجح والهبوط وسط المدافعين . وبدأ كل منهم يطوِّح بسيفه القصير في دوائر شرسة مؤذية بمجرد هبوطهم لفتح طريقهم ، وأصيب العديد من المدافعين بجروح في وجوههم وأذرعهم المكشوفة .

خاطر بيبرس بنزع ناظريه عن سيرجي لينظر للحظة إلى القتال الدائر على السطح .

شاهد بحاراً بشعاً عريض المنكبين بشكل خاص ينزل في وسط

المقاعد بالضبط ويقضي على أقرب رجل إليه ، وهو البحار الذي سخر من تنمر أدريانو قبل لحظات .

ركل الشاب سيء الحظ إلى جانب ، وتحرك هذا البحار إلى الأمام ليشتبك مع المدافع الآخر ، لويجي .

صمد الرجل الأكبر سناً وقاتل كما توقع منه بيبرس أن يفعل . هو صامت ، قوي وحاذق ، ولا يضيع أية حركة سدى . بدا أن الرجل الأصغر سناً أكثر نشاطاً ، وأخذ يدفع بالمساعد إلى الوراء ، خطوة بعد خطوة ، باتجاه المقاعد التي اختبأ تحتها الصبية الشراكس . علق أحدهم تحت قدمي القرصان فلوَّح بسيفه بدون اهتمام ، فأصاب الصبي عند حوضه ودفعه متراجعاً تحت المقعد . أصبح لويجي الآن يتراجع ولم يتمكن من الاستفادة من الإلهاء ، وراقب بيبرس الوضع بينما اختبأ الصبي وهو ينزف ويرتعش ، رأى أن المعتدي يقترب بشكل دائري من حيث جلس بيطا في الصف التالي ، مباشرة خلف الصبي الأول وفي طريق النزال الدائر .

نسي بيبرس نيته الأصلية ، واستدار ليندفع نازلاً الدرجات عن السطح العلوي مرة أخرى .

انهمك لويجي في صد الهجمات المطوَّحة ، لكن أصبح واضحاً أن الرجل الأضخم والأكثر قوة قد بدأ يسيطر على المنازلة . كل ضربة صدها لويجي أرجعته إلى الخلف خطوة ولم يعد هناك مجال كثير لتراجعه . . . مع اقتراب بيبرس رأى لويجي يمسك بيطا من قفا رقبته ويدفعه في طريق المهاجم ، ليمنح نفسه مساحة ووقتاً ليعثر على مواطئ لقدميه .

قام المهاجم بركل بيطا ، لكن الشاب كان خائفاً لدرجة أنه تكوم وأغلق عينيه كجثة هامدة ، ولم يتحرك إلى الأمام أو الخلف . غضب المهاجم لرغبته في استئناف قتاله مع لويجي ، فركله مرة أخرى ثم رفع سيفه عالياً فوق رأسه .

رأى بيبرس كيف فتحت له هذه الحركة الجانب الواسع فدفع بالحربون

في المنطقة الطرية بين الأضلاع والحوض . تسنى له الوقت ليقف على قدميه بحدة ويستخدم ذراعيه الاثنتين ، أدار السلاح تحت قفص الأضلاع ورفعه ، وقد تلقى ساقاه وجذعه كل الثقل .

في المقدمة ، راقب لويجي كيف فارقت قدما القرصان أرضية السطح مدهوشاً . ثم قام بيبرس بحمله مثل جرو وسحب الحربون أثناء تحركه . انهار الجسم الذي تراخى وسقط على المقاعد . واصطدم رأسه بزاوية بدرجة مؤلمة ، ولكن الرجل لم يظهر عليه التحرك والنهوض . نظر لويجي في هذه اللحظة إلى بيبرس تماماً كما فعل القبطان وسيرجي قبله ، لكن بيبرس لاحظ أن بإمكانه رؤية شيء يشابه الإعجاب في عيني الرجل الأكبر سناً .

عكس وجهه المليء بالتجاعيد أقل إشارة على الابتسام وقدم لبيبرس هزة رأس صغيرة جداً . أما بيبرس الذي كان يلهث ، فقد رد إليه الابتسامة وهزة الرأس ثم نظر إلى بيطا تحته .

«انزل تحت المقاعد ولا تتحرك» قال بيبرس «يحتمل أن يطعنك أحد البحارة بنفس درجة احتمال إصابتك بسهم» . رفَّت أهداب بيطا وهو مازال يعاني من الصدمة ، ثم زحف على مؤخرته ويديه ليفعل ما أُمر به .

راقبه بيبرس حتى اطمأن بأنه خارج الخطر ثم استدار نحو لويجي . لم يكن بحاجة ليشرح أي شيء للومباردي ، لأنه والقبطان قد قرآ عيني الفتى الشركسي بدرجة جيدة . استدار لويجي ليعود إلى القتال الدائر عند الحاجز ، وقد انضم إليه هذه المرة الصبي الذي مازال ظاهرياً على الأقل ، أسيره .

استند السلطان إلى وسائده وضحك للذكرى .

«آه يا عبد ، لو أنك رأيتني . لقد كان كل الأولاد الآخرين يعملونها في سراويلهم من مجرد فكرة التواجد في المعركة ، وكنت هناك ، أحمل هذا الحربون المضحك في يدي ، مثل صياد حيتان

مجنون ، أقاتل لمصلحة الرجال أنفسهم الذين يحتجزونني كسجين ، هل يمكنك أن تختلق شيئاً كهذا؟ هاها!» .

«هل كان من الغريب أن تقاتل في سبيلهم يا مولاي؟ هل شعرت بأنك لا تنتمي؟»

شرب جرعة ونفض كتفيه «لقد أخبرتك ، كنت قد ذهبت لأقتل سيرجي وبعدها هاجمني رجلان آخران . بعد ذلك فار دمي . ولم أعد في حالة تحتمل ممارسة ألاعيب حول أي مجموعة من الخونة الخنازير مفضلة على الأخرى» . توقف وفكر لحظة «هل تعلم؟ لقد تساءلت مرات عديدة كيف كانت الأمور ستختلف لو أن السفينة الأخرى كسبت المعركة ، لقد كانوا من أهل البندقية ، واكتشفت ذلك لاحقاً بطريقة ما ، ولم يكونوا جنويين مع أن ذلك يمكن أن يكون مجرد إشاعة ، ولو أنهم أخذوني أسيراً ، ليتم بيعي في أسواق القسطنطينية ، وليس حلب كما حصل . لكان الأمر انتهى بي أقاتل إلى جانب اللاتين ، أو أتحلل في منجم قصدير يوناني ما ، تخيل . . .»

حتى في شتاء حياتي الحالي هذا ، لم أكن قد رأيت رجلاً حازماً مثل السلطان بيبرس .

لم يتردد على الإطلاق في أي عمل قام به . أنا لا أقول بأنه لم يندم أبداً ، طبعاً كان لديه ما يندم عليه ، لكنه بمجرد أن قرر اتخاذ مسار معين ، فقد كان بيبرس يلتزم بذلك المسار حتى يحصل على الفوائد منه أو يصبح غير قابل للسير فيه ؛ لأنه مليء بأشواك القتاد . بكلمات أخرى ، حتى النهاية المريرة . لقد أحببته لذلك السبب ، كما فعل كل رجل حقيقي قام على خدمته . لقد اتحد إيمانه والغياب الكلي للغرور في ممارسته اليومية ، وقوة ارادته ، توحد كل ذلك في الهيئة التي تكاد تكون خارقة للطبيعة والتي أكتب هنا لأخبركم عنها .

ذلك هو السبب في أن الاستماع إليه خلال محادثاتنا أواخر الليل

صار ضرباً من الإيحاء . كان وقتها يتحول إلى التأملية بطريقة لم أعرف أنها حصلت مع الآخرين .

كان يتعجب من تقلبات الحظ ، فيما إذا كان سيرجي وأبوه قد أحسنا اليه في نهاية المطاف حين أخذاه من قريته .

قال لي في إحدى الليالي «إنني لأعجب يا عبد ، إذا كان الله قد اختارني منذ البداية لأبلغ رسالته للناس ، لأخلِّص أراضي الإسلام من بلايا اليهود والفرنجة ، لتوحيد الخلافة كما كانت أيام أمجاد خلفاء النبي محمد ، عليه صلوات الله» .

قلت بطريقة متملقة «لقد تم اختيارك لتكون واحداً من أعظم خلفاء النبي ، عليه سلام الله . ليس عندي شكوك حول ذلك يا مولاي» .

قال «إني أعمل على تحقيق مثل ذلك كل يوم» .

حرَّكت ذكريات المعركة الأولى دماءه حين أعادت إليه الاندفاعة الأولى نحو القتل ، لأنه بحلول هذا الوقت كان قد سئم من القتل ، لكنها أيضاً جلبت دفقة من الأسئلة والتساؤلات عما كان يمكن أن يحدث .

سألته «كيف انتهت المعركة يا مولاي؟»

«كما تنتهي أغلبية المعارك . يستسلم جانب إلى الآخر بعد أن يقتل الكثيرون» .

عاد إلى الابتسام قبل أن يستأنف «عندما انضممت إلى لويجي عند الحاجز ، كان يمكن للمعركة أن تذهب في أي من الاتجاهين . فقد كان كل جانب متساوياً مع الآخر بالمقارنة ، رغم أن العدو امتلك مجذفين أفضل ، لذلك منحتهم حيلتهم الصغيرة هذه أفضلية . استمرت السهام وقطع الرصاص تتطاير في الهواء ، ولم تكن لدى أحدنا أية فكرة متى ستصيبه إحداها في عينه . مع وصولي إلى المقدمة ، سقط الغبي أدريانو أمامي ، ليست لدي فكرة عما أصابه ، لكنني اعتبرت سقوطه فألاً حسناً . لم تكن لدي نية في جلب النحس على نفسي ، لذلك خطوت من فوقه وانهمكت

في طعن الجانب الآخر بأداة الصيد التي لدي .

تناولت سيفاً من مكان ما واستعملته أيضاً . كنت بحلول هذا الوقت قد نسيت أمر سيرجي كلياً ، وكنت أستمتع بوقتي إلى درجة أنني لم أنتبه إلى أي شيء على الإطلاق ، فيما عدا طعن قرصان آخر . استمر هذا الأمر لوهلة ، ثم حدث تغيير مفاجئ في الوضع وتحركنا جميعاً إلى الأمام بكتلة واحدة وبدأنا نصعد إلى سفينتهم .

لا أعرف ما الذي تغير ، حتى في يومنا هذا ، ولكننا أصبحنا على سطحهم وهم يهربون منا ، أو يحاولون الهروب على الأقل . أصيبوا بالذعر ودحرناهم . في النهاية وصلت إلى مؤخرة سفينتهم ولم يعد يوجد المزيد منهم أمامي واستدرت فلم أجد أحداً أقاتله .

ركع كل الأحياء على ركبهم رافعين أيديهم في استسلام ، ولم يكن الجرحى ولا الأموات يتحركون بتاتاً . وقفت هناك لألتقط أنفاسي ونظرت إلى يديَّ . تحول الدم عليهما إلى شيء دبق ، مثل المخاط وقد بدأ يجف . صار لونه بنياً وليس أحمر ، وامتلأ الهواء برائحته : نفاذة مثل الحديد المبتل . تلفت حولي وشعرت بالفارق . حتى لو أن القبطان أدار السفينة إلى الخلف وأنزلني خارج منزل والديَّ ، لما عدت إلى ما كنت عليه سابقاً . أعتقد أن والدتي كانت ستخاف مني ، أعتقد ذلك بصدق . لابد وأنني كنت سأبدو لها مثل شيطان» .

لقد شاهدته بعد ما يكفي من المعارك لأعرف أنه لا يبالغ أو يعظِّم من قوته . لقد كان السلطان يتحول إلى وحش أثناء المعارك ، وكان مظهره يشكل مادة الكوابيس التالية .

صعب علي أن أحاول وأتخيل شكل الفتى بيبرس بعد مجرد أيام على انتزاعه من بيته ، بيدين غارقتين في الدماء ملتصقتين بحربون صدئ وسيف معوجّ .

«عندما عثر عليَّ القبطان ، أغدق عليَّ المديح . قال إن عملي كحداد

قد وهبني قوة تفوق قوة البشر . طبعاً لم يكن سيرجي سعيداً بذلك القدر . فأنا بقيت على رغبتي في قتله ، هناك وفي الوقت نفسه» .

«ما الذي حدث بعد ذلك يا مولاي؟»

«تم إلقاء الأموات في البحر ، بمن فيهم الثلاثة الذين قضيت عليهم في سفينتنا ، ثم أعيد تقييدنا إلى المجاذيف مرة أخرى» .

راقبت التحركات جيئة وذهاباً بينما أخذوا الباقين من الطاقم وأنزلوهم إلى حيث احتفظوا بنا في الليلة الفائتة . كانت سفينتهم شبه سليمة لذلك لم يكن هناك سبب للتخلي عنها . قفز بضعة بحارة من الروزا اليها وأعادوا تنظيم كل شيء هناك . أعيدت كل الأشياء إلى أمكنتها تدريجياً ، ثمَّ تكنيس السهام والرصاص عن السطح وخلال ساعة ، ما كنت لتظن أنه حصلت هنا معركة على الإطلاق . لقد كانت العملية تعليمية ومدهشة فعلاً» .

«هل سمحوا لك بالاحتفاظ بالسيف؟»

ضحك بخشونة «طبعاً لا! حدث ذلك عندما امتدحني القبطان على مهاراتي . كنت ما أزال واقفاً هناك على السطح الآخر ، مغطى بالدماء ، ولم يجرؤ أحد على الاقتراب مني . أذكر حتى لويجي المسن ، الذي يبدو وكأنه لا يعرف الخوف أبداً ، ابتعد عني مسافة . ثم ظهر القبطان واقترب مني رويداً رويداً .

قال وكأنه يهدئ حصانا جامحاً «يا بيبرس ، لقد قاتلت بشكل جيد جداً» .

حدقت فيه فاغراً فمي . فتح ذراعيه على اتساعهما وكأنه يرغب في احتضاني ، لكنه في الواقع أراد فقط أن يوضح لي بأنه لا يقصد بي سوءاً .

«دعني آخذ هذين منك الآن يا بيبرس» مدَّ يديه ، بمنتهى البطء وتناول الحربون بلطف ثم حنى ركبته وتناول السيف . تلك هي المرة الوحيدة التي سمحت فيها لنفسي بأن ينتزع مني سلاحي . نظرت في

عينيه ، كان رجلاً وسيماً ، ورأيت الخوف في عينيه للمرة الأولى . يجب أن أعترف بأنني كنت خائفاً أيضاً ، ولو قليلاً» .

قال بعدها «هيًا بنا ، دعنا نعيدك إلى رفاقك» .

تبعته وقد أصابني الذهول وما يقارب فقدان المنطق . أنت تعرف كيف يبدو المرء بعد المعركة ، أليس كذلك ياعبد؟ كيف يحدق في شيء ما على بعد فراسخ؟ تلك كانت حالتي . ومع ذلك ، فقد استقرت عيناي كما أذكر على هيئة شخص واقف عند حاجز الروزا ، سيرجي . كان يراقب بدون أن ترف عينه ، وقد ارتخت ذراعاه بكسل على جانبيه . شاهده القبطان أيضاً ، وبدأ يتكلم بصوت خفيض بما يشبه الهمس .

«اسمع كلماتي : سوف تتم مكافأتك على ما فعلته اليوم يا بيبرس . سوف لا أنسى . لكنه لن ينسى هو الآخر» حرك رأسه باتجاه سيرجي بأقل هزة ممكنة «سوف أحرص وأتأكد من أنك ستعطى موقعاً جيداً» .

سألته «وماذا عن دانا؟»

«من؟»

«صديقتي . لقد أخذوها أيضاً ، حينما أسروني»

«لا أستطيع أن أساعدك في ذلك الأمر يا ولدي . سيرجي ووالده فقط يعرفان ما حصل لها ، ولن يشاركا أحداً في المعلومات بسهولة» .

وصلنا إلى حافة السطح وتسلقت ثم مشيت عائداً إلى المقاعد وجلست . انكمش الأولاد الآخرون بعيداً عني خائفين ، حتى بيطا الذي أنقذته من التقطيع إلى نصفين . اتخذت موقعي وجلست أراقبهم ينظفون في أعقاب المعركة ، واكتشفت كيف يكون الشعور بعد النجاة لتحيا يوماً آخر بعد أن اعتقدت أنك ميت لا محالة . ليس هناك إحساس مثله ، أليس كذلك يا عبد؟»

جاءت رائحة الملح في الهواء أكثر إنعاشاً ، وأحسست بأن المقعد تحتي حقيقي بطريقة ما . أدركت فجأة بأنني أطول قامة وأشد بأساً . ألقوا بجثة

أدريانو السمينة المترهلة من فوق الجانب ، وكنت سعيداً لأنني حي وأنه ميت .

«وهل استمرت معاملتك كعبد يا مولاي؟»

هزَّ رأسه نفياً «كلا ، في الواقع أن أحداً من الطاقم المتبقي لم يحاول أبداً أن يعيد تقييدي بالسلاسل مع الآخرين . منذ ذلك الحين ، ورغم أنني بقيت مع الأولاد الآخرين ، إلا أنني كنت أتمشى بحرية» .

الفصل السابع

إن التفكير في أن حكاية عادية جداً لصبي يجري خطفه من قبل تجار العبيد ثم يؤخذ جنوباً عبر البحر الأسود لتتخذ مثل هذا المنحنى بتلك الطريقة، يصيب عقلي بالدوار، لكنها حدثت، رغم أن بيبرس كان قد كسب عداوة سيرجي، وفي الحقيقة رحب بها، إلا أنه وجد الآن حليفاً قوياً في شخص القبطان الذي لم يعرف اسمه أبداً حتى ذلك الحين، ومساعدة لويجي.

أثناء عودتي ماشيا إلى خيمتي في الصباح الذي تلا قصته عن معركته الأولى، بدأ عقلي يعوم في الصور التي رسمها. من الصبي المذعور الذي يصرخ في أحلامي طالباً العون، إلى الشاب الغريب المثير للحنق الذي جلس يحدق عابساً في البحارة الذين ينظفون بقايا دمار المعركة.

إذا كان لنا أن نصدق قصته، فإن هذا التحول قد حصل خلال مسألة أيام معدودات، أسبوع على الأكثر. فهل مثل هذا الشيء ممكن؟ كيف تحول بيبرس من الطفل الذي لم يتمكن من إحراج نفسه أمام فتاة صغيرة، إلى قاتل مكتمل المواصفات لثلاثة رجال، وربما أكثر. لقد كان حتى يخطط لقتل سيرجي وهو جالس هناك. ليس مستغرباً إذاً أن يتوتر الأولاد الآخرون من وجوده.

في إحدى المرات كنا نتنقل راكبين بمحاذاة ساحل طرابلس، بعد وقت قصير من حديثنا الطويل، فأطلق ملاحظة عن رجل يشبه أحد الجيران القدامى في قريته. انتهزت الفرصة لأسأله عن بيته والحياة التي حظي بها هناك.

قالت له «يا سيدي . هل استمررت في التفكير بالعودة إلى موطنك بعد المعركة ضد السفينة اللومباردية الأخرى؟»

تلفت بيبرس حوله . كنا راكبين في منطقة مفتوحة ، وكان حراسه الشخصيون يركبون أمامنا وخلفنا . الغالبية العظمى منهم شراكسة ، لم يتردد السلطان أبداً في إظهار أي نوع من الضعف أمامهم . كان بإمكاني أن أشعر بأحاسيسه الموزعة حول هذا الموضوع أيضاً .

قال «أعتقد ذلك» وهو يتكلم بصوت خفيض «ولكن ليس بقدر الوقت الذي تم فيه إلقائي في حفرة ذلك السجن» .

جازفت بالإصرار على الموضوع «ولماذا كان ذلك يا مولاي؟»

أبقى عينيه على الدرب الذي نتبعه ، إلى الأمام بخط مستقيم «أظن ذلك لأنني كنت أحسّ بالعار» .

«أتقول أحسست بالعار يا مولاي؟»

«نعم يا عبد . لقد تخيلت كيف يمكن أن يكون الوضع لو قدر لي أن أقف أمام والدي ووالدتي مرة أخرى ، فيقومان بالترحيب بي بالعناق والقبلات والدموع ، ثم أقوم بمعانقة شقيقاتي أيضاً . لكن ماذا بعدها؟ سنجلس وسوف يسألونني عما حدث» .

رفع قامته في السرج قليلاً «فماذا كنت سأقول لهم؟ أنني قتلت رجلاً؟ طعنته في بطنه ثم أدخلت نصل السيف في رقبة رجل آخر؟ استطعت أن أتخيل وجه أمي» .

رأيت يديه تتوتران بشدة على العنان . «تخيلت وجه أبي . لم يكن يخشى شيئاً في الدنيا غير مجيء الحزن إلى عائلته ، ولكن كيف كان سينظر إليَّ؟ ما كان ليعاملني كما كان يفعل قبل أن أغادر مطلقاً» .

فكرت في الطريقة التي وصف فيها بيبرس النظرات التي ارتسمت على وجوه البحارة القراصنة حينما شاهدوه يحمل الحربون والسيف في كل يد .

استطرد «ما كنت أستطيع العيش مع تلك الأحاسيس . على أية حال ، لم يكن الأمر بيدي . تم استدعائي صباح اليوم التالي للمعركة إلى القبطان الذي أخبرني عن مصيري» .

كانت القمرة باردة في الصباح . نوع من القشعريرة التي تحدث للشخص خلال الأشهر الدافئة قبل أن تشرق الشمس بشكل كافٍ وتدفئ الجلد . بحلول هذا الوقت كان بيبرس قد غسل الدم عن وجهه ويديه ، كما فعل القبطان ، وتبادل الاثنان النظرات الفاحصة في صمت ، منتظرين انصراف البحارين اللذين احضرا بيبرس . سحب القبطان نفساً عميقاً أثناء خروجهما ثم نقر على الطاولة الصغيرة التي تؤدي وظيفة مكتبه . نظر إليه بيبرس عاقداً يديه خلف ظهره ، منتظراً ما لدى الرجل ليقوله .

«حسناً يا بيبرس ، ليس هناك أي شك حول ما نويت أن تفعله حينما صعدت إلى جسري وسط احتدام القتال بالأمس» .

لم يتغير التعبير في وجه بيبرس .

«هل كنت ستقتلني لو تمكنت؟»

رغم التغيير الكبير الذي طرأ على بيبرس في ذلك الوقت القصير ، إلا أنه لم يكن واثقاً من طريقة الإجابة عن هذا السؤال . «كلا ولكنني أردت أن أقتل سيرجي . أنت تعرف هذا سلفاً» .

حدّق فيه القبطان بجدية في محاولة لقياس مقدار الصدق في قوله .

«حسناً ، والآن هو يريد أن يقتلك ، وسوف يحاول أن يستغل فرصته إذا سنحت .

في الأحوال العادية هذا أمر سيكون بينك وبينه ، مع أنني سأعمل على التأكيد بأنه مهما حدث فسيكون ذلك خارج سفينتي . لكن هذا ليس أمراً عادياً ، أليس كذلك؟ أنا مدين لك لقتلك أولئك الرجال . فماذا يفعل الرجل الشريف؟ نحن على بعد يوم واحد خارج القسطنطينية . لا أستطيع أن أعيدك في الطريق الذي جئت منه ، لأنك لن تبلغ غايتك

حياً . لن أتركك بين يدي سيرجي ووالده ، لأن ذلك سوف يعني الشيء نفسه» . انكفأ القبطان إلى الخلف في كرسيه «لقد تغيرت يا بيبرس . بإمكانك أن ترى ذلك كما أراه . هل ترغب حقاً في العودة إلى ديارك؟»

لم يقل بيبرس أي شيء ، بل بقي على صمته . لم ترمش عينا القبطان الزرقاوان ، ورغم كل محاولاته ، لم يستطع بيبرس أن يخفي الجواب . رآه القبطان اليقظ على الفور ، فأومأ برأسه وقال «إذاً إليك ما سأفعله من أجلك أيها الشركسي . بمجرد أن نصل خلف المضائق خلال يوم أو اثنين ، سوف أقابل والد سيرجي . سوف أشتري منه عقدك ، وبعدها سوف تبحر معي جنوباً إلى المشرق . لدي المزيد من الأعمال هناك قبل أن أبحر عائداً إلى إيطاليا . سوف اعثر لك في سورية على مقر يستحق مهاراتك . هنالك دوماً مكان للشباب الذين يمتلكون المعرفة في الحدادة ، بالإضافة إلى القتال . وأنت تمتلك الاثنتين» .

حاول بيبرس في وقفته أن يفهم كل هذا الذي قيل . اكفهر التعبير على وجه البقطان قليلاً وقال «يمكنك أن تشكرني على الأقل ، أيها الصبي! إنني في نهاية الأمر أعمل على إنقاذ حياتك» .

«أشكرك» .

نفض القبطان رأسه وشخر من خلال أنفه «أنت على الرحب والسعة . هل هذا كل ما لديك لتقوله؟»

«لماذا لا تحتفظ بي ضمن طاقمك ما دامت مهاراتي مفيدة؟»

مال القبطان إلى الأمام في جلسته «لأنه لا أحد من الرجال يرغب في وجودك! بالنسبة إليهم ، أنت شيطان صغير صعد إلى السفينة على شكل أسير وتحول إلى مَلَك للموت . حتى لويجي الذي أنقذت حياته ، لايريد أن تكون له أية علاقة بك . هؤلاء رجال معتادون على الوحشية بدرجة جيدة ، ولكن صدقني يا بيبرس أنهم سيقومون بعصيان عليَّ إذا بقيت على متن السفينة لمدة أطول» .

تبدَّل تعبير وجه بيبرس للمرة الأولى ، بحيث قابلت عيناه عيني القبطان .

«حسناً ، لا داعي لأن تبدو سعيداً بالموضوع إلى هذه الدرجة! إنهم يعتقدون أنك تمتلك عيناً شريرة وأنها سوف تتسبب في موتنا كلنا . إن البياض الموجود في عينك يسهل عليهم هذا الاعتقاد» .

«أيها القبطان ، أنا لم أفعل إلا ما اضطررت إلى فعله» .

«هذا صحيح يا بيبرس . الأمر هو نفسه في إيطاليا لدى أولئك الذين أخطأ أمثال سيرجي بحقهم كما فعل سيرجي بحقك . لكنني لن أسمح للعبيد أن يقوموا بثورة ويقتلوا المشرفين عليهم في هذه السفينة . ماذا سيكون نوع العالم الذي نعيش فيه لو كان ذلك مسموحاً به؟ ستعم الفوضى ، في الوقت الذي ما نحتاج إليه حقاً هو النظام» . تحول القبطان إلى الجدية «لو أنك لم تنقذ حياتي ، لكنت قتلتك بنفسي ، لمجرد أن أجعل منك أمثولة . فلا تخطئ في تقدير هذا الوضع أبداً .

بدلاً من ذلك ، ها أنا أعفو عن حياتك ، لكن لن يسمح لك بأن تذهب حراً . سوف يتم احتجازك لبقية الوقت الذي ستمضيه على هذه السفينة ، وعندما نصل إلى المشرق ، فإنني سأبيعك إلى تاجر أنا أعرف أنه يتعامل بالمقاتلين الشراكسة» .

لم يكن بيبرس قد سمع هذا الاسم من قبل مطلقاً .

«إن المقاتلين الشراكسة يشكلون نظاماً عسكرياً من المحمديين . ورغم أن الرجال المسيحيين الصالحين من أمثالي لا يفترض فيهم أن يتعاملوا مع الكافرين ، إلا أن العمل التجاري يكسب في كل مرة . بالنسبة لرجالي ، فإنني ببيعي لك وتخلصي منك إلى الملحدين ، سيبدو الوضع وكأنني ألقيت بك إلى الجحيم نفسه» .

تغضن جبين بيبرس وتقطب حاجباه وأحسَّ بقلبه يبدأ بالخفقان بشدة .

«ولكن اسمعني الآن يا بيبرس . هذه فرصة لك لكي تحيا . سوف تمارس حياة جندي ، جندي مستعبد ، ولكن جندي رغم ذلك . سوف يتوفر لك الطعام وتحاط بالرجال . وكما وهبتني فرصة جديدة في الحياة ، فها أنا أسدد دَيني لك وأمنحك حياة أيضاً . لقد انتهت حياتك القديمة ، وأنت تعرف هذا بنفسك ، وأستطيع أن أرى ذلك مثل وضوح النهار . إلا أن هذا أمر مختلف . بالنسبة لما أعرفه عن المقاتلين الشراكسة ، فإنهم سيهبونك حياة مختلفة عن أي شيء كان بإمكانك أن تتخيله ، في أماكن مدهشة ، إلى درجة أن الناس في قريتك قلما سيصدقونك لو حاولت أن تشرحها لهم . عانق هذه الحياة وتمسك بها يا بيبرس ، وحافظ على الأيام التي منحها الله لك ، وسوف يمتد بك العمر . أستطيع أن أرى ذلك أيضاً . في نهاية المطاف ، سوف تنسى ما فعلوه بحقك والناس الذين خلفتهم وراءك» .

«لن أنسى دانا أبداً» . حاول أن يبدو صوته مفعماً بالثقة ، لكن جاء وقع الكلمات ضعيفاً حتى وهي تغادر فمه .

ظهر على القبطان التعاطف للحظة ثم استقرت ملامحه مرة أخرى .

قال «نحن نقول ذلك كلنا ، لكن الحقيقة هي أنك إذا بقيت بعيداً لوقت كاف فإنك تنسى . حتى أمك نفسها ، المرأة التي جاءت بك إلى هذا العالم وأبقتك حياً» .

نفض بيبرس رأسه

«تلك هي طريقة العالم يا بيبرس . أنت لا تستطيع أن تحارب الطبيعة أكثر مما أنك لا يمكنك أن تقاتل الله نفسه . آمن بذلك وعش بما قد أعطي لك» .

الفصل الثامن

«موسيقى! سيكون لدينا موسيقى!» .

عزف الموسيقيون لحناً مفعماً بالحيوية فاهتزت الخيمة الملكية بقرع الطبول والأقدام الراقصة . لقد سقط حصن آخر بيد الجيش الذي أنشأه بيبرس وأصبح إيقافه ضرباً من المستحيل ، وأصبح الجو العام احتفالياً . ولأنني المؤرخ العاطفي الميال إلى البكاء ، فقد فكرت في أن الموسيقى ستعمل أيضاً على إغراق صرخات المهزومين .

في تلك الأيام ، لم يكن هناك مجال لطلب العفو أو منحه . جرى ابتلاع البقايا الأخيرة لمملكة الفرنجة قطعة وراء الأخرى .

لم يكن الأمر يقلق أي شخص آخر في تلك الليلة . ولماذا يهتم أي شخص؟

استندوا في جلستهم مستريحين وشربوا الأنخاب من أقداح ثمينة . لقد كانت إمكانية معرفة ما يشربه كل شخص ضرباً من الحظ ، لأن بيبرس كان قد أصدر لتوه قوانين تقضي بأنه لم تعد الكحول مسموحاً بها لأجل المتعة في مناطق سلطته . فقد قال إنها سمٌ مفسد ، لا تفعل شيئاً سوى أن تحول الرجال الذين يشربونها إلى أغبياء وأجلاف .

طبيعي أن هذا الأمر يتماشى مع تعاليم القرآن المقدس ، لكن كانت تدور همهمات معينة من عدم الرضى عندما تمت معرفة الأنباء . كان البعض يصفها بأنها اعتراضات للآخر : لأن أي شخص يبدي أقل إيحاء بالاعتراض والمعارضة للسلطان بيبرس قمين بأن يفقد رأسه على الفور . على أية حال ، فإن المنع الفوري الكلي لم يكن عملياً ، واستمر الرجال في

السماح بتداول خمورهم المحلية . لقد انصب اعتراض السلطان على الكحول القوية ، وقد دعت الحاجة إلى تعقيم مياه الشرب بقليل من الكحول في الصحراء ، تلك التي يعثر عليها أثناء الحملات .

أعلن بيبرس «يجب أن نكون رجالاً أقوياء وواعين!» وهكذا كنا .

وهكذا فقد شرب الرجال الخمرة ، لكنهم بذلوا أقصى جهودهم للحفاظ على مظهر الصحو الخارجي .

لأن أي شيء آخر كان بمثابة حكم للإعدام .

رشفت أنا نفسي نبيذاً مخففاً بالماء وظللت أتلفت حولي ، محاذراً . لقد ظل هؤلاء الرجال يخيفونني ، حتى بعد كل تلك السنين . لقد تعلمت منذ وقت طويل أنه حتى أولئك الذين لا يقدرون على التفوق عليَّ كرجل لرجل ، لن يتورعوا عن جعل أحد خدمهم أو حتى قاتل مأجور أن يغتالني . وهكذا كنت أرقد في خيمتي ليلاً وأعرف أنني يمكن أن أموت في أي لحظة .

بالنسبة لمعظم الرجال ، كان هذا وضعاً لا يحتمل ؛ لأن معظم الرجال بحاجة إلى الشعور بالأمان ، حتى عندما لا يكونون بأمان . إنهم يضربون غيرهم أو يهربون عندما يشعرون بأن هذا الأمان قد تعرَّض للتهديد ، حتى بأقل السبل .

صودرت حرية بيبرس منه وهو ما زال مجرد صبي ، وعرف أنه ظل على الدوام يحيا في ظل الموت . لكن ذلك لم يردعه . رغم أن أكثر لحظاته الحميمة كانت محملة بالمخاطر ، إلا أنها كانت تدفعه قدماً - صنعت منه ما هو عليه ، على ما أعتقد .

هل كان سيعجبه الأمر لو أنه بقي مع والده؟

لن يتفق معي الكثير من العلماء الأجلاء ، ولكنني أعتقد وأنا كاتبه وأكثر مؤرخ يحظى بثقته ، أنه كان سيفضل ذلك . إن الشراكسة شعب ميال للقتال ، مضطرون إلى القتال من باب الضرورة وليس محبة فيه ،

حتى إنهم ينشأون على القتال . لقد خاض والد بيبرس معاركه ثم رجع ليربي أطفاله ، لكنه بقي جاهزاً للقتال مرة أخرى . كان بيبرس سيفعل الشيء نفسه : خاصة وأنه تمت تسميته على اسم مقاتل عظيم ، كان سيحيا كرجل عظيم بصرف النظر عن أي مكان ساقه إليه القدر .

لقد اخترت أن أعيش في بلاطه رغم الخطر طالما أن وجودي هنا يتيح لي الوجود معه : كما عشت الحياة التي اعتقدت أنها قدري ، أن أسجل أحداث الأزمان التي عشتها . نظرت حولي إلى رجال الحاشية والمتملقين الأذلاء . احتقرت غيرتهم السخيفة ومشاعرهم المحبطة ؛ لأن كل ما كان يهمني هو الملك ، الحرب وتاريخي عنهم .

زأر بيبرس لكل من يسمعه «سوف نركب» ، سوف نركب إلى المدينة! ستكون القسطنطينية ، بيزنطه ، روما الجديدة ملكاً لنا!» نهض واقفاً فتابعته كل العيون . «سوف يرتعدون فرقاً كلهم أمامي ، أولئك الإغريق!» بصق الكلمة من فمه وسط صيحات الهتاف . «هؤلاء الكلاب المخنثون الجبناء الذي يتجرأون ليسموا أنفسهم رومان! سوف تهتز أسوارهم وتتهاوى أمامنا!» المزيد من الهتاف . «سوف تنتحب نساؤهم باكيات وتصرخن بينما يتغوط رجالهم على أنفسهم»! انفجرت الغرفة بالتصفيق ودق الأرجل وصرخات الحرب الخشنة من المقاتلين الشراكسة ، لكن السلطان لم يكن قد أنهى خطابه «سوف نركب نحو أسوارهم ونحتل مدينتهم في أعظم معركة حدثت على الإطلاق» .

ثم أشار بإصبعه إلى كل واحد منا بدوره «ستنفتح أوروبا كلها أمامنا ، الله أكبر!»

نهض كل الرجال واقفين في هذه اللحظة «الله أكبر! الله أكبر!»

استمرت صرخة الحرب فترة طويلة . توقفت في النهاية وعاد بيبرس إلى الجلوس في مقعده ، وقد غمره الرضى . تناول جرعة هائلة من قدحه ثم تجشأ بعنف . «أنتم تعرفون أنني ذهبت إلى القسطنطينية من قبل» .

قال ذلك مخاطباً لا أحد على وجه التحديد . سأل أحدهم «صحيح يا مولاي؟»

قال بيبرس «لقد حدث هذا منذ زمن طويل . وكان الفرنجة هم الذين يحكمون المدينة في حينها . لقد أهملوها وعاثوا فيها فساداً حتى إنها لم تعد عاملة إلا بالقدر القليل ، رغم أنني لم أضع قدمي على الشاطئ ، لأنني كنت راكباً في سفينة شراعية ذات مجاذيف طيلة الوقت . لذلك ألقيت عليها نظرة خاطفة من البحر باتجاه مضيق البوسفور ثم البحر» .

سأل المستخدم نفسه مرة أخرى «كيف بدا شكل وكر الأنذال في حينها يا مولاي؟»

حدجه السلطان بيبرس بتحديق متعمد «لقد كانت المدينة الأجمل على وجه الأرض» .

جاءت رائحة العنبر الذي احتجزوه بداخله أسوأ من الأول ، لكنهم لم يكونوا قساة تماما . فقد أعطوه إبريق ماء لشرب حصته منه وجمع ما يمكنه من ماء المطر فيه ، وإبريقاً آخر ليتبول فيه .

فكَّر وهو يطلق ابتسامته الماكرة «إن للمعركة جوائزها الخاصة بها» . يفترض فيه أن يخشى مغبة فكرة إرساله إلى سورية ، لكنه لم يخف . بدلاً من ذلك ، عقد ذراعيه فوق معدته ومدَّ رجليه إلى الأمام ، وقد أراح رأسه على جدار العنبر إلى الخلف . بعد هنيهة ، أغمض عينيه وسمح للهزات اللطيفة للسفينة أن تهدهده إلى غفوة . عاد النهار إلى الدفء ، واعترف لنفسه أنه كان مرهقاً إلى حد هائل . جاءه الصوت من فوق «بيبرس! بيبرس!» أدرك أنه كان في وسط حلم جميل ، وفكر أنه لو يستطيع أن يبقى على وضعيته للحظة أخرى ، فإنه سيعود إلى هناك «انهض يا بيبرس! هيَّا ، سيفوتك المنظر!»

فتَّح أخيراً عيناً واحدة مترددة لينظر إلى الأعلى ، وكان بيطا هناك ، رأسه الصغير مدلىً عبر الفتحة من السطح العلوي . عاد بيبرس إلى

الاستلقاء حيث كان وأغمض عينه مرة أخرى «ما الأمر يا بيطا؟»

«إننا نقترب من المدينة! لقد منحوك الإذن بالصعود. انظر!»

عمل بيبرس ما هو مطلوب منه، فوجد لويجي من بين كل الناس، واقفاً في الخلف.

هزَّ الإيطالي الهرم رأسه بالتعبير المعهود الذي لم يتغير. دفع بيبرس نفسه إلى الأمام وقد فوجئ وزحف باتجاههم على ركبتيه. لم يكن عمق العنبر يتجاوز ارتفاع الخصر، وكانت تلك أسهل طريقة وجدها للخروج. البديل الوحيد هو القرفصة ومحاولة القفز إلى الأمام بطريقة الميلان المترنح. ركع لويجي مع بيطا لمساعدته على الخروج وبعدها وجد نفسه في الخارج مرة أخرى تحت شمس مابعد الظهر الساطعة.

بذل الرجال الموجودون على السطح أفضل جهودهم لإخفاء عواطفهم المختلطة تجاه الفتى الذي هو أسيرهم. الخوف، التشكيك، الحسد... الإعجاب؟ من الذي يعرف ماهية المشاعر التي تدور خلف الوجوه الخالية من التعبير والعيون القاسية؟

تعلم بيبرس أن يستشعر الكراهية التي كانت تحرق ظهره في هذه اللحظة. استدار ليرى سيرجي قادماً نحوهم.

زمجر الفتى الروسي «سوف أقتلك! أيها الكلب الجبلي! أيها العبد القن! سوف تلعق حذائي. سوف تتوسل إليَّ لأنهي حياتك». وصل إلى حيث هم واقفين.

استطاع بيبرس، برغم حداثة سنه، أن يشمَّ رائحة الخوف. لقد كان سيرجي يشعر بخوف عميق. هو خائف من بيبرس بالتأكيد، لكنه خائف أكثر من أن يهان أمام الطاقم. هل يمكن أن توجد إهانة أكثر من أن يوصم الشخص بأنه جبان؟ نظر إلى سيرجي الذي يرتعد من شدة الغضب، لكن بيبرس لم يتفاعل. أحسَّ بنصر من نوع ما، باستمرار القوة التي أتته أثناء المعركة.

حاول سيرجي أن يزيف تعبيراً متعالياً «حسناً أيها الكلب ، ماذا تقول؟»

قال بيبرس «قل لي أين هي دانا وربما جعلت ميتتك سريعة» .

تقدم لويجي إلى الأمام وصرخ بعبارة خشنة بوجه سيرجي ثم كررها مرة أخرى عندما بحلق فيه سيرجي بوقاحة . مرت لحظة متوترة قبل أن يدرك الروسي أنه لن يتوصل إلى شيء فانصرف باتجاه الجسر العلوي ، حيث أراح مرفقيه على الحاجز واستمر في التحديق بثلاثتهم .

فكر بيبرس «إنه مجرد صبي . إنه لا يصلح لأداء ما يفعله على هذه السفينة» .

ربّت بيطا على كتف بيبرس وقال «لا تضيع وقتك على ذلك يا بيبرس . تعال وانظر» .

أطلق بيبرس نظرة أخيرة باتجاه بيطا ، لم تخف مبادرة بيطا عليه ، ثم استدار وقد سرَّه أن بيطا يسدي إليه النصح .

احتاج المنظر الذي قابلهم إلى لحظة حتى يفهموه بشكل كامل . كانت هناك قبة مستديرة صاعدة في البعد القصي خلف خط الأشجار للساحل الأخضر البارز نحوهم . نظر إليه وقد تملكه الفضول بينما يكبر الساحل أثناء مرور السفينة من أمامه على خط الشاطئ . سرعان ما انضمت إليه مناظر أخرى ، وكلها تقترب من ملامسة السماء ، قبل أن يظهر شكل هائل الحجم ، أشبه بالحوت أمامهم . اقتنع بيبرس بأن القبة لم تكن في الحقيقة بالصغر الذي اعتقده في البداية حينما لاحت في البعد ، لكنها فعلياً ضخمة ، بل هي عملاقة .

قال بيطا من خلفه «ذلك هو ميدان سباق الخيل» مشيراً إلى شكل الحوت الرمادي . ثم أشار إلى القبة «وتلك هي آيا صوفيا» . لاحق بيبرس إصبع بيطا وقد انعقد لسانه «كل تلك الأبنية اللماعة على شاطئ البحر هي قصور» .

أخذوا يقتربون الآن ، وشاهدوا قصر القسطنطينية العظيم ، الذي يبلغ عمره قرابة الألف سنة ، يتلألأ تحت أشعة الشمس . مال بيبرس إلى الأمام . «انظر إلى الأسوار!» دفع برأسه إلى أقصى ما يمكنه من فوق الحاجز ليلقي نظرة فاحصة على التحصينات الهائلة ، وكأنها قد بنيت على الماء نفسه .

كيف تمكنوا من بناء مثل هذه الأشياء؟

بدت الأسوار منيعة ، حتى من مسافة عدة فراسخ . قال بيبرس «لابد وأنها توازي ارتفاع هذه السفينة» .

نفض بيبرس رأسه قائلاً «هذه السفينة هي أضخم بناء وقفت فيه على الإطلاق . أنا لا أستطيع أن أتخيل نفسي أسير في تلك الشوارع وأنظر إلى كل ذلك الجمال» .

استمرت الكنائس والأبنية والقصر يتلألأ وتلتمع أثناء إبحار السفينة ، وقد أخذت مئة سفينة أخرى وأكثر تظهر حواليهم في كل هنيهة ، وأحس بيبرس بروحه تتسامى لهذه المناظر . إن القسطنطينية عبارة عن معجزة . لقد صنع الله معجزة على الأرض .

أحسَّ وكأن بإمكانه أن يمد يده ويلامس المشهد بكامله . بدأ يميز الأشكال : الناس الواقفين على الأسوار والأرصفة ، واشتاق إلى أن ينضم إليهم .

منحته المدينة شعوراً بأن الهواء الذي يدخل رئتيه أنقى وأشد شفافية ، حتى معدته أحسَّ بها أكثر امتلاءً ، واختفت الرضوض التي سببها أسره كلياً . انفتح أمامه عالم جديد آخر فتشربت روحه أكثر ما استطاعت منه قبل أن يعاد إلى العنبر . كان كل من لويجي وبيطا قد استدارا عن مشاهدة المدينة لمجرد رؤية تعبير الانبهار التام على وجه بيبرس .

راقبه سيرجي هو الآخر من على السطح العلوي .

في تلك الليلة، رقد مسنداً رأسه إلى جدار العنبر وماداً ساقيه أمامه، وظل يحلم بالمدينة التي يغلفها الضباب الخفيف، والتي راقب مرورها أمامه في وقت أبكر من ذلك النهار. كم من الناس يمكنهم العيش في مكان كهذا؟ فكر بالملايين، لكن بيطا أخبره أن العدد أقل من ذلك بكثير. شرح له أن والده كان قد قرأ شيئاً عن محدودية مصادر المياه أو شيئاً مشابهاً، لكن بيبرس عاد إلى التحديق بالأسوار والأبنية الغرائبية ولم يعد يعيره أي اهتمام.

فحَّ الصوت منادياً في العتمة هذه المرة «بيبرس! بيبرس!». كان ذلك بيطا بالطبع.

همس ليرد عليه «ماذا هنالك يا بيطا؟ ألا يفترض بك أن تكون تحت مع الآخرين؟»

قال «كلا، إنهم يسمحون لي بالتجول الآن، أعتقد أنهم باتوا يعرفون بأنني لا أشكل تهديداً. إليك، مدَّ يدك وتناول، لقد أحضرت لك بعضاً من الخبز والجبن».

زحف بيبرس إلى الأمام وتقبل الهدية قائلاً «أشكرك، ما كنت مضطراً إلى فعل ذلك».

«إن مشاركة صديق لا تشكل عبئاً. ففي النهاية، أنت الذي أنقذت حياتي»

لم يعرف بيبرس كيف يرد على تلك المجاملة، فاكتفى بقضم الجبنة ومضغها ممتناً، حين انفجر الطعم المالح في فمه، قال «هذا لذيذ».

قال بيطا «نعم، هو كذلك».

انقضى اليومان التاليان على شكل رحلة مكررة للشمس من أحد جوانب العنبر إلى الجانب الآخر. جلس بيبرس يراقب خيط النور وهو يتنامى في إحدى الزوايا ثم يظل يكبر حتى يستحم العنبر كله، وهو الذي لا يزيد اتساعه عن خزانة، في ضوء النهار، وتصبح حرارته منافسة لحرارة فرن أي خباز.

ولكن ليس بحرارة موقد والدي بكل الأحوال . . .

إلى جانب الحرارة ، بات يفكر بوطنه لوقت أقل في كل يوم يمر . أحسَّ بقليل من الذنب ، لكن على مستوى عجيب آخر ، سرت فيه إثارة حول هذه المغامرة الجديدة التي وجد نفسه في وسطها . ماذا سيكون شكل المشرق؟ هل ستتاح له فرصة للقتال مرة أخرى؟ لم يتخيل مطلقاً أن أي شيء آخر يمكن أن يكون في مثل سوء المعركة ضد السفينة اللومباردية الأخرى . لقد تفادى السهام والمقذوفات في ذلك القتال ، ثم قتل رجالاً أكبر منه سناً بضعفين . ما الذي يمكنه أن يفعله مع التدريب؟

لم يكن قد سمع بأولئك المقاتلين الشراكسة الذين أخبره القبطان عنهم ، لكن ذلك لا يهم . فهم على ما يبدو رجال مقاتلون ، وإذا كانوا محمديين ، فإن ذلك لا يشكل فرقاً أيضاً .

فقد تعرف إلى رجال مثلهم في قريته وفي المناطق المحيطة بها . كانوا رجالاً مهذبين عقلاء ، ولطالما تكلم والده عنهم باحترام وتقدير . اكتفى بأن يدعو ويصلي لأن يضعوا في يده سيفاً ولا يعاملوه كطفل . فهو فقط يريد أن يقاتل ، وذلك هو كل ما في الأمر . أصبح بوسعه أن يسمع أصوات الرجال وهم يتحادثون ويصرخون بالأوامر فوقه .

في كل فترة ، كان يسمع صوت دبيب أرجل ثقيلة مع تغير وجهة الرياح أو هبوبها بشدة ، فيضطر البحارة إلى تغيير وجهة الشراع حتى يتلاءم مع العناصر الجديدة . في تلك اللحظات يشتد توتره ، حيث تملأ قواه المراهقة أطرافه بالوخز والإبر ، ويبدأ قلبه بضخ الدماء بقوة في أنحاء جسده لدرجة أنه يشعر بأنه قادر على أن يخترق سقف العنبر بقبضته بدون حتى أن يشعر بأي ألم . بات يحن إلى الإحساس الذي ينتابه بعد يوم عمل شاق ـ سواء حدث ذلك نتيجة الجري أو بالتعارك الوهمي مع أصدقائه أو العمل مع والده . في تلك الأوقات ، كان يلتهم الطعام وهو يتضور جوعاً ، فيسرق الطعام الذي لا تأكله شقيقاته بالسرعة الكافية ،

ويحشو فمه بالخبز . بعد ذلك يملأون البيت الصغير بالأغاني ثم يذهب ليرقد على حصيرته ، ممتلئاً بإحساس من الرضى العميق بأن كل شيء في هذه الدنيا على ما يرام . لم يكن هناك أي شعور يماثله .

قال أبوه في إحدى المرات «هذا هو ما يسمونه بالقناعة أيها الفتى ، إنها تنبع من القيام بعمل يوم مخلص والتصرف بطيبة تجاه من هم حولك» .

كانت القناعة هي ما يشتاق إليه هذه الأيام ، ولم تكن الأفكار المتباعدة عن وطنه تساعده حين تأتي : فصار يبذل أقصى جهوده لإبعادها كلما خطرت بذهنه .

عندما يحين المساء ، كان بيطا يحضر حاملاً إليه الطعام ، وهو ما نجح في سرقته أو احتال في الحصول عليه ، ثم يتحدثان لبضع لحظات عما يحدث . تمنى بيبرس لو أن بيطا كان سيذهب معه للتدرب كمقاتل ، لكنه أدرك بقلبه أن الصبي غير مؤهل لتلك الحياة . إنه يصلح كمدرس لأطفال إحدى العائلات الثرية . فكر بيبرس أنه رغم كون بيطا لا يزال صبياً هو نفسه ، إلا أنه لديه الكثير مما يقدر على تعلمه . لا شك بأن أي مدرسة أو عائلة ستفخر بأن يعمل لديها .

جاء بيطا بالأخبار في الليلة الثالثة .

«يفترض أن نرسو في الغد على ساحل بحر إيجه ، وسوف يجري تسليمنا نحن الأولاد إلى والد سيرجي . سيكونون بانتظارنا وسوف يتم نقلنا إلى الأسواق ، أو إلى المناجم» .

لم يعرف بيبرس كيف يتعامل مع هذا الخبر .

«المناجم؟»

«نعم ، انهم يدفعون بالأولاد إلى العمل في المناجم ، لأن أجسامهم صغيرة وبالتالي يمكنهم السير عبر الأنفاق المنخفضة» .

«ومع ذلك ، أنت لن يتم إرسالك إلى المناجم ، صحيح؟»

قال بيطا «لا أدري . هنالك إمكانية دائماً . يحتمل أن أجد نفسي مشحوناً إلى الشرق أو الغرب بكل سهولة . لقد سمعت عن صبية قادمين من أمكنة إلى الشمال بقدر الأماكن التي جيء بنا منها ، لينتهي بهم المطاف في أسواق النخاسة بشمال أفريقيا ، حيث يحملهم البربر إلى وسط الصحراء» .

هزَّ رأسه تأثراً «لا يمكن أن يتحقق الفرار من هناك» .

وافقه بيطا «على الإطلاق» .

سأل بيبرس «هل تركوك لشأنك هناك منذ إنزالي إلى هنا؟ أقصد هؤلاء البحارة» .

«نعم ، لقد قام القبطان بحمايتي» .

هزَّ بيبرس رأسه في العتمة . كان القمر بدراً كاملاً في تلك الليلة ، لكن الغيوم هبطت إلى علو منخفض فوق البحر فلم تعد هناك إمكانية لرؤية ضياء القمر .

قال «هذا جيد . فهل سأتمكن من رؤيتك مرة أخرى قبل أن تغادر السفينة؟»

«لا أدري يا بيبرس . ربما سيسمح لك السلطان بالصعود لتوديعنا ، وربما لا يسمح . فإذا كان الأمر كذلك ، فإنني أودعك ، لن أنسى ما فعلته من أجلي» .

مدَّ بيبرس يده فأمسك بها بيطا بقوة «أنا لن أنساك أيضاً يا بيطا .ربما في يوم من الأيام ، عندما أصبح رجلاً مقاتلاً وأكسب حريتي أو أقاتل لأهرب ، سوف أعثر عليك وأحررك أنت الآخر» .

قال بيطا «سيكون ذلك أمراً رائعاً جداً . سوف أنتظر رؤيتك مرة أخرى بشوق ولهفة» .

«أتمنى لك حظاً سعيداً يا بيطا . وليكن إلهنا العظيم تمه معك» .

«ومعك أنت أيضاً أنت يا بيبرس . تذكر أن الأكثر شجاعة على

الإطلاق هم أول من يموتون . لذلك لا تكن شجاعاً جداً . كن قوياً وذكياً كبديل» .

أطلق بيبرس ضحكة خفيفة عند هذا وقال «سوف أتذكر»

«الوداع»

«الوداع»

بعدها كان بيطا قد انصرف ولم يبق سوى الظلام .

رقد بيبرس بغير غطاء وقد كوَر إحدى ذراعيه تحت رأسه ، كما هي عادته ، وصحا قبل أن تشرق الشمس .

جلس يصغي إلى الأمواج مع هدوء الصباح الباكر ، وراقب الظهور الأول للنور الذي يؤشر على ولادة اليوم الجديد . بدأ النهار متباطئاً ، يمارس أدواره ، وأخذ البحارة يتحركون عبر السطح فوقه مرة أخرى . تسلّى بالاستماع إلى أصواتهم ، محاولاً أن يتفهم ما يقولونه ، ثم عندما بدأ العنبر يسخن قليلاً ، أغفى . ظهر لويجي حاملاً الماء والبسكوت ، وأنزله إليه بإيماءته المعهودة ، لكن ذلك كان الحد الأعلى لتفاعله الإنساني طيلة ذلك الصباح .

قرابة الظهيرة ، تعالت الأوامر والصرخات في تواترها وحجمها ، فأدرك أن شيئاً ما يحدث ، بعد فترة هدأت السفينة فقد أحسَّ بسكونها تحت مؤخرته ، ثم بدأت ترتفع وتنزل فوق الأمواج ، كما تفعل حين تكون راسية . لقد توقفوا .

مرت فترة هدوء أخرى ، أصبح من الممكن سماع أمر منفرد أو دوس أقدام ثم جاءت أصوات أخرى . لم يتمكن من تمييزها ، وأصبح من الممكن سماعها . أجاب القبطان عليها ، والذي أطلق بعدها المزيد من الأوامر ثم جاء صوت دبيب أقدام كثيرة مفاجئة ، أكثر بكثير مما سمعه بيبرس طيلة فترة وجوده في الأسفل لوحده . كانوا يخرجون الأولاد . مشى الأولاد إلى فوق مكان جلوسه ثم توقفوا . سمع صوت القبطان مرة أخرى ،

وقد أجيب على نبرة صوته الإيطالية الموسيقية الناعمة بدفعة صوت خشنة ميزها على أنها روسية على الفور.

انطلقت الأصوات جيئة وذهاباً بصورة تبادلية لمنفعة البحارة المجتمعين على ما يبدو، ثم بدا وكأنهما توصلا إلى حل. بعد هنيهة ظهر لويجي عند الفتحة وأشار إلى ضرورة صعود بيبرس. تردد بيبرس، **هل يعقل أن يتراجع القبطان عن كلمته؟**

لكن لم يكن هناك خيار حقيقي. نهض على ركبتيه مرة أخرى وتحرك إلى الأمام. أنزل لويجي ذراعه اليمنى ليمسك بها بيبرس ورفعه نحو أشعة الشمس.

مسح السطح بنظرة سريعة. وقف البحارة خلفه عند مؤخرة السفينة، تحت الشراع الخلفي الأصغر وأمام قمرة القبطان الصغيرة تماماً. وقف الأولاد الذين شاركهم العنبر في صف منتظم إلى يمينه، وبينهم بيطا. ثم وقف سيرجي إلى يساره بجانب والده مع الرجلين اللذين أسراه مع دانا، إضافة إلى مجموعة من الرجال المرتدين ملابس مشابهة، والذين فهم بيبرس أنهم روس.

جذبه لويجي من ذراعه وقاده نحو القبطان، الرجل الوحيد الواقف في منتصف السطح، كما يليق بمنزلته باعتباره سيد السفينة.

أومأ برأسه باتجاه بيبرس قائلاً «لقت تمت الصفقة. وافقوا على أنه سيتم بيعك إليَّ، وأن يرسل الباقون إلى المناجم» مال القبطان مقترباً منه «لقد أديت لك خدمة يا بيبرس. سوف تعفى من مصير هؤلاء الأولاد. فلا تنس ذلك وكن شاكراً».

التفت بيبرس إلى ناحية سيرجي، الذي أعاد التحديق فيه وقد التهبت عيناه من فرط الكراهية. لم تكن هناك أي إشارة على وجود دانا. همس سيرجي بشيء لوالده وأومأ نحو بيبرس. نظر الروسي الهرم اليه لوهلة ثم نفض كتفيه. انتصب سيرجي في وقفته وانتظر، بينما أعطى

القبطان الأمر للأولاد كي يتحركوا . بدأ الصبي الأول يعبر السطح ، متبوعاً بالآخر حسب الأدوار . التقت عينا بيبرس بعيني بيطا وتبادلا تلويحاً نهائياً . وصل الصبي الأول إلى الحاجز القصبي وتم إرشاده ليعبر من فوقه ثم ينزل على الشبكة نحو قارب التجذيف الذي ينتظر في الأسفل .

راقبهم بيبرس أثناء ذهابهم بقلب أثقله الحزن . أراد أن يساعد بيطا بكل السبل الممكنة حتى أن يصرخ منادياً عليه ، لكنه أدرك أنه ليس بوسعه عمل أي شيء . مضى الأولاد في طريقهم بهدوء ، كل منهم يتسلق فوق الحاجز ، وللحظة رهيبة ، مرت بخيال بيبرس صورة حملان أو أبقار تساق إلى الذبح . أصيب برعشة اخترقت جسمه .

استدار سيرجي وأدار ظهره لوالده وراقبهم أثناء مرورهم . عندما وصل بيطا إليه ، مدَّ يده نحوه فجأة وأمسك بالصبي الأصغر حجماً منه بكثير من رقبته ، ثم سحبه إليه واستمر يمسكه ، رغم محاولات بيطا الإفلات والصراع . ارتسمت على وجه سيرجي ابتسامة ملتوية ، إلى درجة جعلت معدة بيبرس تتلوى ، حاول أن يركض باتجاههما ، لكن أذرع كل من لويجي والقبطان انطبقت على ذراعيه بحيث لم يعد يستطيع أن يتحرك .

همس القبطان في أذنه «لا تفعل يا بيبرس ، لا تتحرك . إن هذا هو ما يريده منك» .

أطلق سيرجي ضحكة جاء صوتها أقرب إلى احتكاك سكين بشاهد على قبر «هل اعتقدت أنك ستنجو بدون أن أرد إليك جميلك يا شركسي؟ هل اعتقدت أنني سأسمح لكلب مثلك أن يكشر عن أنيابه في وجهي ولا أقوم بركله؟»

قاوم بيبرس الرجلين اللذين يمسكان به ونجح في التقدم بهما خطوة إلى الأمام ، لكنهما قيدا حركته . كانا في مثل قوته لكن العمر كان يعمل في صالحهما . جاء بحاران آخران وساعداهما . لم يحرك أي من الروس أية عضلة . توقف الأولاد الباقون على السطح وبقوا حيث هم . أخرج سيرجي

سكينه من حزامه وقربها من وجه بيطا «حسناً يا بيبرس ، ماذا تقول في هذا الوضع؟»

لم يصرخ بيبرس ولم يتوسل ، وكذلك بيطا . اتسعت عيناه حين رأى حد السكين يمر من أمام وجهه ، وتابعه للحظة قبل أن يعود للنظر إلى صديقه . صرخ القبطان بكلمات إلى والد سيرجي ، لكن الرجل لم يستجب .

استفزه سيرجي «ألن تقول وداعاً لصديقك الصغير يا بيبرس؟ حسنا . . .»

أمسك بيده اليسرى شعر مقدمة رأس بيطا ورفعه إلى فوق ، معرضاً الرقبة ، ثم وفي قرابة الوقت نفسه ، رفع السكين وفتح الشريان الوداجي . انبثق الدم مثل ينبوع ، ملطخاً الأولاد في المؤخرة ، وقد أصيبوا بصدمة شديدة إلى درجة أن أحداً منهم لم يفكر في التحرك حتى غمرتهم الدماء . راقب بيبرس خروج الروح من عيني بيطا ثم توقف عن مقاومة الرجال الذين يمسكون به تدريجياً . لم يدرك حتى أنه حاول مرة أخرى أن يحصل على حريته .

راقبه سيرجي طيلة الوقت ، وعندما شعر أن جسم بيطا قد ارتخى كلياً ، سمح له بأن يسقط على السطح . خفت كمية الدم الذي يخرج من الجرح ، لكنها استمرت في الخروج بحجم قوي رغم تناقصه السريع ، مثل آخر نقاط تنزل من برميل نبيذ منقلب . راقب بيبرس بينما قام سيرجي بتنظيف سكينه ويده على مؤخرة قميص بيطا ثم رسم إشارة الصليب ، قبل أن يلقي إليه بنظرة انتصار نهائية . كان الروس قد عاودوا تحريك أواخر الأولاد من فوق الحاجز وذهب آخرهم في أقل من دقيقة . تسلق الوالد ثم سيرجي من فوق الحاجز ، بدون أن يحول عينيه عن بيبرس أبداً ، واختفيا عن الأنظار . لم يبق سوى جثة بيطا ، هادئة ساكنة ومجردة من الحياة ، غارقة في بركة دماء . جاءت البقية غامضة . وجد نفسه واقفاً فوق جثة بيطا . ثم أدرك أن دماء بيطا فوق قدميه ، تتجمع تحت باطن قدميه

الحافيتين وبين الأصابع . وقف القبطان إلى جانبه يتكلم ، يقول شيئاً ما ، لكنه لم يتمكن من فهم فحواه .

أحسَّ بنفسه وقد غرقت تحت الماء . طأطأ برأسه وأعاد النظر إلى صديقه . الصديق الذي خاطر بحياته من أجله قبل مجرد أيام قليلة . الصديق الذي أحضر له الطعام وأخبره عن روائع القسطنطينية . الشخص الوحيد الذي تحدث إليه حقيقة منذ لحظة اختطافه . ذهب .

أحسَّ بيبرس بالخدر ، وعندما قادوه في النهاية عائدين به إلى العنبر ، لم يعترض . كان هناك شعور بالمرض في معدته ، كأنه قد تناول لحماً فاسداً بطريقة ما ، ما تسبب في تحول أمعائه إلى سيوله الماء . سار نحو الفتحة وأنزل نفسه بداخلها متمهلاً ، ثم جلس في مكانه المعهود . قال شخص ما شيئاً من الأعلى لكنه لم يسمع . أراد بحدة أن يبكي ، أن يخفف الضغط ، لكن الدموع أبت أن تسيل .

بدلاً من ذلك ، ظل يحدق في الجدار المقابل وشعر بأقصى ما يمكن الشعور به من الوحدة . في النهاية ، جاءت الدموع مع احتضار بقية النور في ذلك المساء ، الغسق ، ذلك الجزء من النهار الذي طالما كرهه لأنه يدلل على موت الضياء . وضع ذراعه أمام وجهه وانتحب . استمر بكاؤه دقيقة ثم انتهى . لم يتذكر أنه أغفى ونام ، لكنه جلس في مكانه لوقت طويل في العتمة ثم افترض أن الإرهاق تغلب عليه أخيراً .

لا يمكن أن يكون هناك شعور أسوأ من هذا . . . أن تفقد الأمل بلا حدود

لم يحلم في تلك الليلة . أفاق ليجد نفسه متكوماً مثل كرة وأدرك أن الظلام ما زال مخيماً ، فأغمض عينيه وعاد إلى الاستسلام للعتمة . لم يكن هناك شيء ينهض من أجله ، لا شيء يستيقظ له ، فلماذا يتحرك؟ عندما انبلج الفجر وبدأت الشمس صعودها من أحد جانبي العنبر إلى الآخر مرة أخرى ، تحرك وجلس . ركَّز عينيه على شق في قشرة الجدار

وثبتها هناك ، يفكر في المفهوم القائل بأن كل شيء يتعفن ويموت وفي النهاية لا يبقى شيء مما هو موجود .

انقطع حلم يقظته بطرقات ثلاث حادة من الأعلى ، لويجي . كان يحمل طبقاً من التنك يحتوي على البسكويت وقليل من الجبنة ، أنزله باتجاهه . نظر إليه بيبرس لوهلة ثم تقدم ليتناوله . ناوله لويجي أيضاً إبريقاً من الماء العذب ، ثم زحف بيبرس عائداً إلى مكانه . حدَّق في الطبق لمدة طويلة إلى أن تكلم لويجي .عمل إشارات دفع باتجاه فمه ، موضحاً بجلاء ما يريده من الفتى أن يفعله . في النهاية ، تغلب جوعه على تردده ، وبدأ بيبرس يمضغ قطعة بسكويت متمهلاً ثم قضم بعضاً من الجبنة . أصدر لويجي نخرة رضى لينصرف بعدها .

ظهر القبطان في وقت لاحق وأشار إليه بالصعود إلى السطح ، لكن بيبرس لم يطاوعه .

«تعال يا بيبرس ، ليس هناك أي شخص يمكن أن يعترضك على السفينة ، لقد رحل سيرجي . تعال تمتع بالشمس وقم ببعض العمل ، سوف تشعر بالتحسن» .

حدَّق بيبرس في الشق لوهلة أطول ثم استدار ليواجه تحديق القبطان . عيناه خاليتان من أي تعبير وشكله العام أقرب إلى الشبح .تماماً كما وصفه لويجي . تحول التعبير على وجه القبطان إلى التعاطف . قال له «انتظر لحظة» ثم ذهب . عندما عاد ، كان يحمل قدحاً . قال «إليك هذا ، إشربه» تناول بيبرس القدح ، تجرع المحتويات دفعة واحدة ، ثم شعر بالاختناق . سأل عن محتوياته بين نوبات السعال . قال القبطان مبتسماً «هذا نبيذ من أفضل كرم عنب في إيطاليا ، كرم والدي» .

«هل لديك المزيد منه؟»

«بالطبع . إصعد إلى هنا وتناول بعضاً منه . أراهن على أنك بحاجة إليه» .

رفع بيبرس نظره باتجاه الوجه الوسيم ، وإلى النور المتسرب إلى أسفل من خلفه .

بدت له وحشة الغسق بعيدة كلياً . قال «سأشرب بعضاً منه» .

«هذه هي الروح الصحيحة!» انزل القبطان ذراعه وساعد في رفعه إلى الأعلى . ذهبا إلى قمرته وتشاركا في قدحين آخرين لكل منهما قبل أن يذهب بيبرس للعمل مع لويجي لبقية ذلك النهار . وفي تلك الليلة ، آوى بيبرس إلى نوم متشنج عميق خالٍ من الأحلام ، بعد قدحين آخرين من قربة النبيذ وألم الإرهاق في عضلاته .

قبل أن يعود إلى العنبر ، قال له القبطان «بعد بضعة أيام قليلة ، سوف تصبح جندياً يا بيبرس ويمكنك أن تنسى كل ما حدث هنا .أريدك أن تعلم بأننا أدينا الصلوات على جسد بيطا . لقد ذهب إلى حياة أفضل مما كان سيحصل عليه مع تجار العبيد أولئك» .

برقت في ذهن بيبرس صورة سيرجي وهو يرسم الصليب على صدره ، واقفاً فوق جثة بيطا .

قال «أنا واثق من أنه سيكون ممتناً» .

وهكذا حصل . قضى بضعة أيام أخرى مثل شبح متجول بين البحارة الذين يتراجعون كلما عبر أمامهم . اشتغل مع لويجي ، وظل يشرب مع القبطان في كل ليلة حتى يغيب عن الوعي في العنبر . راقب شاطئ بحر إيجه ثم شاطئ الأناضول يمران من أمامه وهو يحلم بالقفز عن السفينة والسباحة نحو أي من عشرات الجزر التي مروا بها . ماذا سيكون نوع الحياة هناك؟ حتماً لن يكون هناك الكثير مما يمكن عمله سوى اصطياد السمك ومبادلة السمكات التي لا يحتاجها بالمزيد من النبيذ؟

يمكن للرجل أن يحيا حياة رائعة بتلك الطريقة

ربما حتى توجد فتاة أو اثنتان على الجزيرة ولن يضطر إلى تمضية أيامه في العزلة . سيكون ذلك رائعاً .

أعاد التفكير بالبنات عقله إلى دانا مرة أخرى، فشخر لنفسه ليطرد العاطفة غير المطلوبة. لقد كرر هذه العملية مرات عديدة عبر الأيام الأخيرة، وظل لويجي ينظر إليه ولا يقول شيئاً. استمرا في أداء عملهما.

ربما يمنع هؤلاء المقاتلون الشراكسة رجالهم من الزواج بكل الأحوال.

أخيراً، جاء اليوم الذي أشار فيه القبطان إلى جبل مغطى بالأشجار في البعد، «تلك هي كيليكيه يا بيبرس، وتلك النقطة من اليابسة التي تراها خلفك، هي قبرص. ذلك يعني أننا نكاد نصل. جهِّز نفسك لحياة جديدة».

للمرة الأولى، أدرك بيبرس أنه يعرف القليل القريب من اللاشيء عن الأرض التي ينظر إليها.

«من الذي يحكم هذه البلاد أيها القبطان؟ أهو الباسيليوس؟»

نفض القبطان رأسه نفياً «كلا. لا يسيطر الباسيليوس حتى على قصره الخاص الذي أبحرنا بقربه في القسطنطينية. إن البلاد التي نبحر صوبها محكومة من قبل أحفاد صلاح الدين».

«لقد سمعت عنه»

هزَّ القبطان رأسه «لقد كان محارباً عظيماً وملكاً نبيلاً. لقد أدى نبله وشجاعته إلى قيادة المحمديين نحو النصر في منطقة القرون».

«هل قلت القرون؟»

«أقصد قرون حطين» لقد حنث فرسان الفرنجة التابعين للقدس، أو بعضهم على الأقل، بوعدهم لصلاح الدين وهاجموه. نتيجة لذلك، قام بمناورة أرسل فيها جيشهم برمته إلى جبل جاف لا ماء فيه وتركهم في الظمأ لعدة أيام قبل أن يقضي عليهم. إن القدس اليوم تابعة لهم، كما هي كل الأراضي المقدسة تقريباً. مازال الفرنجة متمسكين بعكا وبعض

الأراضي حولها بأطراف أصابعهم .

«لكنك تقول لي إن الفرنجة يحكمون القسطنطينية ، لذلك لا يمكن أن يكون الله غاضباً عليهم» .

سخر القبطان من هذا القول «لقد استولوا عليها أيضاً بالخديعة ، لقد قام أولئك الذين أرسلوا لمساعدة ونجدة إخوانهم المسيحيين بمهاجمة أعظم مدينة في العالم المسيحي . ربما يكون قد مر ربع قرن أو ما يقاربه ، ولكن ما هذه المدة بالنسبة للرب؟ سوف يعمل على أن لا ينفذوا من العقاب» .

«وهكذا فسوف أقاتل لصلاح الدين؟»

«لقد توفي صلاح الدين منذ زمن طويل ، وكذلك ابن أخيه محمد ، الذي كان بدوره حاكماً عادلاً ومنصفاً . إن نجله مجرد طفل يحبو ، لذلك يتنافس كبار رجال الدولة الأيوبية على الزعامة ، من القاهرة وحتى دمشق . سوف يخرج أحدهم فائزاً بلا شك ، وقتها ستقاتل أنت من أجله . سوف أتركك تحت رعاية صديقي إيديكين الذي سوف يهتم براحتك . . . ومواهبك» .

شدَّد على الكلمة «سوف تهتم بالبقية» . غاص القبطان في تفكير عميق لوهلة .

«إن المقاتلين الشراكسة مشهورون بأنهم فرسان يخوضون المعارك على ظهر الخيول ، فهل أنت تجيد ركوب الخيل؟»

«مثل الريح» .

أطلق القبطان ابتسامة عريضة «ذلك لا يفاجئني» .

الفصل التاسع

أحسَّ بيبرس وكأنه يخطو نحو المعركة مرة أخرى في اللحظة التي أنزل فيها من السفينة في أنطاكية . فقد انفجرت الأرصفة بالأصوات والوجوه والأجساد ، يتدافعون جميعهم الواحد ضد الآخر للصعود إلى القمة . شعر بعدم الاستقرار على قدميه ، وأدى الهجوم المباغت على حواسه إلى حرمانه من الإحساس بالاتجاه إلى درجة أنه اضطر للتوقف ومحاولة التعرف على الاتجاهات قبل أن يعاود المشي .

لم يبد على القبطان أن شيئاً من كل هذا أثَّر فيه مطلقاً . راقب بيبرس ظهره العريض وهو يختفي وسط الحشود ، متخطياً التجار والباعة وملتفاً حولهم بينما هم يهجمون على أي شخص يبدي من البراءة أقل مقدار وينظر في أعينهم . سرعان ما اجتذب بيبرس مجموعة من المخلوقات ، الذين أحاطوا به ودفعوا بكل سلعة في وجهه ، من التعاويذ المصنوعة من عظام سهلة الكسر إلى أوعية جلدية مملوءة بالنبيذ اللبناني . مما اضطر القبطان إلى العودة للعثور على الصبي ودفع أحدهم المغرق في بشاعته بوجهه المليء بالندوب وصلعة يقشر جلدها تحت الشمس .

سأله بوجه يحمل شراسة مصطنعة «أنت تحاول أن تهرب ، أليس كذلك؟»

«كلا . . أنا . .» صمت بيبرس إذ تهاوى صوته بدون أن يكمل ليبتعد عن امرأة تلوح في وجهه بجرة فيها مادة صفراء كريهة الرائحة .

«هيَّا أيها الفتى» . أمسك القبطان بذراع الفتى بقوة ودفعه للسير إلى الأمام بسرعة ، ملوحاً بذراعه الحرة وكأنه يهش الذباب ويصرخ «ياه!

ابتعدوا أيها الكلاب!» حمَّل شتائمه وصرخاته سلسلة من الشتائم اللاتينية لمجرد التنفيس. اختفت ابتسامات الباعة التي كانت مفتوحة ومتاحة للجميع خلال لحظة وحلت محلها صرخات خشنة وشريرة.

أطلقوا مجموعة متناسقة من الألفاظ الخاصة بهم، فتذكر بيبرس سرباً من طيور البحر يتم إجفاله بشكل مفاجئ.

وجَّهه القبطان أثناء سيرهما بمحاذاة الرصيف، وعمل بيبرس ما بوسعه لمحاولة فهم التشكيلة غير المعهودة بالنسبة له من المناظر المحيطة به.

فقد حَوَتْ أرصفة ميناء أنطاكية الرجال والنساء من كل لون ومظهر يمكن التفكير فيه.

هناك أفريقيون بلون سواد الفحم وإغريقيون ببشرات قريبة من الزيتون، أتراك بعمامات على رؤوسهم، وحتى بضعة أشخاص ذوي بشرات شقراء وزهرية مثله. بات يعجب مما إذا كانوا شراكسة هم أيضاً. لفت انتباهه رجلان متميزان، يرتديان دروعاً من الزرد تحت قمصان بيضاء تحمل شعار صليب أحمر، كانا يشرفان على تحميل كومة هائلة من الصناديق على ظهر سفينة شراعية راقية، ذات شراع مطرز بالتصميم نفسه الذي يرتديانه على صدريهما.

سأل بيبرس «من هذين؟»

قال القبطان باقتضاب «معبديان»

مع استدارتهما مبتعدين عن الرصيف إلى داخل المرفأ، تزايدت كثافة الجماهير. خمارات ومقاه في الهواء الطلق، حتى أسواق مصغرة يملأها بحارة يبيعون أسماكاً في براميل، وهكذا كانت البلدة - الميناء تعج بالنشاط.

تدلت بضع نساء من شبابيك علوية، يرتدين ألبسة تكشف عن مفاتنهن بشكل فاضح، وقد طلين وجوههن بالمساحيق الكثيفة، يلوحن بأيديهن ويرسلن القبلات إلى المارة. توقفت نظرة بيبرس لحظات طويلة

عند فتاة ذات شعر داكن كثيف وعينين لوزيتين ، وعندما ألفته يحدق فيها ، رفعت يدها الناعمة وعقصت إصبعها باتجاهه ، تشير إليه بأسلوب لم يعهده من قبل أبداً .

لاحظ القبطان تباطؤه ، ثم استدار ليكتشف السبب الذي يؤخره . رفع رأسه إلى الفتاة ثم إلى بيبرس بابتسامة ساخرة تنم عن خبرته الطويلة وتفهمه .

«استمتع بمنظرها طالما تستطيع يا فتى ، لأنه لن يكون هناك شيء شبيه بها في معسكرات المقاتلين الشراكسة» .

لم تصدر عن بيبرس أي إشارة بأنه سمع ، وبقي وجهه مغلفاً ومتجمداً على ابتسامة بلهاء . أطلق الإيطالي شخرة نفاذ صبر ساخرة ولطمه على كتفه حتى يستأنف المشي . بعد أن عاد إلى تحريك كاحليه ، رفع بيبرس ظاهر يده ومسح به جبينه وهو يستدير ويفاجأ بقطرات وجداول من العرق تتفصد عن جبينه نحو التراب .

«ليست الحرارة وحدها التي جعلتك تشعر بالضيق والحر ، أليس كذلك؟»

قال «كلا» وهو يجفف يديه على بنطاله ويستمر في التحديق بمحيطه «الشمس تشرق في قريتي أيضاً ، لكن هناك نسائم باردة تهب على الدوام» . غطى عينيه لينظر إلى الكرة التي يعلوها صليب فوقهما مباشرة وتكاد تخطف الأبصار . «الشمس لا تحرق بهذه الحدة» .

«احترس وإلا احترقت . إن الشمس في هذا الجزء من العالم ستلسعك وتطبخك مثل قطعة لحم . احرص على أن يظل رأسك مغطى عندما تكون في الخارج ، ولا تترك أكتافك عارية . إن تركها عارية ليست فكرة طيبة خاصة وأنت غير ملم بالعادات بكل الأحوال . إن بشرة باهتة مثلك سوف تحترق . لا تشعر بالسخافة إذا وجدت أنك بحاجة إلى ارتداء طاقية . إن الناس يسخرون عادة من أي شيء ضعيف أو مختلف . فعلى

الأقل سوف تجتذب سخريتهم على سبب وجيه .

«هل قلت حروق؟»

«نعم . تغطّ جيداً ولا تتعرض للشمس الا لفترات وجيزة» .

«لا أعرف شيئاً عن هؤلاء الناس ووسائلهم . كيف سأعرف ما ينبغي علي عمله؟»

«إن السلاطين المقاتلين يأخذون الأولاد من كل مكان ، وهم معتادون على الشراكسة من أمثالك . سيخبرك صديقي منذ البداية بكل ما تحتاج إلى معرفته» .

نظر القبطان إلى وجه بيبرس وأدرك تردده وحيرته الحقيقيين . لقد كان الفتى خائفاً . توقف عن المشي واقترب منه . افترقت الحشود من حولهما مثل موجات تتكسر على صخور الشاطئ .

«يا بيبرس ، هذا هو ما اختاره القدر لك منذ وقت طويل . أنت لم تولد لتقضي حياتك في قرية ما ، لتحمل السيف وتبعد الروس والمغول كلما ظهروا ، ثم ينتهي بك الأمر فاراً مع بقية القرويين عند أول بادرة على القتال . سوف يعلمك المقاتلون الشراكسة لكي تصبح مقاتلاً عظيماً ، وسوف تشاهد مدناً وعجائب ، حتى إن كلباً بحرياً مثلي لا يملك سوى أن يحلم بها . ستكون حياة صعبة ، لكنها مفعمة بالأمجاد . إن السلاطين الشراكسة يخوضون المعارك من هنا إلى بلاد فارس ، والاسكندرية وحتى بغداد . هناك الكثير من القتال الذي ينبغي الخوض فيه . لن يقتنع المغول أبداً قبل أن يمحوا بقية الإنسانية عن وجه الأرض ، ويجلس الخان الأكبر فوق امبراطورية حتى اغسطس يحسده عليها» .

قال بيبرس «ربما ينبغي عليَّ أن أنضم اليهم» .

لم يبتسم القبطان «إنهم بلاء من الكفار الذين يجب هزيمتهم ودحرهم قبل أن يمحوا المسيحية نفسها عن وجه الأرض» .

أعاد ذكر المسيحية من قبل القبطان إلى ذهن بيبرس صورة سيرجي

وهو يبارك نفسه فوق جثة بيطا .

قال «لن أقاتل دفاعاً عن المسيحيين» .

هزَّ القبطان رأسه نفياً «كلا ، ستقاتل إلى جانب المقاتلين الشراكسة ، وهم مجموعة من الإخوة الذي يقاتلون دفاعاً بعضهم عن بعض وحماية للسلطان» .

«ما هو هذا السلطان؟»

«إنه الملك في هذه الأنحاء وهو يقاتل لإعلاء شأن محمد» .

«أنا لا أعرف عنه شيئاً أيضاً» .

«ها! حسناً ، سوف يعلمونك عنه بأسرع ما يمكن! تعال يا بيبرس . فلنركب إلى حلب ونقابل إيديكين ثم نبحث مسألة إيجاد سرير مناسب لك» .

«وهل أنا ما زلت عبداً؟»

«نعم يا بيبرس ، ولكنك عبد بدرجة خاصة جداً . قاتل بضراوة واحصل على حريتك . لديك كل مؤهلات الضابط إذا تمكنت من التحكم في مزاجك هذا . سوف يمنحونك الحرية ، ربما حتى بعض المال والأرض ، وسوف تجد لنفسك زوجة هنا وتمضي أيامك تحت الشمس» .

استأنفا سيرهما ، لكن بيبرس استمر خافضاً رأسه ، غارقاً في التفكير .

استخدم القبطان لهجة أكثر حزماً «اسمع يا بيبرس ، إنس الماضي ، فقد ذهب وانقضى . ولكن تذكر من أنت وما الذي تريده . ذلك هو ما يجعل الشخص يجتاز المحن وينجح في حياته» .

هزَّ الفتى رأسه موافقاً ، ولو بشيء من الضعف ، ثم كرر «لقد انقضى فعلاً» . حصلا على جوادين خلال ساعة وانطلقا خارجين من الميناء العظيم .

وصلا إلى حلب في منتصف الليل ، وعثر القبطان على نُزل تناولا فيه الطعام واستراحا حتى الصباح .

انطلقا ماشيين عبر ما بدا لبيبرس مثل الشارع الرئيس لهذه المدينة الأخيرة . لاحظ بيبرس كيف تسيطر القلعة الرابضة فوق الحصن ، بالإضافة إلى برج المسجد الكبير ، والذي قال له القبطان إنه يسمى المئذنة في هذا الجزء من العالم . تساءل مستغرباً كيف يمكن لأي مهاجم أن يأمل في تسلق الأسوار الحادة للقلعة ، وحتى لو نجح في ذلك ، كيف سيتغلب على الحصن الهائل .

أشار القبطان إلى جهة اليمين ودخلا في شارع جانبي حيث سار أحدهما خلف الآخر ، حتى استدار القبطان وقال «استدر هنا» اتجها يساراً وفجأة وجدا نفسيهما في زقاق أضيق بكثير ، بما لا يزيد عن فسحة بين الأبنية على كل جانب .

انفتحت المقدمات لتكشف عن مخازن تعرض بضائع قليلة ، وتحتوي على كل شيء من الخبز المشروح إلى الأساور الرفيعة .

اعتاد بيبرس ، كفتى قروي على المعيشة قريباً من الناس ، لكن لم يهيئه شيء اعتاده على السير في هذه الأزقة . فقد أصبح الغرباء يقتربون إلى درجة التلامس كتفاً إلى كتف ، واضطرا في مرات عديدة إلى الابتعاد وبسرعة عن طريق أحدهم تجنباً للاصطدام . لاحظ رجل مغرق في النحافة ، يحمل في وجهه شارباً أقرب إلى الوبر ، أن بيبرس غير مرتاح في هذا المحيط ، فقام بدفع كتفه إلى كتف بيبرس متعمداً ، ثم ارتفعت الأصابع العظمية بسرعة في محاولة للاستيلاء على أي شيء قيِّم يحتمل أن يكون معه . عندما ارتد بيبرس مجفلاً إلى الوراء ، أطلق الرجل وابلاً من الشتائم ودفع بأنفه أمام عيني بيبرس مباشرة . اشتمَّ بيبرس رائحة الأسنان المتعفنة والنَفَس السيء والروح الفاسدة تتصاعد مثل المجارير إلى خياشيمه . لم يضيع القبطان أي وقت في التحرك قدماً ودفع الشحاذ بقوة في صدره .

كانت نظرة واحدة على تعبير وجهه المرعب ، بدون الحاجة إلى

السيف الذي يحمله على حزامه ، كافية لتشجع المشرَّد على نسيان الإهانة المفترضة وإكمال طريقه . تناول القبطان ذراع بيبرس ودفعه للتحرك إلى الأمام .

«سوف تقابل أناساً أسوأ من ذلك حيث أنت ذاهب . أقترح عليك أن تتخذ تعبيراً أكثر تهديداً . ليس الأمر وكأن قبضتيك لا تستطيعان تدعيم التهديد حينما تدعو الحاجة»

«لم أكن خائفاً منه بل فقط فوجئت . لقد بدا عليه الغضب . فلماذا كان ذلك؟»

وجد القبطان الوضع لا يخلو من الفكاهة «هل رأيت الرجل؟ ملابسه؟ وجهه؟ تخيل حياته إذاً . لو لم يكن غاضباً لكان الأمر عجيباً»

«لكنني لم أفعل له شيئاً» .

«لا يهم . لقد رأى أنك صغير السن وتفتقر إلى الثقة بالنفس . جعلك ذلك تبدو لعينيه ضعيفاً وتشكل هدفاً . اسمع يا بيبرس ، أنت تحمل شكل رجل بالغ لكن شخصيتك ما زالت لصبي قروي . حتى هذا سيزول عما قريب» .

«أنا أعرف أنني قادر على القتال . كل ما هنالك هو أنه استغل عدم انتباهي» .

«خذ نصيحتي إذاً . كن جاهزاً للقتال في كل الأوقات . يبدأ ذلك بمظهرك وكيفية التحكم بحركاتك . لا تتفاجأ مرة أخرى . استدر هنا» .

قطعا مسافة أخرى مارين بأبنية سكنية ذات شقق ثم المزيد من المقاهي والمتاجر الصغيرة . استغل بيبرس الوقت ليحلل ويفهم ما قاله القبطان ولم ينتبه إلى ما يحدث حوله . اتخذ استدارتين اخريين في متاهة الأزقة الصغيرة التي لا نهاية لها حين شعر بيد القبطان تشد على كتفه «توقف هنا» .

أطاع بيبرس الأمر ونظر إلى الأعلى نحو المؤسسة التي وقف أمامها .

هي بيت غير مميز مطلي بالجبس ، نوافذه ذات أطر سوداء ويرتفع إلى ثلاثة طوابق . لم يكن أحد في الزقاق يعيرهما أي اهتمام خاص في هذه اللحظة ، لكن عندما تلفت بيبرس حواليه لاحظ نظرات جانبية من العديد من المتسكعين . قرع القبطان الباب ثلاث مرات . انتظرا ، نقر القبطان الباب مرة أخرى . صدر صوت مزلاج ينزلق من خلف الباب ثم انفتح لتنظر إليهما عينان خبيرتان . انفتح الباب أكثر وكبرت العينان لتشكلا وجهاً مجعداً لرجل عجوز . حدّق فيهما للحظة قبل أن ينطق القبطان بكلمة واحدة لم يتمكن بيبرس من فهمها ، ثم هزَّ رأسه . انفتح الباب على اتساعه وتراجع العجوز ليسمح لهما بالدخول .

الممر المعتم هادئ وفيه برودة محببة . أغلق الباب خلفهما بطرقة ذات وقع خشبي ثم عاد المزلاج إلى مكانه . انتبه بيبرس إلى أنه لم يشعر بالتوتر لكونه قد احتبس ، لكنه بات هادئاً وذهنه صافياً . تجاوزهما الرجل العجوز ثم تبعاه نزولاً في الممر المغطى بالحصائر . البيت واسع بدرجة مفاجئة في جهته الخلفية ونظر بيبرس داخل غرفتين واسعتين ، واحدة إلى اليسار والأخرى إلى اليمين أثناء سيرهما . كلا الغرفتين فارغ ، إلا من بضع قطع أثاث أساسية عملية . وصلا في نهاية القاعة إلى درج يذهب في ناحية وباب في الأخرى . نقر الرجل العجوز بأدب ، انتظر لحظة ، ثم فتحه .

جلس في الداخل رجل ملتح ضخم الجثة في الجهة البعيدة من مائدة طعام خشبية طويلة ، أمامه كومة أوراق وقدح . نهض واقفاً لدى اقترابهما فاتحاً ذراعيه على اتساعهما .

زأر مرحباً بالقبطان «فابيو!» سعيداً على ما يبدو برؤية صديقه القديم .

رد عليه القبطان «ايديكين!» . تعانقا للحظة ، ثم طلب المضيف منهما أن يجلسا ، وأرسل الرجل العجوز إلى منطقة المطبخ عبر القاعة . عاد مع خادم يحمل صينية عليها قدحان وإبريق . أدرك بيبرس لاحقاً أنه سمع اسم القبطان للمرة الأولى . فابيو . كان ملائماً بطريقة ما ، رغم أنه لم يكن

قد عرف أي شخص بذلك الاسم من قبل . قدم الخادم الشراب لهما ثم غادر بدون أن ينطق بحرف .

رفع إيديكين قدحه وقال «وهكذا أنت تعود إلى حلب؟ هذا شرف لنا . ومن هو هذا الشاب؟»

«هذا هو بيبرس» قال فابيو القبطان «إنه السبب وراء مجيئي هنا بمجرد رسو سفينتي» .

استند ايديكين في جلسته وبدا عليه التفكر «صحيح؟ لقد فكرت أنك جئت من أجل نبيذي الممتاز ومتعة صحبتي» .

نفض فابيو كتفيه «العمل قبل المتعة دائماً يا صديقي . سينضم هذا الفتى إلى المقاتلين الشراكسة» .

ظهر على إيديكين الارتباك «يتم إرسال العديد من الأولاد إلى المقاتلين الشراكسة» .

ثم قال مخاطباً بيبرس «وماذا تكون أنت : كيبشاك؟ كومان؟ ذلك هو ما يليق باسمك»

قال بيبرس «أنا شركسي»

«نحصل على الكثير منهم أيضاً»

وضع القبطان قدحه على الطاولة وأفرد كفيه على سطحها . تكلم بسرعة بكلمات لم يفهمها بيبرس ، وعندما أنهى كلامه نظر إليه ايديكين باهتمام متجدد . طرح سؤالاً وأجابه القبطان بسلسلتين من الكلمات السريعة . ارتفع حاجبا ايديكين لدى سماعه الجواب ونظر إلى كليهما على التوالي وكأنه يتعجب مما إذا كان يجري استغفاله .

أخيراً ، استقرت نظرته على بيبرس «وهكذا فأنت شاب مفيد . لقد أنقذت حياة فابيو»

«لم يكن ذلك قصدي» .

كالعادة ، جاءت لهجته قاطعة بحدة بحيث حدَّق فيه الرجلان للحظة

قبل أن ينفجرا ضاحكين .

قال القبطان «أرأيت؟ لسوف تعجب به» .

قال ايديكين «أظن أنك محق . انهض إذاً يا بيبرس . ودعنا نرسلك إلى حيث أنت ذاهب . إن المقاتل الشركسي لا يضيع أي وقت . تلك هي القاعدة الأولى يا بيبرس ، تذكرها ولا تتردد أبداً بل تصرف . إن التفكير في الوقت الحالي هو مهمة شخص آخر» .

أفرغ هو والقبطان قدحيهما دفعة واحدة ونهضا واقفين : فتبع بيبرس تحركهما ، وتجشأ بصوت مسموع أثناء نهوضه .

طأطأ ايديكين قائلاً «هذه هي النفسية المطلوبة . سوف نتمشى وأكتشف ما أريده عنك أثناء سيرنا» .

خرجوا من البيت وأخذوا يسيرون مبتعدين عن الميناء ومتوغلين في داخل المدينة .

«أنا واثق من أن فابيو قد أخبرك بضرورة نسيان كل ما حدث لك حتى أوصلك إلى هنا» .

تكلم ايديكين أثناء سيره «وهو على حق . لن يكون هناك سلام ما لم تسلم أمرك إلى إرادة الله . تلك هي قاعدتنا وسوف تشكرني عليها بعد مرور الزمن ، حتى لو أنك احتقرت الفكرة نفسها هنا والآن . ليست حياة الجندي سهلة ، على الأقل ليس حسب تجربتي ، ويجب أن تكون قوياً حتى تؤدي واجباتك . أنت تبدو قوياً وقد أثبتَّ نفسك في المعركة مسبقاً ، وهذا أكثر بكثير مما يستطيع الكثير ممن يحضرون إلى معسكراتنا أن يقولوه . سوف أتذكر هذا الأمر وأثق فيك . يعتقد فابيو أنك تمتلك مؤهلات الضابط ، ولذلك فسوف أسجلك مع الأولاد الذين لديهم سنتان من التدريب ، يمكنك أن تتوقع مهمات حقيقية وربما حتى بعض القتال خلال سنة . كيف أحسست تجاه معركتك الأولى؟»

استدار بيبرس بحدة ورأى أن ايديكين ينظر اليه متفحصاً .

لا فائدة من الكذب على هذا الرجل

«لم أختبر أي شيء أفضل أبداً . لقد اردت أن أستأنف القتال بمجرد انتهائنا منه» .

التفت ايديكين إلى القبطان للتحقق من هذا القول ، فهز الرجل رأسه مؤيداً .

«إذاً سوف تنسجم مع أولادنا بشكل جيد . إنهم متحمسون للقتال ، لا يهمهم مع أي طرف ، ويمكنك أن تخبرهم بما ينبغي عليهم أن يتوقعوه . سوف يحترمون تجربتك ، رغم أن ذلك سيتطلب الكثير من الإقناع من ناحيتك . قل لي الآن يا بيبرس الشركسي» .

«أنا بيبرس ابن أشاماز من الشابسوغ» .

«ذلك شيء ستظل عليه دوماً . نحن لا نسرق أسماء الأولاد ولا سلالاتهم . حتى إن عائلات المقاتلين الشراكسة تجيء لزيارتهم في القاهرة ، ويرسل لهم أبناؤهم الهدايا طيلة السنة ، كما يفعل الأبناء الصالحون . ولكن يا بيبرس ، الضباط لا يتساهلون مع التدخل من قبل المساعدين ، وذلك هو ما ستكون عليه عما قريب ، لا تنس ذلك» .

«لن أنسى»

«ماذا حدث بعد أن زاولك ذلك الشعور بالرغبة في المزيد من القتال؟»

«تقصد بعد المعركة؟»

«نعم»

«وقفت حاملاً حربوناً وسيفاً وبقيت أتلفت حولي»

«كم طالت وقفتك؟»

أوشك بيبرس على التكلم لكنه أوقف نفسه .

«لا تتردد يا بيبرس»

«الرائحة»

«أية رائحة؟»
«رائحة الأموات. لقد كانت لهم... أقصد...»
قال ايديكين «هل تقصد أنهم يفرغون أحشاءهم عندما يموتون؟»
«لا أعرف ذلك التعبير».
قال القبطان «إنهم يخرأون على أنفسهم عندما يموتون».
«نعم» قال بيبرس «ذلك هو. الرائحة. كانت معدة أحد الرجال مفتوحة. كان من المحتمل أن أفعلها بنفسي. لم أشعر بشيء في البداية. أقصد أنني شعرت بأنني لا أُقهر، ولكن بعد ذلك جاءت هذه الرائحة ومناظر هذه الأجساد».
«هل تقيأت؟»
«كلا، فكرت أنني ربما سأفعل. لكنني ابتلعت الحالة، ثم جاء القبطان ليعيدني إلى سفينتنا».
هزَّ ايديكين رأسه «ذلك أمر جيد. ليس هناك الكثير من الرجال الذين يمكنهم التباهي بذلك. ليس في الأمر ما يعيب. والآن، ها نحن قد وصلنا».
توقفوا أمام ساحة تدريب هائلة خلف بوابة عالية وسياج. كان هناك أولاد من جميع الأعمار منهمكين في أنشطة متعددة على الرمال في مجموعات. تجولت عينا بيبرس عبرهم حتى وصلت إلى المبنى الطويل الجاثم في الخلف. لم يزد ارتفاعه على طابقين ويحتوي على خمسة صفوف من النوافذ على كل جانب من بابه الأمامي في الوسط.
«سيكون هذا بيتك يا بيبرس. سوف تأكل وتنام وتحضر الدروس هناك ثم تمضي أيامك على الساحة هنا».
عاد بيبرس بنظره إلى المجموعات المختلفة الموزعة في أنحاء الساحة الواسعة. كان بعضهم يهرول في المحيط، وآخرون منهمكين في تمارين بدنية لتقوية الذراعين والفخذين. وهناك آخرون غيرهم يسيرون في طوابير

مستقيمة ويؤدون مناورات حركية . إلا أن أنظار بيبرس انجذبت نحو الأولاد الأكبر سناً ، الذين كانوا يمارسون الكثير من الفنون القتالية .

استطاع من نقطة وقوفه أن يميز مجموعة تتنافس في رمي السهام ، وأخرى تمارس المصارعة ، ثم المزيد من المبارزة الوهمية بالسيوف والخناجر ، ثم مجموعة أخرى تقذف الرماح . امتدت سحابة صفراء غريبة فوق مؤخرة الساحة وأشار بيبرس إليها .

«ما هو ذلك؟»

قال ايديكين «إنهم يتدربون على مهاراتهم في الفروسية» .

كان ذلك كافياً بالنسبة لبيبرس . فقد أراد ببساطة أن يغوص في لجة الصفوف وينضم إليهم . لكن عائلته ودانا وبيطا ظهروا أمامه جميعاً فاضطر إلى التوقف .

سأل «ماذا يحدث إذا لم أرغب في أن أصبح مقاتلاً شركسياً؟» .

نظر ايديكين إلى القبطان .

«وقتها ستكون حراً في أن تمضي مبتعداً يا بيبرس . لن أتقاضى رسماً من ايديكين لكونه قد وضعك تحت رعايته .إنني مدين لك بحياتي . إنني مستعد حتى لأن أساعدك على ركوب سفينة تعود بك إلى الجبال ، رغم أنني على ثقة من أنك لن تنهي الرحلة حياً» .

وأشار إلى الساحة «هذا هو ما ولدت من أجله . إنس موضوع صِلاتك الاجتماعية . سوف تعود إلى الاتصال بعائلتك في السنوات القادمة . ولكن الآن ، عليك أن تلتزم بهذا النمط من الحياة» .

نظر بيبرس إلى الأرض ولم يحر جواباً . إنهما على حق . هو يرغب في هذه الحياة . استدار نحو ايديكين قائلاً «علمني كيف أصبح جندياً» .

الفصل العاشر

وهكذا أصبح بيبرس جندياً ، أو بالأحرى مرشحاً . دلَّه ايديكين على معسكره حيث تشارك في غرفة مع عشرة أولاد آخرين من جيله ، والذين ملأهم عن آخرهم بمزيج من الفضول والعداء لهذا القادم الجديد ، صبي مميز بطريقة ما حتى يتم حشره في مستواهم المتقدم . دلَّه ايديكين على سريره ، ناوله طقم ملابس جديدة ، وكتاباً ملفوفاً في القماش ، ثم استدار إلى المرشحين الآخرين ، الذين وقفوا مشكلين قوساً ، يراقبون هذا الحدث الطارئ على نمط معيشتهم الذي هو في العادة بوتيرة واحدة .

تكلم ايديكين بصوت عالٍ واضح ، صوت يحمل القيادة والسيطرة ، أجبر كل شخص في الغرفة أن يقف متشنجاً ويسوي قامته حين انطلق عليهم .

«هذا بيبرس من قبيلة الشابسوغ من القفقاس» . ولكن على أية حال ، فقد كانت اللغة التي تكلم بها هي العربية ، وهي لغة لم يكن لبيبرس أي معرفة بها في حينه ، لذلك فهو لم يكتشف ما قيل إلا بعد وقت طويل . استمر ايديكين «إنه جديد على أخوَّتنا ، وسوف تعاملونه كواحد منكم . لقد شهد هذا الصبي الدماء في المعركة وقتل العديد من الأعداء أثناء ذلك . كذلك فقد أنقذ حياة صديقي الطيب المقرب ، ولذلك فعلى الرغم من أنني سأكون قائده ، إلا أنه سيكون صديقي منذ الآن» .

تفحص بيبرس الوجوه التي أمامه بينما كان ايديكين يتحدث ورأى تعابير فارغة ، لم يكن أحد منهم ودوداً ، ولكن أيضاً لم يكن أحد منهم عدائياً بدرجة خاصة . سبَّب ذكر الرجال الذين قتلهم حركة بينهم بحيث

أخذوا يتفحصونه مجدداً ، وكأنهم يبحثون عن صفة معينة خطيرة لم يلحظوها من قبل . لم يكن هناك شيء في مظهره يمنح الناظر سبباً أو مهلة للتفكير . فهو قوي البنية وقد اكتسب بشرة برونزية جراء عمله على السفينة في الأيام الماضية . وكان فمه مطبقاً على خط مصمم عنيد . وذلك هو كل ما رأوه .

ربَّت ايديكين على ظهره تحبباً ثم عاد إلى الكلام بلغة مألوفة «نحن في هذا الجيش نتكلم اللغة العربية يا بيبرس ، وسوف تتعلمها تدريجياً . بعض من هؤلاء الأولاد هم شراكسة أيضاً وسوف يساعدونك . من الآن فصاعداً ، سوف تشير اليَّ أو تخاطبني بلقب **سيِّد** أو **سيِّدي** . وهي الكلمة المرادفة للسيد الآمر . هل كان لديك آمر في حياتك السابقة؟»

«كلا . كان والدي حداداً وكان لديه متدرب يناديه بلقب الآمر» .

«إذاً فسوف تخاطبني بالأسلوب نفسه الذي خاطب به والدك . هل هذا واضح؟»

«نعم سيِّدي» .

«جيد ، إننا نخلق منكم رجالاً وتلك عملية شاقة . إنها تشبه تشكيل الحديد ، صحيح؟ ولا تنس أننا قساة تجاه أولئك الذين يستحقون العقاب» .

«نعم ، سيِّدي» .

«حسناً إذاً ، لدينا الكثير مما ينبغي عمله» . توقف ايديكين واضعاً يديه خلف ظهره . ثم ألقى نظرة فاحصة على بيبرس من الرأس إلى القدمين . ثم أشار «ولكن قبل كل شيء ، إذهب واغتسل ، هناك حوض خلف المبنى» .

فعل بيبرس ما أمر به ثم دخلا إلى برودة المبنى مبتعدين عن الشمس التي تزايدت حرارتها .

أنا المدعو عبد ، كنت سأدفع الكثير وسأدفع حتى الآن ، ليتاح لي

أن أشارك في حصص الدراسة مع السيد ايديكين وبيبرس . بدأ كل صباح بحضور ايديكين ليشرح لبيبرس بصبر وأناة دروساً في اللغة العربية والقرآن الكريم . كان معلماً ناجحاً ، وطالما ظل يعتقد أن بيبرس يبذل كامل مجهوده ، والذي كان كبيراً فعلاً ، لم يكن لديه مانع من تكرار بعض المسائل أكثر من مرة . كان بيبرس متشوقاً للتعلم ، ورغم أنه توفر لديه السبب ليكره الدين المسيحي نتيجة لاغتيال سيرجي لصديقه ، إلا أنه صار مهتماً بدرجة كبيرة بالإسلام وسيرة النبي محمد .

كانت ديانته الشركسية القديمة والخابزه تعني له الشيء الكثير ، لكن القلعة والمئذنة كان لهما أثر كبير في نفسه ، كما أثر فيه مروره بالقسطنطينية . فقد تساوت ضخامة العالم الذي يكتشفه مع فضوله ، وأخذ عقله الفتي يتشرب كل ما يشاهده .

أثبت ايديكين أنه رجل مثقف بالإضافة إلى كونه عسكرياً ، فبعد أن يكمل له دروسه ، كان يحكي لبيبرس تاريخ العالم ، بدءاً من السلالة الأيوبية ، والتي يخدمونها ويحمونها ، عائداً به كل المساق نحو الفراعنة وبداية الدنيا . أصغى بيبرس وتفحص الكتب التي وضعها ايديكين أمامه ، مشيراً إلى الكلمة الشاردة التي يمرر بيبرس إصبعه عليها ويكررها لنفسه . أخيراً ، يختتم ايديكين الدرس بإعادة التشديد على أهمية نظام السلاطين المقاتلين وما يعنيه أن يكون هو عضواً فيه .

«تذكر يا بيبرس : أنت عبد ، ولكن ليس بالطريقة التي يمكن أن تفكر فيها بأنك عبد . سوف تصبح عضواً في قوة حرس من النخبة ، والتي ستوكل إليها حياة السلطان نفسه . ستكون حمايته وحماية أسرته حياتك كلها في المقابل . نحن نتعهد بأن نقدم حياتنا للسلطان ولكل واحد منا ، سواء كان ذلك في المعركة أم ضد الغاصبين» .

«هل قلت الغاصبين؟»

«أولئك الذين يحاولون أن يصبحوا سلاطين أنفسهم ، بالقوة أو ببعض

الأساليب الدنيئة مثل السم ، ولكن بالخيانة دائماً» .

هزَّ بيبرس رأسه .

«إن المقاتلين الشراكسة ملزمون بحماية السلطان من مثل هذه الأمور . إنه مختار من قبل الله لحماية العقيدة والأراضي المقدسة . إذا لم يعد السلطان موجوداً ، فإن دولتنا وديننا لن يعود لهما وجود أيضاً» .

هزَّ ايديكين رأسه راضياً ثم غادر . بعدها واجه بيبرس أحد أكثر الاستجوابات تدقيقاً في حياته . كان هناك شراكسة بين الأولاد الآخرين فعلاً ، وتجمهروا حوله مطالبين بكل التفاصيل عن شخصه ، من أين أتى ، وأهم شيء : كيف توصل إلى ذبح رجال في قتال مفتوح مستعر في سنِّه هذه . عمل الفتية الشراكسة كمترجمين للآخرين الذين لا يتكلمون لغتهم ، وسمعوا القصة غير العادية الكاملة على امتداد المساء وقبل حلول موعد الصلاة ثم النوم .

عندما حل وقت صلاة العشاء ، قام أكبر الأولاد حجماً والذي كان اسمه مراد ، بدعوة الأولاد إلى تشكيل صفوف وناول بيبرس حصيرة . وجد القادم الجديد مكاناً له في المؤخرة وراقب قيام الآخرين بحركات الصلاة . لم تكن لديه فكرة عما يقولونه أو لماذا يلمسون الأرض بأيديهم وجباههم ، لكنه بذل أفضل جهوده لمتابعتهم ووقف في البقعة التي خصصوها له . بالنسبة إليهم ، لم يظهر أي منهم أنه فوجئ بجهله ولم يذكر هذه الحقيقة أحد فيما بعد . أدرك أن هناك الكثير مما يتحتم عليه أن يتعلمه .

كانت هناك حصيرة أخرى مخصصة له لينام عليها . وعندما أطفئ المصباحان اللذان يعطيان الغرفة النور ، انتقل بيبرس إلى نوم متقطع عميق . أصبح معتاداً على النوم بالقرب من الغرباء ، أو حتى النوم لوحده كلياً ، حينما كان محشوراً في العنبر الذي أرسله القبطان اليه بعد المعركة .

تساءل وهو مغمض عينيه عما إذا كان سيرى القبطان مرة أخرى ،

فابيو ، اسمه . القبطان فابيو . عندما أدخله ايديكين عبر البوابة بعد ظهر ذلك اليوم . ضربه القبطان فابيو على ظهره تحبباً وقال «الوداع يا بيبرس» وكان ذلك كل شيء . استدار بيبرس عند الباب الأمامي لينظر إلى حيث ظل القبطان واقفاً خلفه ، طويل القامة عريض المنكبين ، مفعم بالكبرياء مثل كل اللومبارديين . رفع يده بتحية فردَّ له القبطان البادرة وبعدها وجد نفسه في الداخل ، يعبر المسافة نحو حياة جديدة .

بدأ قلبه ينبض بعنف في العتمة ، وأحس فجأة بالإعياء ، تفتحت المسامات على ذراعيه وكتفيه حتى غمرته طبقة رقيقة من التعرق . شعر وكأنه بحاجة إلى الجري ، إلى الخروج ، ليكون وحده بعيداً عن أي غريب ، ولا يرافقه سوى سماء الليل فوقه . أحسَّ بتشنج وشدٍّ في صدره ومعدته ، فرفع كفيه نحو عينيه في محاولة لإيقافه .

ما هو هذا الشعور؟ ما الذي أفعله هنا؟ البحر . ذلك هو ما كان يشتاق إليه .

متى كانت المرة الأخيرة التي نام فيها على الأرض الصلبة؟

في اللية التي سبقت اختطافه . كان قد رقد على فراش من القش مع أختين له كل واحدة إلى جانب ، غير ملامستين ، لكن قريبتين لما يكفي لأن تبث كل منهما ما يكفي من الحرارة لإبقاء الآخر دافئاً وسط برودة ليل الصيف الخالي من الغيوم . منذ ذلك الحين ودحرجة الأمواج التي تهز السفينة روزا تهدهده حتى ينام . أما الآن ، فالأرض تحت حصيرته يابسة ومزعجة ، وكأن أمعاءه مازالت تتحرك صعوداً ونزولاً ولم تلحق بباقي جسمه . أبقى يديه على وجهه وانتظر قدوم النوم أو حلول الصباح ، فقد تنامى حزنه لدرجة لم يعد معها يهتم أيهما سيرافقه .

لم يكن يعلم أن نهار المقاتل الشركسي يبدأ قبل أن تشرق الشمس ؛ انتبه في لحظة ما إلى التحركات في أجزاء متفرقة من الغرفة فاستدار وتقلب حتى لا يعود يسمعها . ثم أدرك أنه غفا فعلاً وأنه انقضت بضع

ساعات . هزته يد من كتفه فنظر إلى أعلى . قال له صوت شركسي «حان وقت النهوض» استدار وجلس مستنداً إلى مرفقيه . الغرفة ما زالت غارقة في الظلام لكنه استطاع أن يميز الأشكال التي ترتدي الملابس ويتحرك أصحابها جيئة وذهاباً نحو المراحيض في الخارج . نهض وهو يشعر بالبرد والنعاس معاً ، ارتدى الملابس التي أعطاها إياه ايديكين : من قماش الكتان الجديد القاسي ، قميص طويل وسراويل تصل إلى كاحليه . أحسّ بها خفيفة ولا تعيق حركته حينما رفع ذراعيه ، بل تمنحه حرية الحركة المطلقة . بات يتساءل عما يأكله المرشحون في هذا الجزء من العالم . لكن الطعام ما زال بعيد المنال ، فقد قادهم مدربهم قطز بعد أداء صلاة الفجر ، نازلاً بهم على الدرجات الحجرية الملساء إلى الساحة في الخارج ، حيث كانت مجموعة أخرى تخرج هي الأخرى . قدَّر بيبرس وجود حوالي مئة صبي يرتدون مثل ثيابه . رقم جيد وهو حتماً أكبر من أية مجموعة شكَّل جزءاً منها من قبل . بعد أن تأكد قطز من عدم تغيب أي شخص ، انطلق نحو الجدار المحيط بساحة التدريب مهرولاً ، ولحقه الآخرون مطيعين . تبعهم بيبرس ، شعر ببعض الغرابة لكونه يمشي ويهرول وظل يحس بشيء من الضعف حتى انتظمت خطواته . رغم ذلك ، لم يجد صعوبة في اللحاق بهم .

كانت الفرق الأخرى تقوم بالنشاط نفسه ، ولم يطل بهم الوقت حتى انتظمت خطواتهم جميعاً ، يركضون في دورات حول الساحة . لم تكن هناك أية اغنيات ، ولا أناشيد يضبطون عليها إيقاعهم ، وأحصى بيبرس خمس دورات ثم عشراً ، وبعدها توقف عن العد حين أخذ يستمتع بتدفق الدماء في أعضائه ولسعة الهواء البارد في خياشيمه ورئتيه .

الساحة أكبر مما قدره في اليوم السابق ، تبلغ المئتي خطوة في جانبيها الأقصر ، استرخى واستغل الفرصة ليتفحص محيطه أثناء ركضهم . الأبنية المحيطة بالساحة هي مكعبات خالية من أية علامات فارقة ، بعض

النوافذ المطلة على الساحة مزودة بقبضان حماية ، ولكن لم يكن هناك ما يشير إلى وظائفها من مجرد منظرها ولا لسبب وجودها مطلقاً . كانت هناك بضع أشجار تحيط بالجدار من الخارج والسياج الذي يعلوها وهذا كل شيء . هذه كانت المناظر التي ستحيط به للسنوات القادمة .

نظر بيبرس إلى بناية المدرسة حيث وقفت مجموعة من الرجال المرتدين ملابس رائعة ، يشرفون على التدريبات الصباحية .

كلهم ملتحون ويرتدون العمامات ، الأقمشة التي تزين وسطهم مزيج غريب من الأبيض البسيط ونماذج باللون الأرجواني ، وكأنهم استخدموا طولين مختلفين ونسجوهما معاً بطريقة ما ، ارتدوا سراويل ضخمة واسعة ، فوق أحذية صغيرة تلتوي إلى فوق عند أصابع القدمين ، وقد تناقض اللون الأزرق في سراويلهم مع الأحمر الفاقع لستراتهم التي يرتدونها بدون أزرار ، بل يغلقونها بوشاح قماشي ملتف حول وسطهم مثل حزام . أحصى بيبرس ما لا يقل عن ثلاثة خناجر مختلفة داخل كل واحد من هذه الأحزمة ، ثم حمل الضباط كلهم سكيناً آخر فوقهم ، مثل سيف قصير ، غمده مربوط إلى أكتافهم بحبل رفيع . كل واحد منهم ما عدا اثنين ، يحمل رمحاً طويلاً رفيعاً ، وكل رمح أطول من الرجل الذي يحمله ، وعلى طرفه نبلة بسيطة من الحديد لكنها تبدو قاتلة ؛ لأنها قادرة على اختراق الدرع واللحم والعظم خلفه في حال معرفة القاذف بما يفعله . قرر بيبرس أن هؤلاء الرجال جاهزون لخوض المعركة على الدوام . وهو موجود هنا ليصبح واحداً منهم .

كان ايديكين قد خرج من داخل المبنى ووقف يراقب تقدمهم هو الآخر . استمروا في الدوران ، محافظين على الهرولة الثابتة نفسها . ارتفعت الشمس أكثر وأحس بيبرس بطبقة من التعرق على ظهره وصدره . بدأ يتنفس بقدر من الصعوبة الآن ، لكن الانفراج الذي أحسه لوجوده في العراء وقلبه يخفق بعنف ، منحه شعوراً بالفرح والخفة .

شعر بثقل ينداح عن كتفيه وأخذ يفرد ذراعيه كأنه صحا من النوم لتوه . لدى وصولهم إلى مدخل المبنى الرئيس ، لاحظ أن ايديكين يبتسم له . استمروا يركضون لفراسخ عديدة وترك بيبرس عقله يرسخ ، بحيث يجعل ضميره خالياً من الذنوب بقدر انفراج عضلاته .

صدر أمر صارخ من الفتى الذي يقود فجأة ، ما جعل الأولاد يتباطأون ويتجمعون في طوابير ، بعد ذلك ساروا نحو ما ظهر مثل بقعة مقررة سلفاً وسط الميدان .

انتظم بيبرس في مسيرة مع بقية فصيله وراء قطز ووصلوا إلى منطقتهم . أحس ببعض الحماقة لكونه الفتى الجديد الذي خالف خطوات الآخرين ، وحتى أكثر حماقة حين استمر في المشي بعد أن استدار الآخرون وتوقفوا . أصلح موقفه واتخذ مكانه إلى جانب اثنين من الأولاد الشراكسة اللذين تحدث إليهما في الليلة الماضية . بدأ قطز يصدر الأوامر فاستجابت المجموعة الصغيرة بالقفز في الهواء ثم رفع الأيدي فوق الرؤوس مع مد السيقان على الجوانب لتشكيل ما يشبه النجم .

تساءل في سره «هل هذا هو ما يفعله الجنود؟»

بعد حوالي خمسين قفزة ، نزل قطز إلى الأرض وبدأ يخفض ذراعيه ويرفعهما ، مركزاً قدميه من جهة الأصابع لتحملا ثقله . كان بيبرس خبيراً بهذه الحركة من منافساته مع أبناء القرية وبدأ يتابع القائد بحماسة ، منافساً لقطز دفعة بدفعة . بعد خمسين دفعة نهضوا واقفين ليحاولوا لمس أصابع قدميهم بالبنان ، ثم أقعوا ونهضوا ، تمددوا وأخيراً عادوا إلى تكرار العملية كاملة من جديد . لاحظ بيبرس أن كل واحدة من المجموعات العشر تؤدي تمارينها الخاصة بها ، مع استمرار قادتهم في تحديد الوضع التالي الذي عليهم اتخاذه ، تعلم بسرعة أن الأولاد والقادة يطلبون تمريناً مختلفاً كل صباح حتى يبقى الأولاد يتساءلون ويبذلون مجهوداً أقوى . مع نهاية الحصة الثالثة ، سمح لهم قطز بالاستراحة لأن ساقيه قد بدأتا

ترتجفان . أغمض عينيه وانتظر حتى يهدأ خفقان قلبه ، حتى أجفانه كانت ترتعش .

قبل أن يمر أي وقت ملحوظ ، صدر أمر آخر وتلفت حواليه ليرى الأولاد ينهضون واقفين وينتظمون في الصفوف . بدأت الفصائل المتقدمة تعود إلى داخل المدرسة . تنهد بيبرس ثم قرر أن لا يسمح لمعنوياته بأن تتراجع في أي لحظة . ما إن سوّى قامته حتى أجفله صوت صادر من خلفه .

قال الصوت «ستجيء معي يا بيبرس . أنت ما زلت غير جاهز للانضمام إلى دروس رفاقك بعد» . استدار بيبرس وشاهد زوجاً من الأحذية الجلدية الطويلة المصنوعة بعناية ثم رفع رأسه ليشاهد ايديكين واقفاً هناك ، وقد رسم على وجهه تعبيراً ودياً . قفز بيبرس وحاول أن يتهيأ في وقفته . قال ايديكين «إنني أظن أنك جائع أيضاً ، لقد عملت بجد في صباحك الأول ، لكنني لا أعتقد أن المجهود كان عبئاً صعباً عليك ، صحيح؟»

قال بيبرس «أشكرك يا سيدي . لقد كانت معاودة الركض أمراً محبباً» .

هزَّ ايديكين رأسه موافقاً «أنت لست بحاراً بالفطرة ، رغم أنك كنت ستفلح في ذلك ، كما قال فابيو ، لو لم ينظر إليك بحارته على أنك نوع من الشياطين أو يونس» بدأ يتمشى نحو المدخل فتبعه بيبرس .

«هل قلت يونس؟»

«نعم يا بيبرس . أنت تعرف القصة القديمة؟ لا؟ حسناً ، ربما سيتوفر وقت لها بعد دروسك . قل لي ما مقدار معرفتك باللغة العربية؟»

«أعرف سيِّد وسيدي ، يا سيدي؟»

توقف ايديكين ونظر إليه «هل هذا كل ما تعرفه؟»

طأطأ بيبرس مؤكداً .

«من هو الذي سيحاول أن يؤذي السلطان؟»

«هناك الكثير من الأعداء في الداخل والخارج . سيحتل الفرنجة والمسيحيون الآخرون القدس كلها لأنفسهم إذا اتيحت لهم الفرصة . هناك هدنة قائمة في الوقت الحالي ، لكنها لم تصمد ، واسمع كلامي ، فإن السلطان الصالح سوف يحتاج إلينا عندما يحين ذلك الوقت ، لأنه عندما تكون هناك جائزة في مثل قيمة القدس . فهو لا يمكنه أن يثق حتى بأمرائه» .

«هل نحن نتدرب لمقاتلة المسيحيين؟»

هزَّ ايديكين رأسه «في البداية ، وبعدها كل من يأمرنا السلطان بقتاله . ليس لنا ولاء لغيره ، تذكر هذا : لا عائلة ولا أصدقاء فيما عدا إخوتك في السلاح» .

«لماذا توجد هدنة طالما هناك قتالٌ ينبغي الخوض فيه؟»

«لقد اتفق رجلان محترمان : فريدريك امبراطور روما ، والسلطان الكامل ، والد السلطان الحالي الصالح ، على أنه ما دام المسيحيون والمسلمون لن يتوقفوا عن القتال لأجل المدينة ، فليتشاركا فيها بدلاً من القتال . احتفظ المسلمون بالمناطق المهمة لهم إسلامياً واحتفظ المسيحيون بمناطقهم» .

دفع ذلك بيبرس إلى التفكير «يبدو ذلك منطقياً بالنسبة لي» .

«كان كذلك ، لكنه لم يكن كافياً بالنسبة للبابا والحيوانات المتعطشين للدماء الذين كان فريدريك يحاول أن يسيطر عليهم . لقد رفضوه لأنه على الرغم من استعادته المدينة الأقدس لهم ، ، لم يتمكن من إبادة كل شعوب وجيوش الإسلام» .

أحسَّ بيبرس بدفقة قوية من الدماء «إنهم متعطشون للدماء» .

ابتسم ايديكين «إذا كان لابد من قول الحقيقة ، فقد وجد الكثير في بلاط السلطان ممن قالوا إنه كان يجب عليه أن يقتل فريدريك ويذبح جيشه أيضاً» .

«إذاً لماذا لم ينجح الأمر مادام الامبراطور والسلطان قد أمرا بذلك؟»

«حسناً ، إنهما لم ينظما الهدنة لتدوم أكثر من عشر سنوات ، قبل أن يلتقيا مرة أخرى ليجددا قسمهما بالإخلاص لبعضهما بعضاً . لكن يقوم الآن البابا وأعوانه بشن الحرب على فريدريك هناك في إيطاليا وقد توفي السلطان المبارك الكامل . كذلك يقوم المسيحيون في عكا لجهة الجنوب - أولئك الذين يسمون أنفسهم ملوك القدس ، والذين لعنوا الامبراطور فريدريك وبصقوا على الأرض التي مشى عليها - يقومون بتحضير أنفسهم للحرب مرة أخرى ، لأنهم جمع من الكلاب» .

اكتشف بيبرس أن مجرد الفكرة قد أغضبته ، فقال «في هذه الحالة ، ينبغي إيقافهم ودفعهم إلى الخلف» .

أشار ايديكين برأسه باتجاه الساحة إلى الأسفل ، حيث كانت الأصوات تسمع في هذه الساعة «ذلك صحيح يا بيبرس . اذهب الآن . لديك المزيد من التمارين التي يجب عليك أداءها طالما الطقس قد مال إلى البرودة» .

وهكذا انقضت أيامهم . يتدرب بيبرس في الصباح ثم يتلقى دروسه ويتناول الطعام مع ايديكين ، ثم ينضم إلى فرقته الصغيرة مرة أخرى للتدرب على فنونهم القتالية باستعمال السيف ، الرمح القصير ، والقوس والسهام بعد الظهر . كذلك كان هناك ركوب الخيل كل يوم ، لأن المقاتلين الشراكسة المستقبليين ، مجبرون على تحويل أنفسهم إلى خبراء في الفروسية وركوب الخيل تحضيراً للمعارك القادمة .

كثيراً ما كان يقول لي «ليست هناك حياة أفضل يا عبد . حياة المقاتل الشركسي ، التدريب ، الدراسة ، تطوير كل من العقل والبدن حتى يصبح كلاهما السلاح الأكثر فتكاً - ذلك هو ما قدَّره الله لنا . يريد لنا أن نصبح أقوى ما يمكن ، ولذلك فسوف نفوز ونكسب النصر النهائي . إن أعداءنا ميالون إلى الليونة . تذكر ذلك . إنهم لا يشكلون شيئاً بالمقارنة مع أسلافهم ، ولسوف أدمرهم» .

في البداية ، كوَّن بيبرس هذه الأفكار التي بقيت معه طيلة حياته ، جالساً على الرمل وفي مكتب ايديكين في حلب .

في بعض الأيام ، يخرج ايديكين خريطته للمشرق ويؤشر على المدن المختلفة التي ينبغي على بيبرس أن يكون ملماً بها . في الشمال ، كانت توجد القسطنطينية بالطبع ثم نيقية ، بينما توجد أنطاكية وحلب تحتهما ، حيث يجلسان الآن ، وبعد ذلك نزولاً توجد دمشق وطرابلس ثم صور والقدس ومكة والمدينة ، ثم القاهرة والاسكندرية . أثناء إشارته إلى كل مدينة بدورها ، صار يقدم لبيبرس بضع معلومات عنها حتى ترسخ في ذهنه .

القدس هي المكان الذي عرج فيه سيدنا محمد ، عليه صلوات الله ، إلى السماء . . .

لقد سميت الاسكندرية بهذا الاسم لأن الذي أسسها قبل ألف وخمسمئة سنة هو الاسكندر الكبير .

تعني كلمة صور «الصخرة» بلغة القدماء ؛ لأنها بنيت في البداية على جزيرة بعيدة عن الشاطئ من أجل الأمان والحماية .

مع ذهول بيبرس من كل هذه المعلومات ، أخذ ايديكين يضيف بعض التعابير والكلمات ذات المدلول الإسلامي إلى حديثه . تعلم بيبرس أن الكلمة العربية المرادفة للمجتمع هي **الأمة** ، وأنها تستخدم ليس فقط للدلالة على مجرد الناس الذين هم حولك أو في حيِّك ، بل جميع المسلمين . فبدلاً من أن يكونوا أشخاصاً فرديين ، وحدهم في الدنيا كما هو في حينه ، فهم جميعاً شخص واحد . كانت هذه فكرة قوية بشكل خاص لصبي تم قبوله منذ اللحظة التي عبر فيها داخلاً بوابة مدرسة التدريب بعد أسابيع من العزلة والقسوة .

ظل قطز يصرخ فيه وهو يشير بقوة «**مقامك يا بيبرس! هذا مكانك!**» فيطأطئ بيبرس برأسه ويهرول إلى حيث طلب منه في الطابور ، وهو

يطلق ابتسامة عريضة . بعد ذلك أخبره ايديكين عن قوة وأمجاد الأمويين ، أول سلالة تحكم الخلافة ، الامبراطورية المسلمة التي آوت جميع المؤمنين . اندثرت تلك الخلافة في هذا الزمن ، لكن ايديكين بات مقتنعاً بأن السلطان سوف يعيد بناءها في الأعوام القادمة . قد يتطلب هذا المسعى مقاتلة رجال آخرين يسمون أنفسهم مسلمين ويصل الأمر إلى الفتنة ، وهو زمن من الحرب الأهلية أو النزاع الدموي ، لكن السلاطين المقاتلين الذين يخدمونهم سوف ينتصرون بسبب إيمانهم النقي بالله ورسوله .

سرد ايديكين كذلك **الأحاديث** حتى يتذكرها بيبرس بينما هو يمارس تدريباته اليومية . شجعه ايديكين على تفسير ما يعتقده حول المغزى منها . ماذا كانت رسالة النبي (ﷺ) وراء كل حديث؟ ما الذي كان يحاول أن يعلمنا إياه؟

لم يتوفر لدى الفتى الوقت الكافي للتفكير في أي شيء أثناء دروسه الابتدائية بعد ظهر كل يوم ، لأن المدربين لم يمنحوه أي فسحة في أي من تدريباتهم . سمح لبيبرس أن يتجاوز السنوات الأولى الصعبة من تدريبه وينضم إلى ما يعتبرونه المجموعة الأكثر امتيازاً : ولذلك فهو مرغم الآن على أن يبرهن بأنه يستحق هذا التكريم . سلموه سيفاً خشبياً عصر أول يوم وطلب منه أن يدافع عن نفسه في نزال مع صبي أطول منه قامة . شكلت بقية المجموعة حلقة حولهما للفرجة ، يصرخون بالتحذيرات والتشجيع بالمقادير نفسها .

«احترس الآن يا بيبرس! إن حركة تيكا السرية تنطوي على الجلوس فوقك!»

«هل ستسمح للفتى الجديد بأن يتفوق عليك يا تيكا؟»

«دعنا نرى المعدن الذي صنع منه الشابسوغ يا بيبرس!»

ألقى بيبرس نظرةً إلى خصمه وتفحص ساقيه الأشبه بجذوع الأشجار ورقبته الغليظة . واضح أن تيكا خصم يتمتع بقوة بدنية هائلة ،

وقد دأب في هذه اللحظة على فتل سيفه في دوائر ، وقد أوضحت تعابيره الصارمة أنه لا ينوي أن يخسر هذا النزال .

أعطى قطز الإشارة بالبدء وفاجأ الصبي ذو الصدر المليء بالعضلات بيبرس فوراً بالقدوم نحوه بمجموعة سريعة متوالية من الهجمات والتطويحات .

إنه سريع

انفتحت عينا بيبرس على اتساعهما حين لاحظ أن النظرة على محيا خصمه تتحول إلى ما يشبه السعار ، واستطاع أن يتجنب ويبطل التطويحات الهوجاء القادمة إلى وجهه وذراعيه بصعوبة بالغة ، وهو يتراجع إلى الخلف طيلة الوقت .

ألفى نفسه في موقف المتراجع للمرة الأولى منذ زمن طويل جداً ، وتطلبت استعادة التوازن وإيقاف تقدم تيكا بضع لحظات .

توقف . . . اصمد . . . توازن . . . سيطر على حركاتك . . .

ثبت في موقعه هناك وحافظ على صموده ثم بدأ يحلل نمط هجمات الفتى الآخر .

حدث كل هذا في مسألة ثوانٍ ، لكن بمجرد أن فهم بيبرس خطوات تيكا ، أصبح الأمر قضية توقع أين ستكون طعنته التالية موجهة والتحرك لصدها . شعر بمقدار عظيم من الرضى حينما رأى الإدراك يحل على وجه الفتى الضخم ، والذي مؤداه أن القادم الجديد هو في مثل براعته بالسيف على الأقل ، وبعد ذلك ، تحول الوضع إلى أن الفتى الأصغر حجماً هو المهاجم بدرجة واضحة .

هدأ بيبرس الآن ، وهو يمارس ما يأتيه بسهولة ، وبدأ يرى فجوات تتفتح أمامه من خلال حلول التعب على تيكا .

هو ليس معتاداً على القتال لأكثر من دقيقة . . . يجب عليه أن يطرح الآخرين أرضاً في الضربات القليلة الأولى .

قرر بيبرس أن يهاجم، ركز قدميه ووزع ثقله حيث يجب بالضبط. سمح لتيكا أن يوجه بضع ضربات أخرى حين لاحظ أن الذراع اليمنى قد أخذت تتباطأ في كل مرة ترتفع فيها راجعة إلى موقعها قبل الهجمة.

الكتف... ولكن لا تؤذه كثيراً

هجمة أخرى وتقدم بيبرس ناقلاً جسمه إلى ناحية. ضربة شديدة من خلال الحماية الرخوة ثم أخرى بعدها مباشرة، كان بإمكانه أن يستمر حتى يلقيه أرضاً ولكن لم تكن هناك حاجة. احتوى السيف الخشبي على ما يكفي من الوزن ليخرج من تيكا نخرة ألم عندما استقرت على المنطقة الرخوة بين رقبته وكتفه، فألقى الفتى سلاحه وسقط على ركبتيه. رفع بيبرس قبضته اليسرى فوق وجهه ليوضح بجلاء ما سيفعله في حال استمرار النزال، لكن تيكا رفع يديه مستسلماً.

هتف قطز «قاتلت جيداً يا بيبرس!»

تراجع بيبرس خطوة ورفع سيفه بالرد، قبل أن ينحني إلى الأمام ويساعد خصمه المهزوم للوقوف على قدميه. تناول تيكا يد بيبرس مع إيماءة ونهض. فهم بيبرس أن الفتى خائب لكونه خسر، لكن لم يبد عليه أن ذلك سبب له أية مرارة.

ضربا كفيهما اليمنيين ببعضهما للتدليل على عدم وجود أية مشاعر سلبية ثم استعادا موقعيهما في الطابور. نادى قطز على اسمين آخرين فدخل الاثنان المنتقيان إلى الوسط وأخذا يتبارزان وسط صيحات التشجيع نفسها التي أطلقها الجمع على بيبرس وتيكا.

كشف ايديكين في اليوم التالي أنه كان يراقب النزال أثناء تناولهما الإفطار في مكتبه.

«أنت بالتأكيد مقاتل شركسي بالسيف يا بيبرس! إن تيكا مقاتل جيد، وهو الأفضل في تلك المجموعة باستثناء الشاب قطز، لذلك يجب عليك أن تكون مستعداً للتدرب معه في المرة القادمة».

استمر بيبرس في محاولاته التعود على الطعام في مدرسة التدريب ، تناول ثمرة فاكهة لم يكن قد رآها من قبل : حبة تمر وتفحصها متشككاً . وافق قائلاً «إن تيكا مقاتل جيد ، وأنا واثق من أن قطز جيد أيضاً» .

«هو أيضاً قائد ذلك الفصيل . لن يتلقى الهزيمة بطيب خاطر إذا هزمته أمام مرؤوسيه . إذا فعلت ذلك ، فيحتمل أن تصبح قائدهم» .

توقف بيبرس عن المضغ ونظر إلى ايديكين . فهو لم يكن قد فكر في ذلك . قال «لم أفكر في ذلك» .

ابتسم ايديكين وتناول حبة تمر بدوره . قصم نصفها وجلس يمضغ وقد علت وجهه أمارات تفكير عميق . سأل أخيراً «ماذا سيكون رأيك في الوضع؟»

«ما الذي تقصده؟»

«أقصد ما هو رأيك؟ ما هو رأيك حينما تسمع أنك بالفوز على قطز بالطريقة نفسها التي فزت فيها على تيكا ، سوف تصبح القائد لفريقك الصغير الخاص بك؟»

«أعتقد أنني غير جاهز» .

ابتلع ايديكين وهزَّ رأسه وكأن حبة التمر قد خلفت طعماً مريراً «إذا كنت تفكر بتلك الطريقة فأنت لن تصبح جاهزاً أبداً» .

«إنه مجرد الأسبوع الثاني لي هنا» .

«ليس ذلك سبباً ليمنعك» .

توقف بيبرس وفكر «لقد كنت أفكر . . . أنا لا أعرف هذا المكان . لن أتمكن من معرفة ما ينبغي عليَّ عمله» .

نفض ايديكين رأسه مرة أخرى «وقتها ستقوم بتعيين مساعد يعينك على القيام بالأمور التي لا تعرفها . أنا أوصي بتيكا . هو حتماً ليس الأكثر دهاءً ، لكنه مخلص وقوي ، وينظر إلى واجباته بمنتهى الجدية . لقد رأيت بنفسك كم كان متشوقاً لأن يقطع رأسك بالأمس» .

لم يسمع بيبرس هذه الجملة لأنه كان غارقاً في التفكير ومتأخراً خطوة. «لا أعرف من اللغة العربية غير الكلمات القليلة التي علمتني إياها».

«ماذا؟ وكيف يهم ذلك؟ لا يتعلم معظم المقاتلين الشراكسة من اللغة العربية إلا ما يحتاجون إليه لقضاء حاجاتهم. نحن في نهاية المطاف جنود ولسنا شعراء. كم من الكلمات يحتاج الجندي؟»

«ليست لدي أدنى فكرة».

«يبذل القائد الناجح أفضل جهوده حتى لا يستعمل أكثر من عشر».

«عشر!»

«وحتى أقل من ذلك في الأيام العادية. يمكنك أن تتذكر عشر كلمات. صحيح؟»

«نعم، ولكن...»

«ولكن لا شيء. لا يعرف تيكا الكثير، لكنني واثق من أنه يعرف الكلمات العشر أو العشرين التي ستحتاجها لتصريف الأمور».

«إذا لم يكن تيكا ذكياً جداً، ألا يفترض فيَّ أن أجعل شخصاً آخر مساعداً لي؟»

«آه، وهكذا ستحاول أن تقودهم؟»

«لم أقل ذلك».

«لم تكن مضطراً إلى قوله. والآن، ماذا كان سؤالك؟»

«إذا لم يكن تيكا ذكياً جداً، ألا يفترض فيَّ أن أجعل شخصاً آخر مساعداً لي؟»

مال ايديكين إلى الأمام في جلسته وشبك أصابع يديه فوق المكتب.

«يا بيبرس، أول قاعدة في القيادة هي ما سأخبرك إياها - اختر خدمك بعناية.

إن قـوة الجنرال تنبع من قـوة الرجـال الذين هم تحت إمـرته ، وإذا لم تحصل على ملازمين أكفياء فسوف تضيع . الآن ، سيجيء وقت تحتاج فيه إلى رجال أذكياء . لقد سميتك رجل سيف لتوي . وكما أن السلاطين المقاتلين لديهم رجال سيف ، فهم أيضاً لديهم رجال الريشة . أؤكد لك أنهم بأهمية المقاتلين نفسها» .

لاحظ النظرة المتشككة على محيا بيبرس وقرر أن يتجاهلها . «الآن ، أنت لست بحاجة إلى شخص ذكي جداً حتى يساعدك في غاياتك الحالية . الناس الأذكياء خطرون لأنهم كثيراً ما يعتقدون بأنهم أفضل من الرجال الذين يخدمونهم ويسعون إلى التآمر عليهم ، حتى إنهم ينقلبون عليهم ويغتصبون مراكزهم . صحيح أنك قادم جديد ، ولذلك فسوف تكون ضعيفاً تجاه مثل هذه الأمور . بكل الأحوال ، إذا تحالفت مع تيكا ، وهو الفتى الذي هزمته لتوك ، ولاحظ أنك هزمته بطريقة مشرفة ، فإنك ستوفر على نفسك مثل هذا الهم .

لقد أخبرتك مسبقاً أنه قوي ومخلص ، ولديه ما يكفي من التعلم لأن يؤدي المهام التي يتفرغ لها . بوجوده إلى جانبك ، لن يكون هناك من يتحداك ، وهذا يشمل قطز وزمرته» .

لم يقل بيبرس أي شيء لوهلة ، ثم رفع رأسه «سيِّدي ، لماذا أنت تخبرني هذه الأشياء؟»

«لأنك تمتلك إمكانيات مقاتل عظيم يا بيبرس ، أستطيع أن أرى ذلك فيك . لقد رأيت إمكانياتك بمجرد دخولك مع فابيو إلى بيتي . لا يحصل هذا الأمر كثيراً» . استند إلى الخلف . «نحن بحاجة إلى مقاتلين عظام إذا كنا سننجو من التجارب والمحن القادمة . أرى ذلك أيضاً . لديك علامة الفهد في عينك ، بيضاء لاهبة فوق السواد . هل تعرف ذلك؟»

سمح بيبرس لنفسه بابتسامة صغيرة «لقد قيل لي إن العلامة على شكل أشياء كثيرة» .

«إنها فهد أبيض يا بيبرس ، وهي موجودة هناك لسبب . لقد انتظرت بالأمس حتى حلول اللحظة الملائمة تماماً لتضرب تيكا ، تماماً كما يفعل الفهد . قريباً سيدعوك قطز لمنازلته ، هو مضطر لذلك . لا تظن أنها ستكون مجرد تدريب عادي ، سوف يسعى إلى هزيمتك حتى يرى الجميع ذلك . احتفظ بقوتك حتى يدعوك ثم اضرب بلا هوادة أو رحمة» .

أومأ بيبرس برأسه مشيراً إلى فهمه .

قال ايديكين «جيد! والآن ، لنكمل دروسك . ما الذي كنا نتحدث عنه بالأمس؟»

حلم في تلك الليلة ببيطا . . . كانا قد عادا إلى سطح السفينة ، ينظران إلى عش الغراب على رأس الصاري . رفع بيبرس يده ليحمي عينيه من وهج الشمس بينما كان بيطا يشير «انظر إليه يا بيبرس! هل تراه!» .

قال «كلا! لا أستطيع أن أرى أي شيء» .

«انظر أعلى»

مال بيبرس إلى الوراء ونظر . ثم وجد نفسه يتسلق السلم المصنوع من الحبال صاعداً الصاري بنفسه . «أعلى! أعلى! هل أنت خائف أيها الولد الصغير؟» نظر إلى الأسفل ورأى دانا واقفة حيث كان هو قبل لحظة ، إلى جانب بيطا . كان كلاهما ينادي عليه «هيًا يا بيبرس! ألست قادراً حتى على الوصول إلى قمة ذلك الشيء السخيف؟» صاحت به دانا «وأنت الذي أصبحت الآن مقاتلاً عظيماً» .

وصل إلى حافة عش الغراب ولوَّح بساقيه من فوق الجانب ودخل . نظر إلى الأسفل وهو مضطجع على بطنه ، لكن بيطا ودانا كانا قد اختفيا . مسح السطح من المقدمة إلى المؤخرة : لاشيء ولا أحد . نهض واقفاً . استطاع أن يميز برجاً هائلاً عند خط الأفق ، يشع منه نور ساطع إلى درجة أنه التمع حتى برغم نور الشمس المبهر لذلك النهار .

أمسك بالصاري ووقف منتصب القامة ، بينما استمرت السفينة في الإبحار باتجاهها . المنارة . لقد كان يبحر نحو منارة الاسكندرية . لم يكن قد رآها من قبل لكنه عرف . هذا هو حلمي في نهاية المطاف .

نظر خلفه ليجد بيطا ودانا واقفين معه . شعر بالغبطة . كان يحمل سيفاً بيده اليمنى ، سيف شرقي معقوف رائع ما كان لأحد أن يصنعه غير والده . رفعه وقرَّب النصل من عينيه متفحصاً . انعكست إليه من على مرآة السطح الأملس كلمات من القرآن الكريم في وسطها فهد جاثم . ترك السيف ينزل إلى جانبه وعاد إلى مراقبة الشاطئ الذي يقترب حثيثاً .

لم ينتظر بيبرس طويلاً قبل أن يقوم قطز بحركته . بعد حديثه مع ايديكين ببضعة أيام ، كانوا قد أتموا تمارينهم البدنية والتدرب على رماية القوس قبل أن يتلقوا التعليمات حول تقنيات المبارزة بالسيوف من أحد القادة الأكبر سناً . عرض القائد الحركة ، وهي مزيج من التصدي والهجوم المعاكس مع قطز ثم مع كل واحد منهم بدوره . بعد أن اقتنع بأنهم فهموا أساس الدرس ، اصدر أوامره لقطز بأنه يجب عليهم أن يتمرنوا على شكل أزواج إلى حين عودته . قال القائد ذلك وامتطى حصانه وتركهم في زاويتهم من ميدان التدريب .

قال قطز «لقد سمعتموه ، شكلوا أزواجاً . بيبرس ، أنت معي» .

أطاع بيبرس الذي كان لحظتها واقفاً إلى جانب تيكا الذي أصبح رفيقه المعتاد ، واتجه نحوه .

راقبه تيكا لوهلة ثم استدار ليبحث عن رفيق جديد .

وقف بيبرس حاملاً سيف التدريب الخشبي ، ينتظر من قطز أن يبادر «سوف نتبادل الأدوار ، في البداية سوف أهاجمك ثم تهاجمني أنت . مفهوم؟» قال الفتى الأكبر سناً وهزَّ بيبرس رأسه .

اتخذ قطز موقف الاستعداد . «حسناً . نبدأ!» تحرك للهجوم بسرعة إلى

درجة أن بيبرس بالكاد توفر له الوقت ليرفع سيفه ليبعد الهجمة ثم يعود إلى الهجوم .

عندما اقترب ، كما بيَّن القائد لهم ، دفعه قطز بكتفه بخشونة وأرجعه إلى الخلف بحدة ، وقد عانت قدماه للحفاظ على توازنه . قال قطز مظهراً استياءه «حافظ على وقفتك!»

ابتلع بيبرس الإغراء بالاعتراض لكون عمل قطز ليس جزءاً من التمرين ، لكنه أدرك أنها مسألة بسيطة والرد عليها هو أنه يجب توقع أي عمل أثناء المعركة .

هذه ليست رقصة

جاء الآن دور بيبرس في الهجوم ودور قطز في الرد . أدى حركته كما تعلمها وتجنبها قطز قبل أن يدور حول نفسه ويقوم بالهجوم المعاكس . دوَّر الفتى الأكبر السيف الخشبي عالياً في الهواء ولطم به أسفل القفص الصدري لبيبرس .

خطا إلى الخلف بانتظام واتخذ موقف الدفاع مع كثير من الوقت ليرى فيه نظرة الغضب تشتعل في عيني بيبرس . «ابتلعها يا بيبرس ، إن المقاتلين الشراكسة لا يرحمون حينما يستعر إوار المعركة» .

استقر فم بيبرس على خط مشدود واستعد لتلقي الهجمة والمهاجمة مرة أخرى . بدأ بعض الفتية القريبين منهما ، والذين كانوا يتمرنون على الحركة بأقل قدر من الالتحام ، يراقبونهما من زوايا أعينهم . انقض قطز على بيبرس بكامل قوته وتجنب بيبرس الهجوم كما تم تعليمه واستدار ، مستخدماً قوة اندفاعه ووزنه ليحمِّل ضربته الجوابية المزيد من القوة .

لم يتسنَّ له الوقت الكافي لإتمام الحركة لأن قطز ، المدرك لما سيحصل ، رفع مرفقه الأيمن وقابل به فك بيبرس بضربة ذات صوت مسموع . بدأ رأس بيبرس يدور في الوقت نفسه الذي تفاقمت فيه قوة الاصطدام فتمايل . عندما لاحظ قطز سوء حالة بيبرس ، نقل مقبض

سيفه إلى يده اليسرى واستعمله ليدفع بيبرس قبل أن يطرحه أرضاً .

أصبح كل الأولاد يراقبونهما الآن ، وضحك بعضهم حين سقط بيبرس على وجهه في التراب .

صاح فيه قطز «احتفظ بحمايتك أيها الغبي! سيحطم أحد الفرنجة وجهك بكفه الفولاذية إذا أعطيته ثغرة مثل هذه .» لم يرد بيبرس . فقد كان رأسه يعاني من الدوار نتيجة الضربة الأخيرة . بات يتساءل عما يؤلمه أكثر : تلك الضربة أم لسعة الإذلال . «هيّا انهض ولا تتكاسل . قم وقف على قدميك . ذلك أمر» .

نهض بيبرس على يديه وركبتيه وسحب نفساً عميقاً . حطت يد على كتفه ، رفع رأسه ليرى تيكا منحنياً فوقه ، ماداً ذراعه . تناولها بيبرس ونهض واقفاً . وقاما بتبادل النقر على الكفين بما أصبح الآن تقليداً لديهما . بات صدغه ينبض وكان هناك ألم غامض خلف عينيه وجبينه . واجه قطز ورفع دفاعه .

قال «دوري» .

بان على قطز الغضب ولكن مع وجود كل الأعين مسلطة عليه ، لم يعد بمقدوره أن يظهر أي تردد أو ضعف .

انتهى النزال في أقل من الوقت الذي استغرقه سقوط قطز إلى الأرض . قام بيبرس بالهجوم بالابتدائي ، بما يكفي من القوة هذه المرة لأن يتمكن قطز من تفادي الضربة بمنتهى الصعوبة ، وعندما انفتل ليقوم بهجومه المعاكس ، وقف بيبرس له ظهراً لظهر ثم رفع ركبته ليضرب بها خاصرة قطز غير المحمية . خرجت من فم قطز «أووف» من الألم الصارخ حين انطرد الهواء من رئتيه . حاول أن يرفع سيفه ليرد الضربة وهو مازال منحنياً ، لكن بيبرس أنزل عقب سيفه على ظاهر يد قطز بقوة ، جعلت كل من يراقب يغمض عينيه متأثراً من الألم . أنهى قطز النزال غائباً من الوعي ، ووجهه مطمور في الرمل . نظر بيبرس إليه لحظة ثم واجه بقية

المجموعة ، الذين راقبوا بكل تجرد قائلاً «عودوا إلى ما كنتم تفعلونه . تيكا ، أنت معي» . طأطأ وتحرك إلى الأمام . قامت بقية الفصيل بأداء ما أمروا به ، فيما عدا شخص أو اثنين عرف بيبرس أنهما على صداقة بقطز . «الآن» . قالها بكل هدوء وروية ، فيما كانت عيناه السوداء والبيضاء تشعان غضباً . نظرا إليه ثم إلى تيكا الواقف بجانبه ، ثم أطاعا بأقل قدر ممكن من إظهار الخضوع وعادا إلى المران . استمر بيبرس في الوقوف مكانه لحظة أخرى ثم رفع سيفه باتجاه قطز «هل ما زال يتنفس؟»

ركع تيكا ووضع يده على وجه الفتى ثم أومأ برأسه إيجاباً .

«حسناً . سأهاجم أولاً وأنت تصد» .

سكب ايديكين عصير الفواكه من شدّة ضحكة «ها ها ها! وكم لبث ملقياً هناك؟»

«حوالي عشر دقائق . تحرك بعدها ثم جلس ونظر حواليه وحاول أن ينظم صفوفنا لكن أحداً لم يعره أي اهتمام» .

«ألم أقل لك؟»

هزَّ بيبرس رأسه وألقى بحبة تمر في فمه «لقد فعلت» .

تناول ايديكين رشفة من شرابه ليحرر به حلقة ثم أعاد الكوب إلى مكانه وهو مازال يقهقه . «ليس قطز فتى سيئاً لكن ينبغي عليك أن تراقبه . أراهن أن ثيابه المغسولة والمكوية بعناية لم تكن على تلك الدرجة من الجمال بعد أن فرغت منه . لن يسامحك على ذلك وهو ماهر جداً في تشمم رائحة الضعف . لا تمنحه السانحة . إذا حاول أي شيء اطرحه على قفاه مرة أخرى . هل سببت لك جماعته أي مشاكل؟»

نفض بيبرس رأسه نفياً وتناول شريحة من المانجو . بدأ يتعلم أن المقاتلين الشراكسة يبدعون في تناول الطعام الشهي . «كلا . لقد اتخذت تيكا إلى جانبي كما نصحتني ، وكلانا قادر معاً على أن نهزم بقيتهم إذا وصل الأمر إلى قتال» .

تحول وجه ايديكين إلى الجدية في هذه اللحظة «ذلك أمر محتمل، رغم أنني لا أعتقد أن الوضع سيكون سهلاً بالنسبة إليك».

انتظر بيبرس حتى يكمل الرجل كلامه.

«قل لي يابيبرس. من الذي تعتقد أنه سيفوز في قتال مفتوح بين جيش من فرسان الفرنجة وآخر من الفرسان المقاتلين الشراكسة؟»

توقف بيبرس عن المضغ مفكراً. فهذا سؤال لم يكن يتوقعه

قال أخيراً «المقاتلون الشراكسة؟»

«الاحتمال هو لأ. إن الفرنجة يرتدون دروعاً أثقل بكثير، وإذا التحمنا معهم في قتال على مسافات قريبة كما يفعلون في مبارياتهم، فإن الاحتمال هو أن يفوزوا من خلال القوة الغاشمة وحدها. لقد تعلم صلاح الدين ذلك في ارسوف، حينما هاجم فرسان ريتشارد قلب الأسد واخترقوا قلب جيشه. لقد تمكنت نخبة من حراسه أن تصمد بمشيئة الله وحده وتنسحب بانتظام في تلك المعركة. أما بقية الجيش فقد استدار أفراده إلى الخلف وفروا مثل اوزات مذعورة».

فكَّر بيبرس لوهلة «هل المقاتلون الشراكسة أضعف من الفرنجة؟ كيف يصح ذلك؟»

قال ايديكين «لم يكن ذلك ما قلته، يجب عليك أن تتعلم كيف تصغي إلى كلماتي بالشكل الصحيح. لقد قلت في قتال مباشر، وأعني في حقل مكشوف، فإن النتيجة يحتمل أن تصب في أسلوب الفرنجة في القتال. أحد الأشياء التي سوف تتعلمها معي هنا هي أن تتجنب القتال المفتوح بأي ثمن. إن القائد المقاتل منا لا يسعى ببساطة إلى مقارعة عدوة والتغلب عليه. كلا، نحن نلجأ إلى الأسلوب الأكثر رشاقة ورقياً».

«لقد قيل لي إن اسلحة المقاتلين الشراكسة وقدراتهم في الفروسية هي الأعظم في كل الدنيا».

«هي كذلك. لكننا يجب أن نحرص على أن لا نترك الأمور

للصدف . رغم أن الله قد يكون إلى جانبنا ، إلا أنه لن يهبنا النصر بمنتهى السهولة» .

«ما الذي تقصده؟»

«إن المقاتل الشركسي يقاتل بذكاء . هو لا يهاجم مثل الثور . ماذا يجعل منه ذلك الأسلوب لو فعل؟ حتماً ليس النوع الذي يبقيه السلطان الأيوبي لحمايته» .

بقي بيبرس على صمته ، مصغياً .

«نحن أفضل من ذلك . نحن أعظم الرجال المقاتلين في الدنيا ، وقد تم قبولك في أخوَّتنا لأنك الأفضل يا بيبرس ، أنت من النخبة» .

بقي لدى بيبرس قليل من تواضع الفتى الشركسي القروي في داخله ، جعله ينظر إلى هذا الكلام بالشك .

«لا تدعي الخجل ، لأنه لن ينفعك بشيء في السنوات القادمة . كم يبلغ عمرك؟»

«أربعة عشر ، أظن» .

حدَّق فيه ايديكين بحدة وقال «إذا صح ذلك ، فأنت أكبر من السن الذي يبلغه الأولاد في العادة حينما ينضمون إلى صفوف المقاتلين الشراكسة ، لكن ذلك لا يهم . أنت مازلت في السن التي يشكل فيها العقل أفكاره عن العالم وعن مكانك في هذا العالم .

إذا قررت أن تكون خجولاً ، مثل فتاة تبحث عن حبيب لتغازله ، فسوف تظل كذلك . هذا خيارك . إنني أوصيك بأن تبدأ بالتصرف مثل ذلك المحارب الذي ذبح معظم بحارة سفينة القراصنة ثم تولى قيادة فصيل من مرشحي المقاتلين الشراكسة خلال أسبوعه الثاني . ابدأ بالتصرف بواقع الرجل الذي أنت عليه ، هل فهمت؟»

اكتسبت ملامح بيبرس قسوة الحجر ، ولم يحر جواباً .

«إن الفرنجة أقوياء ، لكنهم بطيئون . تطير خيول الفرسان الشراكسة

مثل السنونوات ثم تلسع أعداءها كما تفعل الدبابير . لا يمكنهم الوصول إليك عندما يلحقوا بك ، وتلسع من يلاحقك بطريقة سامة ، عندما يطاردونك . أنت تطير ، وعندما يتعب عدوك ، فأنت تستدير وتطارده . هكذا نحن نرهق العدو ونتعبه قبل أن ننقض عليه . إجعل حرارة وعطش الصحراء يعملان في صالحك . ليست هذه أراضيهم ولا هو مناخهم يا بيبرس : أرهقهم ، جوِّعهم . اجعلهم يعطشون كما فعل صلاح الدين في قرون حطين ، حين أمطرهم بالنبال والقذائف . تتساقط سهام المقاتلين الشراكسة مثلما تسقط الأمطار والثلوج الشتائية على بيوتهم المسفوحة . لا يستطيعون أن يصمدوا حيالها . إنها تغضبهم ، وتتحدى شرفهم وكرامتهم كرجال ، وهو ما يسمونه بأخلاق الفرسان ، اجعل إحساسهم بالشرف يدفعهم إلى القيام بهجمات هوجاء ، لقد فعلوها من قبل . تذكر أن المقاتلين الشراكسة شكلوا الحراس النخبة لصلاح الدين وقوته في معارك مثل حطين وارسوف . إنها وحداتنا التي تحافظ على موقعها حينما يموت بقية الحشد أو يذوبون هاربين مثل قطرات ماء تسفح من قارورة رجل عطشان .

دخل بيبرس في حالة من الجذل والانتشاء .

كرر ايديكين القول «ذلك هو الأسلوب الذي نهزم فيه الفرنجة . والآن يا بيبرس ، ما الذي تعرفه عن روما القديمة؟»

«لا شيء»

«إذاً اسمح لي أن أخبرك . لقد أزيلت الامبراطورية الرومانية من الوجود على يد الهون الذين جاءوا من الهضاب العشبية في آسيا وهي نفسها التي جاء منها المغول . ارتحلوا بالطريقة نفسها فوق ظهور خيول صغيرة الحجم قوية وهاجموا وقاتلوا باسلوب المغول نفسه . أغاروا مثل الأمواج على الشرق والغرب بالقدر والفعالية نفسهما : يحرقون ، ينهبون ، يغتصبون ويدمرون . في ذلك الزمن ، كان الرومان قد أسسوا نظاماً دام أكثر

من نصف ألفية . عندما جاء الهون ، دمروا ذلك النظام ولم يخلفوا سوى الرماد . قتلوا أو اغتصبوا أو باعوا أي شخص وصلت أيديهم إليه . هرب كل من استطاع الجري لينجو بحياته . أحسّ الرومان بأن دمارهم حتمي حتى قبل أن يشاهدوا الهون بأعينهم . اصطدمت القبائل الجرمانية الهاربة منهم بالمراكز التي ضمت الفيالق نفسها التي استخدمها القياصرة لتمزيق السموات والأرض ، وحملتها تيارات الفارين مثل الفيضان» .

توقف ايديكين للحظة وشف رشفة من فنجانه قبل أن يستأنف ، وهو يحدق بتركيز في عيني تلميذه .

«واليوم تقف الجيوش العربية في المقام المشابه تماماً . لقد حافظوا على مواقعهم وتوسعوا على مدى نصف ألفية ، تماماً كما فعل الرومان ، ومثل القدماء ، يقف حشد من فرسان الموت القادمين من الشرق مستعدين لتمزيق كل شيء إلى أشلاء . إن السلطان قد تسلم سلفاً التماسات من أمم أصغر وشعوب مختلفة يطلبون منه فيها «أدخل مناطقنا وقاتل أعداءنا نيابة عنا» . لقد جلب لي كيس البريد لهذا الصباح أخباراً مفادها أن الخوارزميين يرغبون في الزحف على خيولهم إلى الجنوب ومهاجمة الفرنجة» .

«أليس هذا أمراً مستحباً؟»

حملق ايديكين «لقد تصرف القوط الغربيون بالأسلو نفسهب تماماً تجاه الامبراطور الروماني عندما وصل الهون إلى ظهورهم . طلبوا الانضمام إلى جيشه ومساعدته في قتال أعدائه ، تماماً كما يفعل الخوارزميون اليوم بما أنهم اشتموا الأنفاس العفنة للهون خلف رقابهم .

كيف تعتقد أن القصة الأولى انتهت؟»

نفض بيبرس كتفيه

«لقد قام القوط الغربيون بنهب روما ولم يعد شيء إلى سابق عهده على امتداد البحر الأبيض المتوسط» .

«لكن الرومان مازالوا موجودين في القسطنطينية . . .»

لوَّح ايديكين باستخفاف «هؤلاء ليسوا أكثر من ظل بسيط لما كانوا عليه في السابق ، وعلينا أن نضمن بأن لا نتشارك في مصير الرومان نفسه . إليك هذا!» وألقى إلى بيبرس بمجموعة مخطوطات ، الذي التقطها وألقى عليها نظرة عابرة . «هذا ملف عن **الفروسية**» .

كتيب تعليمات التدريب لضباط الفرسان المقاتلين . وهذا بالذات يفصِّل حملات صلاح الدين التي حدثتك اليوم عنها . ادفن رأسك فيها هذا المساء بصحبة صبي ذكي من مجموعتك ، وانظر ما يمكنك أن تستخلص منها . ستخبرني غداً أين ارتكب صلاح الدين الأخطاء ، بالإضافة إلى عدوه ريتشارد قلب الأسد . ثم نبحث في كيفية تجنب مثل تلك الأخطاء في معاركنا» .

«أشكرك يا سيِّدي» .

لوَّح ايديكين بيده مرة أخرى ، ألقى بيبرس نظرة أخرى على المخطوطات ونهض لينصرف .

نادى عليه لدى وصوله الباب «بيبرس!» استدار بيبرس نحوه «سيِّدي؟»

«هناك شيء آخر ، كيف هي مهارتك في لعب البولو؟»

«البولو يا سيدي؟»

بذل بيبرس أقصى جهوده لإخفاء توتره ، لكن عندما صعد إلى ظهر مهره وأدار نظره في **الميدان** ، ساحة التدريب ، وعلى اللاعبين الآخرين الواثقين من أنفسهم ، تساءل عما إذا لم تكن هذه غلطة شنيعة . بدت الأداة الطويلة الشبيهة بالمطرقة الخشبية التي يحملها بيده سخيفة ، الحصان عصبي لا يهدأ . أحسَّ باللفاع الأصفر الملتف على رقبته ثقيلاً إلى حد ما وغير مريح . أزاحه إلى فوق كتفه حتى يتوقف عن الاحتكاك برقبته وقاد الحصان إلى نقطة أقرب إلى اللاعبين في فريقه .

بدت القواعد التي وصفوها له في البداية واضحة ومفهومة . الهدف هو طرق الكرة الخشبية الصغيرة وإدخالها عبر عمودي الفريق الثاني لتسجيل هدف . الفريق الذي يحقق أهدافاً أكثر يكسب المباراة . قيل لبيبرس إن المباريات تضم في العادة أربعة لاعبين لكل فريق ، ولكن لأنهم كانوا يتدربون ليصبحوا خيالة لدى المقاتلين الشراكسة ، فسيكون هناك اثنا عشر لاعباً لكل فريق . لم تكن المسألة أنه يخاف من أن يصاب بالأذى فيما سيصبح فوضى عارمة بالتأكيد ، بل الأصح أنه مازال غير متأكد من التفاصيل ، النقاط المهمة ، وتملكه شعور بأن الأولاد الأكثر تمرساً سوف يستغلون هذه الفرصة لإظهاره على أنه القادم الجديد الجاهل .

حسناً ، ليس هناك ما يمكن عمله . سوف يبذل قصارى جهده في قراءة المجريات بأفضل ما يستطيع .

ألقيت الكرة في الميدان وعلى الفور اندلعت موجة من النشاط ودبك الحوافر ، غبار من أرض الملعب يندفع في كل الاتجاهات . لم يتمكن بيبرس من رؤية الكرة ولم يحاول حتى أن يتكهن أين يحتمل أن تكون : فقد التحمت الحيوانات وفرسانها بازدحام رهيب أمامه . وقف في السرج وحاول أن يتطاول بعينيه ، لكن لم يكن هناك شيء ليرى سوى المؤخرات المغبرة للخيول . تجمهر متدربون آخرون وعدد لا بأس به من الضباط على حواف ميدان اللعب ، يصيحون ويصفقون ويشجعون أصدقاءهم على اللعب ، فاختلطت كل الأصوات ليصدر عن مجموعها طنين يزيد في تعقيد الموقف . لم يكن بيبرس قد تعود بعد على وجود كل هذا العدد من الشبان من سنه نفسها حوله . عندما كانوا يلعبون في قريته ، كان يتجمع عشرون منهم على أكثر تقدير ، لكن أذنيه في هذا اليوم هوجمتا بزئير المئات .

هذا هو ما ستكون عليه معركة المقاتلين الشراكسة . . . ضجيج وغبار وحوافر . . . دماء .

موت

لمح من زاوية عينه ما يشبه اللمعان ، وخرجت الكرة ، من بين سيقان الخيل نحو فسحة إلى يمين بيبرس .

حرَّك المهماز على بطن حصانه وانطلق نحوها وقد رفع المطرقة الخشبية مستعداً ليضربها . قبل أن يلامسها ، صدم صبي آخر من الفريق المقابل بحصانه خاصرة حصان بيبرس ففوجىء بالالتحام لدرجة أنه تردد . كان ما توفر له الوقت ليفعله هو ملاحظة أن الصبي يرتدي الوشاح الزهري للجانب الآخر ، لأنه في تلك اللحظة ، جاء صبي ثالث من خلفه وضرب الكرة بقوة . تركوه وحيداً ، جالساً على ظهر حصانه الثابت حالياً وهو يراقب انصرافهم عنه .

«هيَّا يا بيبرس! تحرك بسرعة وطارد الكرة!» صاح به قائد فريقه . نظر بيبرس إليه وهزَّ رأسه لكن الفتى نفض رأسه محبطاً . لحسن الحظ ، لم تؤد غلطة بيبرس إلى تسجيل هدف فقفز إلى وسط الحركة فوراً بمجرد أن تمكن من رؤية الكرة . هذا ما فعله لما يقارب الساعة من الزمن : يطارد حصانه من أحد أطراف الميدان إلى الآخر ، ويتعلم الحركات والهجمات ببطء ، كيف يركب عائداً إلى جانب زملائه في الفريق ليدافع . مع انتهاء اللعبة ، استطاع أن يتوقع المكان الذي ستذهب إليه الكرة تالياً ويكون هناك ليضربها إلى الأمام أثناء طراده ، وهو يدير ويفتل جذعه إلى الخلف في السرج ثم إلى الأمام .

قال ايديكين بينما كان بيبرس يترجل والعرق يتفصد من وجهه وظهره «لم تكن سيئاً على اعتبارها محاولتك الأولى! سوف تحسن عملاً عندما يحين الوقت لتهاجم الخطوط وأنت في حالة عدو سريع» .

مرَّر بيبرس أصابعه وسط شعره المبلل الدبق ثم مسح كفه عبر ردفيه . سوف يتألم من السرج أثناء هرولته صباح الغد . قال «يجب أن يكون أدائي أفضل في المرة القادمة» .

«يكفي هذا القدر للوقت الحالي يا بيبرس. تعلم قواعد اللعبة قبل أن تبدأ بالتخطيط للحركات التالية، هل تفهمني؟»

هزَّ بيبرس رأسه نفياً..

قال ايديكين «حسناً، لا بأس. اذهب واجلس مع الأولاد الآخرين وراقب اللعبة التالية. خذ هذا». ناول بيبرس قربة من أعذب الماء البارد، وراقبه وهو يشرب باستمتاع ونهم. «ليس هناك شعور أفضل من إطفاء ظمأ الشخص بعد أن يكون قدم أفضل ما لديه، أليس كذلك يا بيبرس؟»

أومأ بيبرس موافقاً ومسح على فمه بظاهر يده. «هيا! اذهب، راقب كيف يفعلها الآخرون».

راقب بيبرس وهو يتخذ طريقه إلى حيث يوجد فريقه ويتخذ مكانه إلى جانب تيكا، الذي اعترف بحضوره بإيماءة، لكنه كالعادة لم يقل شيئاً.

قال ايديكين محدثاً نفسه «سيحسن ذلك الفتى صنعاً»، قبل أن يعود هو أيضاً إلى حيث وقف الضباط ليراقبوا بقية مباريات عصر ذلك النهار.

في تلك الليلة، وبينما رقد بيبرس على سريره، تفحص الكتاب الذي أعطاه إياه ايديكين، حول سيرة صلاح الدين. لم يكن بعد قادراً على تفسير كل كلمة، ورغم ذلك فقد كانت معرفته بالكلمات تتحسن، وذهل من القصص والحملات التي شنها القائد العظيم. قرأ عن الكيفية التي نظم بها صلاح الدين رجاله ودربهم، وكيف أعطته معرفته بالأرض وتضاريسها ميزة على الدوام. كذلك قرأ عن المجموعات المختلفة التي تعامل معها صلاح الدين، مثل الفرسان المعبديين، الذين تذكر بيبرس رؤيته لهم في انطاكية، إضافة إلى المذاهب الدينية المختلفة، وبدرجة خاصة الحشاشين.

«الحشاشون..» لفظ الكلمة لنفسه متمهلاً، بينما يمر إصبعه تحتها.

«ماذا؟» قال زينجي، واحد آخر من الأولاد ذوي الشعر الأشقر مثله. كانت مراتب نومهم متقابلة.

قال بيبرس «الحشاشون. يقول هذا الكتاب إنهم تآمروا مرات عديدة على اغتيال السلطان صلاح الدين حتى في معسكره الخاص».

قال زينجي «ألم تسمع بالحشاشين. دعني أخبرك يا بيبرس. إنهم قادرون على تمزيق حلقك بدون حتى أن تعرف. إنهم يستطيعون أن يدخلوا إلى هنا أثناء نومنا، ويقتلوك، وستصبح جالساً على مائدة الإفطار غداً ولاتدرك أبداً انك ميت مسبقاً».

نظر إليه بيبرس من فوق الصفحة ضاحكاً «ولماذا قد يرغب الحشاشون في قتلي؟»

نفض زينجي كتفيه «إنهم يريدون أن يقتلوا كل واحد هو ليس منهم. إنهم يختلفون مع تفسير السلاطين المقاتلين للإسلام، ولذلك فسوف يحاولون أن يقتلونا بمجرد رؤيتنا».

أكدَّ زينجي «إن الشيء الوحيد الذي قد يساعدك ضدهم هو خنجر حاد إلى جنبك طيلة الوقت، يابيبرس. لن يساعدك هذا الكتاب ولا بنقطة واحدة».

«الحشاشون؟» بدا على ايديكين عدم التصديق.

قال بيبرس «لقد اقتربوا من قتل صلاح الدين نفسه. أو على الأقل هذا ما يقوله الكتاب».

أمسك بالمخطوطات من طرفها بأطراف أنامله وحركها جيئة وذهاباً.

قال ايديكين وهو يمد يده عبر الطاولة ويأخذها منه «**الفروسية**. وهي ليست مروحة».

نقر بيبرس على الطاولة بأصابعه «لقد كان لصلاح الدين أعداء كثيرون».

«وتمكن من هزيمتهم جميعاً».

«مازال المعبديون موجودين . لقد رأيتهم بنفسي» .

«هل هذا صحيح؟»

«نعم ، في أنطاكية ، حينما كان القبطان يحضرني إلى هنا . وقف اثنان منهم على رصيف الميناء» .

«إن المعبديين مقاتلون ذوي شان . لكن يمكن هزيمتهم» .

«لماذا إذاً ما زالوا أحياء؟» .

«لقد استطاعوا أن ينجحوا هنا لأن الإسلام منقسم . كان بوسع صلاح الدين رحمه الله أن يهزم كل الممالك الفرنجية بدون أي متاعب لو لم تشغله مذاهب مثل الحشاشين» .

«لم أقرأ كل شيء ليلة أمس ، لكن يبدو أن ريتشارد قلب الأسد سبَّب له بعض التوقف ، مع ملك الفرنجة بالطبع» .

«لقد فعلا ذلك ، لكنهم فشلوا جميعاً في الاستيلاء على القدس ، واضطروا في نهاية المطاف إلى العودة إلى ديارهم . لذلك سوف ننتصر يا بيبرس . يجب على الفرنجة أن يعودوا إلى ديارهم في النهاية . لقد تحدث صلاح الدين عن نقل هذه الحرب إلى أوطانهم مقابل غزوهم لنا هنا .

لكنه لم يفعل ذلك لأن الغزو كان سيجعله بالضعف نفسه الذي يعانون منه . لقد توسع الإسلام براً منذ بداية الفتوحات العربية ، وليس عبر البحار . توسعت شمالاً عبر الامبراطورية الفارسية والرومانية ، بمحاذاة ساحل الجزيرة العربية ، وإلى مصر وشمال أفريقيا ، ثم من فوق أعمدة هرقل القديمة إلى داخل إسبانيا . لقد استخدمت الجيوش العربية السفن لأول مرة أثناء الحصار الأول للقسطنطينية ، حينما استخدمت الجيوش العربية لإنزال جنودها على شواطئ آسيا الصغرى ، حيث انهزم أوائل المقاتلين المسلمين في النهاية ، واستدعى الأمر كل قدرات تلك المدينة العظيمة لعمل ذلك» .

«فهل هذا يعني أن نتحد مع الحشاشين؟»

«أو ندمرهم . إذا لم يقبلوا بالعمل معنا ، فهم سوف يعملون ضدنا . وهذا ينطبق على الفرنجة . فإما أن يخضعوا لإرادة الله أو يصبح القضاء عليهم حتمياً . لا يمكن أن يكون هناك تقاعس وضعف في بلادنا أثناء تقدمنا» .

«هل سيتمكن السلطان من توحيد جميع الفصائل المختلفة تحت حكمه؟»

بانت على ايديكين الرغبة في الموافقة ،لكنه تردد «لا تنس الخليفة .»

«الخليفة؟»

«الخليفة هو الشخص المنتخب بعد النبي محمد (ﷺ) . وهو قائد الإسلام يا بيبرس . الخليفة الحالي يقيم في بغداد» .

«وأين هي بغداد؟»

«إنها على بضع مئات من الفراسخ إلى الشرق ، على ضفاف نهري دجلة والفرات ، إنها مهد الحضارة نفسها ، إنها تختلف عن باقي المدن : أكثر غنى وأجمل وأكثر علماً وتقى . إن بغداد هي إرادة الله على الأرض . أهلها وحدائقها . إذا حدث وزرتها فلن تعود ترغب في مغادرتها يا بيبرس» .

عاد ذهن الفتى إلى منظر منائر القسطنطينية من سفينة القراصنة على البوسفور ، وقفز قلبه بين أضلاعه . أشعلت فكرة احتمال أن يطأ بقدمه في مكان بهذا القدر من الجمال ، وربما أيضاً أعظم من تلك المدينة ، النار في ذهنه . عاد إلى التركيز على الحاضر ووجه ايديكين المنتظر .

«إذاً فحتى السلطان يحتاج إلى خليفة؟»

وافقه ايديكين «إن الخليفة هو الوارث الحقيقي للنبي محمد ، صلوات الله عليه .

سوف يتبعه المسلمون من كل الأرجاء . لذلك نعم ، حتى يتم توحيد

الأمة ، أمة الإسلام مع بعضها بعضاً» .

فكر بيبرس أن هذا أمر ينبغي عليه أن يمعن التفكير فيه «هل تسمح لي بأخذ الكتاب حتى أنهي قراءته؟»

أعاده ايديكين إليه «الفروسية . نعم أسمح لك . والآن ، حان وقت تدريبك ، ما هو المقرر لهذا اليوم؟»

«الرماية بالقوس والسهم .أثناء ركوبنا للأمهار . الضابط السمين . . .»

«القائد بينا»

«سوف يأمرنا القائد السمين بينا بالركوب طاردين إلى الأمام ثم التراجع والرماية على الأهداف وراءنا» .

سمح ايديكين لزاويتي فمه بالارتفاع لأقصر ثانية ثم عاد تعبيره إلى العبوس .

«ذلك جيد . هي مهارة لم يتقنها الفرنجة أبداً . سوف يجعلكم بينا تتمرنون حتى تظنوا أن أذرعكم وسيقانكم سوف تسقط عنكم ، وبعدها سيأمركم بتكرارها عدة مرات أخرى .»

«ألا تسقط السهام بعد انعكاسها عن دروع الفرنجة؟»

«لكل طقم من الدروع فتحة يا بيبرس . لكل رجل نقطة ضعف . لكل سور مدينة نقطة ضعف . ليس هناك وضع لا حل له ، **مطلقاً** . يعلمنا التاريخ أنه ليس هناك شيء اسمه انعدام الضعف . حتى صلاح الدين كان لديه سبب ليخشى خناجر الحشاشين» .

نهض بيبرس واقفاً «لكن صلاح الدين نجا يا سيِّدي» .

ارتسمت على وجه ايديكين ابتسامة عريضة «لقد نجا فعلاً يا بيبرس ، كما سنفعل نحن وأشقاؤنا المقاتلون الشراكسة . اذهب الآن وامتطِ حصانك وأطلق السهام . سيكون هناك وقت للمزيد من القراءة هذه الليلة» .

انحنى بيبرس وذهب في طريقه ، وعقله يقلِّب كل ما تكلما فيه ، المرة تلو الأخرى .

الفصل الحادي عشر

«احتم وتجنب! استدر وأطلق!» اتخذ صوت السلطان الدوِّي الذي كان يستخدَم أحياناً على المندوبين ورجال الحاشية عديمي الحظ، ولكنه كان يخرج على الأغلب فوق ميدان المعركة وعلى ميدان الاستعراض. قفزت مذعوراً عندما زأر في وسط وجهي، كما أفعل على الدوام، بعدها عاد إلى الارتكاء على وسائده، يضحك لنفسه ويعب رشفة قوية من قدحه الذهبي.

«أقول لك يا عبد، تحولت أيامي إلى حركات رتيبة مكررة. كنا نؤدي كل حركة المرة تلو الأخرى والأخرى حتى نملَّ منها وتصير عضلاتنا تؤديها من أجلنا بدون أن نضطر إلى التفكير مطلقاً.

ذلك بالطبع ما كانوا يهدفون إليه. كان يفترض فينا أن نكون قادرين على الهجوم وإطلاق صلية من السهام بدون حتى أن نفكر في الأمر. مثل الكلمة اليونانية **أوتوماتوس**، أصبح يفترض في أيدينا وسيقاننا أن تفكر لنفسها. كانوا يعرفون أن الأولاد الصغار مثلنا سوف يتبرزون على أنفسهم في المرة الأولى التي نشاهد فيها طابوراً من رماح المعبديين، أو جحفلاً من المغول بالأسلوب نفسه. لذلك كنت تؤدي الشيء مرة، ثم مرة أخرى، وبعدها مرة زائدة، ثم يزأر أحد الضباط قائلاً إنك تؤدي الحركة بأبطأ مما يفترض، وإن الأفضل لك أن تؤدي كل شيء بسرعة أكبر للمرات العشر التالية».

استند إلى الخلف مبتسماً، وقد تاه وجهه في الذكريات.

قال بزئير منخفض «**تناولوا أقواسكم! والسهام! جهزوها!** فكنَّا

ننحني إلى الأمام ونسحب سهماً من الأرض، هل تعرف؟ ونحتفظ به ونحن نحدق فيه. الثلم! كان يضع قدحه على الأرض ويبدأ بتأدية الحركات لي. راقبته وهو يضع السهم الوهمي أمام وتر القوس ويسحب ذراعه إلى الخلف. «أتعرف؟ كان ذلك هو الجزء المفضل عندي يا عبد، السحب. لم يعتقد الآخرون في فصيلي أنني أمتلك العضلات اللازمة له عند بداية مجيئي. قلة منهم من كان يعتقد بقدرتي. كلهم أولاد فلاحين، ليس عليهم الكثير من اللحم، لم يأكلوا سوى الخبز وبعض من الخضار الجذرية لدى وصولهم إلى الطباق.

طبعاً لم يعرفوا أنني كنت حداداً. وتوفرت لدي كل العضلات التي أحتاجها في ظهري وكتفيَّ، وأكثر من ذلك لو احتجت اليها. جلد متيبس على أصابعي.. «لا عجب أنني كنت قائد مجموعتي الصغيرة». سحب نفساً سريعاً. لاحظ أن كل ذلك لم يعن أنني وجدت الوضع سهلاً. لا، كان يفترض فيك أن تتأكد من أنك تفعل ما يجب عليك فعله وتراقب بقيتهم في الوقت نفسه «يا بيبرس **الكتابي**! هل تذكر أنني أخبرتك بأن ذلك هو الاسم الذي كانوا يطلقونه على جميع المرشحين، صحيح؟» هززت رأسي «**يا بيبرس الكتابي، لماذا لا يلتزم الفارس الأمامي في مجموعتك بالطابور؟**» كان الكل يسمع ذلك الكلام وأشعر بالخزي. فأحدجهم بنظرة. كنت أسميها حملقتي. أريدك أن تعرف أنني قضيت وقتاً طويلاً وأنا أحسِّن من حملقتي يا عبد، هذا صحيح حقاً، ينبغي عليك أن تجبرهم على معرفة أنه ينبغي عليهم أن يخافوك كما يخشون الله داخلياً، من مجرد نظرة. وفي اللحظة التي يبدأون فيها برد تلك النظرات إليك والنظر في عينيك؟ تلك وقاحة، ويجب عليك أن تضربهم على وقاحتهم في الوقت والمكان نفسهما. لقد كنت أعرف ذلك من أيام القرية، مسبقاً طبعاً، لكنني ارتكبت بضعة أخطاء حينما كنت أتعلم القيادة.

ربما لم أكن راغباً في القتال بشكل خاص صبيحة أحد الأيام، خطا أحد الأغبياء خارج الطابور أثناء مسيرنا، أو أنه لم يعبئ القوس كما يجب. تلقيت التقريع من الضابط، لكنني تركت الغبي ينفذ بلا عقاب. حسناً، ماذا يجعل ذلك موقفي يا عبد؟»

أهز رأسي بوجه يقول: «لا أستطيع أن أتخيل يا مولاي!»

«سأخبرك يا عبد، كنت جاهلاً إلى حد كبير في هذه الأمور. إن ذلك يؤدي إلى أنهم يبدأون في التفكير أن بوسعهم اختصار بعض الواجبات. ربما يحدث أن يقوموا ببعض الحماقات خلف ظهري وبدون معرفتي. هذا هو ما سيفكرون فيه. حسناً، تعلمت أن أربي لنفسي عيوناً في مؤخرة رأسي. كنت أراقب بحثاً عن أي تهاون، أي نوع من الكسل. وعندما أراه يا عبد واام!»، طوّح بقبضته الهائلة في حركة قوسية «على الفك مباشرة! أنزل بهم علقة ساخنة وتأكد من أنهم لا يفعلونها مرة أخرى».

غامرت بسؤال «ألا يجعلهم ذلك أكثر عرضة للعصيان يا مولاي؟ ويجعلك غير محبوب لدرجة رهيبة؟»

نفض بيبرس رأسه «لا يا عبد. ذلك هو الوضع. ليس هناك رجل يحب أن يضربه رئيسه، لكنها إحدى حقائق الحياة. إنه يستمتع حقيقة برؤية الأمر يحدث للآخرين، بشكل داخلي، في قلبه حتى في الجزء من قلبه الذي لا يعترف بالأمر لنفسه. يحاول بعض الزملاء أن يحمي أحدهم الآخر أحياناً، قائلين شيئاً مثل «لا يمكنك أن تفعل ذلك» لكنني كنت أقوم بضربهم أيضاً. كنت مضطراً إلى ذلك. بمجرد أن تبدأ فأنت لا يمكنك أن تتوقف، وأنت حتماً لا يمكنك أن تتحمل أي نوع من انعدام الطاعة. لقد أخبرني ايديكين، وهو معلمي، أنه كان هناك امبراطور قال «فليكرهوني، طالما أنهم يخافونني». تلك كانت كلماته».

فكرت لنفسي «من سويتونيوس».

قال مكرراً «انعدام الطاعة ممنوع» .

أعتقد الآن أن السلطان بيبرس وجد هذه الأشهر مثيرة ومرعبة في الوقت نفسه ، حيث اضطر لمراقبة ظهره باستمرار ، وليس لديه من رفيق سوى زميله المخلص لكن الصامت تيكا ليؤنس وحدته . أخبرني في وقت آخر أنه كان يستغل فترات الصمت أثناء الجري الصباحي الطويل ليركز أفكاره ويصفّي دماغه لليوم القادم . لم يكن واثقاً بعد من كيف وماذا يفترض فيه أن يفكر أثناء أوقات أدائهم الصلاة ، لكن الجري كان أمراً يفهمه جيداً . كان ينطق الكلمات ويتابع الأفعال ، لكن كان ذلك كل شيء . الأمر الذي كان يعرفه هو كيف يشتغل بجد ثم يشكّل نمطاً من الحاسة السادسة ليراقب أولئك المحيطين به ويتعلم منهم . أعاد التفكير والتحليل داخل دماغه لكل معلومة استقاها ، أثناء فترات الجري الطويلة هذه .

بقيت عيناه مسلطتين فقط على المسافة المتوسطة بين أصابع قدميه وكعبي الفتى الذي يركض أمامه .

قال «كنت أحب الجري . لطالما أحببته . تقريباً بقدر ما أحب أن أكون مهاجماً على صهوة جوادي - ليس شرطاً حتى أن يحدث ذلك أثناء معركة ما - ليس هناك حبور أعظم من التحرك عبر الحقول والتلال وأنت تحسن بالريح تلامس وجهك . أنت تعرف ما أقصده ، أليس كذلك؟»

«نعم يا مولاي» . وكنت أعرف حقاً .

«لكن الركض لوحدي أمر مختلف . إنه يصفّي العقل كما لا يفعل أي شيء آخر . لا يمكن بالطبع أن أعترف بهذا لأي شخص حي آخر ، لكنني عثرت في تلك الآونة على كل شيء احتجت إلى معرفته . وكنت في الواقع مضطراً إلى ذلك . لقد دفعونا ودفعونا ، كل صباح ، أبعد وأبعد ، حتى اعتقدت أن كل وتر سوف ينقطع وأسقط على وجهي . طورت في حينها أسلوب تأمل قوي . ذهب عقلي إلى الأمكنة التي ما كان له أن

يذهب إليها بطريقة أخرى ، وهكذا استطعت فعلاً أن أفهم العالم . كنت أفكر في الطريقة التي سأتعامل بها مع تدريب الرماية بالقوس في ذلك الصباح ، وكذلك التدريب بالسيف ، الكلمات التي أسمِّعها لايديكين ، أي من الأولاد في مجموعتي يجب أن أركله ، ومن بينهم الذي هو بحاجة إلى بعض التشجيع . شاهدت كل شيء في ذهني قبل أن يحدث ، وهل تعرف؟ طالما أنني كنت أحسن الحكم على الشخص المعني ، كان الأمر يحدث تماماً بالطريقة التي خططت لها» .

«هل مازلت تمارس الأسلوب نفسه يا مولاي؟»

«قبل أي معركة وأي اجتماع سري ، أحاول أن أرى الوضع كله . أحاول أن أتخيل كل نتيجة حينما تكون النتيجة مشكوكاً فيها إلى حد ما . كانت في البداية تتطلب مني مجهوداً هائلاً وتجبرني على التركيز الشديد ، ولكن لحسن الحظ كان لدي ذلك الوقت الصباحي حين كنت أركض مثل جرذ مع كل الآخرين واستغللته بشكل بنَّاء» .

تمنيت لو توفر لدي مقدار الصبر نفسه . **وربما كنت أصبحت أنت نفسك سلطاناً يا عبد ، صحيح؟** نعم ، حقاً .

«لكنني لا أريد أن أعطيك انطباعاً بأن الأمر كله عمل ، عمل ، عمل ، لا يا عبد» .

رفعت رأسي دهشة عند هذا التغيير المفاجئ للموضوع «عمل يا مولاي» .

«نعم ، عمل . سوف يسجلني تاريخك على أنني قائد عبوس ، أليس كذلك؟»

«حسناً ، سيحدث ذلك . . . أي بمعنى . . .» . لم أعرف كيف أرد لأنني فوجئت ، ولم تأتني أي فكرة .

«وسوف يذكرني الفرنجة بمزيج من الكراهية والرعب ، صحيح؟ تماماً كما كان الرومان يخيفون أطفالهم بالقول لهم إن هنيبال كان عند

البوابات ، كذلك سيرعب المعبديون أطفالهم بالقول لهم إن بيبرس سيجيء ليأكلهم! هاهاها!»

ضحك على فكرة أن يستخدم أعداؤه مثل هذا التكتيك ثم غرق في الصمت .

«انتظر لحظة ، ليس لدى المعبديين أطفال ، صحيح؟»

«لا أعتقد أن ذلك مسموح به في نظامهم يا مولاي ، لا» .

انطلق ضاحكاً مرة أخرى ، وابتسمت تماشياً معه ، ولقول الحقيقة ، فقد كنت خائفاً قليلاً .

«ربما سيروي المغول تلك الحكاية لأطفالهم في هذه الحالة؟»

توقف عن الضحك بالسرعة نفسها التي بدأ فيها وحدجني بتعبير متجهم .

ثم قال «لن يحدث ذلك يا عبد» .

«أتسمح لي بالسؤال لماذا يا مولاي؟»

«لأن المغول يأكلون أطفالهم . . .» ظل يحدِّق في عيني لما يكفي من الوقت حتى بدأت أرتعش ، ثم انطلق يقهقه ، ويضحك حتى سالت الدموع فوق خديه . تلفتُّ حولي فرأيت الحارسين الواقفين أمام مدارة السلطان ، أي خيمته ، يضحكان معه .

أخيراً ، توقف واستند إلى ظهره . «اسمع يا عبد ، أنا لست الوحش الذي يظنه الناس . صحيح أنني لا أظهر لأعدائي أية رحمة ، ولكن أيضاً ، متى أظهروا لنا أي مقدار من الرحمة؟ ذلك هو أسلوب العالم . أنا لست فخوراً بهذا ، لقد كنت فقط أنفذ مشيئة الله . إنهم يتباهون بأنهم يسيرون بينما تصل دماء المؤمنين إلى كواحلهم . حسناً ، أنا السلطان الذي اغرقهم في دلاء من دمائهم . وهكذا سيظل الوضع يا عبد . نحن متقدمون . نحن في وضع الهجوم» .

«نعم يا مولاي» .

«ولكن كما أقول ، أنا لست الغول ، لست العملاق ذا العين الواحدة في مغارتي ، هل أنا ذلك؟»

«لا يا مولاي» .

«لقد قدم السلاطين المقاتلون أجمل الاحتفالات والمهرجانات التي شهدها العالم منذ زمن القياصرة العظام . إنهم مشهورون بها في العالم أجمع» .

وهذا صحيح ، فقد كانوا معروفين جيداً بهذا . لقد تعمدت أن أبحث عن الوجهاء الاغراب وأتحدث اليهم ، وحتى العبيد على أرصفة الموانئ ، لاستكشف ما يقال حول بلاط السلطان بيبرس في البلدان القصية .

«أعتقد أن المظهر الجيد ، أي التقديم الراقي ، يساهم بدرجة كبيرة في تأهيل الجندي الرفيع في مستواه يا عبد . لقد تعلمت ذلك من إحدى مخطوطات الفروسية التي خصصها ايديكين للضباط صغار السن . إذا كان لدى الجندي فخر بنفسه ، وفخر بوحدته ، فهو سيقاتل بضراوة أكثر من أجل إخوته . تلك قاعدة أساسية لن يفهمها الفرنجة أبداً عن السلاطين المقاتلين .

إنهم يعتقدون أننا عبيد ، وقد كنا عبيداً ، لكننا من طبقة أرقى في الوقت نفسه ، لدينا دعوة أسمى ، نحن نشكل وحدة مميزة من الرجال المتفوقين على الرجال العاديين . إنهم يفتخرون بتقواهم ، باه! نحن نفتخر بإيماننا المشترك وخضوعنا لإرادة الله عز وجل . ليس هناك أي شيء آخر» .

تناول رشفة من الشراب «ألم يفهم قطز ذلك هو الآخر؟»

تنبهت أذناي «هل قلت قطز يا مولاي؟»

كان ذلك موضوعاً خطراً وأعرف أن السلطان متردد في التفكير فيه . لكن وجب علي أن أضغط . لم يكن قد ذكر ذلك الاسم لي مؤخراً ، وأصبحت أشك في أن تتاح لي مناسبة أخرى لأن أذكره مرة أخرى وأحتفظ برأسي موصولاً إلى بقية جسدي .

ألححت عليه «مولاي؟»

«نعم، هو أيضاً لم يفهم أهمية الاحتفالات».

«يا لها من إضاعة لوقتنا!».

قال بصوت هادئ «هيا ارتدِ سترتك».

«أقول إنها مضيعة لوقتنا!»

«لن أكرر نفسي يا قطز» جاء صوت بيبرس هادئاً وخفيضاً، وهي إشارة مؤكدة إلى أنه لا يعبث.

«لقد قال النبي، عليه الصلاة والسلام «إن الله لا يحكم عليكم بأجسادكم ومظاهركم، بل ينظر في قلوبكم ويراقب أعمالكم»، لذلك فأنا أبول عليك أيها الصبي الصغير. إنها فعلاً مضيعة لوقتنا. لا يتمشى الجنود الحقيقيون من أحد أطراف الميدان إلى الآخر وهم مزوقون. يجب أن نكون في الخارج نتمرن، أو حتى أفضل من ذلك، نمشي عبر الصحراء لمنازلة الفرنجة أو المغول».

لم يستطع بيبرس أن يمنع نفسه من السخرية «أنت؟ أنت تعتقد أنك جاهز لتقاتل فارساً فرنجياً أو حتى رامي سهام مغولياً؟ سوف يشرِّحك الأول مثل قطعة سمك، ويغتصب الثاني جسدك الميت لمجرد المتعة. والآن ارتدِ سترة الاستعراض الخاصة بك!».

ارتكب قطز خطأ القفز واقفاً عن الفراش المتدني الذي كان جالساً عليه، غاضباً، فقام بيبرس، الذي كان واقفاً فوقه، بزرع برجمة يده اليمنى في عين الفتى الأكبر منه سناً. قبل أن تتاح لأي شخص الفرصة ليأتي برد فعل، تبعت قبضة بيبرس اليسرى القبضة اليمنى بخطافية. سقط قطز على الفراش، يصرخ. تهيَّأ ليهاجم بيبرس بالإعثار، لكنه حين رأى التعبير المرتسم على وجهه ونظرته المتحفزة، عاود التفكير وبقي حيث هو. غطى عينيه النابضتين بيديه، وكأنه يريد أن يمحو كل شيء يحدث حوله.

قال بيبرس «ارتدِ سترتك يا قطز» وانصرف مبتعداً .

بعد حوالي ربع ساعة ، انتظم فصيلهم مع كل الآخرين في الاستعراض ، بمن فيهم قطز ، وقادهم بيبرس في تمارينهم بالسيف والرمح القصير ، قبل أن يؤدوا مشية عسكرية دقيقة حول محيط ساحة التدريب . عند النهاية ، أدوا التحية إلى منصة الإشراف ، حيث نهض ايديكين مع القادة الآخرين ، وكلهم يرتدون بزات الاستعراض الرائعة والعمائم .

لدى صدور الأمر ، زأرت المجموعة الكاملة بصرخة المعركة «من أجل الله والسلطان!»

ثم سارت بانتظام لتقف في محيط الميدان مع دخول كوكبة من المرشحين الفرسان وهم يزأرون مسرعين ويبدأون في أداء تمارينهم الخاصة بهم .

«إن قطز يرتدي زوجاً جميلاً من أعين الباندا في هذا الصباح» قال ايديكين «انك تتغير يا ولدي» .

«أليس هذا أمراً جيداً؟»

«التغيير أمر أبدي . لن نستطيع أن نوقفه حتى لو حاولنا . ولكنك تتغير ، فهل ذلك التغير إلى الأفضل؟ إن الحياة الخالية من التجارب لا تستحق أن تعاش ونحن نقاط بكل بساطة . سامحني إذا مزجت أقوال أفلاطون مع بيترونيوس» .

قال بيبرس «سأفعل . لقد أكدت لقطز أهمية التفتيش والاستعراض ، لكنه لم ير الأمر كما رأيته أنا» .

«ولذلك قمت بتعديل شكل عينيه؟»

ظهر طيف صغير من الابتسام على زاويتي عيني بيبرس وفمه وقال : «يمكنك أن تقول ذلك» .

«تذكر هذا التحذير يا بيبرس . إن الحياة الخالية من المحن والتجارب لا

تستحق أن تعاش بكل تأكيد ، وأنا لا أقصد أنك تمتحن يومك وحده . يجب أن تنظر إلى المستقبل وتستخدم الماضي كأداة لك . انظر إلى أبعد من الرجال الآخرين ، ولكن لا تغيب عينيك عن الأشجار بينما أنت تسير إلى وسط الغابة . هل تعرف ما أقصده؟»

«أعتقد أنني أعرف يا سيدي» .

«لا تخف أبداً . أنا مجبر على تكرار نفسي ، وأفعل ذلك على الدوام . والآن : ما هي الاستراتيجية؟»

جلس بيبرس في وضعية التهيؤ «الاستراتيجية هي أمر بسيط جداً . سيدي . إنها المحصلة الأخيرة لخطتك ، وهي مجموع نقاط حملتك العسكرية ، بغض النظر عن مكوناتها» .

أضاف ايديكين «وماذا غير ذلك؟»

«يجب على القائد أن يسأل نفسه عما يأمل في تحقيقه وما هو الشيء الذي يحاول حقيقة أن يفعله . يجب أن يسأل نفسه كيف سيحقق هدفه ويعرف ما هي الموجودات المتوفرة لديه لتحقيق ذلك الهدف» .

«وهكذا فإن أسئلة استراتيجية الأربعة هي؟»

«من أنت؟ ماذا تريد أن تفعل؟ ما هي الوسائل المتوفرة تحت تصرفك ، وكيف ستقوم بتنفيذها؟»

«ليس سيئاً يا بيبرس»

نظر بيبرس إلى قدميه «هذا هو السبب لكوني عاقبت قطز»

«قل لي مرة أخرى ، ماذا تقصد؟»

«لقد ظننت في حينها أنني كنت غاضباً لأنه كان يتحداني ، ولكنني أدرك الآن لماذا كنت غاضباً إلى تلك الدرجة . إن الاستعراضات والمسير المنتظم جزء من الاستراتيجية ، أليس كذلك؟ إنها تمكّن الأمراء والسلاطين من رؤية حالة جنودهم ومعرفة أنهم مدربون بشكل جيد ولائقون للمعارك القادمة» .

«ذلك صحيح يا بيبرس . يعتقد كثيرون أننا نحن المقاتلين الشراكسة مثل الطواويس ، مهووسون بأن نبدو رائعين ونستعرض . ليست تلك هي الحالة . ما نفعله هو تحضير أنفسنا . إن مهرجاناتنا واستعراضاتنا تشكل مناسبة لتقديم أسلحتنا وإظهار القدر الحقيقي من قوتنا . لقد سمعت أنهم يسمحون فقط لجزء من المرشحين بالمسير في كل مرة في بعض مدارس التدريب . بحيث أنه عندما يحين دور القسم التالي في المسير ، يصبحون مضطرين لتبديل الأزياء والأسلحة .

إن ذلك يعني نصف العمل ، أرأيت؟ لا حاجة هناك ليقوموا بتلميع كل الأزرار وشحذ كل الأسلحة . ولكن ماذا يحدث إذا حصل النفير العام ، أي حالة طوارئ؟وقتها سيكون لديهم نصف ترسانة من الأسلحة التي أجريت عليها الصيانة! بدلاً من مناورة العدو إلى منطقة يتم فيها القضاء عليهم ، فإن معظم الذين يسمون نخبة المقاتلين الشراكسة سيقومون بأداء المهام المنزلية مثل النساء الغسالات العجائز!»

تشرَّب بيبرس كل كلمة .

«هذا شيء سوف تضطر إلى إلغائه بين الرجال التابعين لك ، مسألة تبديل الأسلحة الملمعة والأزياء النظيفة . أخرجهم كلهم في مكان واحد حيث يمكنك رؤيتهم ، وتأكد من أن جميع مخازنك ممتلئة ، وأن كل رجل جاهز كلياً» .

«سأفعل يا سيدي» .

«فتى صالح» استند ايديكين بظهره ونظر إلى السقف الأبيض «كم يوماً من حياته تعتقد أن المقاتل الشركسي سيقضي في ميدان القتال يا بيبرس؟»

فكَّر في السؤال للحظة ثم رفع رأسه «لا أعرف ياسيدي . ليس الكثير . حتى معركة صلاح الدين في حطين لم تدم أكثر من بضع ساعات ، بعد أيام من المسير السريع والمناورة» .

«الجواب هو أيام قليلة جداً . لقد تراقص صلاح الدين وريتشارد حول بعضهما بعضاً لحوالي السنتين ، لكنهما لم يخوضا سوى ثلاث معارك حقيقية . ثلاثة أيام من أصل ألف!» تقدم ايديكين في جلسته إلى الأمام «هنالك درس يجب تعلمه يا بيبرس : ليست الجندية مجرد معارك . يتم نسيان معظم ما تعرفه عن الاستراتيجية حينما تبدأ المعركة بكل الأحوال . لا ، إن الجندية ، والقيادة بدرجة أهم ، تتعلق في تسع مرات من كل عشرة بكثرة صعوبات الحياة . الحصول على المعدن - لأواني الطبخ بشكل رئيس - تقطيع الحطب ، وتنظيف براز الخيل . تلك هي الحياة . أنت مضطر إلى الإبقاء والحفاظ على كل شيء ، وكأنك مشرف في قصر وتصلي أنه عندما يحين الوقت ، ذلك اليوم الواحد من بين الألف ، أنك اعتنيت بجيشك بطريقة أفضل مما اعتنى الرجل الآخر بجيشه . إن الله سوف يساعدك بمقدار معين فقط» .

«نعم سيدي»

«الآن نسيت الموضوع الذي كان يفترض فينا أن نبحثه . وكل ذلك جزء من التكتيك بكل الأحوال . ونحن لسنا هنا لنبحث ذلك» . رفع اصبعه «على فكرة ، لا تخلط أبداً بين الاستراتيجية والتكتيك يا بيبرس . وبالمناسبة ، فقد رأيت وقرأت عن جنرالات يعتقدون أن إحراق جميع قرى العدو هو استراتيجية قيِّمة في مثل مستوى ثوسيدايدس أو قيصر نفسه . حسناً ، تذكر هنا : لقد قتل القيصر مليون شخص من الغال وأحرق ألفاً من قراهم ، لكنه كان لديه سبب لكل واحدة بمفردها . تلك هي الاستراتيجية . أما الآخر فهو ببساطة في مستوى الفاندال والمغول» .

«نعم سيدي»

«حسناً . تمام . والآن ، ما هو كتابك لهذا اليوم؟»

«جوزيفوس يا سيدي» .

«آه نعم . اليهودي . ما هو تقييمك له؟»

«إنه رجل بلا شرف ياسيدي» .

«صحيح ، ولماذا هو هكذا؟»

«لقد تخلى عن الرجال الذين يشاركونه في دينه وكانوا إخوة له في السلاح وقاتل مع الجانب الآخر» .

اصطنع ايديكين تعبير من أصيب بصدمة «هل فعل ذلك حقيقة؟ ولماذا قام بذلك العمل يا بيبرس؟»

«لقد أخبرتك ، إنه عديم الايمان أوالشرف» .

«قل لي ماذا حدث» .

نظر بيبرس إلى الكتاب الذي يحمله بين يديه واستجمع أفكاره «يتحدر جوزيفوس هذا من عائلة من الأحبار . وهم أصحاب امتيازات في ذلك الدين . يقول إنه كانت له بعض التعاملات مع الرومان ، وعندما ثار اليهود على حكمهم ، تولى هو قيادة قواتهم .

ثم انهزم وانحشر في كهف مع بعض الرفاق» . توقف بيبرس وقد تشوه وجهه نتيجة القرف . «نادى عليهم الرومان حتى يستسلموا ، لكن الرجال قرروا أن ينتحروا بدلاً من الاستسلام . قام جوزيفوس بتنظيم وسيلة لم أفهمها بعد ، يقوم رفاقه فيها بتعداد مجموعات ويقتل بعضهم بعضاً ، لكنه نجا هو ورجل آخر واستسلما .

بعد ذلك ، تحول إلى جانب الأعداء وقام على خدمتهم مثل جرو» .

«ولكن هل تعتقد فعلاً أن شخصاً يرغب في قيادة جيش آخر أكبر منه حجماً بعدة أضعاف ، يمكن فعلاً أن يكون جباناً؟»

«لا يمكن أن يوجد حكم آخر على رجل يدير ظهره لإخوته سوى الموت» .

لم يبد على ايديكين السرور من هذا الأمر بالقدر الذي توقعه بيبرس . «ماذا إذا كان ذلك الرجل يعتقد أن هؤلاء الإخوة سيقودون كل الشعب إلى موت محقق؟ ماذا وقتها؟»

«ما الذي تقصده؟»

«لقد كان الرجال الذين قاتل جوزيفوس معهم مهووسين متعصبين . لقد أخبرتني بنفسك أنهم قتلوا أنفسهم داخل كهف مفضلين ذلك على السماح لأن يؤخذوا أسرى . ولكن ربما أدرك جوزيفوس أن هؤلاء المتعصبين سوف يستمرون في حرب لا طائل منها وليس لديها أي احتمال بالنصر ، وأن ذلك سيؤدي إلى دمار وطنه .هل يمكن أن تقوم بإحراق منزل والدتك حتى تتجنب دفع الضرائب لجهة خائنة؟»

«سيدي ليس ذلك مثالاً منطقياً . يجب أن لا نستسلم أبداً . إنه مصير أسوأ من الموت» .

قال ايديكين «وذلك هو جواب فتى شاب . يا بيبرس ، من المؤكد أن هناك مصائر أسوأ من الموت ، بإمكاني أن أعترف لك أن هذه حقيقة . ولكن إذا قدِّر لك أن تتولى القيادة ، فسوف تضطر إلى التفكير بنفسك . إن إخوتك من الفرسان المقاتلين هم كل شيء بالنسبة لك . إننا مستعدون للموت أحدنا في سبيل الآخر على الفور . لو جاءت مجموعة من خيالة المغول ودخلت طاردة عبر البوابة ، فأنت وأنا مستعدون للموت ونحن نقاتل سوية ، بدون استسلام» . سحب نفساً عميقاً للحظة ، وأدرك بيبرس فجأة أنه بدا أكبر سناً في تلك اللحظة من أي وقت تخيله فيه . لقد ترك لديه ايديكين انطباعاً دائماً بأنه في أوج حياته . فهل السبب هو أنه يتعايش دوماً مع الألم والإرهاق؟ طرد بيبرس الفكرة من رأسه بمجرد استئناف ايديكين الكلام . «هنالك أوقات يا بيبرس ينبغي علينا فيها أن نفكر في أشياء غير الولاء الأعمى . ذلك هو درس جوزيفوس . لقد نجا بحياته ، ورغم وجود الكثيرين الذين وصموه بالمتواطئ ، إلا أنه حاول أن ينقذ شعبه من أنفسهم . يخبرنا النبي عليه صلوات الله ، أننا جميعاً إخوة في الإيمان . نحن مجبرون أحياناً أن ننقذ إخوتنا الفرسان المقاتلين من أنفسهم ، وأحياناً أخرى ، يجب علينا أن نوقف السلطان نفسه من إسقاط سقف القصر على

رأسه هو . يقول الحديث الشريف «قل الحقيقة أمام الحاكم الظالم» .

انتفض بيبرس لدى سماعه هذا القول ، مع أنه لم يعرف لماذا . لم يزعجه الكفر قبل هذا الوقت مطلقاً . «لكنك قلت إن السلطان هو النور المشع في دولتنا يا سيدي . كيف يمكن حتى مجرد تخيل مثل هذا الشيء؟»

هزَّ ايديكين رأسه متأسياً وهو ينظر إلى الكتاب الذي مازال بيبرس يحمله «ماذا حدث في نهاية الثورة اليهودية؟»

«لقد نفَّذ الرومان أكبر أعمال الحصار في تاريخ العالم ، وعندما احتلوا القدس ، أحرقوها كلها . لقد تم تدمير المعبد اليهودي وهرب السكان» .

قال ايديكين «هل يمكنك الآن أن تتخيل لو أن أهل الإسلام تعرضوا لمعاناة مثل هذا المصير؟ أين سنكون في حينها؟ لن يقبل المتحمسون والمتعصبون أي سلام ، وهكذا سيفنى مركز إيمانهم في المكان والزمان نفسهما . أحياناً يكون السلام هو السبيل الوحيد ، بالرغم من صعوبته ومرارته» .

نفض بيبرس رأسه رافضاً «لا أستطيع أن أصدق ذلك أو أؤمن به يا سيدي» .

«حسناً إن وظيفتي هي محاولة تعليمك يا بيبرس . تذكر أخيراً أن بطلك صلاح الدين كان عديم الرحمة حين يضطر إلى ذلك . لكنه أيضاً كان متساهلاً ورحيماً حين كان بوسعه ذلك» . لم يكن لدى بيبرس أي رد على هذا الكلام ، وأحسَّ ايديكين بالقناعة . «والآن ، دعنا ننقل السلام والدبلوماسية إلى التكتيك . أخبرني المزيد عن أعمال الحصار العظيمة التي شيدها الجنرال العظيم تيتوس حتى يتمكن من إخضاع مدينة القدس» .

ابتسم بيبرس وفتح الكتاب .

الفصل الثاني عشر

وهكذا استمر تدريبه حتى أفاق بيبرس من نومه في أحد الأيام وأدرك أنه أحد أكبر الفتية سناً في الأكاديمية ، وأنه سرعان ما سيحل الوقت الذي يغادر فيه ليدخل العالم في الخارج . جلس الفتى الذي أصبح الآن رجلاً ، في فراشه وفرك عينيه . كان فريقه قد أفاق وبدأ أفراده في التحرك من حوله ، يؤدون مهامهم ويتحضرون لتفتيشه . سمح للمرشحين الأكبر سناً بميزة النوم أو وقت الراحة بعد صلاة الفجر ، وكان بيبرس سعيداً على الدوام إما لأنه يقرأ أو يستريح في ذلك الوقت ، حسب حالته . بات يتساءل بكسل في هذه اللحظة ما إذا كان سيقرأ بعض الصفحات قبل أن ينهض ، لكن الواجب طغى - كما يفعل دائماً - فأدار ساقيه وجلس .

«هل ترغب في شراب أيها النقيب؟»

نظر بيبرس إلى الفنجان المدسوس تحت أنفه وقد تكونت حبيبات الرطوبة حول الأصابع التي تحمله ، تقبّله بامتنان .

«أشكرك يا سليم . هل تعلم أنني سوف أعينك في يوم ما : حامل عصا البولو الملكية ، بحيث يمكنك أن تلاحقني ، رافعاً العصا عالياً وتنادي بأنني لست فقط أعظم مقاتل في المشرق بل أيضاً أفضل رياضي فيه» .

ضحك سليم على هذه المداعبة وجلس بجوار بيبرس «إنني أعتقد يا بيبرس بأنك سوف تخدم في بلاطٍي وسيكون لقبك قاذف سهام السلطان! سيسمح لك بالتجوال خلفي حاملاً القوس الصغير بيدك ، وعندما أشير ، ستقوم بالإطلاق على أي شيء أشير عليه . ستكون حيلة رائعة ومؤثرة جداً على كل الوجهاء الذين يجيئونني لتقديم الولاء والطاعة لي» .

رفع سليم رأسه وزم العينين الكيبيشاك وكأن المنظر بكامله يتشكل أمامه . «آه نعم ، أراه الآن . ستخدمني بكفاءة يا بيبرس ، ولا تظن أنني لن أكافئك . ستقف إلى يساري حينما يحل المساء على مائدة الولائم ، تراقب التسلية ، وسوف أمرر لك بعض قطع اللحم الشهية من طبقي الخاص كل هنيهة .

ستقضي وقتاً رائعاً وأنت تمضغ بقايا طعامي متلذذاً» .

ضحك بيبرس وضرب سليم على كتفه تحبباً ، ورد الفتى الآخر بأن لف ذراعه حول رقبة بيبرس في قبضة قوية ومرر براجم أصابعه فوق قمة رأسه . تعوَّق دفاع بيبرس عن نفسه بوجود القدح في يده ومحاولته الرجولية عدم سكب أي شيء منه .

صاح به «حسناً ، حسناً! اتركني أشرب» . وأدار جذعه ثم رفع ركبتيه العاريتين ، في محاولة للإفلات . تركه سليم وصفعه على ظهره . كان الشابان في السن نفسه ، ولهما الطباع نفسها ، إضافة إلى كونهما طويلي القامة ونحيلين مع أكتاف عريضة قوية .

هناك انتهت المقارنات بكل الأحوال ، لأنه بينما كان بيبرس أشقرَ فاتح البشرة ، فإن سليم أسمر داكن البشرة ، شعره الأسود الكثيف مدفوع إلى الأمام فوق رأسه لكثرة ما كان يمرر أصابعه خلاله من الخلف إلى الأمام .

قال «قاذف السهام!» رافعاً يد بيبرس الحرة عالياً .

كان ذلك بدوره صحيحاً ، فقد اكتشف بيبرس مهارته بعد حوالي سنة من دخوله أكاديمية المقاتلين الشراكسة وإعطاء فريقه الدرس الأول في استخدام القوس القصير .

أصغى بيبرس يومها إلى تعليمات المدرس بعناية ، رغم أنه اعتبر السلاح في منتهى البساطة . وضع السهم القصير السميك ، أو الخصام كما سماه المدرس ، داخل الحفرة في الوسط ، وسحب الخيط إلى الوراء ثم

أطلق الزناد السفلي وانطلق السهم . لم يعجب بيبرس بالعملية حتى شرح المدرس مدى وصول السهم وقدرته على اختراق الدرع الموجودة على هدف بهيئة رجل من القش .

مثل بقية المرشحين ، لم يكن قد رأى في السلاح أكثر من دمية ، لكن ذلك الأداء حظي بانتباههم .

همس أحدهم «تخيل ما يمكن أن يفعله هذا بالفرنجي ، إذا أطلقته عليه في المكان الصحيح . . .»

«إن المغول يرتدون دروعاً أقل بكثير من الفرنجة . فتخيل ما يمكن أن يفعله بأحدهم» .

قال أحد الصبية ساخراً «سوف تحتاج إلى آلاف مؤلفة حتى تحدث شرخاً بسيطاً في قطيع من المغول» .

استدار بيبرس نحوه «طيب؟ أليس لدى السلطان آلاف مؤلفة من الرجال؟»

«نعم ، ولكن ليس لديه سوى ألف من الشراكسة المقاتلين البحريين ، قوته النخبوية» .

كان المدرس على وشك إنهاء درسه والبدء في السماح للمرشحين بتجربة السلاح بأنفسهم .

سأل بيبرس «ما هي سرعة إطلاقه؟»

«إنه ليس بسرعة القوس الكبير أيها الكتابي الفتي . لأن مدى الحركات أعلى وليس في مثل سهولة تناول سهم من الكنانة ، وعقدها والسحب .

«هل لديه قوة أكبر؟»

قال المدرس «بالقوة نفسها على الأقل» . متوقفاً عن الكلام لحظة اصطدام سهم أحد المرشحين في هدف خشبي ودخوله حتى الطرف الخلفي المزوق بالريش .

«إنه قادر على اختراق الدرع ، وذلك أمر جيد» .

قال بيبرس «لكن ميزة المقاتلين الشراكسة تعتمد على السرعة بشكل رئيس» .

«صحيح ، ولكن فكر في الموضوع» قال المدرس «بينما نحن نطارد طابوراً من الفرنجة وننهكهم في الجو الحار ، يمكنك أن تهاجم بالقوس القصير المجهز بيد واحدة وتطلقه ثم تقود حصانك مبتعداً باليد الأخرى . في مثل هذا الموقف فإن القوس القصير لديه امتياز على القوس العادي الكبير»

هزَّ بيبرس رأسه موافقاً ، وراقب الآخرين يأخذون أدوارهم في تجربة السلاح الجديد . نظر المدرس إليه للحظة ثم خطا إلى الأمام محرراً صوته «أنت حكيم يا بيبرس . لقد علمك الرئيس ايديكين جيداً . هل يمكنك أن تتخيل كيف سيغير هذا السلاح طبيعة الأسلوب الذي تقاتل به الجيوش؟»

نظر بيبرس إليه ثم عاد للنظر إلى المرشح الأخير . عقد المرشح السهم القصير ، سحب الوتر إلى الوراء ، رفع القوس القصير ليسدد من خلال الفتحات ثم أطلق . اصطدم السهم بالهدف محدثاً دوياً ، بعيداً عن الوسط قليلاً ، لكنه مازال قريباً بما يكفي لأن يشل حركة الرجل الذي ضربه في صدره . أحصى بيبرس سبعة سهام أخرى أصابت الهدف نفسه في مواقع مشابهة .

ابتسم المرشح سعيداً قائلاً «ليس سيئاً كمرة أولى!» ومرَّر القوس الصغير إلى الفتى التالي .

وقف بيبرس ثابتاً ونظر في عيني المدرس . قال «حان الوقت» . وقد خلا وجهه من أي تعبير لشدة التركيز .

«حان الوقت أيها الكتابي الفتى . إن هذا السلاح هو أعظم معادل للقوة منذ أن حمل أول رجل صغير الجسم شفرة مسنونة وقتل بها رجلاً

أضخم منه جسماً . بإمكان أي فلاح أن يحمل واحداً من هذه الأسلحة في الصباح ويقتل به فارساً قبيل حلول الظهر .

يطلق عليه بحيث يسقطه عن حصانه» . خفض المدرس صوته أكثر قليلاً «انظر إلى هؤلاء الفتية . إنها إطلاقتهم الأولى وهم يصيبون الهدف . كم سنة تدربت لتفعل الشيء نفسه بالقوس العادي؟ إن القوة والمهارة اللازمتين لاستخدام هذا السلاح هي جزء صغير مما يحتاج اليه الشخص لاستعمال القوس الكبير ، والسيطرة على الحصان الحربي ، أو حتى استعمال السيف . لقد كان الفتية على حق ، إذا توفر لدينا ما يكفي من هذه الأسلحة فسوف نوقف أية هجمة مغولية بطابور موزع بشكل جيد من الجنود الفلاحين» .

أكمل بيبرس الصورة «وبعد ذلك ينعطف فرساننا من الجانبين ويطردونهم من الميدان متفرقين» .

«أستطيع أن أرى بأن الرئيس ايديكين قد علمك فعلاً موهبة الاستبصار يا بيبرس . خذ ، جرب هذا بنفسك» . تناول المدرس القوس القصير من المرشح الأخير ووضعه بين يدي بيبرس . أحسَّ به أخف وزناً مما توقعه ، لكنه مصنوع من الخشب الملمَّع بشكل رئيس ، والأجزاء المتحركة منه معدنية . وزنه معقول ، فكر بيبرس ، وزن مريح ، موزع بالتساوي حد الكمال فوق راحتيه المفرودتين . تناول السهم ، وضعه في مكانه كما فعل الآخرون ثم سحب الوتر إلى الخلف . جاء مشدوداً ، ولكن لم يتطلب الجهد الذي يتطلبه القوس العادي . بسط قدميه وأفرد كتفيه ثم رفع القوس نحو عينيه . كان الهدف على بعد حوالي سبعين ياردة . مع إطلاق الزفير رفع بيبرس أصابعه باتجاه الزناد وضغط . جاءت ردة الفعل نشيطة وشعر كأن القوس يرتفع من بين يديه . حين أنزله ، وصل إلى مسامعه صوت ارتطام السهم بالهدف . حمل إليه الارتطام صوتاً مكتوماً مرضياً فأنزله أكثر ليرى ما أصابه السهم .

على الطرف القصي من الهدف .

قال أحدهم «لقد شخطته يا بيبرس! يستحسن أن تسحب سيفك أو تحمل حجراً لأنه سيكون غاضباً عليك بحدة!» ضحك الجميع بمن فيهم المدرس . هزَّ بيبرس رأسه .

قال المدرس «ليست هذه محاولة سيئة يا بيبرس ، سوف نحاول مرة أخرى في الغد . سوف أريكم أيضاً كيف تطلقون إلى الأعلى حتى يزيد مدى السلاح إلى مئات الأقدام . وهذا أمر في غاية الأهمية حينما يكون جيش ما متقدماً باتجاهكم» .

انفرط عقد الفصل وبقي بيبرس ينظر إلى الهدف بقدر من الكآبة .إذا كان السلاح سهل الاستعمال إلى هذه الدرجة ، فكيف لم يتمكن من إصابة وسط الهدف؟ صمم على أن يحل المعضلة ، استغل كل لحظة فراغ بقضائها على ساحة الهدف ، يطلق السهم تلو الآخر . في ساعات الصباح التي تلي صلاة الفجر ، في حرارة الظهيرة حيث يستريح المرشحون متجنبين الشمس المحرقة ، في وسط الأمسيات حينما تصعب عتمة الغسق رؤية خشبة اللزاب ذات اللون الفاتح والتي تشكل الهدف . في النهاية أصبح بارعاً إلى درجة إصابة نقطة الوسط بكل إطلاقة ، تاركاً حتى أبرع رفاقه خلفه بقدر كبير . بدأوا يطلقون عليه اسم «قاذف السهام» . وهو لقب التصق به وظل فخوراً به بشكل سري .

أخذ الفتية مثل سليم يستعملون هذا اللقب من باب التندر ، لكنه كان دلالة على إعجابهم بواحد منهم جاهز على الدوام لأن يدفع نفسه أكثر ، ليس من أجل الحصول على المديح أو المنصب ، بل ليصبح أفضل ما يمكن أن يكون عليه ، ببساطة .

مازالوا صغار السن لكنهم أدركوا بالسليقة أن مثل هذا الأخ الجندي هو الرجل الذي يرغبون في الركوب إلى جانبه في أي هجوم قتالي . فهو سيبقيهم أحياء .

غطى هيكل تيكا الضخم على كل من بيبرس وسليم بمكان جلوسهم في مقر المرشحين ، أصبح الآن أكبر حلفاء بيبرس سناً في مدرسة المقاتلين الشراكسة . هو الأضخم جسماً وصاحب أقوى العضلات بدون أدنى شك ، وظل يبذل ، مثل صديقه ، أقصى جهوده ليصبح أكثر كفاءة . تدرب تيكا كل يوم واشتبك مع المرشحين الآخرين في منافسات القوة ممن يقاربونه في القوة والميول .

كانوا يتنافسون في كل لحظة فراغ حول من يمكنه أن يؤدي تمارين الضغط أو التعلق من أي غصن شجرة متوفر . كانوا يذهبون خلف المدرسة ويتناوبون على رفع صخور ضخمة بحجم الرجال ، وضعت هناك أساساً بنية جعلها تزنر الممرات على شكل مظهر زينة . شكلت هذه الأحجار جزءاً من مقر التدريب بين يدي تيكا وزملائه . تطورت منافساتهم عبر الزمن من معرفة الشخص الذي يمكنه أن يرفع أكبر صخرة ، إلى معرفة الشخص الذي يمكنه رفعها مرات أكثر ، وأخيراً إلى رؤية من يمكنه أن يركض أطول مسافة وهو يحمل الصخرة .

بلغ تأثير كل هذه الألعاب إلى حد أن ذراعي تيكا الذي أتم سنه الثامنة عشرة ، أصبحتا أضخم من رقبته ، وأصبح فخذاه أسمك من جذع شجرة السرو . أصبح كتفاه جبلين هائلين مستديرين ، وعندما يخلع قميصه ليستحم ، يظهره ظهره مثل كتلة من العقد ، عضلات فوق عضلات ، وقوة يمكن أن تصبح مرعبة حقاً عندما يدعى إلى إظهارها . كان يدور همساً بين الآخرين أن الشخص الوحيد الذي يخافه تيكا هو بيبرس ، رغم أن بيبرس الذي لم يكن زهرة ذابلة بدوره ، لم يكد يصل إلى نصف حجم العملاق . كان موضوع معرفة القوة التي يمتلكها بيبرس ، والتي يقدر بموجبها أن يخضع أقوى رجل في كتائب المقاتلين الشراكسة ، ويجعله مجرد تابع له ، يشكل موضوعاً ساحراً للمرشحين . ولكن لو أنهم كانوا صريحين وصادقين مع بعضهم بعضاً ، لعرفوا نوع القوة التي يمتلكها بيبرس

بدوره . لم يكن الخوف من تيكا هو الذي يوقفهم عن إغضاب الفتى صاحب علامة الفهد في عينه ، وسرعان ما تعلم أولئك الذين تشجعوا أو تهوروا بما يكفي للمحاولة ، درسهم .

رفع بيبرس نظره باتجاه وجه تيكا المحايد . «هل هم جاهزون؟»

هزَّ تيكا رأسه إيجاباً .

«إذاً لن ننتظر ، فالطقس اليوم رائع والمطايا بانتظارنا» قال بيبرس . أفرغ العصير من قدحه واستمتع بإرواء أول شعور بالعطش لهذا اليوم . صدرت عنه صرخة «آه!» راضية ولحس شفتيه . كانت الليالي حارة جداً في هذا الوقت من السنة ، بحيث أن كل واحد منهم تعرق في فراشه ، ليستيقظ في الصباح وهو يحس بأنه مرهق ورطب فوق شراشف مبتلة . لم يكن بيبرس ممن يهدرون الوقت في ارتداء الملابس ، ارتدى قميصه وبنطال الركوب بسرعة ، عقد رباط حذائه وسحب حزام السيف ، المهدى إليه من ايديكين ويعتز به بشدة . ربطه برخاوة حول خصره عند وصوله إلى الباب ثم تناول قوسه وكنانته . إذا كان حظهم جيداً فسوف يصطاد لهم وجبة شهية للعشاء . خرج متبوعاً بسليم وتيكا إلى برودة الصباح ونزل الدرجات المؤدية إلى ساحة التدريب .

كانوا كلهم هناك . جنده ، فصيله . طابور من الشباب المرتدين الزي العسكري الرائع ، مع جياد مطهمة لدرجة أنها كانت بدرجة كبرياء الضباط أنفسهم . سروجهم عالية فوق رقابهم ، والركابات ، السلاح السري للمقاتلين الشراكسة ، معلقة منخفضة . مرَّر بيبرس أصابعه فوق الخط الناعم لشاربه النامي الفتي وركض باتجاههم .

قال مبتسماً «أيها المقاتلون البحريون! هل أنتم جاهزون للطراد؟»

ردوا عليه بتهليل مدو . قفز بيبرس إلى ظهر جواده الذي كان السائس يمسكه له .

عدَّل جلسته ثم ربَّت على رقبة الحصان . تناول الأعنِّة وصاح «حول

القلعة ثم الخروج من البوابة الشرقية . أي رجل يقع عن حصانه سوف ينظف الأسطبلات مستخدماً ملعقة عشائه!»

زأر فصيله بالضحك ، ثم انطلقوا : خرجوا من بوابة الأكاديمية ، وإلى الشوارع الأبعد . اختفت شمس الساحة المفتوحة وانطلقوا مصدرين فرقعة حوافرهم بين صفوف من الأبنية ذات الطوابق الخمسة والحوانيت المفتوحة أبوابها . لم يرد التجار ولا النسوة اللاتي كن ينظرن من فوق على نداءاتهم وتابعوهم بنظرات هادئة ، ولم يبتسمن إلا بعد أن اختفى الجنود الصغار السن خلف الزاوية التالية . كانوا يكنون محبة حقيقية لأولئك الفتية الذين يملأ صخبهم المدينة ، لكنهم كانوا أيضاً مؤدبين ومجاملين في كل الأوقات ، ومعروف عنهم مساعدة كل الذين يصادفونهم يعانون من أي سوء .

توجهوا من شارع نيسان إلى البلدة جنوباً ، حتى وصلوا إلى الشارع العريض ، فعاد بهاء الصباح ليشرق عليهم مرة أخرى . الشمس دافئة على ظهورهم بدون أن تكون مؤذية ، ووهبتهم الأشجار التي تزين الشارع قبسات من الظلال أثناء مرورهم من جانبها . كان منظفو الشوارع وأصحاب الحوانيت قد غسلوا الأرصفة العريضة بكميات وفيرة من الماء ، ما ساعد على تبريد الهواء أكثر ودفع برشقات من الرذاذ إلى وجوه المرشحين التي بدأت تتعرَّق .

أصبحت النظرات التي تلقوها هنا ، في الأحياء الأكثر ثراء ، أبلغ إعجاباً ؛ إذ كانت مجموعات من خادمات البيوت اللاتي أرسلن من المنازل الكبيرة لشراء اللوازم ، وهن دوماً تحت مراقبة إحدى النساء الأكبر سناً غير الراضيات عن تصرفاتهن .

كن يسرقن النظر بغنج أنثوي إلى الخيالة المبتسمين ثم يستدرن مقهقهات في كل مرة التقت عيونهن بأحدهم . ابتسم بيبرس لإحدى هاته الفتيات ورفع يده في سلام ودي . نظرت بسرعة إلى مراقبتها ثم ردت له البادرة بأسرع من البرق ، حيث طارت يدها عائدة لتختفي

ابتسامتها المضطربة . أطلق بيبرس ابتسامة عريضة ، وقد أحسَّ فجأة بارتفاع حاد في معنوياته المتصاعدة ، بقيت تلك الإشارة في ذهنه طيلة ذلك النهار .

ارتفعت أمامهم قلعة حلب : الحصن ، الثكنة ، المعسكر ، ميدان التدريب ومستودع الأسلحة ، وسيطرت على كامل المنظر الطبيعي للمدينة . حفزوا خيولهم عابرين الشارع العريض وطردوها بأسرع ما لديها . سمح لبيبرس أن يدخل القلعة في مناسبات متباعدة ، كان أكثرها بصحبة ايديكين الذي أصر على أن يرافقه تلميذه إلى الحفلات الموسيقية والمسرحيات . لم يفهم بيبرس كثيراً من محتوى العروض في الزيارات الأولى ، لكنه ظل يعجب كيف أن مجمعاً افترض فيه أن يكون اسبرطياً ومنافعياً هو في الحقيقة فخم إلى درجة مذهلة حينما يغامر الشخص في متاهاته الداخلية .

فالقلعة هي أيضاً مسجد وقصر أكثر بكثير من كونها مجرد ثكنة لرجال المدينة المقاتلين ، وفيها مكتبة ومسرح بحيث بدت لعيني بيبرس مثل شيء من أحد الكتب الإغريقية الشهيرة التي جعله ايديكين يقرأها بتمعن واستمتاع .

وصلوا راكبين إلى مدخل القلعة ، حيث يوجد أمامهم برج واستحكام ضخم مرفوع عن الأرض في مقدمة البوابة الرئيسة ، ثم انحرفوا إلى اليمين بحدة ، حيث اجتذبوا انتباه وحذر الوجوه المتوترة للحراس في المقدمة . صاح فصيل المقاتلين الشبان بتوليفة من التهاليل المرحة وبعض السخرية ثم ركبوا مبتعدين . داروا حول الكثيب الهائل قبل أن يخرجوا من الطريق المحيطة بالموقع ويتوجهوا إلى البوابة الشرقية كما أمرهم بيبرس .

اضطروا هنا إلى التباطؤ ، لأن العربات والخيول زحمت البوابة دخولاً وخروجاً إلى درجة سد الشوارع . لوَّح لهم أحد الحراس بممر مفتوح ، فشدوا على لجم الخيل وتقدموا متمهلين . بدا لهم الجانب القصي من البوابة مثل

الشعور بخروج الرأس من الماء ، حيث انطلقوا من قيود المدينة وزحمتها ليجدوا أنفسهم في ريف مفتوح وبعد دقيقة ، يعدون مسرعين في درب جانبي ، ولم يعد هناك ما يذكرهم بالشوارع المزدحمة الضيقة ، ونداءات الباعة أو الرائحة النتنة للمخلفات البشرية .

لم يكن هناك شيء في الخارج سوى الهواء النقي والأشجار المورقة ، المئات منها على جانبي الممر المفضل لدى المرشحين ، موزعة بين شجيرات عطرية ومصانة بعناية .

أصبح بوسع بيبرس أن يشعر فعلاً بانزياح ثقل عن كاهله وهم ينطلقون هادرين . لم يعد أحد يتكلم . لا صرخات شبابية . انخفضت وجوههم فوق رقاب جيادهم ورؤوسها ، وزمّت أعينهم اتقاء الريح . هذا هو ما يحيون من أجله .

قادهم بيبرس على هذه الشاكلة حتى أصبحوا على بعد عدة فراسخ من المدينة ثم سحب عنان مطيته ليصبح مسيرها هذاباً ثم سيراً هادئاً . بات الجميع ، رجالاً وخيولاً ، يتنفسون بقوة والفتية يضحكون فرحين بالإجهاد . إن دوريتهم ، إذا صحت التسمية ، هي في حقيقتها عذر ليخرجوا أنفسهم من المعسكر ، وهذا سبب لكونهم سعداء بدرجة استثنائية . أسوأ ما صادفوه في هذه الأنحاء هو تيس سيء الطباع ، وبمحض الصدفة .

سأل سليم «هل نقصد التلة يا بيبرس؟»

«التلة»

كانت التلة نقطة توجههم في مثل هذه الأيام . فهي تقدم لهم منظراً رائعاً للمدينة كلها والمزارع التي حولها ، وكان بعض المرشحين يتخيلون أن بوسعهم رؤية البحر في يوم صافٍ .

قال أحدهم «سوف نَبقى علًى حذر من برقا وصبيته أثناء وجودنا هنا» .

لم يرجح بيبرس أن يرد، لكن مرشحاً آخر أجاب «لا يوجد أحد من القبائل هنا، ولا أحد من الفرنجة».

أصر صاحب الصوت الأول «ليس هذا ما قيل لي». قاوم بيبرس الرغبة في الاستدارة.

«إن الخوارزميين منضوون تحت قيادة السلطان. لن يقتربوا من إحدى مدنه. لا عليك مما تقوله لك إحدى الساقطات».

سمعت بضع ضحكات من هذا القول. «ماذا تعتقد أنت يا بيبرس؟ لابد وأنك ملم بما يجري؟»

ابقى عينيه باتجاه الطريق أمامه.

«شائعات. كلها شائعات. وليس هناك أية إمكانية بأنهم سيشاركوننا في أي شيء على الإطلاق».

قال سليم «ربما ليس معنا نحن. ولكن الأرجح أن الرئيس ايديكين سيطلعك على المجريات».

توتر بيبرس. هو يعرف أن انتقادهم للصداقة التي أصبحت طويلة مع قائدهم ايديكين، مصدرها الغيرة وليس أي تساؤل أو شك في شرفة، لكن تشنيعاتهم ظلت تزعجه رغم ذلك. لقد تعلَّم من خلال الإيمان والفلسفة أن يسيطر على الحسد ويحتقره، لكن النقاط المتعمقة في الرواقية وضبط النفس بقيت بعيدة عن إدراكه.

«لم يشاهد أحد أي شيء بعينيه في هذه الأنحاء، ولذلك فإن النشاط وكذلك الخوارزميون، موجودون حتماً في مكان آخر». بدت الكلمات متوترة غاضبة لدى خروجها من فمه، وأدرك هو ذلك. أصر صاحب الصوت الأول وقد زادت حماسته على النقاش. «إذا كنا نحن نخبة الجيش الأيوبي، فلماذا نحن بعيدون عن القتال؟»

«لأن الجنود، سواء كانوا من النخبة أم لم يكونوا، يذهبون إلى حيث يؤمرون وليس قبل ذلك. ذلك هو الفارق بين الجيش والرعاع...»

«ما هو الرعاع؟»

استدار هذه المرة ورمق الفتى المعني بنظرة متفحصة «الرعاع هم حشد من البرابرة . مثل الفرنجة» . استدار عائداً للأمام «بكل الأحوال ، نحن مازلنا كتابيين وهكذا فنحن لسنا جنوداً بعد» .

«ولكن . . .»

جاء الفرج حينما لاحت التلة أمامهم حين عبروا زاوية ، فأخرس بيبرس الصوت

«إلى القمة! هجوم كاسح! اسحبوا السيوف!»

سحب الفصيل أسلحتهم في الوقت نفسه ، دقوا كواحلهم في خواصر مطاياهم وانطلقوا ، وهم يزأرون بصيحة الحرب طيلة الطريق .

«لقد سقطت القدس . . .» لم يضيع ايديكين أي وقت : كان بيبرس قد دخل لتوه إلى المقر ، وهو مازال يلهث من الهجمة الأخيرة ، عبر الساحة .

قال رافضاً «إشاعة» مع أنه بدأ يتضايق من أن حتى معلمه يبدو وكأنه يتقافز مجفلاً من الظلال .

«ليست هذه إشاعة . لقد وصل الخبر من الجنرال أشرف نفسه» .

تجمد بيبرس في مكانه قائلاً «القاهرة؟» احتفظت بشرته المحمرة من النشاط . بهيئتها المرحة ، تومض بطبقة من التعرق ، لكنه فوجئ بالخبر . سقط في الكرسي ، لف ساقاً فوق الأخرى . يمكنهم أن يقولوا ما يحلو لهم وراء ظهره - فهو الضابط الفارس الجريء الفتي بكل ما تعنيه الكلمة حين يريد ذلك . بينما هو يجمع شتات أفكاره ، استقرت عينا ايديكين المحاطتين بالتجاعيد على الرسائل الموضوعة على المكتب بينهما .

«هل وقع خطأ ما؟»

نفض القائد المسن رأسه نفياً «لا خطأ . سيصل بلاغ رسمي من السلطان خلال ساعة» .

«وهل تصل الأخبار إلينا من إخوتنا المقاتلين الشراكسة قبل وصولها من السلطان؟»

حدجه ايديكين بنظرة «إن وظيفة المقاتل الشركسي هي معرفة أوامر سلطانه قبل أن يفتح فمه الملكي» .

ضم بيبرس كفيه إلى بعضهما وصفَّر «بلا شك» . ازدرد ريقه وقد أحسَّ بالظمأ فجأة ، من رحلة الركوب والغبار بلا شك . «أتسمح لي بجرعة ماء يا سيدي؟»

أشار ايديكين إلى خزانة جانبية جلس فوقها إبريق من النبيذ المخلوط بالماء المعطر .

قفز بيبرس واتجه نحوه «وماذا سيكون أمر السلطان؟ إن الخوارزميين في خدمته» .

«وقد اختطوا ممراً من التدمير غير مسبوق من أجيال عبر المشرق . إن تعطشهم إلى الدماء قمين بإثارة إعجاب المغول» .

شرب بيبرس واستدار وقد قست ملامحه «لقد بدأ الفرنجة تلك اللعبة» .

«حسناً ، إنهم لن يتلقوا هذا الخبر بسهولة . إن عكا تقوم بتجميع جيش وقد انضمت حمص إليهم» .

وضع بيبرس القدح من يده «ماذا؟»

«ودمشق كذلك» .

مرت لحظة بينما فهم بيبرس المعلومة «دمشق؟ هل قلت إن دمشق وحمص ستقفان مع الفرنجة؟ ضد السلطان؟»

«لقد غضب كل من المنصور إبراهيم والصالح إسماعيل من تصرفات الخوارزميين ، إلى درجة أنهما ألقيا بقواتهما إلى جانب الفرنجة واللاتين الآخرين . يقول القائد أشرف إن الناصر داود يحتمل أن يأتي بالكرك إلى جانبهم أيضاً . على ما يبدو فإن الخوارزميين لم يكتفوا بتدمير الأماكن

المسيحية المقدسة في القدس . . . بل إن عمليات القتل والنهب والاغتصاب لم تميز أو تستثني أحداً . إنها حرب أهلية . سوف تزحف كل من حمص ودمشق جنوباً للالتقاء بالفرنجة ومواجهة التهديد» .

«هذا هو الأمر إذاً! جميع أعداء السلطان في العراء . سوف يوحِّد كل ما كسبه أعداؤه» .

«هكذا يبدو الوضع» . لم يبد على ايديكين السرور من الفكرة ، فقد جلس مكتئباً .

«هل هؤلاء الخوارزميون هم نفسهم الذين هزمهم جنكيز خان وجيوشه المغول عندما احتل مدينتهم سمرقند؟»

«نعم بالطبع ، هم نفسهم . لقد تحولوا إلى مرتزقة غزاة لعدة عقود ، يهاجمون في العراق وسورية ويسببون الفوضى في كل مكان» .

«هل بوسعنا أن نثق فيهم؟ هؤلاء الخوارزميون؟ هل يمكنهم أن يصمدوا في المعركة - ضد الخيالة الثقيلة؟»

رفع ايديكين ذراعيه «من الذي يمكنه أن يعرف؟ لم تقع عيناي بعد على حلفائك أولئك ، الكلاب» نفض صفحة «لقد كانت القدس محمية بقوة هيكلية رمزية بكل الاعتبارات . إن فصيلك القابع في الخارج بوسعه الاستيلاء عليها» .

عاد بيبرس إلى الابتسام «هذه فكرة لا بأس بها» . عندما لم يحصل على جواب ، عادت قسماته إلى القسوة .

«هل كانت مذبحة عظمى؟»

«هي الأسوأ فيما تعيه الذاكرة الحية . لقد تم قتل القساوسة أثناء أدائهم الصلوات وانسكبت الدماء على مذابح الكنائس . قتل الأطفال والنساء . اللاتين والفرنجة والعرب واليهود . . . بالآلاف» . ارتفعت قبضته نحو فمه .

«عمليات الإحراق . . .» .

وقف بيبرس ثابتاً في مكانه «إن الإرهاب في مثل قوة أي جيش يا سيدي . سوف يكون احتمال قتالهم أقل في المرة القادمة» .

حدجه ايديكين بنظرة فولاذية «هل كان صلاح الدين ، عليه رحمة الله ، يمكن أن يفعل شيئاً مثل هذا؟»

وافقه بيبرس «كلا ، ولكن الحل الوسط والتسوية التي قدمها صلاح الدين لم تؤدِّ به سوى إلى تشجيع الغدارين الخونة» .

«ربما ، ربما لا . إن الله سبحانه وتعالى هو الحكم الأسمى» .

«فهل هذا يعني أننا سنزحف؟»

نفض ايديكين كتفيه على تغيير الموضوع «هذا صحيح» .

لم يستطع بيبرس أن يكبح جماح سروره : صفق بيديه ثم ضم قبضتيه .

«ليست المعركة مفرحة يا بيبرس» .

نصب قامته «يبدو أنك نسيت يا سيدي ، لقد شهدت القتال من قبل» .

تكوَّر فم ايديكين في ابتسامة ماكرة خالية من المرح «ليس مثل هذه يا ولدي» .

لقد كان محقاً أيضاً يا عبد . . . لقد كان دوماً على حق ، ذلك المحتال العجوز . . هل عرفت في حياتك شخصاً على هذا القدر من الحكمة؟»

ابتسمت وقلت «عدد قليل جداً يا مولاي» .

«ماذا عن المكتبة العظيمة والجامعة التي أنت معجب بهما بشدة؟ لابد أن هناك العديد من الرجال الذين تعجبك علومهم وذكاؤهم؟»

«أعجب ، نعم ، لكن هناك عدد قليل جداً منهم على حق طيلة الوقت» . نظرت إليه متعمداً .

«مثل هؤلاء الرجال في ندرة الذهب» .

«آه ، حسناً ، الذهب موجود في كل مكان «أشار ملوحاً على الخيمة الامبراطورية الهائلة .

«انظر حواليك . الذهب موجود في كل مكان . حتى في الجدران نفسها . هنالك ذهب في كل غرزة من ديواني أكثر مما سيراه معظم الرجال طيلة حياتهم . الذهب موجود في كل مكان يا عبد . هاك ، خذ قدحي وكن رجلاً غنياً» . ألقى به في اتجاهي وتلقفته أثناء طيرانه من فوق كتفي . «والآن ، هل تشعر بأنك رجل غني؟»

بالغت في الانحناء كما يفعل جميع المنافقين في بلاطه ، وندبت بطريقتهم المتشاكية «ولكن وجودي في حضوركم هو جائزة ثمينة كافية بالنسبة لرجل متواضع مثلي يا مولاي» .

تحول التعبير في عينيه إلى البرود وأومض بياض الفهد . ثم انفجر في ضحكة أشبه بالنهيق «هاهاهاها! آه يا عبد ، هاك ، خذ قدحي الآخر ، ستقطع شوطاً بعيداً في عالم البلاط!»

انحنيت مرة أخرى «أشكرك يا مولاي» . ابتسم كلانا للحظة ثم أشار طالباً قدحاً آخر .

«لقد كان ايديكين هذا رجلاً عظيماً . أتمنى لو يمكنني القول بأنه كان قادراً على أن يكون سلطاناً عظيماً ، لكن الأرجح هو لا . لقد كان يبذل جهداً خارقاً ليظهر بمظهر الخشن الذي لا يعرف الخوف ، وكان كذلك لكن عقله كان ميالاً إلى التعمق في التحليل . أحياناً ، كل ما تحتاجه هو أن تثق بحدسك . صحيح أنه كان شجاعاً وكنت أخشاه . سيخبرك ذلك بكل ماتريد معرفته . إن الرجال الذين يحتلون منصبه الآن لا يستحقون أن يربطوا له حذاءه ، باه!»

«هل لك أن تخبرني بالمزيد عن المعركة يا مولاي؟»

شرب وأومأ بالإيجاب «إحم! طبعاً يا عبد . إنني أستمتع بهذا

الموضوع حالياً . دعني أرى . . . تلقينا أنباء سقوط القدس ، ثم جاء الأمر من السلطان الصالح . جرى شحذ السيوف ، وتحديد أسنَّة الرماح . لقد كنا مثل - لا أدري - أشبه بأشبال الأسود . لم نطق الانتظار . منذ اللحظة التي قرأت فيها عن أفعال الفرنجة المشينة ، لم أعد أرغب في شيء أكثر من أن أدمرهم في المعركة . شعر الجميع بالشعور نفسه . كنا غاضبين ، لكن معنوياتنا عالية ، نشعر بالنشوة . تم صقل الأقواس . حملت من السهام في جعبتي ما يكفي لمحو كتيبة . وردنا خبر من عكا مفاده أن هناك جيشاً يجري تجميعه فعلاً . بدأ السلطان التحرك من الجنوب . وجب علينا الركوب مثل الشياطين حتى نلحق به وننضم إليه ، لكننا كنا قادرين وعرفت ذلك» .

توقف ليتصور الموقف بعين عقله ، وتمنيت لو استطعت أن أرى ما يشاهده خلف البؤبؤين الأسود والأبيض .

«لقد كانت رحلة محفوفة بالمخاطر والخدع . كنا بالطبع في حلب وقد انحازت كل من حمص ودمشق إلى الفرنجة . أصبح الركوب عبر الريف أمراً خطراً بشكل مفاجئ ، بالنسبة إلينا على الأقل .

شعرت بالذهول . تخيل : مسلمون إخوة في الدين ، ينحازون إلى المشركين؟ لم أستطع أن أصدق ذلك ، مع أن أساليب عديمي الإيمان تتسم دوماً بالغموض ، أليس كذلك؟

لاحظ أن الخوارزميين كانوا شياطين . لقد فعلت ما فعلوه وأسوأ ، لكنهم في هجماتهم لم يميزوا بين الواحد والآخر . قتلوا المسلمين أثناء نهبهم للقدس . لكن ذلك شكَّل مجرد ذريعة للمنصور العظيم ، أمير حمص ، حتى يتدخل ويعبئ ضدنا - فهو لم يكن ليهتم لبضعة أشخاص غير مهمين ذبحوا خلال الاستيلاء على مدينة . كلا ، لقد فكر أن بوسعه استغلال المشكلة ليستولي على السلطة لنفسه ، وقد أخطأ في ذلك ، خطأً جسيماً» .

عاود التفكير ثم انطلق «أصبح السؤال بالنسبة إلينا في حلب هو كيفية تجنب المنطقة الثائرة إلى الجنوب والالتحاق بالسلطان؟»

ضحكت لأنني كنت أعرف القصة «البحر يا مولاي» .

هزَّ رأسه موافقاً «البحر يا عبد . فعلاً صحيح . قضيت السنوات السابقة أرمي السهام ، أبارز وألعب البولو . لا أظن أنني حتى رأيت البحر في الفترة ما بين نزولي من السفينة في أنطاكية والرحلة الأولى إلى بيت ايديكين ثم دخولي مدرسة المرشحين . جهزنا أنفسنا في اندفاع عسكري منظم ثم جاء الانتظار . قرر ايديكين أن نغادر في الليل ، لذلك اضطررنا إلى لف كل شيء . تغطية السيوف ولفها داخل بطانيات . ارتدينا ملابس داكنة . أي شيء يمكن أن يصدر قرقعة أو رنيناً تمت تغطيته أو الاستغناء عنه . تجول الضباط حوالينا يفتشون على كل فرد بدوره . اعتقدت أنني تخلصت من كل شيء يحمله أولاد فصيلي ، لكنهم عثروا على بضع أبازيم ومهاميز تبحلق في العتمة . أدركت أنني قد لا أعرف كل شيء بعد «أطلق ضحكة قصيرة» بمعرفتي ما أعرفه الآن ، أرى أنني ما كنت أعرف شيئاً في ذلك الوقت ، لا شيء مطلقاً . يقودنا الغرور الصبياني كلنا إلى حالة من اعتقاد المعرفة ، أليس كذلك يا عبد؟» وافقته بهزة رأس «نعم» ، لكن ذلك الغرور أفادنا كثيراً هناك : الاعتقاد بأنك لا يمكن أن تُقتل . مازلت لا أصدق أنه يمكن قتلي . ربما أنني لم أكبر أبداً . . .» .

أورثني تذكر كلماته في تلك الليلة وهو يخبرني كيف بدأت مهنته العسكرية وصعوده إلى عرش العالم ، مزيجاً من الحزن والمحبة . مازالوا يقولون إن بيبرس أعتقد أنه مخلّد . الأمر الذي كان صحيحاً بطريقة ما - كان يعتقد فعلاً أنه لا يمكن قتله - لكنهم يقولون الآن إنه اعتقد بأنه كانت لديه لمسة من الألوهية ، شيء يختلف عن الإنسان . أستطيع القول الآن ، بصفتي أقرب رفيق له ، والحاصل على اعترافاته بشكل من الأشكال ، إن بيبرس لم يكن يؤمن بمثل هذا الأمر . لم يكن مفهومه عن

انعدام الضعف فيه مفهوماً طقوسياً أو غامضاً . لقد كانت فكرة عالقة منذ أيام شبابه ، والحياة التي عاشها .

لقد ظل سلطاننا العظيم هو الصبي الذي قاتل أولاد القرية الآخرين بالعصي في مبارزات سيوف متخيلة ، والمقاتل الشركسي المرشح الوسيم الذي يطوّح بعصا البولو فوق عشب الميدان االذابل ، في نواح عديدة .

قال «على أية حال ، اندفعنا وقفزنا لنهيء أنفسنا ، وبعدً ذلك ، عندما أصبحنا في النهاية جاهزين ومستعدين للاندفاع خارجين من البوابة ، قالوا لنا أن نقف إلى جانب جيادنا وننتظر . . . وننتظر . حاول ايديكين عدة مرات في السابق أن يشرح لي بأن قسماً كبيراً من حياة الجندية متعب ، وممل إلى أقصى الدرجات ، ولم أصدقه في حينها أبداً ، ولكنني أدركت الآن ما كان يقصده . أعني ، لقد كانت دماؤنا تضخ بقوة ، وأيدينا ترتعش على مقابض السيوف ، فقد كنا في فورة من ارتفاع المعنويات والاستعداد العنيف . لو أنهم قالوا لنا أن نركب خارجين من البوابة وننهب حلب نفسها لفعلنا ذلك بدون لحظة تردد . لكن هذا الانتظار والوقوف كانا العذاب بعينه . أحسسنا أن وقوفنا بهذا الأسلوب قد طال لساعات . ثم خرج ضابط من المبنى الرئيس حيث كانوا كلهم بداخله يخططون وأمرنا بالعودة إلى مهاجعنا . «اتركوا الجياد مسرجة ، ولكن اذهبوا واجلسوا» . أمر لا يمكن تصديقه .

هززت رأسي فقد أصبحت الآن مخضرماً في حملات بيبرس ، وهكذا فإن الشعور مألوف جداً . بالنسبة لي .

«وهكذا دخلنا ، وأخرج بعض الفتية المسابح بينما فتح البعض الآخر الألواح ، وبدأوا يقذفون الزهر . كنا جالسين كلنا بملابسنا الداكنة ، مثل الرهبان الفرنجة . أخرجت كتاباً من كيسي : المقدسي ، حول وصفه لفلسطين» أطلق باتجاهي ابتسامة صغيرة ، فهو لم يتوقف يوماً عن تفاخره بعلمه أمامي . «وقرأت . لابد وأنني غفوت لأن الشيء التالي الذي أذكره

هو أنني أتعرض للإفاقة بالهز ، وكان ايديكين واقفاً فوق رأسي . كان مرتدياً درعه تحت معطف داكن وبدا حجمه مضاعفاً عما يبدو عليه حين كنا نفطر سوية في الصباحات . قال لي «نحن سنتحرك» .

آه يا عبد . الفرح ، لقد عاد دمي إلى الضخ العنيف وقفزت واقفاً على قدميَّ . «أنا طوع أمرك ياسيدي» . قلت له وانحنيت . كان جميع الآخرين مجتمعين حولنا . «ستركب أنت وفصيلك معي يا بيبرس الكتابي» . أديت التحية وأشرت إلى تيكا وسليم ليلحقا بي بينما تبعنا الآخرون . قادنا ايديكين في الممر وأنا على يمينه ولم أشعر بمثل تلك القوة في حياتي . كنت قادراً على اختراق الجدران بقبضتيَّ وأنفض الغبار عن نفسي في الجهة الأخرى . لحسن حظي أن ذلك لم يكن ضرورياً . فقد نزلنا الدرجات ، ركبنا وانطلقنا عبر حلب . كان الصمت والسرية ضروريين بسبب وجود الجواسيس . كانوا خارج البوابة وربما كانوا موجودين في داخلها أيضاً . لقد كنا ذاهبين إلى الحرب ضد بعض رعايا السلطان نفسه في نهاية المطاف ، وكانوا يعرفوننا كما نعرفهم . ناهيك عن الهامسين الفرنجة . إنهم يدفعون مبالغ طائلة لقاء المعلومات ، ويمكن للفرنجي الجنوبي أن يبدو مثل أي عربي حقيقي وجدته . ولكن أيضاً ، يمكن بسهولة الاعتقاد بأنني فرنجي بشعري الأشقر وعيوني الزرقاء ، أليس كذلك؟»

«هذا ممكن يا مولاي ، إلا أن عظمتك و قدسيتك ستبهران كل من يشاهدك» .

أخرج لسانه ونفخ بضجة غير ملكية مطلقاً في وجهي «هل تريد أن تسمع هذه القصة أم تريد أن أقذف بقدح آخر باتجاه رأسك؟»

«أنت تعرف أنني خاضع لمشيئتك يا مولاي» .

شخر ساخراً «أنت فعلاً مطيع يا عبد . أين كنت؟ صحيح ، كنا راكبين خروجاً ونحاول أن نتجنب الجواسيس . تكمن الحيلة في خداع الجواسيس بمحاولة عدم تجنبهم كلياً . فهم سيعرفون أننا غادرنا قبل مرور

وقت طويل . بدلاً من ذلك فقد أعلن القائد ايديكين على الملأ وبمنتهى الوضوح أننا نركب إلى الجنوب ، متجنبين حمص ودمشق ، باستعراض لجرأة المقاتلين الشراكسة البحريين . بالنسبة لايديكين وحتى بالنسبة لي ، ما كنا لنهتم أبداً بحكاية الجرأة وحتى بنسبة أقل لاستعراض الجرأة . كلا ، فقد ظل لسنوات يدق في رأسي ما مفاده أن مفتاح الاستراتيجية العسكرية هو كسب الحرب وليس فقط المعركة . وهكذا فقد اختار المسار الأكثر احتمالاً لإيصال رجالنا إلى المكان الذي يحتاجون الذهاب إليه بأقل قدر من الخسائر ، وحيث سيكونون أكثر قدرة في التأثير على نتيجة الحملة» .

ربما كنت أعرف القصة ، لكنني حبست أنفاسي رغم ذلك .

«وهكذا فالحرب مستعرة في الجنوب ، وأنت تتوقع أن يندفع خمسمئة مقاتل بحري شركسي إلى قلب القتال مباشرة ، هل هذا صحيح؟»

هززت رأسي

«فماذا فعل أستاذي؟ لقد أخرجنا راكبين من مجمعنا في وسط الليل ، تحت أنف القلعة مباشرة ثم أخرجنا من . . . البوابة الشمالية! ضحك للذكرى .» لم يعرف أحد منا ما يجري . لقد أعطينا الأمر بأنه ستقطع رقبة أول رجل يكسر الصمت ، لذلك فقد لاحقنا الكشافة ونحن نحدق في بعضنا البعض . «ما الذي يحدث هنا؟»

عبقرية .

انطلقنا خارجين إلى الريف قبل أن يعرف أي شخص ما يحدث . لابد وأن الجواسيس وقعوا ضحية للحيرة والذهول .

الفصل الثالث عشر

ارتحلوا راكبين طيلة الليل وعندما انبلج الفجر، باتوا قريبين من قيليقية وسهول الأناضول. وعندما أعطي الأمر أخيراً بالترجل وإراحة الخيل إلى جانب نبع صغير، بات بيبرس يتحرق لسؤال ايديكين عما يحدث. «بيبرس، سليم، تيكا. إعملوا على وضع خفراء وأرسلوا كشافة لاستطلاع المناطق المحيطة بنا. ليس من المحتمل أن يتواجد أي شخص في المنطقة ما عدا بعض المزارعين، لكننا لن نجازف».

أدى ثلاثتهم التحية بحماسة وانطلقوا في اتجاهات منفصلة. تأكد بيبرس من أن كل واحدة من السرايا المؤلفة من ثمانين رجلاً لديها محيط ملائم وخط رؤية واضح تجاه المقتربات، سواء من جهة التلال خلفهم أو الحرش الصغير إلى الشرق منهم. بمجرد أن عبروا النبع متوجهين إلى الشمال الغربي مرة أخرى، فهم لن يعودوا تقنياً ضمن أملاك السلطان، وأدرك أن ايديكين محق في عدم الاستهانة والمخاطرة. تلفت المرشح حواليه ولاحظ أن أستاذه قد اختار الأرض المستوية لوقفة الاستراحة بعناية: فهم على مرتفع يكفي لكشف أي فرسان قادمين أو جماعات كبيرة، ومع ذلك فهم ليسوا مرتفعين إلى درجة يمكن معها محاصرتهم وعزلهم.

أثناء عودته إلى مركز معسكرهم المؤقت، أشار إلى سليم وتيكا العائدين من الاتجاه الآخر. طردوا خيلهم إلى حيث اضطجع ايديكين مستنداً إلى جذع شجرة صغيرة، وقد أغمض عينيه ورفع ساقه اليسرى فوق ركبته اليمنى المثنية. حرَّك يده من حيث كان يستخدمها كوسادة لمؤخرة رأسه ببطء وحك أنفه. رفع رأسه لدى سماعه حوفر خيلهم.

«الحراس؟»

قال بيبرس «اتخذوا مواقعهم يا سيدي»

«مجموعات الكشافة؟»

«أرسلوا إلى عملهم»

هزَّ القائد رأسه «جيد . المؤسف أنه ليس لدينا الوقت للبحث عن الطعام أو حتى قليل من الصيد . أنا ألاحظ أن الركوب على هذه الشاكلة يثير أعظم شهية للطعام» .

«هذا صحيح يا سيدي» . ترجل بيبرس وفعل صديقاه مثله .

«سليم ، ربما تستطيع أن تعثر لي على بعض الفواكه المجففة في أحد أكياس السرج؟»

فتح ايديكين عيناً واحدة ونظر إليهم عابساً «وأنت يا تيكا ، هل يمكنك أن تسخن بعض الماء؟»

«حاضر ياسيدي» . قال سليم بطيب خاطر وأدى هو وتيكا التحية . بمجرد انصرافهما . وقف بيبرس للحظة ، قبل أن يتغلب عليه الفضول الشبابي وغرابة موقفه «وأنا يا سيدي؟هل هناك شيء يمكنني عمله؟»

فتح ايديكين عينيه الاثنتين ونظر إليه وقد فوجئ . وكأنه قد نسي أن بيبرس موجود أصلاً . قال «آه ، بيبرس ، أنا متأكد من وجود شيء ما في جراب سرجك تحب الآن أن تأكله . تفضل وتناوله وانضم إليَّ هنا» . سحب بيبرس نفساً عميقاً وقد اعتاد على اللعبة التي يمارسها ايديكين في تأخير ما يرغب في قوله حتى يكاد بيبرس ينفجر من نفاد الصبر ، ومدَّ يده تحت السرج . وجد قطعاً من الخبز المشروح كان قد وضعها هناك في الليلة الفائتة . وجد أيضاً بضع حبات من «اليالنجي» وهي أوراق العنب الملفوفة على حشوة من الأرز في جراب سرجه ، لكنه قرر أن يبقيها حتى حلول الليل . ربط حصانه إلى غصن متدلٍ وذهب ليجلس .

«هل عرفت أن المغول يضعون اللّحم النيء تحت سروجهم في الصباح

ويتركون حرارة الخيل تطهيه طيلة النهار أثناء ركوبهم؟» سأله ايديكين «إنهم أيضاً يخلطون حليب الياك بالماء ليجعلوا منه شراباً يقيم أودهم» .

قسم بيبرس قطعة من الخبز الذي يحمله وقدمها لايديكين الذي تناولها بإيماءة امتنان . «لقد سمعت حتى أنهم يشربون الحليب من أثداء أفراسهم مباشرة ويشربون الدم من رقابها حين ينفد منهم الطعام أثناء ركوبهم الطويل» .

مضغ ايديكين الخبز بصمت .

«ما الذي يدعوك إلى شرب دماء جوادك وإضعافه؟ ربما لو كنت يائساً ، لكنني لا أستطيع أن أفكر في أي سبب آخر» .

قال بيبرس «يحتفظ كل مغولي بأربعة جياد أثناء الحملة . ولذلك فهو يمكنه أن يختار أي جواد سيركب وأي جواد سيشرب دمه ، ألا يمكنه ذلك؟»

وافقه ايديكين «ذلك ممكن . لكن الإصغاء إلى القصص حول شرب المغول للدماء بشكل دوري ، يذكرني بالقصص عن الجنود الذين يستولي عليهم هوس يجبرهم على سلخ جلود الفلاحين وأكل لحومهم وهم أحياء . إن الفلاحين أكثر قيمة إذا تم بيعهم كعبيد ، فلماذا يأكلونهم؟ يقال أيضاً إن المقاتلين الشراكسة يشربون الدماء في بعض الأنحاء ، فهل تظن أن ذلك صحيح؟»

توقف بيبرس عن المضغ وفكر ، ثم قال «سأشرب الدماء إذا اضطررت إلى ذلك . لقد كنت عبداً في سفينة مجاذيف في نهاية الأمر . هناك أشياء قليلة جداً ما كنت لأقدم عليها حتى أنجو بحياتي» .

كتم ايديكين ضحكة مفاجئة فخرجت مثل شخرة من أنفه «هل كنت عبداً حقيقياً لمجرد أسابيع يابيبرس؟ قل لي ، هل أبقيت مسجوناً في القذارة أكثر من أسبوعين؟»

لوى بيبرس فمه إلى ناحية ولم يحر جواباً . حدَّق فيه ايديكين بحدة

لثانية ثم ضرب على ركبتيه «ها! لم أعتقد ذلك! أنت لم تعرف اليأس المطلق أبداً . أنت تظن ذلك ، أنا أوافقك على اعتقادك . لكنك لا تعرف شيئاً عما يكون عليه الإحساس حين تفقد نفسك . أن تكون عبداً ، أقل من الإنسان ، لسنوات ، لعقود! ماذا ، حتى قيصر نفسه احتجزه القراصنة أكثر مما احتجزوك . هل تذكر؟»

«نعم سيدي» .

«صحيح أننا نحن المقاتلين الشراكسة عبيد ، لكننا عبيد فقط لسلطاننا وإرادة الله .

لا أحد غيره . لا رجل آخر ، سواء كان مؤمناً أم ملحداً ، يسمح له بأن يمد يده باتجاهنا . وإذا كان هناك شخص ما من الحماقة بحيث يحاول . . .؟ حسناً ، نحن لن نعتبر أنفسنا شيئاً إذا لم نكن حازمين»

شعر بيبرس بأن الأفضل هو أن لا يقول شيئاً ، لذلك مضغ كسرة من الخبز .

قال ايديكين «في كل الأحوال ، أنا أثرثر أحياناً . لكن قل لي : هل أجريت مزيداً من التفكير في سؤالي؟»

«نعم يا سيدي؟»

«ثم ماذا؟»

«سأفعلها» .

وافقه ايديكين «ذلك أمر طيب . هل فهمت ما أقصده عن كون الشخص عبداً حقيقياً؟ لو أنك لم تظهر شجاعتك على تلك السفينة ، لانتهى بك الأمر نازلاً في منجم أو صاعداً في مدخنة . ولكنك الآن مقاتل شركسي ، والمقاتل الشركسي يمتلك امتيازات» .

«سيدي ، يشرفني أن أسمي نفسي أخاً للمقاتلين الشراكسة» .

انعقد حاجبا ايديكين وقال عابساً «يشرفنا أن تكون بين صفوفنا يا بيبرس . رغم أنك صبي أحمق!» .

«لقد انقضى زمن طويل . فهل سيعرفونني؟»

«تقصد عائلتك؟ بالطبع! من هو الوالد الذي ينسى ابنه؟ لا أحد يستحق ذلك الاسم في رأيي . ثم فكر في والدتك؟ سنرسل لهم خبراً ، وسوف يحضرون ليروا الرجل الذي أصبحته . سيبقون هنا ويشاركوننا طعامنا ويصغون إلى قصصك . وسوف يخبرونك عن أشقائك وشقيقاتك» .

«ليس لدي أشقاء سوى المقاتلين الشراكسة يا سيدّي» .

«الذين تعرف عنهم يا بيبرس . يحق للمقاتلين الشراكسة أن يحضروا عائلاتهم لتزورهم وحتى تحضر العائلات لتعيش معهم . يحتمل أن تتعرف على أشياء كثيرة لم تكن تعرفها عن قبيلتك . صدقني ، أنت لن تندم على هذا» .

رغم ذلك ، لم يكن بيبرس قد اقتنع «ولكن ما العمل إذا لم يكن هناك غير الأخبار السيئة يا سيِّدي؟»

«باه ، أنت تقلق بلا سبب . الرجال لا يقلقون يا بيبرس . مال ايديكين إلى درجة استطاع فيها بيبرس أن يشم النبيذ في أنفاسه» . كل ما حدث كان بإرادة الله عز وجل ، فلا تنس ذلك أيضاً . تقبل الوضع واحتمله واجعله يقويك أكثر . إن الطريق الآخر هو سبيل الظلام : هو أن تترك الأمر يستقر ويتعفن ويدمرك . عانق قدرك» .

«لقد قال لي رجل آخر الكلام نفسه في السابق» .

«أهذا صحيح؟ ومن يمكن أن يكون ذلك؟ تيكا هنا ، الذي يحضر لي مشروباتي الدافئة؟»

مدَّ القائد العجوز ذراعه بينما اقترب العملاق منهما حاملاً صينية ناعمة بدرجة مفاجئة وركع ليقدِّم له كأساً يشع منها البخار .

«كلا يا سيدي ، لقد كان ذلك الشخص هو القبطان» .

انهمك ايديكين في تذوق طعم مشروبه إلى درجة لم يستطع معها أن

يسمعه في المرة الأولى «آه، إن هذا رائع! ما الذي قلته يا بيبرس؟»

«قلت كان القبطان أول رجل يقول لي إنه يجب عليَّ أن أتقبل الخطة التي يحتفظ لي بها الله سبحانه وتعالى».

«القبطان؟ هل تقصد صديقي القديم فابيو؟»

وافقه بيبرس.

«حسناً، حسناً، حسناً. إن الأدمغة العظيمة تفكر بالأسلوب نفسه يا بيبرس. سوف نضطر إلى سؤاله عما إذا كان يتذكر».

تقبل بيبرس كأساً من النبيذ الساخن المخلوط بالماء ورشف «قلت نسأله يا سيِّدي؟»

الفصل الرابع عشر

«بيبرس» .

كبر الرجل وشاخ ، وربما لم تعد عيناه فوارتين بالقدر نفسه الذي كانتا عليه فيما مضى ، لكن لم يكن هناك مجال للخطأ تجاه ذلك الوجه الوسيم . كان ذلك هو القبطان فابيو . لم يصدق بيبرس بسهولة . لكنه هنا في هذه اللحظة ، مثل رؤيا ، حلم عن ماض مات منذ زمن طويل ، يركض فوق معبر السفينة روزا الخشبي ، وقد أصبحت أكثر اهتراءً مما يذكرها ، لكنها على القدر نفسه من الجمال . لكزوا جيادهم بضع أقدام أخرى إلى الأمام ليجد أن رائحة السفينة مازالت عطرة كما يذكرها .

قال القبطان فابيو «انظر إلى نفسك ، المقاتل الشاب ، ياله من منظر! لقد كبرت لتصبح رجلاً ، مقاتل كبير الآن! هل أنت في درجة نفسها الخطورة التي أذكرها؟»

«أكثر من ذي قبل . لدي حصان الآن» .

توقف القبطان ثم انفجر في ضحكة لومباردية مجلجلة . «ها! آه يا بيبرس . أنت مختلف جداً ورغم ذلك مازلت الشخص نفسه» . بات واقفاً أمامهما الآن .

«وأنت يا ايديكين ، يا صديقي القديم ، أنت لم تتغير على الإطلاق . فلنشكر الله على أنه يعرف بحكمته المطلقة أن يبقي الأمور على حالها!» .

ترجل ايديكين ، ابتسم وفتح ذراعيه لصديقه . «فلنكن شاكرين على ذلك في الأقل» . تعانقا بصدق لبرهة قصيرة ، ثم ابتعدا . أشار ايديكين

إلى مجموعة السفن الصغيرة المتجمعة خلف الروزا «هل كل شيء جاهز؟»
قال فابيو «جاهز . يمكننا أن نبحر بمجرد أن تصعدوا إلى السفينة ويتسنى لي شيء من ضوء القمر» .
«هل أنت واثق من أن هذه السفن ستقدر على حملنا كلنا؟»
أحصى بيبرس سبع سفن ، بما فيها سفينة القبطان . بالكاد تكفي مع الازدحام .
لم يبد على فابيو أي قلق «أنتم حوالي خمسمئة . يمكننا أن نحمل مئة رجل على كل سفينة بسهولة . وتبقى سفينتان لأجل الجياد» .
«لن تتمكن من وضع كل جيادنا على سفينتين» قال ايديكين .
«سوف نفعل ما نقدر عليه . سيقوم ملك الملوك العظيم ، السلطان الصالح ، بتعويضكم عن أي نقص بمجرد وصولكم إلى الأراضي المقدسة ، أليس ذلك صحيحاً؟»
لم يبد على ايديكين السرور ، لكن بات جلياً أنه لن يستطيع أن يفعل شيئاً . لم يكن نشر الرجال والخيول على طول الساحل المشرقي خياراً موفقاً ، ولا كذلك الانتظار في الميناء الضيق بدون غطاء إلى أن يصبح بالإمكان استدعاء سفن أخرى . قال «سنبذل أقصى جهودنا ، بعون الله» .
وافقه فابيو «إذاً فلنكسب الوقت ولا نضيعه» . خفض صوته «وكلي ثقة بأن لا يذهب إخلاصي وخدماتي سدى بدون أن يلاحظها صاحب الجلالة؟»
ربت ايديكين على ذراعه «إن السلطان يتذكر كل الذين يخدمونه ويكافؤهم بكرمه . أنا أعطيك كلمتي على هذا أيها الصديق القديم» .
اقتنع فابيو بهذا الوعد ورفع ذراعيه باتجاه الرجال الذين يراقبون من على السطح ليبدأوا بتحميل السفينة . التفت ايديكين إلى بيبرس «أعطِ الأمر بالصعود يا بيبرس . فلنذهب إلى الحرب» .

أحسَّ بيبرس وكأنه عملاق حين وقف عند الحاجز : الشاطئ إلى يساره والشمس الغاربة إلى يمينه . تذكَّر الصبي الصغير المذعور الذي وقف هناك قبل سنوات ، وتمتع بالرجل الذي أصبح عليه ذلك الصبي الآن . نظر إلى زيه الفخم وأسلحته الجميلة ، القوس القصير في يده ، وشعر للمرة الأولى في حياته كأنه رجل ثري .

«هل هذا هو ما يبدو عليه الإحساس بامتلاك كل شيء؟ أهذه هي القناعة؟»

أكدَّ على نفسه أن يتذكر هذه اللحظة بوعي معتمَّد ، لأنه بات واثقاً من أنه ستحدث مصاعب في المستقبل تفوق بكثير أي شيء اضطر إلى مواجهته على هذه السفينة الصغيرة . فقد أخبره بذلك ايديكين .

«تذكر يا بيبرس أنه برغم كونك تعلمت الكثير . فأنت مازلت لاتعرف شيئاً . هل تعرف الألم الذي يعانيه رجل يحترق؟ أو العطش الذي يعانيه شخص مرَّ عليه وقت طويل بدون الماء؟»

نفض بيبرس رأسه نفياً «فإذن أنت تعرف ما أقصده» .

ابتسم لنفسه ، تاركاً الشمس تدفئ وجهه ، بغض النظر عن الدرجة التي يكبر فيها غروره لإبداعاته في الفروسية وتدريبات الرماية ، فإن أستاذه لم يفشل يوماً في تفجير فقاعة الغرور ، وإعادته إلى الواقع . وقف القبطان فابيو إلى جانبه وكأنه يجيب على أفكاره .

«هل أنت تستمتع بالشمس أيها السيد بيبرس؟»

أجابه «أنا مستمتع» سعيداً بلقبه الجديد على ظهر السفينة .

قال القبطان «هل تعلم أن هناك البعض على سفينتي ممن كانوا جزءاً من الطاقم عندما كنت معنا . لم أقل لهم شيئاً عن وجودك معنا في رحلتنا هذه ، وهل تعلم أن أحداً منهم لم يتعرف عليك؟»

«هل رأوا عيني؟»

«إنهم مسيحيون صالحون خلف كل تلك المعتقدات . لن ينظروا إلى

عينيّ أي محمدي منكم مخافة أن يتحولوا إلى حجارة» .

ضحك بيبرس بهدوء «لا شك عندي في أن بعض أولادنا هم على هذه الشاكلة .» نظر إلى السطح ولاحقت عيناه خطاً مؤدياً إلى بقعة تبعد عنه بضع أقدام باتجاه السطح المرفوع . «لقد كان سيرجي مسيحياً . رسم إشارة الصليب بعد أن ارتكب جريمة القتل هناك تماماً فوق تلك البقعة» .

تنهد فابيو «لقد كان - ولا يزال . لقد كان ما فعله شيئاً صعباً ، قتله ذلك الصبي . لم يسرَّ أي رجل هنا أو شعر بالرضى عن ذلك العنف» .

أطال بيبرس النظر إلى تلك البقعة ثم التفت إلى القبطان «لقد أقسمت في ذلك اليوم على أن أقتل أي رجل يحمل ذلك الإيمان الجبان والهدام» . لم يصدر عن القبطان مجرد رفة هدب ، وهو يحدق في عيني الرجل الأصغر سناً . أحسَّ بيبرس فجأة بثقل القوس القصير الذي يحمله بين يديه . «لكنك أنت صديقي أيها القبطان كما هم الرجال الموجودون على هذه السفينة . بدونك أنت وهم ، ما كنت أصبحت مقاتلاً شركسياً أبداً» .

استرخى فابيو «وأنا أفتخر لأنني سددت الدين الذي برقبتي لك على إنقاذك لحياتي . لقد سمعت أنك ماهر في استعمال هذا» وأشار إلى القوس القصير . «إذا حدث ووقعنا في اشتباك ، إعمل على أن تحتفظ به قريباً منك مع كيس كبير من السهام» .

«أمرك مطاع أيها القبطان» رسم بيبرس على وجهه تعبيراً جدياً ساخراً وأدى التحية . ردَّ فابيو التحية مبتسماً ثم عاد أدراجه إلى موقعه ، لكنه توقف متردداً ، وكأنه يوازن فكرة في منتهى الجدية .

قال «أنا مضطر لأن أخبرك رغم أن الخبر قد لا يفيد . إن سيرجي ما زال حياً . إنه مع فرسان الممالك الفرنجية» .

انعقد حاجبا بيبرس وتوهجت علامة الفهد البيضاء في عينيه ، وكأن الوحش يترصد لطريدته وقد استعد للقفز إلى الخارج «أين» ، وقد اكتسب

صوته ثباتاً في برودة الصقيع .

رفع فابيو يديه «لا أعرف أين بالضبط . لقد قابلنا بعض تجار العبيد الروس في جزيرة رودس ، وهم على علاقة وثيقة بعائلته . كانوا مخمورين ، ويتذمرون لأنهم سيحرمون من كل متعة المعارك القادمة . سمعت اسم سيرجي على أنه الشخص الذي ذهب إلى الجنوب ، ليس فقط للمتاجرة ، بل للقتال» .

«وهل هو معبدي؟ هوسبيتالي؟»

«لا أعتقد أنه اتخذ الصليب في رحلة حج صادقة ، لكن هناك الكثير ممن يساعدون المذاهب المختلفة بطرق متعددة» . توقف «أنا فقط أريد أن أخبرك حتى تظل على حذر» .

نفض بيبرس كتفيه بطريقة صبيانية «أنا ذاهب إلى القتال كمقاتل شركسي بحري . أنا على حذر دائماً» .

أطلق فابيو ابتسامة باهتة «حسناً ، أنا فقط أخبرك حتى تكون ملماً . يوجد هناك رجل واحد قادر على أن يميز ظهرك من بين ألف شخص ويدفع بسكين إلى داخله» .

«الأفضل له أن يقتلني بتلك الضربة» .

قال فابيو «أعرف ذلك يا صديقي» ثم ارتفع أنفه في الهواء ، مثل كلب يتشمم محتوى الريح .

«لقد حصل الآن تغير في النسائم . ينبغي عليَّ أن أنتبه له» ، مدَّ كلتا يديه ، لكنه توقف قبل التلامس . «سوف نتحدث لاحقاً يا بيبرس ، أليس كذلك؟»

قال بيبرس «حتماً» تلفت حواليه بسرعة ثم اقترب «يحتمل أنك مازلت تحتفظ في مستودعك بقطرة من ذلك النبيذ القوي الفاخر ، صح؟»

تفتح وجه فابيو عن ابتسامة عارفة وهزَّ رأسه بسرعة قبل أن ينطلق مبتعداً ، يزأر بالأوامر باللاتينية والإغريقية . عاد بيبرس إلى التحديق في

البحر وشدد قبضته على السلاح الذي بين يديه . حاول أن يتخيل ما يمكن أن يبدو عليه سيرجي في هذا الوقت . سيكون أطول قامة ، ربما نحيل كما كان دوماً ، ومازال شعره الأشقر يتدلى حتى كتفيه . تخيل بيبرس نفسه واقفاً أمامه ومطلقاً أحد السهام . سوف يسدد إلى البطن مباشرة - إن قتل سيرجي أمر سوف يرغب في الاستمتاع به . . . يراقب الروح وهي تخبو عن عينيه تماماً كما انتشر دم بيطا المسكين على خشبات السطح .

قال بيبرس محدثاً نفسه «سوف أقتله» .

«وما ذلك؟» التفت ليرى ايديكين يقترب في هذه اللحظة من الجانب المقابل لفابيو في السفينة . نفض رأسه «لا شيء يا سيِّدي» .

«ماذا؟ هل كنت تفكر في اللاشيء؟»

«نعم يا سيِّدي» .

«تعتمد سعادتك في الحياة على نوعية أفكارك : لذلك ، احترس تبعاً لذلك ، واعمل على أن لا تحمل أية مفاهيم غير ملائمة للفضيلة والطبيعة المنطقية . . .»

«من هو الذي قال هذا يا بيبرس الكتابي؟»

«إنه ماركوس أوريليوس يا سيِّدي» . لم يكن بيبرس بحاجة إلى التفكير قبل أن يرد .

«أنت مصيب . أولم يقل أيضاً إننا ينبغي أن نكون واعين دائماً لأفكارنا حينما يتم سؤالنا حتى لا نبدو حمقى؟»

«هناك بعض المعلمين الذين يوصون بأن نصفِّي العقل حتى نبلغ الحكمة الحقيقية يا سيِّدي» .

«وكم منهم قد أصبحوا أباطرة؟ إن حياتنا هي محصلة ما تصنعه أفكارنا يا بيبرس» .

«نعم يا سيدي» .

«والآن ، اشغل نفسك بشيء مفيد . من نحن؟»

«نحن المقاتلون الشراكسة البحريون التابعون للسلطان الصالح أيوب يا سيِّدي» .

«وما الذي نحاول أن نحققه في المطلق بإبحارنا جنوباً على هذه السفينة؟»

«يفترض فينا أن ننضم إلى جيش سلطاننا ونهزم أعداءه يا سيِّدي» .

«أريدك أن تكون أكثر دقة يا بيبرس» .

«ينبغي علينا أن نهزم الجيش الذي سيزحف ليحاول أن يستولي على القدس للمشركين» .

«ما هي الوسائل والإمكانيات المتوفرة لدينا؟»

«على حد علمي ، يبلغ عددنا نحن المقاتلين الشراكسة ألف رجل مسلح . لدى السلطان جيش قوامه حوالي خمسة آلاف رجل من المشاة والعدد نفسه من الفرسان الخيالة . هذا إذا انضم الخوارزميون إلى المعركة الفعلية . وهذا أمر مازال غير مؤكد» .

«كم يبلغ عدد الفرنجة والخونة الذين نتوقع أن نواجههم؟»

كرَّر بيبرس الحقائق والأرقام التي أتوا على ذكرها المرة تلو الأخرى في تقديراتهم المتخيلة مثل تلميذ مدرسة . «على الرغم من أن التحالف مع حمص ودمشق سوف يزيد في أعدادهم ، فإن جيوش الفرنجة في المشرق هي تاريخياً أصغر من جيوش أعدائهم . حتى قلب الأسد جلب معه أقل من عشرة آلاف رجل . أكثر تقدير منطقي يمكن اجراؤه هو أن عدد الفرنجة سيكون قريباً من عدد رجال السلطان أو أقل منه قليلاً» .

«جيد جداً . كيف ستتصرف حيال هزيمة هذا العدو؟»

فكر بيبرس للحظة . هذه هي الأسئلة التي كان يتحرق لطرحها على ايديكين ، والآن ، هذا هو يطرح أجوبته الخاصة به بطريقة ما .

«بما أن السلطان يحتل المدينة ، فإن الخيار الأول يبدو هو تحصينها والحفاظ عليها ضد العدو كما فعل صلاح الدين . لكن دفاعات القدس قد

جرى تدميرها نتيجة للاتفاق بين السلطان الشيخ رحمه الله ، والامبراطور السابق ، وتفيد الأنباء أن الخوارزميين قد نهبوا أو دمروا كل شيء قيّم مما تبقى . وبما أن الفرنجة لديهم جيش أكبر من المعتاد ، فإن المسار الأكثر حكمة هو اللجوء إلى الهجوم ومواجهتهم في الميدان .

ولكن بدلا من القيام بهجوم كاسح ، فإنني قد أناورهم لأوصلهم إلى بقعة من اختياري ، والأفضل أن يتم هذا بعد مطاردة طويلة تسبب الظمأ ، ثم أستخدم تكتيكات إضرب واهرب حتى أشتت تنظيمهم . بمجرد أن يكسروا طوابيرهم ، نستطيع أن نتصيدهم واحداً إثر الآخر»

«جيد جداً يا بيبرس ، جيد جداً . أظن حتى أنه ستقع معركة . ليس هناك متسع من الوقت لإقامة حصار . ما الذي سوف نحتاج إليه؟»

«تقصد غير المزيد من الأحصنة؟»

شخر ايديكين . فقد اضطروا إلى ترك معظم خيولهم على الشاطئ خلفهم حينما اضطروا إلى الإبحار في وقت سابق «نعم ، غير الأحصنة» .

«نظر بيبرس وشاهد اللائحة داخل رأسه» سوف نحتاج إلى ثلاثة آلاف ومئة وخمسة وعشرين طناً من القمح لإطعام عشرة آلاف رجل ، إلى جانب أربعمئة عجل لتعويض الجلود . إذا كنا قد أخذنا السروج والركابات من الخيل التي تركناها فسوف نضطر إلى مضاعفة ذلك العدد على الأقل . يقول جوزيفوس إن الرومان احتاجوا إلى عشرين ألف لتر من الماء في كل يوم . أقدِّر أنه تواجد منهم عشرة آلاف أيضاً ، وهكذا فسوف نحتاج إلى الكمية نفسها .

«نحن نعرف الينابيع والواحات أكثر مما يعرفها العدو» .

أيّده بيبرس «ستكون الخيول ضرورتنا القصوى الرئيسة . سوف نكون بحاجة إلى ثلاثمئة على الأقل فور رسونا ، والعدد نفسه على أقل القليل لأجل الاستبدال» .

«سيكون ذلك صعباً . لا أتخيل أنه بقي الكثير من الجياد ذات

النوعية الجيدة في الأسواق ؛ لأن الاحتمال هو أن رجال السلطان والفرنجة قد قاموا بشراء أكثر ما استطاعوا منها خلال الأسابيع القليلة الماضية» .

«سيرزقنا الله تعالى يا سيدي» .

«سيفعل يا بيبرس» . وضع ايديكين يديه على الحاجز ونظر إلى الشمس التي بدأت تغيب ، تكاد لا ترى وهي تحدق من حافة الأفق «بالطبع ، هناك هدف أسمى ونهائي لاستراتيجيتنا» .

«ما هو يا سيِّدي؟»

«سوف ندمر أملاك الفرنجة ونعيدها إلى حاضرة الإسلام . إن مجرد وجودهم على هذه الأرض المقدسة أمامنا يدنسها . إن القدس بين أيدينا الآن ، والفرنجة يجمعون كل قواتهم المتبقية لاستعادتها . إن الأمة منقسمة وهم يظنون أن هذه هي لحظتهم المناسبة لإنزال ضربة ماحقة بنا ، إذا استطعنا أن نحطمهم في هذه المعركة يا بيبرس . . .» ، نظر إلى الشاب الواقف أمامه ومدَّ يده اليسرى في قبضة شديدة . «إذا استطعنا أن نحطمهم – ليس فقط تشريدهم ، وقتها ستكون تلك هي النهاية . لن يبقى منهم أي شيء» .

قال بيبرس ببساطة «سوف يرسلون جيشاً آخر من الغرب» .

«وقتها سندمر ذلك الجيش قبل حتى أن يغادر الساحل . تذكر أننا سوف نحتل جميع الموانئ . سيتم إلقاء أي جندي ينزل إلى اليابسة في عرض البحر .

قال بيبرس ، غارقاً في التفكير «ربما ياسيدي ، لأن تلك هي الطريقة الوحيدة» .

«أنت فتى طيب يا بيبرس . ستصبح رجلاً في هذه الحملة ، مقاتلاً شركسياً حقيقياً ، وتدفن ماضيك خلفك» .

أضاء وجه سيرجي مثل ومضة البرق داخل دماغ بيبرس ، يبتسم ويضحك» .

«سأدفنه يا سيدي ، وأقسم لك على ذلك» .

«فتى فاضل» عادت اليد لتربت على كتف بيبرس القوي ، وهي بادرة كثيراً ما أقدم عليها ايديكين لطمأنه أولئك الذين يهتم لأمرهم . «احصل الآن على بعض الراحة» .

انبلج فجر اليوم التالي على شمس خفيضة وطقس بارد ، وكل من نام على السطح أفاق وقد جمَّده البرد حتى العظم . رمى بيبرس غطاء النوم بعيداً عنه ونهض . قدماه مثلجتان داخل حذائه وذراعاه باردتان . تقافز وهرول في مكانه بخفة في محاولة لتحريك دمائه ، لكن الأمر جاء بلا كثير فائدة .

«يقولون إننا مررنا بالقرب من قبرص أثناء الليل ، وإننا سنرسو لاحقاً هذا اليوم» .

قال سليم واقفاً إلى جانبه ، ومازالت بطانية النوم ملتفة على كتفيه . أصبح الشتاء على الأبواب .

«من الذي يقول هذا؟»

«تم تعيين عدد من الفتية في خفارة دورية خلال الليل ، ربما يسمي القائد ايديكين نفسه صديقاً لهؤلاء القراصنة ، لكنه لا يثق فيهم» .

استمر بيبرس في ضرب الأرض بقدميه . «إنه لا يثق بأحد . هناك حاجة إلى احتلال قبرص . إنها عش يشن منه الدبابير الفرنجة هجماتهم علينا ويلسعوننا بلا توقف» .

نفض سليم كتفيه «سنكون بحاجة إلى سفن أكثر من هذه - سفن ببحارة مخلصين» .

«يمكن ترتيب ذلك . أولاً ، يجب علينا أن ندفع بالفرنجة إلى البحر» ألقى نظرة إلى الأمواج الصاخبة تحتهم . كان اللون الأصفر الباهت للشاطئ ظاهراً بصعوبة في المدى .

«سنكون محظوظين إذا استطعنا أن نرسو اليوم . مع وصولنا إلى شبه

جزيرة سيناء سيكون المساء قد حل على أقرب تقدير ، وسوف يكون نزولنا إلى البر في الليل خطراً ، خاصة لقلة الجياد لدينا» .

قال سليم «ناهيك عن ارتفاع المدّ» .

رمقه بيبرس بنظرة متسائلة «هل تعرف شيئاً عن حركات المدّ؟»

«القليل جداً ، وماذا عنك؟»

«الشيء نفسه . على أية حال ، سواء كان هناك مدٌّ أم لا ، فإن الفرنجة يحتلون يافا وعسقلان وجميع الموانئ الجنوبية ، أو على الأقل كانوا يحتلونها لدى مغادرتنا حلب . لن يخاطر القائد ايديكين ولا القبطان فابيو بالرسو بمحاذاة ذلك الشاطئ» .

«هل ذكرت القبطان ، هل أنت تعرفه؟»

قال بيبرس محاولاً أن يبدو غامضاً «لقد التقينا من قبل» .

بدا على سليم الارتباك من هذا الموضوع «إذاً لماذا سيناء؟ أليس هناك أي موقع أبعد إلى الشمال؟»

نفض بيبرس رأسه «إن مركز الفرنجة في عكا وينتشر فوق كامل شمال فلسطين ، مع انحياز جنوب سورية إلى جانبهم ، يحتمل أن نرسو في خليج مهجور ثم نتحرك إلى الداخل . ولكن ماذا بعد ذلك؟ ليس لدينا الطاقم الكامل من الجياد ، فماذا سيكون نفع بضع مئات من الفرسان في هذه الحملة؟ سوف ننقطع ونكتفي بعمليات الإغارة . لا ، إن فرصتنا الوحيدة في إحداث الفارق تكمن بالنزول في منطقة آمنة ، إعادة استكمال مطايانا ، ثم الاتصال مع الجيش الرئيس للسلطان من أجل المعركة . إن خمسمئة فارس بحري مقاتل لوحدهم مصدر إزعاج ، لكن خمسمئة منا يقودون جيشاً ملكياً يمكن أن يصنعوا الفارق في المعركة» .

وافق سليم «لقد فكرت بكل التفاصيل . السؤال الوحيد الآن هو ماذا يفترض فينا أن نفعل ونحن محبوسون هنا؟»

جاء الجواب على هذا السؤال : القليل جداً . استمر أسطولهم الصغير

بأسلوب قريب من الهدوء ، ولم تحاول أي من السفن القليلة التي شاهدوها في جميع الاتجاهات أن تعيقهم أو تعترضهم . كان هناك شبه اتفاق مبدئي على أن المسائل مرتبكة في هذه المياه إلى درجة أن كل سفينة ، مسيحية كانت أو مسلمة ، قد قررت أن تترك جميع الآخرين لشؤونهم ، وأن المسائل سوف يتم حلها على اليابسة . أو هكذا فكر بيبرس بكل الأحوال . ربما كان طقس تشرين الأول بارداً ، لكنه كان معتدلاً أيضاً ، وسرعان ما أقبل الشباب على السطح على عمل كل ما يقوم به صغار السن لتمضية الوقت عندما لا يكون لديهم ما يفعلونه . لم تكن هناك منافسات رياضية لرؤية من الذي يمكنه السير على يديه أطول مسافة ممكنة ، أو من يستطيع أن يؤدي أكثر تمارين الضغط ، فظهرت علب تحتوي على ورق اللعب خارجة من الأكياس الشخصية وبدأ توزيعها . أحياناً كان بيبرس يستمتع باللعبة ، وانضم إليهم في هذا الوقت ، ليمنع نفسه من التفكير بسيرجي من ناحية ، ومن الأخرى ليبقي يديه منشغلتين .

أصبحت الألعاب بين صفوف الجند أقرب ما تكون إلى التمرين الجسدي ، فقد ظل المرشحون الصغار يضربون أوراق اللعب على السطح بكل القوة التي يمتلكونها ، ويتباهون بانتصاراتهم بالصراخ والمزاح . كان الوضع ممتعاً جداً ، ولكن بعد حوالي ساعة ، بدأت اللعبة تتحول إلى الملل والرتابة ، وصارت الصور على الأوراق مثل الأقداح ، وقطع العملة والسيوف وعصي البولو تتداخل وتحوم أمام عيني بيبرس . وضع أوراقه على وجهها بحيث بقي ظهرها المزوق إلى الأعلى واستأذن منصرفاً . لم يكد أحد يلاحظه وسط الضجيج .

حاول أن يعثر على بقعة هادئة ليجلس فيها ، لكن السفينة كانت مزدحمة في هذا الوقت . بعد أن خرج كل الرجال الذين كانوا موزعين في العنابر إلى السطح وأصبح الوضع مربكاً .

تأمل أن يكون السطح السفلي أنظف مما كان عليه أثناء وجوده

كمسافر . أخيراً ، عثر على زاوية تكوم فيها جالساً ودفن رأسه في كتاب حتى يبعد أي مقاطعة له .

سيرجي . . . لم يتركه الاسم أبداً ، مع أنه بات من الصعب الآن استحضار صورة واضحة عما يمكن أن يبدو عليه العدو . لقد تناقص تفكيره فيه على مر السنين وبدا كأن الاسم لم يعبر بذهنه لسنوات حتى أتى القبطان على ذكره في مساء الأمس . ولكن في كل الأحوال ، فقد بقي موجوداً . أدرك ذلك الآن . وماذا عن دانا؟ ما الذي يذكره عنها؟ القليل جداً . أيام مشمسة بهية . مؤخرة رأس داكن على صهوة جواد ، منظر جانبي لوجه ، ربما ، ولكن كيف كان شكلها حين تبتسم؟ لم يستطع أن يتذكر . إلى أين ذهبت؟ كان ذلك شيئاً يأمل أن يحصل عليه من سيرجي قبل أن يذبحه . ترك الكتاب يستريح في حضنه وامتدت يده إلى الخنجر المعلق على ردفه ومرر أصابعه عليه . كان قاما شركسية أصلية حصل عليه من حلب : صلب ، بارد وباعث على الثقة . تقلصت مجموعة العضلات في ذراعه وعلى كتفيه مع ورود فكرة الإمساك برقبة ذلك الكلب وتمزيقها .

ربما يحضر له والده قاما جديدة عندما تحضر العائلة؟ أخواته ، جونا بشكل خاص ، لابد وأنهن متزوجات بحلول هذا الوقت . ماذا سيكون رأيهن فيه؟ هل ستبكي أمه؟ لم يستطع حتى أن يتذكر وجهها ، وهي حقيقة خجل منها ، لكنه سيتعرف على صوتها في الثانية التي تفتح فيها فمها . أخرج خنجره من غمده وحجراً مسناً من جيبه وبدأ يشحذ الحدّ الذي هو في مضاء موسى الحلاقة أصلاً ، وهو يدمدم لحناً قديماً ظل يظن أنه سمعها تشدو به أثناء عملها وسط ضجيج ألعاب أترابه .

عبر من قربه ايديكين وفابيو في طريقهما إلى السطح الرئيس . التفت فابيو إلى ايديكين بعد أن انتقلت عيناه من كتاب بيبرس إلى الخنجر «انظر إلى ذلك – إنه يشحذ الاثنين معاً ، سلاحه وعقله! ألم أقل لك إن

الفتى متميز؟» أدى ايديكين انحناءة ساخرة، وهو يخطو بسلاسة من فوق الساقين الممدودتين لفارس نائم. «لقد ابتسم لك الحظ يوم ألقي به في عنبرك. صباح الخير لك أيها الكتابي بيبرس! هل تودُّ أن تنضم إلينا على السطح الرئيس؟»

انقضت بقية ذلك النهار بما ظنَّه بيبرس تكراراً لا نهائياً من كل رجل ذي شأن على الجسر، للتفاصيل التي بحثوها من قبل. حسب رأيه: ماهي الفائدة من بحث الخطة المرة تلو الأخرى بعد أن تم إقرارها والتعرف على جميع نقاطها المؤكدة واحتمالات تغيراتها؟ الأمر المؤكد أنه، بالحكم على المحادثات السريَّة بين ايديكين والقبطان فابيو والتي اطلع هو عليها، لم يعد هناك ما يمكن عمله سوى الجلوس والانتظار والاستراحة استعداداً للتجربة القادمة. إن خطة ايديكين هي البساطة بعينها، وهي تحمل إمكانية خداع أعدائهم في دمشق بدرجة كاملة. وكما قال، فهم يتوقعون منه أن يركب جنوباً ويهاجم، ولذلك فقد ركب إلى الشمال عوضاً عن ذلك. إذا أسعفه الحظ، فسوف يترك أمراء تلك المدن التي تقف مع الجانب الفرنجي جنوداً للحماية من الفرسان الشراكسة البحريين الشماليين الذين لم يعودوا موجودين هناك، مما سيضعف قواتهم التي يأتون بها إلى الجنوب لمقاتلة السلطان والخوارزميين.

سيكون لتحرك ايديكين إلى البحر تأثير آخر أيضاً. يوجد الآن خمسمئة مقاتل شركسي تقضي الخطة التي تم تداولها المرة بعد الأخرى، بالرسو في خليج قريب من العريش، في شمال سيناء، ثم الركوب عبر هذه المنطقة الآمنة حتى يلتقوا بقوات السلطان الرئيسة. كان ذلك كافياً بالنسبة لبيبرس، لم يكن هناك ما يمكن التخطيط له أبعد من ذلك - ومهما واجهوا من صعوبات فهم مجبرون ببساطة على التعامل معها. إنهم يعرفون الأرض: إنهم يعرفون ما يحتمل أن يواجهوه، وكل شيء آخر متروك لقضاء الله وقدره.

ولكن إذا انقلب الطقس . . .» قال أحد ملازمي ايديكين الأكبر سناً للمرة الألف . كان ذلك بهروز ، أحد أقدم المدربين في الخدمة بالميدان . هو كيبشاكي سمين عميق المعرفة ، وهذا مزيج سيء بالنسبة لبيبرس ، فقد ظل المرشحون يتساءلون عما إذا كانت مشيته المتغطرسة ستكون بالثقة نفسها عندما يحين الوقت لخوض غمار حرب حقيقية . رآه بيبرس على حقيقته وهم يقفون على حافة المعركة في سبيل روح القدس نفسها .

أجابه القبطان فابيو «سوف ترسو السفن إما في صباح الغد الباكر أو في المساء . إنني أبحر في هذه المياه منذ أن نزل جون البريني إلى البر في دمياط وزحف على القاهرة قبل أكثر من عشرين عاماً . لن يحدث أي تأخير حتى لو هبت أنواء بحرية ممطرة» .

«أقصد بعد أن ننزل إلى اليابسة أيها اللومباردي . لست بحاجة إلى سماع حكايات عن قرصنتك» . توتر القبطان لكنه لم يقل أي شيء . رفع ايديكين يده «إذاً . . .» لكن بهروز قاطعه «ليست لدينا استعدادات كافية لو هبت علينا عاصفة رملية . كما تعلم يا ايديكين ، فقد صرحت باعتراضاتي على هذا المشروع منذ البداية . . أنا أعتقد . . .»

اتضح أن هذا أكثر من أن يحتمله بيبرس الذي خطا إلى الأمام ليقف بين بهروز الضخم وهيكل ايديكين الأصغر حجماً : قال :

«لقد أصدر القائد ايديكين أوامره ونحن سوف نطبقها . لقد أكد لنا القبطان فابيو أننا سننزل إلى البر آمنين سالمين . بعد ذلك ، فإن مصيرنا سيكون بين يدي القائد ايديكين وقوانا الذاتية . إذا كانت الشمس حارة ، فسوف نحتمي منها . إذا هبت الريح فسوف نركب معها أو بعكسها . إذا هبت عاصفة ، فسوف نتحملها . نحن المقاتلون الشراكسة البحريون ، ونحن لا نخشى ما يخبئه لنا العدو ولا الطبيعة .

كل ما سيحدث هو بمشيئة الله سبحانه وتعالى ، ونحن لن نعترض على أشكال الاختبارات التي يضعها في طريقنا» .

حلَّ صمت مشحون على السطح المزدحم. تراجع بهروز أمام قوة كلمات الرجل الأصغر سناً والغضب النابض في عينيه السوداء والبيضاء. رأى بعينيه الفهد المتربص الذي تحدث عنه الملازمون الآخرون للمرة الأولى.

قال «أيها الجرو الوقح، هل تجرؤ -» حوَّل بيبرس ثقله من ناحية إلى الأخرى ونزلت عينا بهروز إلى القوس القصير المعلَّق على كتفه اليسرى ويده اليمنى القابضة بخفة على مقبض الخنجر في وسطه. «إذا تجرأت وقاطعت قائدك المسؤول مرة ثانية، فلن أمنحك الفرصة لأن تفعلها مرة ثالثة، **سيدي** بهروز».

جاء اللقب يقطر سخرية، كما هو مقصود منه.

بات بهروز خائفاً من بيبرس فعلاً، لكنه لم يكن بوسعه أن يتراجع أمام شاب يصغره سناً، والذي مازال رسمياً برتبة مرشح أمام زملائه وأقرانه. فكل العيون الموجودة على السطح مسلطة عليه. تعمَّق الصمت.

«المرة الأولى التي قتل فيها بيبرس رجلاً كانت قريبة جداً من حيث تقف الآن، يا صديقي». كان هذا القبطان فابيو، يتكلم بنبرة مشحونة بالحنين المعجب «نعم، هناك تماماً في الحقيقة. لقد مزَّق معدة الرجل وفتحها بدون أن يرمش. يحتمل أنه ما زال بالإمكان العثور على بقعة الدماء لو أنك ميال إلى البحث عنها. وبعدها قتل رجلاً آخر على الفور. تماماً حيث يقف الآن. لم يكن قد تجاوز الثالثة عشرة من عمره..»

أطلق القبطان ضحكة هادئة. «لقد كنت مسلحاً برمح أو شيء آخر، أليس كذلك يا بيبرس؟ لا! لقد كان حربوناً! هاهاها! آه، كان ينبغي عليكم جميعاً أن تروه. لقد كان ذلك السلاح أطول منه. بعد ذلك، وحين انتهى من بقر بطني هذين التعيسي الحظ، ركض إلى السطح السفلي هناك وأنقذ حياة مساعدي الأول لويجي. إنه متوفى الآن: سعيد في فراشه مع امرأة وقدح من الجعة. ربما كان لويجي من النوع الهادئ لكنه

كان يقدِّر الأشياء الراقية في الحياة . . .»

نظر القبطان إلى بيبرس «أنا محق في حكاية الحربون ، ألست كذلك يا بيبرس؟»

طأطأ بيبرس برأسه متمهلاً ، وعيناه لا تفارقان عيني بهروز للحظة «ذلك صحيح أيها القبطان» .

«يا يسوع المسيح» . قال القرصان المسن . انحنى وكاد يهمس في أذن بهروز :

«تخيل ما يمكنه أن يفعل الآن وبحوزته قوس قصير وخنجر» .

ابتلع بهروز ريقه وتراجع خطوة «اعتذاراتي يا سيدي ايديكين . أنا لم أتعمد أن أتكلم في غير دوري» .

خفض ايديكين رأسه المفعم بالكبرياء ، وقد قبل الاعتذار ثم تحدث مخاطباً الجميع بصوت ملؤه السلطة . «لقد تكلم بيبرس بالحقيقة المجردة . سوف يوصلنا القبطان فابيو إلى أقرب مسافة ممكنة من السلطان . بعد ذلك ، فإن مصيرنا هو في يد الله سبحانه وتعالى» .

لكن كل الأعين باتت مسلطة على الشاب صاحب القوس القصير وكتلة الشعر الأشقر ، الواقف بقامة أرفع من أي شخص آخر على السطح العلوي ، وظهر لكل واحد منهم وكأنه عودة التجسيد لصلاح الدين نفسه .

رسوا مع هبوط مساء اليوم التالي ، حيث قفز الرجال والجياد إلى الأمواج ومشوا إلى الشاطئ . حمل بيبرس قوسه بيديه الاثنتين مرفوعاً فوق رأسه وخاض البحر ، مستمتعاً بإحساس المد على وجهه وطعم الملح في فمه . تم التنظيم على اليابسة في عملية سريعة ، وضعوا حراساً فوق الأكمات في أقل من عشر دقائق وأرسلوا كشافة راكبين لاستطلاع المنطقة . راقب البحارة ذوو الهيئات المشعثة الفرسان الذين مازالوا يرتدون أزياء جميلة بحزن ، بينما قام الفرسان بتشكيل الصفوف لتمرير المؤن القليلة التي خزنوها سابقاً في عنابر السفينة ، نصبت خشبات الإنزال إلى

الأسفل قبل أن يبدأ إقناع الجياد بلطف وهمس ورجاءات مطولة حتى تنزل إلى الشاطئ.

أشرف بيبرس على رجاله وهم ينصبون الخيام التي سيحتاجون إليها إذا اضطروا إلى قضاء الليلة هناك، ثم تراجع ليراقب الفصائل الأخرى الأبطأ وهم ينصبون خيامهم. أصبح الترقب محسوساً في هذه اللحظات، وأصبح من الصعب التصديق بأنهم قد يضطرون إلى انتظار فجرٍ آخر قبل أن ينطلقوا راكبين نحو الجبهة والخطوط الأمامية نفسها. راقب ايديكين وهو يعطي التعليمات لضابط فارس قبل أن يرسله ملوحاً له عبر أشجار النخيل المنتصبة خلف الشاطئ. اضطر القائد إلى إرسال الخيالة لقياس الأوضاع العامة - أين هو السلطان، والأكثر إلحاحاً، أين يمكنهم العثور على خيول؟

تلفت بيبرس من فوق كتفيه ورأى أن أقل من نصف الرجال يمتلكون مطايا. قال لنفسه «ما هو الجندي الفارس بدون جواد؟»

حضر إليه سليم متمهلاً، يقضم تفاحة وقد برزت ذقنه للأمام وشعره يتطاير مع النسمات «ماذا قلت؟»

«هل المقاتل الشركسي مازال يعتبر مقاتلاً بدون حصان؟»

استمر سليم في القضم، ثم تناول عضة أخرى وهو يلاحق خط نظر بيبرس.

«الأجدى بك أن تسأل «ما الذي يصنع الرجل؟» لقد سمعت أنك لم تكن لديك مثل هذه الترددات - الفلسفية على السطح العلوي. لقد انتشر خبر بين الفتيان بأنك أجبرت العجوز بهروز على أن يتبرز في ثيابه، بينما قام صديقك القبطان برواية قصص حربك القديمة. هل هذا صحيح؟»

«لقد قاطع القائد ايديكين»

«بهروز؟ نعم لقد سمعت عن ذلك أيضاً. لقد كسبت لنفسك بعض الداعمين بكل الأحوال. لقد عاد العديد من الضباط إلى وحداتهم

وتحدثوا عن كونك الرجل الذي ينبغي مراقبته ، سرعان ما تغادر تشكيلة فصيلنا الصغير ويصبح لديك لواء كامل .

«لقد كنت محظوظاً لأنهم لم يشنقوه على الصاري» .

هزَّ سليم رأسه ، ومازال خداه منتفخين من التفاح «كلا ، لقد اخترت لحظتك في وقت مثالي . إن بهروز محتمل في أفضل الحالات من قبل الضباط ذوي الرتب العالية - أما القائد ايديكين فيحظى بتقدير عالٍ ، ولا يمكن لجميع الرتب أن يقبلوا أي ضابط يبدي له عدم الاحترام . لقد قمت بما يحب كل واحد منهم أن يفعله» .

نفض بيبرس كتفيه «في هذه اللحظة ، أنا مستعد لمبادلة كل النيات الحسنة في الدنيا بسرب كامل من الخيل» .

«لا أظن أننا سنبقى في معسكرنا الصغير هذا لوقت طويل» .

رفع بيبرس رأسه بحدة «هل تعرف شيئاً آخر؟»

ابتسم سليم وأدى حركة استعراضية لدى ابتلاعه آخر قضمة من التفاحة . «ربما عندي وربما ليس عندي . . .»

«خلصني الآن ، إن الرمال تملأ حذائي هنا» .

«حسناً يا صديقي القديم بيبرس ، نحن لا يمكننا أن نتركك هنا تلتقط الحصى من بين أصابع قدميك في الوقت الذي يجب فيه أن تكون مقاتلاً» . اقترب سليم ومال «يبدو أنه يحتمل وجود موقع متقدم للفرنجة قريباً من هنا؟»

«هل قلت قريباً من هنا؟»

«ربما على بعد ركوب يوم واحد ، ولكن يبدو أنه غني بالجياد» .

«سوف نحتاج إلى المئات . من غير المحتمل أن يوجد ذلك العدد» .

«ربما لأ ، ولكن يوجد ما يكفي لأن يمنح الحركة لكثير من الرجال الذين ليس لديهم مطايا لتحريكهم ، ونستطيع في الوقت نفسه أن نبحث عن المزيد من وسائط النقل في المنطقة . سيقوم السلطان بتعويض البقية» .

«كيف يتأتى لك أن تعرف هذا؟»

«يا صديقي: إنني أمشي بخفة وأستمع بشدة. سوف تذهل مما يمكنك سماعه خلال نزهة هادئة».

«تماماً».

«لقد أرسل القائد ايديكين أفضل مرافقيه للتأكد من الموقع، وأنا أرجح أنه سيرسل أفضل رجل عنده ليقوم بالغارة نفسها».

في تلك اللحظة، رفع ايديكين يده ونادى «بيبرس!» مشيراً له نحو الخيمة الرئيسة المركزية

«أحضر معك سليم وتيكا!»

صفع سليم صديقه بيبرس بين لوحي كتفيه بيد ورمى بقية التفاحة بالأخرى قائلاً «لقد حان وقت العرض».

ركبت المجموعة مسرعة طيلة الليل واعتلت التلة المشرفة على المرفأ الصغير قبل حلول الفجر بساعتين. أرسل بيبرس الفتى الذي يتقن العربية إلى البلدة مرتدياً ملابس تاجر فتي يحمل كيساً مملوءاً بالمال، بينما أغفت البقية تحت ظلال أيكة أشجار متفرقة خلال الصباح. عاد الفتى بعيد الظهر يحمل أخباراً عن موضع وجود حامية البلدة إلى جانب جيادها، ولكنه تكلم أيضاً عن مزرعة هائلة على بعد عدة فراسخ، حيث يوجد اسطبل يحتوي على الخيل، معدة على ما يبدو لغزوة مخطط لها في الجنوب، ويبدو الآن من غير المحتمل أن تتحقق.

سأل بيبرس «إذاً فهذه جياد حربية؟ كم يبلغ عددها؟»

«ليس الكثير. إن مخبري مستخدم سكير في المزرعة يؤدي عملاً ما هناك. لقد أخبرني مقابل ثمن إبريق أو اثنين أن المزرعة واسعة وأن لديهم حيوانات جميلة. قدرها بحوالي الخمسين، إضافة إلى بعض آخر من نوعية أدنى وخيل عاملة».

«لماذا لم يستولي المعبديون والهوسبيتاليون على هذه الحيوانات؟»

«إن معلوماتي ليست أكثر مما يمكنك أن تخمن . يحتمل أنهم ليس لديهم الرجال القادرون على ركوبها ، أو أنهم على خلاف ما مع أصحاب الأرض ، ولكن ذلك صعب على التصديق . أظن أنهم نسوا أمرها ببساطة في خضم الفوضى التي أعقبت سقوط القدس» .

سرح بيبرس بنظره في مجموعة الأبنية المتجمعة حول الميناء الصغير . كيف يمكن للمعبديين أن ينسوا ببساطة أن لديهم قوة من جياد الحرب؟ لم يبد الأمر ممكناً .

«لا أستطيع أن أصدق . يبدو وجود هذا العدد على هذا البعد إلى الجنوب أبسط من أن يصدَّق» .

«ربما أن حلفاء السلطان قد منعوا الفرنجة بحيث لم يعودوا قادرين على الوصول إلى المنطقة؟»

قال سليم «أو ربما أن الرجال المسؤولين عن تشكيل هذه القوة قد قتلوا في المعركة من أجل القدس ، وليس هناك سجل على مجرد وجودها في المدن الفرنجية الأخرى؟»

«يبدو أي الاحتمالين وارداً ، ولكن في كل الأحوال ، هذه فرصة لا يمكننا أن نفوتها . إن خمسين حصاناً تشكل ربع القوة الخيالة التي نمتلكها حالياً» . وزع نظرته عليهم «سنزحف بحلول الغسق» .

تمت العملية بشكل رائع . أرسل بيبرس اثنين من المرشحين لإشعال النار في الزريبة الرئيسة بالمزرعة وأغلبية البقية إلى سفح التلة المقابلة . انتظر هو وسليم وتيكا حتى ارتفعت ألسنة اللهيب ثم قاموا بتحركهم . استطاعوا من مكمنهم أن يروا المشرفين والعمال يهرعون خارجين من البيت الكبير والأكواخ المحيطة به ليحاولوا أن يخمدوا ألسنة اللهب .

عندما فعلوا ذلك ، بدأ رجال بيبرس على سفح التلة يطرقون بسيوفهم

على التروس ويصرخون مثل أشباح وحشية ، بحيث دبوا الذعر في قلوب المزارعين المشدوهين أصلاً حتى ظنوا أنهم سيتعرضون حتماً إلى مجموعة غازية كاملة . اضطر المشرفون إلى دفع العمال بالقوة حتى يحولوا أعينهم عن التلة ويحضروا الماء للزريبة . في النهاية ، لم يكن أحد يراقب حين دخل ثلاثي بيبرس متمشين بجيادهم إلى الساحة المسورة ، حطموا جنزير البوابة بضربة واحدة من تيكا ثم أخرجوا الجياد وهي تجري مبتعدة في عتمة الليل ، بينما استمتع بيبرس وسليم وهما يضحكان ويصرخان حتى بحت أصواتهم .

وقف ايديكين مع بقية المقاتلين الشراكسة عند الشاطئ وصفقوا حين دخل بيبرس ورفاقه المعسكر مع قطيع من الخيل ، يلوحون بقبضاتهم في الهواء ويهتفون . ركب قائدهم رأساً نحو خيمة القائد ، ترجَّل بانتظام وأدى التحية .

«أيها القائد ايديكين . أقدم لك خمسين حصاناً . لا إصابات ولا خسائر لنبلغ عنها» .

أفرد ايديكين ذراعيه وكأنه يستقبل نجله «أنت ورجالك تستحقون التكريم يا بيبرس الكتابي . لقد أحضرتم من المطايا ما يعادل جميع ما أحضرته وحدات التجميع كلها مجتمعة . إنها تكفينا حتى نبدأ في المسير . هل أنتم بحاجة إلى الراحة؟»

«جيادنا فقط يا سيدي . ليس لمدة طويلة - سوف نكون جاهزين بحلول الغسق» .

«إذاً سيكون ذلك هو الوقت الذي ننطلق فيه» استدار إلى ملازميه «اعملوا على أن تكونوا مستعدين . أولئك الذين ليست لديهم مطايا سيرتحلون مع مجموعة العربات ويتموَّنون أثناء سيرهم .نحن لا يسعنا أن ننتظر . سيدي بهروز؟»

«سيِّدي؟»



«ستقود أنت مجموعة العربات . إذا ساء الطقس ، يمكنك أن تحتمي تحت الشوادر أو تعثر على أقرب سقف إليك» . انفجرت ضحكات عالية على هذا .

«يا بيبرس الكتابي ، ستركب مع حرس المقدمة إلى جانبي . انصراف!»

الفصل الخامس عشر

تلك كانت الرحلة الأروع في حياتي يا عبد! لقد كان الريف كله يضج بالشائعات والاستعداد. دخلنا بلدة إثر الأخرى، قرية بعد قرية. أخبرنا الناس في كل مكان ذهبنا إليه أننا خلف جيش السلطان مباشرة. قالوا إنه يمتد ويتعرج فرسخاً بعد الآخر، وإن مروره من عندهم استغرق النهار كله. شخصياً، أنا لم أصدق كلمة من هذه الأقوال. كنت سأفاجأ لو أنه تطلب مروره ساعة مثلاً، بمن فيهم توابع المعسكر وديدان العلق الأخرى. ومع ذلك فأنت تعرف العامة. إنهم مغرمون بالمبالغة . . .

ما صدقته فعلاً هو أن جميع قوات الفرنجة قد احتشدت ضدنا. يفترض في والتر حاكم بريين أن يقود الجيش، ومعه بالطبع ذلك الكلب المنصور، وكذلك المعبديون، الهوسبيتاليون، الفرسان التيوتون وأتباع مذهب القديس اليعازر.

بدا لي وكأن هذا اعتراف في الأسلوب أعظم من لقاء صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد. من هو الذي سيسيطر على المدينة المقدسة؟ لم أكن قد لمحت المعبديين وأمثالهم إلا عن بعد. لقد عشنا في ميداننا بحلب مثل الرهبان، لكن ذلك كان مفيداً.

فقد اختصرت سنوات من حياتنا لأجل هذه اللحظة. كنا مركِّزين ويقظين – كنا مستعدين. هذا هو ما تدربنا وصلينا لأجله. لم نكن ننوي أن ننهزم الآن.

مشينا راكبين في وسط الصحراء وتجنبنا البلدات الساحلية والقلاع التي مازالت بأيدي الفرنجة. كانوا يسترقون النظر إلينا من الأبراج ومن

خلف المتاريس، لكنهم لم يتجرأوا ويخرجوا إلينا. ركبنا إلى داخل الأرض المسماة كنعان في الأزمنة القديمة حتى وصلنا إلى البحر الميت بمياهه البنية المثيرة للاهتمام. أذهلني مدى صغر مساحة فلسطين بعد أن تمكنت من مشاهدتها فعلياً. هل هذه هي؟ هل هذه هي الأرض التي اشتعلت كل تلك الحروب من أجلها؟ صعب علي تصديق الأمر، ولكن مسألة الله تعالى والإيمان هي أسمى من التفسير العقلاني، أليس كذلك؟

وإلا، فكل شخص كان سيتسلم الهداية والتنوير، فماذا ستصبح قيمتها بعد ذلك؟

على أية حال، فبعد ساعات قليلة من رؤية البحر الميت وصلنا إلى المدينة. ماذا يقول الشخص حينما يشاهد القدس للمرة الأولى؟ ما الذي قلته أنت يا عبد؟ حسناً، إن القدس التي رأيتها في ذلك اليوم هي بلدة تعيسة بالمقارنة بالمدينة التي أصبحت عليها تحت حكمي. لقد كان وضعها معيباً. نعم معيباً. أقول ذلك ويدي على قلبي. فقد كاد الخوارزميون أن يحرقوا كل شيء. انقضت أسابيع على احتلالهم للمدينة ومازالت الجثث تتعفن وهي ملقاة في الشوارع. الكلاب تنهش عظام الأطفال. هل تظن أنني أكذب؟ لقد علقت رائحة الرعب الشرسة، البراز والرعب والموت في كل مكان. هل تعرف تلك الرائحة العفنة الرطبة التي تشمها حين تمر بمستنقع كريه الرائحة في يوم حار؟ حسناً، هذا هو ما هاجم منخري. تحولت أبنية الفرنجة العظيمة إلى مجرد هياكل فارغة محترقة. ألقيت نظرة على داخل بعض الكنائس؛ لأرى القساوسة مازالوا مطروحين ميتين بكامل ثيابهم. تشوهت أجسادهم وتهزأت بأشنع الوسائل.

أنا لست ضد مثل تلك الأفعال المرعبة، ولكن ما الفائدة من إبقاء الجثث في أمكنتها طيلة شهور بعد قتلها حيث ستنتشر الأمراض والقذارة. أدركت في حينها أن الخوارزميين حيوانات لا يمكن أن نتحالف معهم إلى الأبد. لا يمكن لهم أن يتخذوا مكانهم إلى جانبنا كحكام محترمين بأي

شكل أو أسلوب . يجب أن تحصل محاسبة . . . ما زلت أهزّ رأسي حينما أفكر في ذلك . هل يمكن أن نقيم هناك بين الأموات يا عبد؟ هناك سبب لعدم القيام بمثل هذه الأفعال ، ولكن يبدو أن أحداً لم يخبرهم به .

غادرنا ذلك المكان المشؤوم وانتقلنا إلى جبل موريه ثم إلى جبل الزيتون وركبنا متجهين إلى معسكر السلطان مباشرة . كان قد انتقل بحكمة بضعة فراسخ إلى الشمال ، وبات ينتظر العدو أو أي رفاق يحتمل وصولهم في وادٍ صغيرٍ مظلل .

لم أكن قد رأيت معسكراً بهذه الضخامة من قبل أبداً حينما رأيته للمرة الأولى ، وما تزال ذكراي المؤكدة الوحيدة حوله أن الأرض مازالت جافة ومتشققة ، حتى في أواخر الخريف ، ووجود ملايين الزهيرات الصفراء في كل مكان . وجدت المحيط لطيفاً وحتى مسالماً . تكون لدى كل منا انطباع لدى المرور بالخفراء بأن الجميع هنا في إجازة عيد ويستمتعون بآخر أيام الطقس الجميل قبيل حلول الشتاء . السلطان رجل حازم . لاحقت ايديكين عند كتفه ، ورافقني كل كبار مسؤولي حلب ، انحنينا وأدينا كل مراسم البلاط والتي تضمنت تقديم أنفسنا إلى جلالته .

كل ذلك بدا جديداً عليَّ في حينها . ليته بقي كذلك! لقد حظيت من الانحناء والتملق والخطى والركوع ما يكفيني عمراً بطوله . ظهر عليه السرور لحضورنا ورحب بايديكين بحرارة . سأل عما إذا كنا جاهزين فأجابه ايديكين بأن المزيد منا قادمون خلال أيّام .سرَّه ذلك . قال لنا إن آخر الأنباء تفيد بأن الفرنجة زاحفون من عكا باتجاه الجنوب ، والخونة يتابعونهم ، وإنهم سرعان ما سيصلون إلى يافا مروراً بقيسارية وأرسوف . قال إيديكين إن ذلك مسار متوقع . قال السلطان بأن لديه استراتيجية واحدة فقط – الخروج راكباً وضرب المشركين الخونة بقوة . قال هذا بصوت عالٍ وانفجر الجميع في الخيمة بالتصفيق والهتافات . بدت لي هذه الحركات مفتعلة ، ولكن الأرجح هو أنهم يفعلون ذلك لكل الذين قدموا في الأيام الماضية . أمرنا

السلطان باتباع نادله الذي سيخصص لنا مساحة نخيم فيها ، وانتهت المقابلة .خرجنا بدون نظام ونصبنا معسكرنا وجلسنا ننتظر .

بقي سيرجي حاضراً في تفكيري طيلة الوقت ، برغم المناظر الرائعة التي أشاهدها للمرة الأولى ، قضيت سنين محتجزاً في معسكر مقاتلين شراكسة وأرى الآن فلسطين كلها ، الحرب والملوك - ومع ذلك فقط ظل الشيء الوحيد الذي أمكنني التفكير فيه هو ذلك الكلب الروسي الذي سرق مني حياتي

سألته عن شكل وهيئة السلطان .

أسمر ، وسيم ، طويل القامة ، نحيل . عيِّنة عظيمة لرجل ، شاربه أشبه بنحت فارسي قديم . درعه الذهبية أشبه بصورة عادت إلى الحياة ، أكثر روعة مما رأيت في حياتي على الإطلاق . سترته تحت الدرع سوداء وقميصه الآخر أخضر . أسود ، أخضر ، وذهبي . كذلك قيل لي إن السلطان ينتعل خفين رائعين من الذهب مطعمين بالياقوت والصفِّير ، لكنه حين استقبلنا كان ينتعل زوجاً من أحذية الركوب الفاخرة ، معقود الرباطات وكأنه على وشك أن يقفز على ظهر حصانه وينطلق نحو المعركة .

تعلمت من خلال دراساتي مع ايديكين أن المعنى الأصلي لكلمة **سلطان** في اللغة العربية هو النفوذ ، والقوة والسلطة . جسَّد السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب كل هذه الصفات . كانت كلها تشع خارجة من هيكله مثل أشعة الشمس ، ولم تكن تملك إلا أن تتدفأ بها حينما توجد في حضرته . أذكر أنه استدار نحو مستشاريه أثناء خروجنا وكلمهم بلغته الكردية الأصلية ، والتي ميزتها من كلام الزملاء الصبية الأكراد في الميدان .

وهذا كل شيء . نصبنا خيام معسكرنا وانتظرنا على ما يبدو أياماً فوق أيام . في الحقيقة ، يحتمل أن الوضع لم يدم أكثر بكثير من أسبوع واحد ، ولكن كما تعلم يا عبد ، عندما تكون محشوراً في معسكر مثل

ذلك . فإن التجارب المحبطة لا تعد ولا تحصى . طبيعي أنه ترتب على لوائنا الكثير من الواجبات التي ينبغي تنظيمها . لم يكن يتوقع أن تكون الحملة طويلة ، لكن الفصل الماطر كان قد بدأ ، وهكذا أرسل بعض الرجال للحصول على ملابس وخيام قوية لتحمينا من المطر . توفر لدى كل منا بطانية فارس ، لكنها لم تكن لتكفينا طيلة الشتاء . كذلك تساءل ايديكين ماذا سيحدث إذا اضطررنا للعودة إلى سورية راكبين؟

بذل أقصى جهوده لتوفير أكثر من كمية من اللوازم لتحمينا من عناصر الطقس - وذلك أمر حرصت على تعلُّمه بتفاصيله حتى أستنسخه عندما يحين الوقت الذي أتولى فيه القيادة .

أرسلت فصائل صغيرة أخرى لإحضار الحنطة والذرة والمزيد من الجياد ، الجلود ، المعادن .

أوكلت إلينا مهمة الحراسة في منطقتنا ، لكن لم يكن هناك أمل بأن يسمح لنا بالخروج في مهمات استكشاف ومواجهة العدو - فقد أوكل السلطان فرسانه الأكراد بذلك العمل . بدلاً من ذلك تدربنا ، لعبنا الورق ، ورحبنا بإخوتنا العائدين إلى المعسكر بعربات التموين عندما كانوا يعودون ، وقد اتخذ وجه بهروز اللون الأحمر الداكن لشدة الإحراج . جاء موقع إخوتنا البحريين من مصر إلى جانب موقعنا ، وهكذا أصبحنا جيشاً واحداً قوياً سوية للمرة الأولى ، قوامه ألف رجل . تدربنا بأقصى قدراتنا وقرر ايديكين عقوبات صارمة على المخلين بالنظام . ربما كنا شعرنا بالإغراء للتسلل والذهاب إلى القدس والتعرف عليها في أزمنة أخرى ، لكننا لم تعد لدينا الرغبة في العودة وملء خياشيمنا برائحة التعفن التي تعرضنا لها خلال مرورنا بتلك المحرقة أثناء قدومنا إلى المعسكر .

ثم يووف! جاء اليوم . هدر كشافان طاردان إلى داخل المعسكر وأعلنا أن الجيش الفرنجي أصبح في الحرابية على بعد فراسخ قليلة . انتشر الخبر في أرجاء المعسكر بسرعة الإسهال والذي مفاده أن ليس المنصور وحده مع

الفرنجة ، بل أيضاً الصالح إسماعيل ، العدو اللدود لسلطاننا . لقد كان إسماعيل هو الذي طرد السلطان من دمشق بعد أن هزمه في المعركة وحتى أنه أخذه رهينة .

جرى تسليم السلطان إلى الناصر داود أمير مدينة الكرك ، والذي انقلب على الثائرين إسماعيل والمنصور ، وأطلق سراح السلطان ليعود إلى مصر . والآن ، مرة أخرى ، غيَّر داود ولاءه ، وأعلن انحيازه إلى جانب الفرنجة والثوار في هذه المعركة ضدنا .

أحسست بالدوار وأنا أستمع إلى هذه القصص الدائرة في معسكرنا ، وأدركت للمرة الأولى أنه على الرغم من كون ايديكين قد علمني المهن القتالية والفنيَّة ، إلا أنه أبقاني جاهلاً بالانقسامات داخل السلطنة إلى درجة محزنة . فما هي المنفعة من معرفة تاريخ جوزيفوس وماركوس أوريليوس وصلاح الدين وعوالمهم ، حين تكون معرفتي بعالمي أنا على هذه الدرجة من الضحالة؟ لقد كانت خيوط الزواج وروابط الدم المتشابكة بين كل هذه الفصائل كافية لجعل رأسي في حالة دوار . هذه كانت عواطفي ونحن نجهز أنفسنا للتحرك باتجاه ما يمكن أن يكون للمرة الأخيرة .

انتظرتنا القوى كافة في الممالك الفرنجية ، ترفرف الصلبان المرسومة على صدورهم وأختامهم وأعلامهم المثلثة مع النسائم . وعلى ما يبدو فقد وقفت معهم معظم القوى السورية . في مقابل ذلك كان لدينا جند السلطان المصريون القلائل .

والألف مقاتل شركسي بحري وجحافل الخوارزميين ، غير المجربين في معركة مفتوحة والذين يحتمل فرارهم بقدر هجومهم . حتى بوجودهم ، فقد قالت الشائعة أن عددنا لن يقل عن نصف عددهم ، وأنهم يزدادون قوة بمرور الوقت . أذكر أنني تفقدت قوسي القصير وسيفي وخنجري وأعدت تفقدها ثم صليت ودعوت متسائلاً عما إذا كانت روحي ستعثر على عائلتي في مكانها المغرق في البعد في موطني الأصلي .

تشقق فمه ولم يعد يجرؤ على تناول جرعة أخرى من مطرته . علق لسانه بسقف فمه ولم يعد يستطيع أن يبلع ، فأرخى كتفيه وحاول أن يركز نظره على الوادي أمامه والتلة التي خلفه . هناك ، مثل بقعة صدأ على نصل السيف ، ظهر المعسكر الفرنجي . امتد عبر سفح الجبل لما بدا له مثل فراسخ عديدة ، وعندما زم عينيه ، تأكد من قدرته على تمييز تحركات بين الخيام .

سأل «هل سيقاتلون؟»

بان الشك في وجه ايديكين وقال «كلا يابيبرس . لن يفعلوا إذا كانت لديهم ذرة من المنطق . ولماذا يقاتلون؟ يعرف المنصور أن نصف قوتنا يعتمد على هؤلاء الخوارزميين غير النظاميين . فلماذا المخاطرة بالهجوم وهم موجودون على أرض أفضل ، ولديهم جيش أكبر مع إمكانية الوصول إلى تلك الينابيع؟ لا» تراجع ايديكين في سرجه .

«سوف ينتظرون حتى يأخذ منا العطش مأخذه بحيث ينسحب الخوارزميون بكل غنائمهم من القدس ، ثم ينتظرون حتى ينسحب السلطان وبعدها يهاجموننا . هجوم فرنجي كبير واحد ونحن غير منتشرين . سوف يبعثروننا للرياح الأربع» . تلفت ايديكين حواليه وقد أدرك أنه ربما قال أكثر مما يجب ، ليرى إن كان هناك أي ضباط حوله ، لكن لم يكن هناك سواي مع سليم وتيكا ، كلاهما جالس ، غير متأثر .

كانوا على مرتفع ، إلى مسافة قليلة تحت موقع وقوف السلطان ، واستطاع بيبرس أن يرى العاهل إلى يمينه ممتطياً جواده الرائع ، يحدق في القرية والجحفل الذي خلفها على طبيعتهم . وقف الخوارزميون في الجهة المقابلة ، محتمين ببستان كبير من أشجار التين .

بعد ركوب سريع آخر في الليل ، تمكن بيبرس من إلقاء نظرته الفاحصة الأولى على هؤلاء الوحوش الذين ذبحوا القدس بسيوفهم . وجدهم على الأغلب كما توقعهم تماماً . خيولهم طويلة القامة ، لكنها

نحيلة ، غير معتادة على العلف الجيد الذي يطعمه كل من العرب والفرنجة لخيولهم الحربية بشكل طبيعي . مع اقترابهم ، رأى أن بيارقهم ليست مصنوعة من المواد الراقية المعتادة التي تحملها الجيوش النظامية . فقد ثبَّت الخوارزميون ما ظهر مثل جلود حيوانات وفراء وجماجم فوق أعمدة طويلة ، وهذا هو ما حمله فرسانهم المتقدمون وغرسوه في الأرض عندما توقفوا للاستراحة وإرواء مطاياهم .

الخوارزميون أنفسهم ذوو بنية صغيرة ، رجال قصار سمان - صلبين ، ذلك واضح - ولكنهم سيقعون في ضرر رهيب في حالة الاشتباك الفردي مع فرنجي أو مقاتل شركسي بسبب قصر أذرعهم . ارتدوا جلوداً خشنة ممزقة وصداري زرد خفيفة صدئة ، ووضع الكثير منهم قطع فراء رمادية ، جلود ذئاب حول رقابهم وأكتافهم . عندما مر بيبرس بهم ، لاحظ أن تعابيرهم غبية وأفواههم مفتوحة ، يتمرغون تحت الشمس ويمرحون بعد مذبحتهم في المدينة المقدسة . لكن بيبرس بلغ من الذكاء حداً جعله يلتقط النظر في عيونهم البنية ، وكانت كافية ليعرف أنهم سيكونون قساة لا يعرفون الرحمة حين تدعوهم الحاجة .

ولكن هل سيصمدون الآن في المعركة ، ليس فقط ضد الأفضل في مملكة الفرنجة ، بل أيضاً ضد نخبة جنود سورية ، المقاتلين الشراكسة مثل بيبرس نفسه؟

تساءل بيبرس كيف يمكن أن يبدو ضيفهم بالنسبة للفرنجة . كبير بما يكفي ، وهذا أكثر الاحتمالات ، لكنه حتماً لا يكفي لأن يجعلهم يبالغون في القلق . سوف يتشكل قلب الجيش من الفرسان المقاتلين الشراكسة النخبويين ، محاطين بالمقاتلين من حرس السلطان ، والمجموع قرابة الستة آلاف ، لا أكثر . أضيف الخوارزميون إلى ذلك العدد ، ما أدى إلى تشكيل جيش كبير من اثني عشر ألف مقاتل ، وان لم يصل إلى حد أنه يزلزل الأرض . في العادة ، سيكون ذلك كافياً لأن يمسح أي عدو عن ميدان

المعركة ، لكن الفرنجة تمكنوا لمرة واحدة من معادلة أعدادهم ، ولم تعد هناك فائدة في الاندفاع نحو تحصيناتهم خلف القرية ، لأنه لا يمكنهم أن يستبعدوا احتمالية وجود أفخاخ وكمائن في قرية الحربية الصغيرة . أسلاك معيقة وحفر مليئة بالأعواد المسننة ، ذلك هو ما كان بيبرس سيفعله ، وكان واثقاً من أن رجال حمص ودمشق الذين تلقوا التدريبات الحربية كما فعل هو ، سوف يحولون القرية إلى فخ ومحنة للموت .

سأل وهو ينظر إلى سماء مكفهرة بغيوم متلبدة «هل سنظل هنا طيلة الصباح؟»

«سنبقى حتى يقرر السلطان أنه لن تحدث معركة هذا اليوم . بعد ذلك ، سنذهب لننصب معسكرنا ونستريح» قال ايديكين .

تطاول بيبرس في سرجه قدر استطاعته ومسح الأفق بكامل عينيه . هناك عشرون وربما خمسة وعشرون ألف رجل . . . عندما هزم خالد بن الوليد الامبراطور هيراكليوس في اليرموك ، على بعد أقل من ركوب يوم من حيث يجلسون الآن . نزل إلى الميدان ربع مليون رجل . إن هذه الحملة لعبة أطفال بالمقارنة ، لكن مصير فلسطين وسورية مرتبط بهذه النتيجة رغم ذلك ، تماماً كما كان عندما ذهل الرومان من الجيش المندفع كالعاصفة من الصحراء ، يهدر بكلمات دينهم الجديد . فكَّر بيبرس بهذا الأمر بينما أخذ النهار يتحول إلى دفء مستحب وتنزَل على قمة الجبل صمت يكاد يكون ريفياً . جاء الصوت الوحيد من تنهيدة ملل لحصان سليم مع نفض قوي لأذنيه . حكَّ المرشح رأسه ثم ربت على رقبة الجواد وهو يكبت التثاؤب .

في اللحظة التي قرروا فيها الرقاد وأخذ غفوة ، تناهى إلى أسماعهم صوت طراد الخيل الذي لا يمكن تجاهله أو الخطأ بشأنه . جاء فارس وحيد خارجاً من القرية نازلاً المنخفض ، اختفى عن الأنظار للحظات قليلة ، ثم عاد إلى الظهور صاعداً الجهة المقابلة ومتجهاً إلى المجموعة الملكية مباشرة . ركب الرجل إلى حيث جلس السلطان الصالح الأيوبي وأعلن عن نفسه

أمام العاهل فسمح له بالمرور من وسط حلقة الحرس الخيالة التي تشكلت على رأس المجموعة الملكية . انحنى بحدة وتبادل مع السلطان عدة كلمات لم يتمكن أحد من مجموعة بيبرس من سماعها .

قال سليم «انظر إلى هذا»

من معسكر الفرنجة ، ظهر خط من البيارق والأعلام المثلثة من فوق خط أبنية القرية القليلة . تحركت البيارق من جانب إلى الآخر بما يوحي أنها تشكل حالة انتظام وتهيؤ .

تنظيم معركة

قال بيبرس لايديكين «سيقاتلون ، أليس كذلك؟»

«ليس بعد ، ربما يسعون إلى التفاوض ، ولكن ليس من سبب يدعوهم إلى ذلك أيضاً» . التفتوا ناحية المجموعة الملكية مرة أخرى ، حيث كان السلطان ما يزال مستغرقاً في الحديث مع المرسل .

سأل سليم «من هو هذا الرجل ، وهل يمكننا أن نثق بكلامه؟»

أجابه ايديكين «إنه مرسل . لديهم مهمة مقدسة على ميدان المعركة ، مهمة يستحيل مخالفتها» .

قال بيبرس «جواسيس . ربما يقررون بداية المعركة ونهايتها ، لكن الرسل جواسيس للجهتين بدرجة خطيرة . أنا لا أثق بأي جاسوس» .

أشار سليم إلى ناحية الفرنجة ، حيث تضاعفت الأعلام وظهرت في هذه اللحظة انعكاسات لامعة للفولاذ تبرق أمامهم - فرسان مدرعون ، فوق خيول مدرعة . «لا أظن أن بإمكانه تجميل هذه الرسالة . إن الفرنجة يتحركون خارجين» .

سأل بيبرس «ماذا تعرف عن قائدهم يا سيِّدي؟»

«هو والتر البريني . إذا كان هو الذي يقود بدلاً من المنصور أو الصالح إسماعيل ، فهناك احتمالية لأن يكونوا قد تخلوا عن الميزة التكتيكية . يا

الله ، ربما مازالت فرصتنا قائمة» .

توتر القائد إلى درجة لم يشاهده فيها بيبرس من قبل . تلفتوا عند سماعهم أصوات الأبواق من الجهة الملكية . نهض الحارس الشخصي للسلطان في سرجه رافعاً كل يد بدورها باتجاه ميمنة الجيش وميسرته على شكل قبضات .

قال سليم «هذا هو ، انحسم الأمر وسنقاتل» . خلع معطفه القديم فالتمعت الدرع الفضية التي يرتديها تحته حتى في شمس تشرين الأول الصباحية الفاترة . قام كل من ايديكين وبيبرس وتيكا بالحركة نفسها ، فك بيبرس قوسه القصير من مكانه الخاص تحت لجام الحصان .

عند ناحية أشجار التين ، بدأ الخوارزميون ينهضون وينفضون الغبار عن أنفسهم قبل أن يمتطوا جيادهم الناحلة .

قال ايديكين «سليم ، تيكا . احرصوا على أن يكون الرجال مهيأين ، يجب أن نحافظ على قلب الجيش وإلا هلكنا ، هذا هو كل شيء» . أدى الضباط الشباب التحية بحدة وانصرفوا .

التفت بيبرس إليهم خلفه : كل رجال اللواء واقفون في صفوف منتظمة ، وقد سحبوا سيوفهم المعقوفة وأبرزوا دروع صدورهم ، بوجوه عابسة . أحسّ برعشة كبرياء وفخر بالمنظر وحقيقة أنه سيقود مثل هذه المجموعة من الرجال إلى المعركة دفاعاً عن معتقداتهم والأرض المقدسة . وقف فتية مجموعته خلفه تماماً ، كل الأعين مسلطة عليه ومتحفزة للمضي خلفه إلى المجد أو الجنة «هذا هو أيها الفتية! آخر رجل يقفز عن هذا المنحدر الصخري سوف يقوم بتنظيف المعسكر بملعقته السفرية!»

ضحك الجميع وهدروا بالموافقة . التفت بيبرس ليرى ايديكين مبتسماً «لديك فريق حماسي هنا يا بيبرس ، لقد تأثر القبطان فابيو بعمق» . هزَّ بيبرس رأسه شاكراً .

كان القبطان فابيو قد لوَّح لهم مودعاً على الساحل المصري مع مجرد

تربيت على الظهر ثم أبحر مبتعداً إلى الشمال ، حيث قال إنه يمكن كسب الكثير من المال من طريق قبرص - عسقلان . الأمر الوحيد الذي أصرّ عليه هو أن يؤكد له ايديكين الاحتفاظ بمقعده المفضل بعد أن يهدأ غبار هذه الحرب .

«أعدك يا سيدي أنهم سيجعلون هذه السيوف الجميلة حمراء هذا اليوم . سنصبح اليوم مقاتلين شراكسة بحق وحقيق» .

«بيبرس ، إذا حدث لي أي شيء ، فسوف تتولى أنت القيادة . هل هذا مفهوم؟»

حاول الشاب أن يجادل ، لكنه توقف حينما رأى التعبير المرتسم على وجه معلمه ، فاكتفى بالانحناء بأكثر مما أمكنه وهو على ظهر الحصان . «هذا شرف لي يا سيِّدي» . طأطأ ايديكين ثم تلفت حواليه للتأكد من أن الجميع قد سمعوا الحديث المتبادل «لقد خسر هؤلاء الخنازير نصف المعركة سلفاً» . أومأ ايديكين إلى المعسكر الفرنجي حيث بدأت سيول الفرسان تخرج من البوابات المؤقتة ، فرسان لاتين وخيالة بأسلوب عربي وفرسان ذوو أشكال غريبة أدرك بيبرس لاحقاً أنهم من البدو . ركض سرب من الكلاب الضخمة الذين يسهل تمييزهم بالصلبان الكبيرة عبر صدورهم ، من بين صفوف الفرنجة ، مصاحبين الخيول . ركبوا عبر القرية ثم خرجوا من المرتفع التالي ، احتل البدو الميسرة والفرنجة الميمنة ، وأخيراً استطاع بيبرس أن يرى قوات دمشق وحمص تحتل القلب .

«سيبدو الأمر مثل مقاتلة توائمنا» فكر بيبرس حينما رأى درجة التقارب في الشبه مع جانبه .

عند خطهم ، اصطف الخوارزميون على الميسرة ، يواجهون الخيالة الثقيلة للفرنجة ، مع المقاتلين البحريين في القلب ، ثم بقية فرسان السلطان على الميمنة ، يواجهون البدو .

مع اكتمال اتخاذ الجيوش لمواقعها ، قامت مجموعة السلطان بحركة

انسحاب ذكية غير متعجلة ولكن متعمدة إلى المؤخرة ، وهي منطقة من غير المحتمل أن تخترقها السهام والمهاجمون الشاردون . أمكن سماع أصوات القوات الدمشقية بوضوح وهم ينشدون من مسافة بضع مئات من الأذرع . انضم إليهم بعض من البحريين الواقفين خلف بيبرس مترددين . خطرت لبيبرس الفكرة العجيبة والتي مفادها أن سيرجي ربما يكون موجوداً بين الفرنجة ، فمسح الوجوه تحت الخوذ . كان الكل صامتاً ، بلا تعبير ، ومجهولاً . أدرك أن سمعة نظامي المعبديين والهوسبيتاليين في العبوس قد أتتهم عن استحقاق وجدارة .

لكنه سيموت إذا رأيته . . . بعد أن يخبرني بما يعرفه

الفصل السادس عشر

لقد انتهى وقت التفاوض . والآن سوف يقاتلون . برز شخص ضخم يرتدي دروعاً باللونين الفضي والأسود ووقف على رأس تشكيلة الفرنجيين .

قال بيبرس «هذا هو والتر البريني» .

أشار ايديكين «وذلك هو المدعو المنصور إبراهيم . ذلك على الأقل هو الاسم الذي عرفته به» .

«هل تقابلتما؟»

«بالطبع . لقد كنا أصدقاء . وقد تكلمنا في مناسبات عديدة ، تماماً كما نفعل أنت وأنا في كثير من الأحيان ، أيها الكتابي الفتي» .

«سنعاقبه على خيانته يا سيِّدي» .

نظر إليه ايديكين بحدة «لقد اتبع ما يمليه عليه ضميره يا بيبرس ، كما يفترض في الرجل أن يفعل .

لقد بحثنا هذا الأمر من قبل . كثيراً ما يجد الخدم الذين على شاكلتنا أنفسنا ، ونحن نخدم أسياداً مختلفين ونرضي الله سبحانه وتعالى بطرق مختلفة» .

«نعم يا سيِّدي» .

قام فارسان آخران بالسير أمام خطوط الدمشقيين جيئة وذهاباً . «ذلك هو الصالح إسماعيل والناصر داود . إن داود هو الذي حرَّر سلطاننا قبل وقت ليس بالطويل» . تهلل وجه ايديكين «لو لم يفعل؟ حسناً ، حسناً فربما لم نكن واقفين على هذا الجانب من المعركة . كان يمكن بكل سهولة أن نقاتل مع أولئك الرجال على الجانب الآخر» .

«مع الفرنجة؟ ضد المسلمين مثلنا؟»

نظر ايديكين إلى مجموعة الأحصنة على الجناح الفرنجي : يطرقون بحوافرهم بينما ترفرف الأعلام المزينة بالصلبان في الريح . «كل شيء ممكن يا بيبرس» . ابتسم فجأة «لقد كنت متأكداً بأنه لن تقوم اليوم معركة وانظر أين نحن الآن!»

كأنما كان الخوارزميون ينتظرون كلمته ، انطلقت من صوبهم صرخة مرعبة وانطلق البرابرة في هجومهم الكاسح ، إلى الأمام مباشرة ، هاجمين بكل قوة اندفاعهم نحو الفرنجة . انطلق أحدهم - مع أن بيبرس لم يكن متأكداً من أن لديهم قائد أصلاً - واقفاً في سرجه أمامهم ، يطلق زعيقاً جهنمياً . أغلق الأعداء صفوفهم وظهر المشاة أمام الخيل ، راكعين ويرفعون أوتاداً طويلة مسنونة ليطعنوا المهاجمين بها .

ظهر كل من سليم وتيكا مرة أخرى خلف ايديكين وبيبرس . قال سليم «الجميع في مواقعهم أيها القائد . ينتظرون الأوامر .» رفع ايديكين يده معترفاً بالتقرير بدون أن يحول بصره عن الهجمة . اقترب سليم من بيبرس وهمس له «لنر ما يقدر أن يفعله أولئك المتوحشون .لقد أخبرني رجال السلطان أنهم يهاجمون في مثل شراسة المغول ويطرحون الأعداء بأفضل من الأتراك . . .»

قال بيبرس «من غير المرجح أن يبالغ رجال السلطان لإرضائك يا سليم . ما رأيك أنت يا تيكا؟»

ابتسم العملاق من أذن إلى الأخرى حتى ظهرت أسنانه البيضاء الهائلة ، ولوح بسيفه المحني في الهواء مقوساً وكأنه يذبح العدو بنفسه . بادله بيبرس النظرة . كان قد اعتاد على إشارة تيكا بأنه متشوق للنزول إلى الميدان ، سواء كان يحمل سيفاً أو مجرد عصا بولو «نعم ، أنا متأكد من أننا سنحصل على فرصتنا - لا تخش شيئاً» .

استدار في اللحظة التي رأى فيها الخوارزمي المتقدم يلوِّح بذراعه

اليمنى وكأنه يلقي بقذيفة من مقلاع ثم ينعطف إلى اليمين . في اللحظة نفسها تقريباً ، تحرك جحفل الخوارزميين الكامل والمؤلف من خمسة إلى ستة آلاف حصان في الاتجاه نفسه وأصبحوا الآن يعدون ليس باتجاه الفرنجة المحتارين ، بل باتجاه قوات دمشق وحمص والكرك . شهق سليم وشدَّ بيبرس أعنة جواده ، وهو يتخيل مستوى السيطرة المطلوب لتحويل هجمة كاملة بهذا الحجم في زاوية ضيقة . لقد كانت الحركة معجزة حيث لم يحدث انهيار جماعي ، بحيث تفقد الجياد توازنها وتبدأ بالسقوط فوق بعضها بعضاً .

انتهز الفرنجة الفرصة ليطلقوا وابلاً من السهام والقذائف أثناء مرور الخوارزميين ، لكن قادتهم أجبروهم على الاحتفاظ بمواقعهم ، فلم يستطيعوا أن يفعلوا أكثر من مراقبة الكتلة المحتشدة تنزل على حلفائهم . أحسَّ بيبرس بوقع الصدمة حين التحموا ، السيف والفأس والقضيب الشائك تضرب من الجانبين فتتكسر العظام والدروع تحت وطأة قوتها . تمكن الخوارزميون بقوة اندفاعهم من أن يدفعوا الدمشقيين إلى الخلف ويفرقوا صفوفهم ، الأمر الذي حرم المقاتلين الشجعان من أية حماية من السيوف المطوحة من كل اتجاه . راقبوا بينما وقف أحدهم ، الذي يرتدي فروة فوق سرجه بخفة بعد أن دفعه رفاقه إلى الخلف ، ثم يرمي بنفسه وسط كتلة العدو . بدأ الدمشقيون يتراجعون بعد أن عجزوا عن التعامل مع هذه الشراسة ، بدأوا بشبر ثم بقدم وبعدها صاروا يتراجعون بدون توقف ، يحاولون بيأس أن يقاتلوا في المؤخرة وبذلك يمنعون حدوث هلع جماعي ثم مذبحة . في هذه اللحظة ، بدأ الخوارزميون الذين ما زالت أعدادهم بالآلاف لأن خسائرهم كانت قليلة جداً ، بدأوا يستديرون يميناً ليقاتلوا البدو القادمين من الكرك .

قال ايديكين «سينهار هؤلاء أيضاً ، فهم غزاة وليسوا جنوداً» .

عاد بيبرس إلى الالتفات فرأى بكل تأكيد أن رجال الصحراء قد

أخذوا ينسحبون بدورهم . بدأ الخوارزميون يرمون القذائف على ظهورهم باحتقار ويطرحون كل من يتأخر . أطاح رجل قبلي بأحد الفارين وصارعه حتى ألقاه من فوق حصانه على الأرض ، ثم طعنه عدة مرات حتى توقف عراكه . بعدها قام المقاتل المنتصر بتعرية الجثة ، بحيث خلع معطف الرجل الميت ورفعه ملوحاً به مثل رأية وهو غارق في الضحك .

حدث الأمر بسرعة إلى درجة أنه بان مثل الانتصار . لكن جيش الفرنجة بقي صامداً في مكانه بلا حراك . فهذه المعركة بعيدة عن النهاية بالنسبة لهم . عرف بيبرس من خلال دراسته لكتب **الفروسية** التي زوده بها ايديكين بلا حصر عبر السنين ، أن الفرنجة قد واجهوا أوضاعاً أسوأ من هذه بعدة أضعاف ومع ذلك غادروا الميدان منتصرين .

سأل «هل سيهجمون أم نهاجم نحن يا سيدِّي؟»

انهمك ايديكين في مراقبة الرسول الملكي والبحث عن إشارات السلطان . قال «أعتقد أننا سنهجم سوية يا بيبرس ، لا أحد يريد أن يقع ضحية هجوم كما حدث مع الدمشقيين» .

ثبتت صحة كلامه ، فقد تكومت جثث القتلى الدمشقيين بشكل طولي ، وبدأ الخوارزميون يتجمعون مرة أخرى ، لمهاجمة جانب التنظيمات المسيحية : المعبديون ، الهوسبيتاليون ، والتيوتون .لكن بدأ انعدام التنظيم عندهم يظهر للعيان . تزايد عدد الذين يقفزون عن جيادهم وينزعون الأشياء القيمة من الأزياء الجميلة لفرسان المنصور والصالح إسماعيل . أحسَّ بيبرس بطعم المرارة في فمه من هذه المناظر . أدرك أن هؤلاء الكلاب سيفعلون به الشيء نفسه لو سنحت لهم الفرصة . حاول بعض قادتهم الذين يحتمل أنهم حصلوا على مراكزهم إما بأذرعهم اليمنى أو بالعيش أطول من الآخرين ، أن يعيدوا بعضاً من التنظيم ويجعلوا رجالهم يعودون إلى ركوب خيلهم .

ربما أحسَّ الفرنجة بحلول لحظتهم ، فقد رفعوا راياتهم وأطلقوا أبواقهم

للهجوم .

تحـرك الصف الأمـامي كله إلى الأمـام ، جـداراً من الحـديد ، تطرقع حـوافـر خـيلهم وتبـدو أثقل من الـفـيلة . أدار ايديكين رأسـه بحـدة باتجاه الرسـول ثم عـاد لينظر إلى آلاف الأحـصنة المدرعـة بالحـديد وهي تتخـذ طريقها نحوهم .

«احزموا أنفسكم أيها الشباب! سيكون هذا صداماً شديداً!» ثم قال لبيبرس :

«أدعـو الله أن يتـخلى هؤلاء الخـوارزمـيـون الوحـوش عن الميـدان وأن يهاجموا المؤخرة . أنا لم أشاهد هذا العدد من الصلبان طيلة حياتي» .

قـال بيـبـرس «سيـحـمـينا الله يا سيـدي» استـدار إلى الخلف وواجـه فصيله الصغير ، وقد بقي سليم وتيكا في مقدمته واقفين بإخلاص . صاح فيهم «هل ترونهم قادمين؟»

«نعم سيدي!» أجابوه بصيحة رجل واحد .

«ما الذي يفعله المقاتلون الشراكسة البحريون حينما يأكلون الحديد؟»

«يخرأون الصدأ!»

زأر كل من سمعه ضاحكاً ثم هتف الجميع . أبقى ايديكين عينه على رسول السلطان وأخيراً ارتفع الذراع مؤشراً على الهجوم .

«إلى الأمـام يا شـبـاب! لنقـابلهـم في الوسط» . لـكز ايديكـين مطيـتـه وتبعوه ، بيبرس رافعاً قوسه القصير وسليم وتيكا مشهرين سيفيهما . بدأ الفرنجـة يزيدون من سـرعـتـهم ، وصـارت الأرض تـهـتـز تحت رعـود حـوافـر خيولهم العـملاقـة . زاد المقاتلون الشـراكسـة سرعـتهم لكونهم أكثر رشـاقة وأخف وزناً ، واقترب الجيشـان من بعضـهما الآن بحيث لـم يعد هناك خيار سـوى التصـادم - عـشرة آلاف رجل يركـبون بأقـصى سرعـة الطراد ضـمن مسـاحة صغيرة من الأرض المغبرة . انتظر بيبرس حتى لم يعد بينه وبين الفرنجـة سوى أقـدام قليلة ثم أطلق السـهم ، على مسـتوى الرأس ، آملاً أن

يجد السهم طريقه وسط فتحة العيون في الخوذات الكاملة التي يرتدونها .

لم يتوفر له الوقت ليتأكد من نجاح رميته ، لأنه انهمك في إعادة التلقيم ، وقد أمسك بالأعنة بين أسنانه مثل لجام . أطلق السهم الثاني بدون أن يصوب مطلقاً ، مجرد إطلاق إلى الأمام مفترضاً أنه سيصيب شيئاً ما في الجمع الذي أمامه . أرخيت الرماح الفرنجية القصيرة الآن ، وكل ما توفر له من الوقت هو أن يسحب سيفه قبل أن تمر الأسنة الحادة طائرة من جانبيه . وها هي الآن - غابة الرماح التي طالما استلقى هو والمرشحون الآخرون مستيقظين في الليل ، يتخيلونها ، وتحفل نقاشاتهم بالقصص الرهيبة من الدرجة الثانية ، والأفكار المختلفة عن كيفية تجنب أن تشك مثل «سيخ الكباب» كما يسمونه . برغم ساعات الكلام ، عرف بيبرس أنه في نهاية المطاف ، فإن الأمر كله منوط بشيء واحد فقط لا غير ، الحظ . لكز حصانه بقوة أشد ورفع سيفه ثم استعد ليلقى مصيره .

عبر من بين الرماح القصيرة وكأنه في حلم ليجد نفسه بين العباءات البيضاء والحمراء للفرسان المعبدين . استمر يلكز الحصان ويلوح بسيفه في شكل دائري ، قاطعاً كل شيء يقترب منه . لم يكن هناك أي نظام - كانت فوضى . أصابته ضربة أشبه بمطرقة حداد على كتفه اليمنى ، قريباً من الرقبة . كل ما استطاع عمله هو البقاء على ظهر الحصان ورفع سيفه مرة أخرى . قرصة في جانبه ، بين صفائح درعه ثم أخرى . ضربات خفيفة لا تعد ولا تحصى وطعنات في جذعه المغطى ، أحسَّ بحرارة وجهه . تلقى ضربة صادمة في وسط وجهه وكاد أن يسقط إلى الخلف . لم يعرف ما الذي ضربه أبداً . ومع ذلك استمر في التطويح بالسيف ، مدركاً بغموض أن السيف قد تحول إلى لون الياقوت والنبيذ القاني من كثرة الدماء . لم يعد قادراً على الاستمرار لفترة أطول .

أخذت الأجساد والحيوانات تطبق عليه ، تعالت الصرخات والزعيق في أذنيه . ثم أخذ يغوص ، يغوص .

هذا هو شكل الإحساس بالموت

لا نفس في رئتيه ، حاول أن يرفع نفسه في السرج مرة أخرى ، لكن جميع قواه خارت .

بهذه السرعة؟

بعد ثانية ، بعد قليل سوف يسمح لهم بإنهائه . ضربة أخرى بين لوحي كتفيه . انقطع النفس الآن كلياً ، هو يكافح بمجرد أبخرة روحه ، الحامض في معدته . أثناء تمارين الجري المنهكة الطويلة في الصباح الباكر بالميدان كان أحياناً يشعر بوجود حصى في معدته عندما يصل إلى حدود درجات تحمله .

كان في حينها يفكر لنفسه «هذا هو ما تحتاجه يا بيبرس . صخور في بطنك . الجندي صاحب أقوى أمعاء سيعيش أطول حياة . . .»

كانت الحصى موجودة الآن ، لقد استمر في التقدم بسبب أمعائه وحدها . لكنها لن تدوم إلى الأبد . هناك الكثير جداً منهم . صلبان حمراء في كل مكان حوله : سيرجي

سيرجي يبارك نفسه برسم الصليب فوق جسد بيطا الميت . . .

إنه موجود هنا .

فوق هذا الميدان

ولكنني لا أستطيع أن أتنفس

فجأة ، اختفى الفرسان من حوله مثل ستارة تنزع بالقوة عن شباكها في يوم مشمس ، واستطاع أن يرى نور الشمس . نصف جالس ونصف منهار ، تطلب الأمر كل ما تبقى من قوته لمجرد المراقبة . توقفت الهجمات . ذهبوا .

تيكا

لقد أنقذه العملاق وهو الآن يدفع الأعداء مدافعاً عنه بقضيب شائك يبلغ طوله ساق رجل . حاول فارس أن يهاجم خاصرة الرجل فأصابته

ضربة هائلة في صدغه أطاحت به عن سرجه تحت الحوافر على الأرض . سحب بيبرس الهواء ببكاء غاضب . جاء إحساسه بالهواء يملأ رئتيه وكأنه ولد من جديد . استطاع أن يتنفس مصدراً صفيراً «تيكا!» أصبحا الآن في فجوة ، لكنهما في الميدان ، استقرت المعركة إلى درجة أن العدو منحهم فسحة عريضة ، مفضلاً ذلك على مواجهة قضيب تيكا الشائك . تواجد خوارزميون قريباً منه ، فأدرك بيبرس أنهم قد اخترقوا الصفوف بالضرورة ، رغم أن كل شيء اضطرب الآن بحيث أصبح من الصعوبة معرفة أين يبدأ أحد الخطوط وأين ينتهي الآخر .

تمكن من استعادة رباطة جأشه ورأى أن سيفه مازال في يده بأعجوبة .

«تيكا! هلمَّ إليَّ ، أعيدوا التجمع! أعيدوا التجمع!» أجيبت صرخته من قبل القلة من فصيله الذين ظلوا قريبين منه ، تجمعوا وشكلوا ما بدا مثل الخط الرئيس للمقاتلين الشراكسة . في الأثناء كان الفرنجة يقومون بالعمل نفسه . لم يستطع بيبرس أن يرى أي إشارة على وجود ايديكين أو سليم . تواجه الجيشان المتضرران لعدة لحظات إضافية ، وبعدها انطلقت صرخة من المعبديين مرة أخرى «بوزيان! بوزيان!»

وهجموا مرة أخرى بالمئات بينما تخفق بيارقهم البيضاء والسوداء فوق رؤوسهم بحركات جنونية . سحب بيبرس نفساً عميقاً ودوى صوته «أيها المقاتلون الشراكسة البحريون! إلى الأمام!»

جاء عدد الرماح القصيرة أقل هذه المرة ، فاستطاع أن يحدد موقعه واتجاهاته بطريقة أفضل . أخذت الدروع الثقيلة للفرنجة تتقدم نحوهم ، فجاء القتال أشد ضراوة ومراره . كاد بيبرس أن يبكي من شدة الألم حين أصابه عملاق يحمل مطرقة حربية في كتفه المصابة سابقاً ، لكنه تحامل على نفسه وبقي جالساً في سرجه وانتهز فرصته ، إذ انفتحت أمامه نقطة غير محمية في درع العدو! استمرت لعبة الهجوم ، إعادة التجمع والهجوم

المعاكس لساعات حتى حسم النتيجة هجوم جبهوي أمامي من المقاتلين الشراكسة مع حركة جانبية موازية في اللحظة نفسها من قبل الخوارزميين .

انهار الخط الفرنجي على هيئة رجل واحد وبالفجائية نفسها التي أنقذ فيها تيكا رفيقه بيبرس من حلقة الفرسان ، انطلق كلاهما في هذه اللحظة يلاحقان ظهور العدو المتراجع ، وقد توقف العديد منهم عن محاولة الدفاع عن أنفسهم لشدة الذعر الذي أصابهم .

صاح بيبرس «هلمَّ يا تيكا! لقد سيطرنا عليهم!» وقد أدرك أنه يشعر كما لو أنه تلقى عقداً جديداً كلياً للحياة . أطلق تيكا ضحكة عالية ومجلجلة وهو يلوح بالقضيب الشائك فوق رأسه ، قبل أن يطيح به ليحطم رأس جندي مشاة تعيس الحظ .

مروا بجثث أولئك الذين سقطوا في هجمة المقاتلين الأولى ، وقد تكوموا الآن بين جثث الفرنجة الأموات وحواليهم كما حدث مع الدمشقيين بعد أن حطم الخوارزميون صفوفهم . حبس بيبرس دموعه بصعوبة حين رأى ايديكين ملقى هناك بينهم ، عيناه مفتوحتان باتجاه السماء . إلى جانبه سليم وقد اخترقت الرماح الفرنجية القصيرة جسديهما . ايديكين من خلال الخاصرة بينما اخترق الرمح درع سليم نحو معدته .

تحول الوضع إلى صيد ولم يعد معركة الآن . أخذوا يقفزون من فوق أجساد الموتى كأنها شجيرات وأعشاب ويقتلون كل من تصل إليه أسلحتهم . دأب الفرنجة إلى التقاطر نحو معسكرهم من وسط قرية الحربية ، ثم إلى ما ورائه ، متبوعين بمسؤولي المعسكر والخدم والطهاة الذين هربوا بدورهم . صعدوا التلال وقطعوا السهول : أي مكان اعتقدوا أنه سيوفر لهم الأمان . أصبح بيبرس وتيكا في موقع مكشوف ، بينما تخلفت أقرب مجموعة عنهما بحوالي ثلاثين إلى أربعين ذراعاً . «إلى القرية يا تيكا . سنطرد المزيد منهم من هناك .» لكزا جواديهما باتجاه الحرش الصغير والبيوت الطينية .

تحوَّل شارع القرية الوحيد إلى شغب من القوات والوحدات المتقابلة .

كان رجال مشاة الفرنجة يطعنون باتجاه الخوارزميين والمقاتلين الشراكسة عند المدخل وإلى الداخل قليلاً ، بينما تقاطر الفرسان من كل الجوانب واشتبكوا في معارك دائرية متحركة أمام ما اتضح الآن أنه مسجد القرية . فهم بيبرس بسرعة ما كانوا يقاتلون لأجله . معبديان يرتديان أجمل وأفخر الدروع التي لم يطالها القتال ، يتحركان إلى الأمام والخلف وهما يحملان راية نظام أخويتهما عالياً . أبيض فوق أسود ، ترمز الراية إلى النقاء الذي تبدأ فيه حياة الإنسان عندما يقسم اليمين لكي يصبح فارساً معبدياً . بذلت مجموعة من المقاتلين الشراكسة أقصى جهودها لمحاصرة مجموعة حرس الراية الصغيرة وتخليص الراية منها ، وقد أدركوا تماماً حجم المكافآت التي سيحصلون عليها عندما يلقون بهذا الرمز عند قدمي السلطان .

على أية حال ، فقد كانت لدى المعبديين أفكار أخرى ، فاتخذ أحدهما وضعية الدفاع وهو يطوح برمحه القصير في دوائر واسعة ، بينما احتمى الآخر خلفه وهو يبحث عن وسيلة للهروب .

اقترب بيبرس وتيكا من وسط الارتباك وراقبا . بات واضحاً أن الإرهاق بدأ يأخذ من حامل الرمح القصير مأخذه ؛ لأن رأس السلاح صار ينحدر تدريجياً مع كل تطويحة . قبل أن يتمكن بيبرس من إيقافه ، لكز تيكا حصانه وألقى بقضيبه الشائك باتجاه الرجل ليصيبه في صدغه ويطرحه إلى الأرض . انتهز المعبدي حامل الراية السانحة وضرب حصانه بالسوط في محاولة للحاق بالجواد الهارب لزميله المصاب ، بحيث ينفذ من شبكة المقاتلين ويهرب في الشارع . مع اختفائه عن الأنظار ، أطلقت سرية من رماة السهام الفرنجية وابلاً ، ولم يستطع المقاتلون أن يفعلوا أكثر من الانحناء والاحتماء قبل أن يعودوا إلى مهاجمة المشاة . رفع بيبرس رأسه من حيث انحنى مستقيماً فوق رقبة حصانه ليشاهد تيكا ، الهدف الأكبر الذي أصابه الرماة ، يحاول أن يصل إلى سهم مغروس في كتفه . وقد تلقى حصانه سهماً آخر .

قال بيبرس «تحرك إلى الخلف يا أخي . لقد فعلت ما يكفي والنصر لنا في هذا اليوم . دعني أحضر لك تلك الراية وسوف نعود إلى المعسكر راكبين فخورين» .

نخر تيكا بتعاسة ، لكن الدماء بدأت تقطر نزولاً على ذراعه وتحته حصان أعرج - لم يكن بيده الكثير ليفعله ويرفض . أومأ اليه بيبرس ، وانطلق في الاتجاه نفسه الذي اتخذه الفارس حامل الراية ، رافعاً سيفه فوق رأسه بيد مرتخية بخفة . التف ما بين المسجد وبيت قروي صغير ، إلى زقاق أصبحت فيه أصوات وصرخات المعركة تبدو بعيدة . أصبح الهدوء المفاجئ مريباً ومربكاً . تناقص الأدرينالين والحماسة اللذان أحسَّ بهما أثناء المطاردة ولم يترك سوى الألم النابض في جذعه وصداعاً في رأسه . حاول أن يتذكر المرة الأخيرة التي شرب فيها جرعة ماء . للبيت القروي باب جانبي ، مال نحوه ليحدق من خلال الشق - لا شيء . إلى الأمام قليلاً الباب الخلفي للمسجد وهو مغلق .

خرج إلى الفسحة خلف المبنيين ونظر باتجاه الأرض الخلاء . لا شيء أيضاً . إما أن الفارس يختبئ في دار الصلاة الصغيرة ، أو أنه انطلق في هذا الدرب الخلفي . تمنى بيبرس لو أنه مازال يحمل قوسه القصير ، لكنه خلَّفه في مكان ما فوق ميدان المعركة ، مع جسد ايديكين . . .

طرد الفكرة من رأسه ونظر إلى التراب . حوافر واصلة إلى باب المسجد . ترجَّل حاملاً سيفه بيده ودقق النظر . لم تعد الحوافر بعد الباب بالعمق نفسه الذي كانت عليه قبله . ودفع المقبض بلطف . لا مقاومة - دفعه ليفتحه وخطا إلى الداخل . المساحة المفتوحة معتمة ، مسدلة الستائر ، لا شك أن المحليين قد هربوا عند اقتراب الجيشين . دخل إلى الردهة التي لم تصلها الشمس ، ثم إلى الصالة الرئيسة ، منتظراً أن تتآلف عيناه مع العتمة . أمكنه رؤية موجات من الغبار ضمن أشعة شمس العصر الداخلة من بين الشقوق . لا شيء يتحرك . خطا بيبرس إلى الأمام نحو

وسط الصالة . انصفق الباب خلفه واستدار بسرعة - المعبدي .

الفارس الراهب طويل القامة عريض المنكبين ، لكنه ليس بضخامة تيكا . يرتدي طقماً كاملاً من الدروع والسترة البيضاء فوقه ، إضافة إلى الزرد والبطانة تحته ، ومع ذلك يبدو مثل خصم قوي .

لاحظ بيبرس أن ساقيه المدرعتين لا تبدوان بمثل قوة بقية جسده مطلقاً ، لكن ذلك لن يشكل فائدة له إلا إذا استطاع أن يقترب من الأرض ويهاجمه من هناك . ارتدى المعبدي خوذة كبيرة مع فتحة واحدة للعينين ، بينما ظلت بقية وجهه ورأسه مغطيين كاملاً . يداه معقودتان فوق سيف عريض هائل مؤشر باتجاه الأرض ، واستطاع بيبرس أن يرى راية تنظيمه ذات اللونين مركونة إلى الجدار خلفه في هذه اللحظة .

كانت طويلة إلى درجة أنها لامست السقف الأبيض .

قال بيبرس «استسلم أيها الراهب . لقد انتهت معركتك وإخوتك إما ذبحوا أو تمّ أسرهم» .

اتخذ خطوة إلى الأمام وطار السيف العريض إلى فوق بحيث مر رأسه المدبب قريباً من أمام عيني بيبرس .

تكلم المعبدي

«ألم تتعرف علي أيها الشركسي؟»

أجفل بيبرس وحدَّق في العتمة النسبية بفتحة عيني الشكل الماثل أمامه ، الجزء الوحيد المرئي من جسمه «من أنت؟»

«أنا شخص وهبت حياتي الفانية لحماية معبد الله والمؤمنين الذين يذهبون هناك لتقديم الولاء له . أنا شخص أعيدت ولادته في دم وجسد السيد المسيح» .

أصبح الصوت أعمق ، لكن اللكنة السلافية لا يمكن الخطأ بشأنها . أومض الفهد الأبيض في عين بيبرس «سيرجي»

«ذلك هو الاسم الذي عرفتني به في حياتي السابقة يا بيبرس . أنا

الآن الأخ أدريان، سميت تيمناً باسم القديس راعي الحراس والجنود».
«والمجرمين القتلة» قال بيبرس.
أبقى سيرجي سيفه موجهاً إلى الأمام بيده اليمنى ثم رفع اليسرى نحو خوذته. نزعها عن رأسه وألقى بها إلى الأرض. نبتت له لحية الآن وتدلى الشعر الأشقر البارز من تحت غطاء رأسه الزرد ليلتصق على جبينه الرطب. «انظر إلى نفسك أيها الفتى الفلاح». ما زالت سخريته الدائمة في مكانها «هل تلقيت بعض التعليم منذ لقائنا الأخير؟»
«كان والدي حداداً وأخذتني منه. جاء تعليمي من رجل أنت لا تستحق أن تعتني بحصانه».
رسم سيرجي تعبير دهشة مبالغاً فيه ودفع بالسيف أقرب إلى بيبرس قليلاً، رفض أن يرمش. «هل فعلت ذلك فعلاً؟ وأين هو هذا الرجل العظيم؟»
«إنه يرقد على الميدان خلفنا» لم يكن بيبرس قد تحرك منذ أن رفع سيرجي السيف وبقيت عيناه مسلطتين على الوجه الهازئ أمامه.
«آه حسناً، هنالك الآلاف من الكلاب الكفرة مثله ينبغي القضاء عليهم. إنهم مثل الناموس. ستكون أنت التالي في سبيل مذهبنا المجيد».
«لقد انتهى نظامك ومذهبك يا سيرجي. إن المئات منهم يرقدون ميتين اليوم. لن تتمكنوا من استبدالهم. لقد تم استكمال العمل الذي ابتدأ تحت حكم صلاح الدين - لقد انكسرت قوة الفرنجة، سوف أشاهدهم وهم يركضون إلى داخل البحر هاربين من أرض الله ورسوله».
تلوّى وجه سيرجي في قناع من الغضب والكراهية. «هل تتجرأ وتكلمني بهذه الطريقة؟ وأنا رجل دين مقدس؟» أصبح السيف الآن على بعد شعرة من وجه بيبرس. رفعه سيرجي مرة أخرى بيديه الاثنتين، آملاً في حدوث رد فعل، لكن بيبرس لم يتحرك».
«أين هي دانا؟»
«ماذا؟» جاء صوت سيرجي بشكل صرخة. تأكد بيبرس الآن أنه

مجنون . كان قد أحسَّ بذلك عبر كل السنين الماضية ، ولكن سواء كان الإحساس خامداً أم مخفياً بدرجة جيدة ، فقد تفتح وازدهر في هذه اللحظة .

سأله مرة أخرى «أين هي دانا؟»

«هل تقصد تلك الساقطة التي كنت برفقتها يوم اختطفناك؟»

«لقد قلت لك مرة أنك إذا أخبرتني فسوف أجعله سريعاً»

تصاعد غضب سيرجي وأصبح يقف على أطراف أصابع قدميه ، وقد تصالب السيف في يديه .

«ما الذي ستجعله سريعاً؟ سوف أدفع بهذا السيف في حلقك الوثني العفن الرائحة» .

«أين هي دانا؟»

هاجم سيرجي ، دافعاً السيف إلى الأمام باتجاه رأس بيبرس ، خطا بيبرس إلى الخلف بصمت وأدار جسمه إلى ناحية حتى إن سيرجي كاد يسقطه اندفاعه ، وفقد توازنه كلياً بسبب وقفته غير الواثقة . أثناء مروره رفع بيبرس سيفه المعقوف تحت ذراع الروسي وحزه . لا يغطي القميص الزرد هذه النقطة من الإبط ، فصرخ سيرجي من الألم والغضب . سدَّ بيبرس الباب ووقف . قدماه متباعدتان ، سيفه مرفوع في وقفة قتالية .

«أين هي دانا؟»

«سأقتلك يا بيبرس! هيَّا مت!» هجم سيرجي مثل الثور وانتظر بيبرس حتى الثانية الأخيرة قبل أن يتحرك . رفع السيف هذه المرة إلى المساحة ما بين فخذ سيرجي وبطنه وحزز مرة أخرى ، ثم رفس عدوه بقوة نحو خشبات الباب . نادراً ما سمع صوتاً أكثر إرضاءً له من صوت ارتطام رأس سيرجي بالخشبات .

«أين هي دانا؟»

وصل الروسي إلى حد انقطاع النفس ، وأصبح بحاجة إلى لحظة لالتقاط أنفاسه . تساءل بيبرس عن درجة افتقار المذهب المعبدي إلى

الرجال ما دام هذا هو مستوى الجنود الذين يرسلونهم إلى ميدان المعركة .

«سيرجي ، أخبرني وسأجعل هذا سريعاً» .

«أبول على أمك أيها الكلب» نهض سيرجي وواجهه مرة أخرى ، بينما تتوالى أنفاسه ثقيلة من منخريه . جاءت أنفاسه متناقضة مع هدوء القاعة مثل ضرس أصفر مزروع وسط صف من الأسنان ، واللثة الصحية .

قال بيبرس «كما ترغب» ، تحرك بسرعة إلى درجة أنه بدا مثل شبح من الفضة والذهب .

حيَّدت اندفاعة سيرجي الضعيفة جانباً ثم أصبح بيبرس وسط مقدمته ، يضرب التاعس المهزوم ويلقيه أرضاً . استمر في لكمه تكراراً مستخدماً مقبض السيف كثقل ، حتى أذهله ولم يعد يعي إلا أقل القليل ، أصبح وجهه المتعالي في الماضي عبارة عن كتلة من الدماء والأسنان المحطمة . مسح بيبرس يده على السترة البيضاء ثم هزه بعنف .

«أين هي دانا؟»

فوجئ بيبرس بسيرجي يضحك في وجهه ثم يبصق عليه بمزيج رهيب من مينا الأسنان والدماء . «لقد ذهبت يا بيبرس!» قال هذا وقد تكممت كلماته نتيجة فمه وأنفه المحطمين .

«لقد ذهبت منذ زمن! لن تراها مرة أخرى أبداً! هاهاهاها!»

تغلب غضب بيبرس على توازنه ، صفع سيرجي مرتين وهزَّه بعنف «أين؟»

تمايل سيرجي كأنه مخمور ، عادت إليه سخريته مضاعفة بسبب دمار شكله . «من يعلم؟ لقد أعطيناها إلى مجموعة من المغول مرت بنا وكانوا يريدون قليلاً من اللهو . لابد وأنهم أخذوها إلى الهضاب . استغلوها ثم ألقوا بها بين الخنازير . أو ربما اكتفوا بإلقائها في النهر بعد أن قضوا وطرهم منها . من الذي يعرف ، أنا أقول؟ أنت تخسر» .

انفتح فم بيبرس لشدة الصدمة ، لم يعد قادراً على الحركة أو الكلام .

رأى سيرجي فرصته قد لاحت . تناول القاما من خصر بيبرس ، جردها من غمدها ورفعها بينهما . بالكاد استطاع أن يمسك برسغ سيرجي قبل أن يفتح له حلقه ثم اشتبك الاثنان في عراك واختبار قوة . سيرجي يدفع بالنصل إلى الأمام وبيبرس يحاول أن يديره إلى الخلف . لكن بيبرس امتلك القوة الأعظم وبدفعة هائلة ، استعان بكل عضلة في جسمه ليدير الخنجر . إلى الخلف وينزله ليغرزه في قلب سيرجي .

قال له «انظر إلى عينيَّ أيها المسخ . إنهما آخر ما ستراه قبل أن يحضر الشيطان لتحيتك» .

ظل سيرجي يقاوم بقوة إلى درجة أفقدته القدرة على الرد ، لكن عبثاً .

لامس الخنجر الزرد فوق صدره ثم رفع بيبرس نفسه واقفاً على ساقيه ليضع كل ثقله خلف الدفعة . ندَّت عن سيرجي شهقة مع اختراق النصل ، لكنه لم يصرخ . خرجت المقاومة منه تدريجياً . عندما تأكد من أن سيرجي تجاوز القدرة على رد الفعل ، نهض بيبرس واقفاً ، أعاد القاما إلى غمده ثم تناول رجليه .

«تعال ، لن تنجس هذا المكان المقدس بموتك فيه» ركل الباب ليفتحه مع وميض النهار الذي كاد ينتهي ثم سحب الجثة إلى التراب ، وأخذت دماؤها تنتشر ببطء لتشكل بركة عريضة - داكنة وخشنة حيث تتصالب في الغبار .نظر بيبرس إليها لوهلة ، ثم استدار ليسترد الراية المعبدية . عاد وامتطى حصانه .

حثَّه إلى الأمام في الشارع الذي بقيت فيه جيوب معزولة من المقاومة يجري تطهيرها . على التلة ، اشتعل معسكر الفرنجة والدمشقيين بألسنة اللهب ، مضيئة أشكال القلائل الذين مازلوا يحاولون الفرار إلى التلال والأحراش ، يلاحقهم الخيالة والمشاة . نهاية لعبة تقررت منذ وقت طويل ، لكنها تنتظر شخصية ما حتى تضع نهايتها .

الخاتمة

أنتم تعرفون بقية قصة بيبرس : الصعود الطويل إلى السلطة ، أولاً كحارس شخصي ، ثم قائد وأخيراً كسلطان - الزعيم الذي فعل المستحيل ودفع إلى الخلف بموجات المحيط المغولي ، والمقاتل المتدين الذي كسر ظهر القوات الفرنجية في المشرق لكل الأزمنة القادمة . ستعرفون الحسن والسيء ، الحاكم ، الحكيم ، الطاغية المتعطش إلى الدماء . لقد كتبت الكثير منه بنفسي وأنا : عبد ، المسؤول عن الكثير من الكذبات والاضطراب الذي يحركه اسمه حتى يومنا هذا .

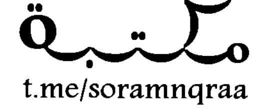
إذا قيضت لي القوة ، فسوف أكتب عن هذه الأحداث - كيف أصبح الصبي الصغيرالذي تحول إلى عبد ، جندياً ثم أصبح ملكاً .

أما بالنسبة إلى الآن ، فإن عظامي المسنة تتذكر ، لكنها مرهقة . أحلم بذلك الصبي الصغير يركض نحوي على منحدر قفقاسي معشب ، ذراعاه ممدودتان وهو ينادي باسمي ، لكنه عندما يصل إليَّ ، هو المقاتل الذي ذبح غريمه وقضى بقية حياته يحمل حزناً لم أتمكن من سبر أغواره أبداً . لأنه يتجاوز كل شيء عرفناه عنه حتى شاركني إياه في إحدى الليالي الطويلة الغارقة في النبيذ .

بيبرس المبارك ، بيبرس العظيم ، بيبرس المدمِّر ، بيبرس الذي لا يرحم . . . أقولها كلها لنفسي وأفكر في عالم مختلف وحياة مختلفة عن تلك التي كتبت عنها في هذه الصفحات القليلة . كيف يتشكل الملك؟ مثل السيف - يولد من جحيم حرارة لاذعة والحديد والعضلات ،

وكلها تتصادم وتضرب العناصر حتى يخرج إلى الدنيا سلاح جيد لماع ومهلك ، نصل سوف يردي كل شيء يعارضه ويخلق دنياً مختلفة عن تلك التي كانت موجودة قبل أن يصل .

سيصدر المجلد الثاني من الثلاثية قريباً



QAMA & THE SCIMITAR

رواية NOVEL

محي الدين قندور

بيبرس

أول السلاطين الشراكسة في مصر

هذه هي قصة صبي شركسي صغير السن إثنا عشر عاماً، تم اختطافه للعبودية من ساحل شركيسيا على البحر الأسود أثناء السنوات الأولى من القرن الثالث عشر، ليباع الى مجمع المقاتلين المماليك البحرية في سورية.

التالي هي مغامرة درامية تمزق نياط القلب حول مصائب ومصاعب الشركسي الفتى، أولاً على سفينة العبيد ثم في معسكر التدريب العسكري في حلب.

إنها قصة بيبرس (1223 - 1277 ميلادية) القائد العظيم الذي أوقف زحف جحافل المغول الكاسحة في عين جالوت (والتي تعتبر نقطة تحول في التاريخ)، وهزم الحملة الصليبية السابعة للملك لويس، ملك فرنسا، ليصبح فيما بعد السلطان الشركسي الأول الذي وحّد مصر وسورية ونشر نفوذ السلطنة المصرية (المماليك) في البحر الأبيض المتوسط وما وراءه.

راوي القصة هو مؤرخ وكاتب سيرة بيبرس المخلص: محي الدين بن عبد الظاهر، الذي بقي معه للقسم الأكبر من حياة بيبرس وشهد العديد من أعمال سيده، ليكتب فيما بعد العمل التاريخي الشهير "سيرة الملك الظاهر" الذي أصبح واحداً من أعمال المراجع الرئيسة للمؤرخين. تحكي الرواية الأحداث التي اختبرها السلطان العظيم والتي شكلت شخصيته وحولتها ليصبح مقاتلاً وحاكماً عظيماً.


ISBN 978-614-419-639-7

